سلسلة نصوص تراثية للباحثين (٥٤٧)

أعقل الناس

أوصاف ونصائح

من كتب التراث

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٤هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة
ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

١-"﴿قبلهم﴾ عائد إلى مشركي العرب الحاضرين.
وزيادة ﴿من﴾ في قوله: ﴿من رسول﴾ للتنصيص على إرادة العموم، أي أن كل رسول قال فيه فريق من قومه: هو ساحر، أو مجنون، أي قال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون، مثل قوم نوح دون السحر إذ لم يكن السحر معروفا في زمانهم قالوا ﴿إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين﴾ [المؤمنون:٢٥] وقد يجمعون القولين مثل قول فرعون في موسى.
وهذا العموم يفيد أنه لم يخل قوم من الأقوام المذكورين إلا قالوا لرسولهم أحد القولين، وما حكي ذلك عن بعضهم في آيات أخرى بلفظه أو بمرادفه كقول قوم هود: ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ [هود: ٥٤].
وأول الرسل هو نوح كما هو صريح الحديث الصحيح في الشفاعة. فلا يرد أن آدم لم يكذبه أهله، وأن أنبياء بني إسرائيل يوشع، وأشعيا لم يكذبهم قومهم، لأن الله قال [من رسول] والرسول أخص من النبي.
والاستثناء في ﴿إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ استثناء من أحوال محذوفة.
والمعنى: ما أتى الذين من قبلهم من رسول في حال من أحوال أقوالهم إلا في حال قولهم ساحر أو مجنون.
والقصر المستفاد من الاستثناء قصر ادعائي لأن للأمم أقوالا غير ذلك وأحوالا أخرى، وإنما قصروا على هذا اهتماما بذكر هذه الحالة العجيبة من البهتان، إذ يرمون أعقل الناس بالجنون وأقومهم بالسحر.
وإسناد القول إلى ضمير الذين من قبل مشركي العرب الحاضرين إسناد باعتبار أنه قول أكثرهم فإن الأمور التي تنسب إلى الأقوام والقبائل تجري على اعتبار الغالب.
[٥٣] ﴿أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾ .
الاستفهام مستعمل في التعجب من تواطئهم على هذا القول على طريقة التشبيه البليغ، أي كأنهم أوصى بعضهم بعضا بأن يقولوه. فالاستفهام هنا كناية عن لازمه وهو التعجب لأن شأن الأمر العجيب أن يسأل عنه.
والجملة استئناف بياني لأن تماثل هؤلاء الأمم في مقالة التكذيب يثير سؤال سائل". (١)

٢-"٥- دل قوله سبحانه : أفلا تعقلون على أن من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا ، كان خارجا عن حد العقل السليم.
واستدل الشافعي رحمه الله بهذا القول على أن من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس ، صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى لأن أعقل الناس من أعطى القليل ، وأخذ الكثير ، وما هم إلا المشتغلون بطاعة الله تعالى.
تقريع المشركين يوم القيامة بأسئلة ثلاثة [سورة القصص (٢٨) : الآيات ٦٢ الى ٦٧]
ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون (٦(٢) قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون (٦(٣) وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم

(١) التحرير والتنوير ٤١/٢٧

كانوا يهتدون (٦(٤) ويوم يناديهم فيقول ما ذا أجبتم المرسلين (٦٥) فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون (٦٦) فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين (٦٧)

ج ٢٠ ، ص : ١٤١

الإعراب : :

كنتم تزعمون حذف مفعولا الفعل : تزعمون ، أي تزعمونهم شركائي.

هؤلاء الذين أغوينا هؤلاء مبتدأ ، والذين أغوينا خبر المبتدأ الثاني ، أي :

هؤلاء هم الذين أغوينا.

ما كانوا إيانا يعبدون كما : إما نافية ، وإما مصدرية ، أي تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا ، والوجه الأول أوجه.

البلاغة :

أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟ استفهام على سبيل التهكم والسخرية.

أغويناهم كما غوينا تشبيه مرسل.". (١)

٣-"إنه لقول رسول كريم هذا هو المقسم عليه ، أي إن القرآن تبليغ رسول كريم ، ومقول قاله جبريل عليه السلام الشريف الكريم العزيز عند الله ، ونزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، فليس القرآن من كلام البشر ، وإنما وصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من جبريل الذي تلقاه عن ربه عز وجل.

ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين هذه أوصاف أربعة أخرى لجبريل عليه السلام ، فهو شديد القوى في الحفظ التام والتبليغ الكامل ، وذو رفعة عالية ، ومكانة سامية عند الله سبحانه ، ومطاع بين الملائكة ، يرجعون إليه ويطيعونه ، فهو من السادة الأشراف ، مؤتمن على الوحي والرسالة من ربه ، وعلى غير ذلك. وإنما قال : ثم أي عند الله ، وقرئ « ثم » تعظيما للأمانة وبيانا لأنها أفضل صفاته المعدودة.

ووصف جبريل بالأمين تزكية عظيمة من الله لرسوله الملكي وعبده جبريل ، كما زكى عبده ورسوله البشرى محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله : وما صاحبكم بمجنون.

وبعد بيان أوصاف الرسول الملك ، ذكر تعالى وصف المرسل إليه ، فقال :

وما صاحبكم بمجنون أي وليس محمد صلى الله عليه وسلم يا أهل مكة بمجنون ، كما تزعمون.

وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره ، وبأنه أعقل الناس وأكملهم.". (٢)

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ١٤٥/٢٠

(٢) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ٨٦/٣٠

٤-"٣- وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بخمسة أوصاف ، هي : كريم عزيز على الله ، ذو قوة في الحفظ وأداء ، طاعة الله ومعرفته وترك الإخلال بها ، وذو مكانة وجاه عند رب العرش ، ومطاع بين الملائكة فهو من السادة الأشراف ، وأمين على وحي الله ورسالاته ، قد عصمه الله من الخيانة والزلل.

وقوله : عند ذي العرش .. هذه العندية ليست عندية المكان ، كقوله تعالى : ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته [الأنبياء ٢١/ ١٩] وليست عندية الجهة ، بدليل

قوله في الحديث : « أنا عند المنكسرة قلوبهم »

بل عندية الإكرام والتشريف والتعظيم « ١ » .

٤- رد الله تعالى على المشركين المتقولين بأن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بمجنون كما زعموا ، بأنهم أعلم الناس بأمره ، وبأنه أعقل الناس وأكملهم.

٥- رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام في صورته الحقيقية ، له ست مائة جناح بالأفق المبين ، أي بمطلع الشمس من قبل المشرق ، فهو مبين لأنه ترى الأشياء من جهته ، وذلك ليتأكد ويطمئن بأنه ملك مقرب ، لا شيطان رجيم.

٦- أخبر الله تعالى عن نبيه بأنه لا يضن بشيء من الغيب أي الوحي وخبر

---

(١) تفسير الرازي : ٣١/ ٧٣

ج ٣٠ ، ص : ٩٤

السماء على أحد ، وإنما يقوم بتعليمه وتبليغه دون انتقاص شيء منه ، قال مجاهد :

لا يضن عليكم بما يعلم ، بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه.

٧- بعد وصف كل من الرسول الوسيط جبريل والمرسل إليه بالأمانة في تبليغ الوحي ، حسم الأمر في شأن القرآن ، فأعلن بأن القرآن ليس بقول شيطان مرجوم ملعون ، كما قالت قريش ، ولا بقول كاهن ولا مجنون ، وإنما هو موعظة وبيان وهداية للخلق أجمعين ، لمن أراد أن يستقيم أي يتبع الحق ويقيم عليه.". (١)

٥-"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ١٥ ، ص : ٣٠٣

و نسب - سبحانه - القول إلى الرسول - وهو جبريل - لأنه هو الواسطة في تبليغ الوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم وصف - سبحانه - أمين وحيه جبريل بخمس صفات : أولها : قوله كريم أى :

ملك شريف ، حسن الخلق ، بهى المنظر ، ثانيها : ذي قوة أى : صاحب قوة وبطش.

كما قال - تعالى - : علمه شديد القوى .. ثالثها : عند ذي العرش مكين أى : أن من صفات جبريل - عليه السلام

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ٩٠/٣٠

- أنه ذو مكانة رفيعة ، ومنزلة عظيمة عند الله - تعالى - .

رابعها : قوله - تعالى - مطاع أى يطيعه من معه من الملائكة المقربين.

وخامسها : قوله : - سبحانه - ثم أمين و« ثم » بفتح الثاء - ظرف مكان للبعيد. والعامل ما قبله أو ما بعده ، والمعنى : أنه مطاع في السموات عند ذي العرش ، أو أمين فيها ، أى : يؤدى ما كلفه الله - تعالى - به بدون أية زيادة أو نقص.

قال الشوكانى : ومن قال إن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم فالمعنى : أنه ذو قوة على تبليغ الرسالة إلى الأمة ، مطاع يطيعه من أطاع الله ، أمين على الوحى.

وقوله : وما صاحبكم بمجنون : الخطاب لأهل مكة ، والمراد بصاحبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والمعنى : وما محمد يا أهل مكة بمجنون ، وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره ، وأنه ليس مما يرمونه من الجنون وغيره في شيء ، وأنهم افتروا عليه ذلك ، عن علم منهم ، بأنه أعقل الناس وأكملهم ، وهذه الجملة داخلة في جواب القسم.

فأقسم - سبحانه - بأن القرآن نزل به جبريل ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس كما يقولون من أنه مجنون ، وأنه يأتى بالقرآن من جهة نفسه « ١ ».

فالمقصود بالآية نفى الجنون عن النبي صلى الله عليه وسلم بأكمل وجه ، وتوبيخ أعدائه الذين اتهموه بتهمة هم أول من يعلم - عن طريق مشاهدتهم لاستقامة تفكيره ، وسمو أخلاقه - أنه أكمل الناس عقلا وأقومهم سلوكا.

وقوله - سبحانه - : ولقد رآه بالأفق المبين معطوف - أيضا - على قوله - تعالى - قبل ذلك : إنه لقول رسول كريم فهو من جملة المقسم عليه.

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٥ ص ٣٩١ ، للشوكانى.". (١)

٦-"" " صفحة رقم ٢٤١ " "

وأصحابه وقرأ زيد بن علي ، وابن محيصن ، وأبو نهيك بضم التاء وفتح الهاء وكسر الجيم مشددة مضارع هجر بالتشديد ، وهو محتمل لأن يكون تضعيفا للهجر أو للهجر (أو للهجر) وقرأ ابن أبي عاصم كالعامة إلا أنه بالياء من تحت ، وهو التفات .

قوله : (أفلم يدبروا القول (أي : يتدبروا القول ، يعني ما جاءهم من القول وهو القرآن من حيث إنه كان مباينا لكلام العرب في الفصاحة ، ومبرأ من التناقض مع طوله ، فيعرفوا ما فيه من الدلالات على صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ومعرفة الصانع ، والوحدانية ، فيتركوا الباطل ، ويرجعوا إلى الحق) أم جآءهم ما لم يأت آبآءهم الأولين (واعلم أن إقدامهم على كفرهم وجهلهم لا بد وأن يكون لأحد أمور أربعة :

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ٣٠٣/١٥

الأول : أن لا يتأملوا دليل ثبوته ، وهو المراد من قوله : (أفلم يدبروا القول (وهو القرآن يعني : أنه كان معروفا لهم .
والثاني : أن يعتقدوا أن مجيء الرسول على خلاف العادة ، وهو المراد من قوله : (أم جآءهم ما لم يأت آبآءهم (وذلك أنهم عرفوا بالتواتر مجيء الرسول إلى الأمم السالفة ، وكانت الأمم بين مصدق ناج وبين مكذب هالك ، أفما دعاهم ذلك إلى تصديق الرسل .
وقال بعضهم : " أم " هاهنا بمعنى " بل " والمعنى بل جاءهم ما لم يأت آباءهم .
والثالث : أن لا يكونوا عالمين بديانته ، وحسن خصاله قبله ادعائه النبوة ، وهو المراد من قوله : (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون (والمعنى : أنهم كانوا يعرفونه قبل أن يدعي الرسالة ، وكونه في نهاية الأمانة والصدق وغاية الفرار عن الكذب والأخلاق الذميمة ، وكانوا يسمونه الأمين ، فكيف كذبوه بعد أن اتفقت كلمتهم على تسميته بالأمين .
والرابع : أن يعتقدوا فيه الجنون ، فيقولوا إنما حمله على ادعاء الرسالة جنونه ، وهو المراد بقوله) أم يقولون به جنة) . وهذا أيضا ظاهر الفساد ، لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة أنه أعقل الناس ، فالمجنون كيف يمكنه أن يأتي بمثل ما أتى به من الدلائل القاطعة ، والشرائع الكاملة . وفي كونهم سموه بذلك وجهان :". (١)

٧-"" " صفحة رقم ٢٧٨ " "
الفاني يعني أن من لا يرجح الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجا عن حد العقل ، ورحم الله الشافعي حيث قال : من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله - تعالى - لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلين بالطاعة ، فكأنه رحمه الله إنما أخذه من هذه الآية . وقرأ أبو عمرو " أفلا يعقلون " بالياء من تحت التفاتا ، والباقون بالخطاب جريا على ما تقدم .
قوله : " فمن وعدناه " قرأ طلحة " أمن وعدناه " بغير فاء " وعدا حسنا " يعني الجنة " فهو لاقيه " مصيبة ومدركه وصائر إليه)كمن متعناه متاع الحياة الدنيا (وتزول عن قريب) ثم هو يوم القيامة من المحضرين (النار ، وقرأ الكسائي وقالون : " ثم هو " بسكون الهاء إجراء لها مجرى الواو والفاء ، والباقون بالضم على الأصل ، وتخصيص لفظ " المحضرين " بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن ، قال تعالى) لكنت من المحضرين ([الصافات : ٥٧]) فإنهم لمحضرون ([الصافات : ١٢٧] وفي اللفظ إشعار به ، لأن الإحضار يشعر بالتكليف والإلزام ، وذلك لا يليق بمجالس اللذة ، وإنما يليق بمجالس الضرر والمكاره . قوله : (ويوم يناديهم فيقول أين شركآئي الذين كنتم تزعمون (في الدنيا أنهم شركائي وتزعمون أنها تشفع فتخلصكم من هذا الذي نزل بكم ، وتزعمون مفعولاه محذوفان أي : (تزعمونهم شركاءه) ،) قال الذين حق عليهم القول (أي : وجب عليهم العذاب وهم رؤوس الضلالة وقيل : الشياطين .
أحدهما : أن هؤلاء مبتدأ ، والذين أغوينا صفته والعائد محذوف ، أي أغويناهم ، والخبر " أغويناهم " ، و "كما غوينا " نعت لمصدر محذفو ، ذلك المصدر مطاوع لهذا الفعل أي فغووا غيا كما غوينا ، قاله الزمخشري ، وهذا الوجه منعه أبو علي

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ١٤/٢٤١

، ". (١)

٨-"[الضحى ٩٣/ ١- ٢] وقال تعالى : فالق الإصباح ، وجعل الليل سكنا [الأنعام ٦/ ٩٦] ، وغير ذلك من الآيات.

وقال كثير من علماء الأصول : إن لفظة عسعس تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك ، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما ، والله أعلم (١) .

إنه لقول رسول كريم هذا هو المقسم عليه ، أي إن القرآن تبليغ رسول كريم ، ومقول قاله جبريل عليه السلام الشريف الكريم العزيز عند الله ، ونزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله – صلى الله عليه وسلم – ، فليس القرآن من كلام البشر ، وإنما وصل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – من جبريل الذي تلقاه عن ربه عز وجل.

ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين هذه أوصاف أربعة أخرى لجبريل عليه السلام ، فهو شديد القوى في الحفظ التام والتبليغ الكامل ، وذو رفعة عالية ، ومكانة سامية عند الله سبحانه ، ومطاع بين الملائكة ، يرجعون إليه ويطيعونه ، فهو من السادة الأشراف ، مؤتمن على الوحي والرسالة من ربه ، وعلى غير ذلك. وإنما قال : ثم أي عند الله ، وقرئ « ثم » تعظيما للأمانة وبيانا لأنها أفضل صفاته المعدودة.

ووصف جبريل بالأمين تزكية عظيمة من الله لرسوله الملكي وعبده جبريل ، كما زكى عبده ورسوله البشرى محمدا – صلى الله عليه وسلم – بقوله : وما صاحبكم بمجنون.

وبعد بيان أوصاف الرسول الملك ، ذكر تعالى وصف المرسل إليه ، فقال : وما صاحبكم بمجنون أي وليس محمد – صلى الله عليه وسلم – يا أهل مكة بمجنون ، كما تزعمون.

وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره ، وبأنه أعقل الناس وأكملهم.

ونظير الآية قوله تعالى :أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين [الأعراف ٧/ ١٨٤] ، وقوله : قل : إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد [سبأ ٣٤/ ٤٦] ، وقوله : أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه ، وقالوا : معلم مجنون [الدخان ٤٤/ ١٣- ١٤].

ولقد رآه بالأفق المبين أي قد رأى محمد جبريل على صورته الأصلية ، له ست مائة جناح ، في مطلع أو أفق الشمس الأعلى من قبل المشرق ، بحيث حصل له علم ضروري (بدهي) بأنه ملك مقرب يطمأن لنزوله بالوحي عليه ، لا شيطان رجيم. وهذا كما جاء في سورة النجم : ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى [١١- ١٤].

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ١٥/٢٧٨

(١) – تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٧٩". (١)

٩-"١- مشروعية الإقسام بالله تعالى وأسمائه وصفاته .

٢- تقرير الوحي وإثبات النبوة المحمدية .

٣- وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بخمسة أوصاف ، هي : كريم عزيز على الله ، ذو قوة في الحفظ وأداء ، طاعة الله ومعرفته وترك الإخلال بها ، وذو مكانة وجاه عند رب العرش ، ومطاع بين الملائكة فهو من السادة الأشراف ، وأمين على وحي الله ورسالاته ، قد عصمه الله من الخيانة والزلل.

وقوله : عند ذي العرش .. هذه العندية ليست عندية المكان ، كقوله تعالى : ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته [الأنبياء ٢١/ ١٩] وليست عندية الجهة ، بدليل ما روي عن عبد الكريم بن رشيد أن داود عليه السلام قال : أي رب أين ألقاك ؟ قال : تلقاني عند المنكسرة قلوبهم " الزهد الكبير للبيهقي (١)

وعن عمران القصير قال : " قال موسى بن عمران : أي رب ، أين أبغيك ؟ قال : ابغني عند المنكسرة قلوبهم ؛ إني أدنو منهم كل يوم باعا ، ولولا ذلك لانهدموا " الزهد لأحمد بن حنبل (٢)

وعن عبد الله بن شوذب ، قال : قال داود النبي – صلى الله عليه وسلم – : " أي رب أين ألقاك " ؟ قال : " تلقاني عند المنكسرة قلوبهم " الهم والحزن لابن أبي الدنيا (٣)

وقال مالك بن دينار : " قال موسى عليه السلام : يا رب أين أبغيك ؟ قال : أبغني عند المنكسرة قلوبهم " حلية الأولياء (٤)

وعن وهب بن منبه ، قال : قال داود عليه السلام : " إلهي أين أجدك إذا طلبتك ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم من مخافتي " حلية الأولياء (٥)

بل عندية الإكرام والتشريف والتعظيم (٦)

٤- براءة الرسول – صلى الله عليه وسلم – مما اتهمه به المشركون .فقد رد الله تعالى على المشركين المتقولين بأن محمدا – صلى الله عليه وسلم – ليس بمجنون كما زعموا ، بأنهم أعلم الناس بأمره ، وبأنه أعقل الناس وأكملهم.

٥- بيان أن مشيئة الله سابقة لمشيئة العبد . فلا يقع في ملك الله تعالى إلا ما يريد ..

---

(١) – الزهد الكبير للبيهقي (٣٧٩)

(٢) – الزهد لأحمد بن حنبل (٣٩٧) حسن مقطوع

(٣) – الهم والحزن لابن أبي الدنيا (٦١) حسن مطوع

(٤) – حلية الأولياء (٢٨٤٦) صحيح مقطوع

---

(١) المهذب في تفسير جزء عم ص/٢٥٥

(٥) – حلية الأولياء (٤٧٤١) صحيح مقطوع

(٦) – تفسير الرازي : ٣١/ ٧٣". [١]

١٠–"الأرض السابعة إلى منتهى أمره من فوق السماوات السبع ، هذا معنى قول مجاهد . قال مجاهد : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ يعني بذلك نزول الوحي من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد ، فذلك مقداره ألف سنة ؛ لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة سنة.

وقال عكرمة : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال : في يوم واحد من القضاء كعدل خمسين ألف سنة . وروى عكرمة عن ابن عباس : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال : هو يوم القيامة . وهو قول [مجاهد] وقتادة .

وقيل : المعنى : لو حكم في ذلك اليوم أعقل الناس وأعدلهم لأقام خسمين ألف سنة قبل أن يحكم بين اثنين.

والروح : جبريل عليه السلام . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير والتقدير : سأل سائل". [٢]

١١–" صفحة رقم ١٧٩

خراب) وكنا نحن الوارثين (يعني لم يخلفهم فيها أحد بعد هلاكهم وصار أمرها إلى الله تعالى لأنه الباقي بعد فناء الخلق) وما كان ربك مهلك القرى (يعني الكافرة أهلها) حتى يبعث في أمها رسولا (ينذرهم وخص الأم ببعثة الرسول لأنه يبعث إلى الأشراف وهم سكان المدن وقيل حتى يبعث في أمر القرى وهي مكة رسولا يعني محمدا (صلى الله عليه وسلم) لأنه خاتم الأنبياء) يتلو عليهم آياتنا (أي أنه يؤدي إليهم ويبلغهم وقيل يخبرهم أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا) وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون (أي مشركون.

قوله عز وجل) وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها (أي تتمتعون بها أيام حياتكم ثم هي إلى فناء وانقضاء) وما عند الله خير وأبقى (لأن منافع الآخرة خالصة عن الشوائب وهي دائما غير منقطعة ومنافع الدنيا كالذرة بالقياس إلى البحر العظيم) أفلا تعقلون (أي أن الباقي خير من الفاني وقيل من لم يرجح الآخرة على الدنيا فليس بعاقل.

ولهذا قال الشافعي : من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله لأن أعقل الناس من أعطي القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلون بطاعة الله تعالى) أفمن وعدناه وعدا حسنا (يعني الجنة) فهو لاقيه (أي مصيبه وصائر إليه) كمن متعناه متاع الحياة الدنيا (أي وتزول عنه عن قريب) ثم هو يوم القيامة من المحضرين (أي في النار ، قيل هذا من المؤمن والكافر وقيل نزلت في النبي (صلى الله عليه وسلم) وأبي جهل ، وقيل في علي وحمزة وأبي جهل وقيل في عمار بن ياسر والوليد بن المغيرة.

(

(١) المهذب في تفسير جزء عم ص/٢٦٨

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية ١٢/٧٦٩٩

القصص : (٦٢ - ٧٥) ويوم يناديهم فيقول...

" ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون " (قوله عز وجل : (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون (أي في الدنيا أنهم من شركائي) قال الذين حق عليم القول (أي وجب عليهم العذاب وهم رؤوس الضلالة) ربنا هؤلاء الذي أغوينا (أي دعوناهم إلى الغي وهم الأتباع) أغويناهم كما غوينا (أي أضللناهم كما ضللنا) تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون (معناه تبرأ بعضهم من بعض وصاروا أعداء) وقيل (يعني الكفار) ادعوا شركاءكم (أي الأصنام لتخلصكم من العذاب) فدعوهم فلم يستجيبوا لهم (أي لم يجيبوهم) ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون (معناه لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما رأوا العذاب في الآخرة) ويوم يناديهم (أي يسأل الكفار) فيقول ما أجبتم المرسلين (أي ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين) فعميت عليهم (أي خفيت واشتبهت عليهم) الأنباء (يعني الأخبار والأعذار والحجج) يومئذ (فلم يكن لهم عذر ولا حجة) فهم لا يتساءلون (أي لا يجيبون ولا". (١)

١٢-"المسألة السادسة : قوله ﴿ثم نبتهل﴾ أي نتباهل ، كما يقال اقتتل القوم وتقاتلوا واصطحبوا وتصاحبوا ، والابتهال فيه وجهان أحدهما : أن الابتهال هو الاجتهاد في الدعاء ، وإن لم يكن باللعن ، ولا يقال : ابتهل في الدعاء إلا إذا كان هناك اجتهاد والثاني : أنه مأخوذ من قولهم عليه بهلة الله ، أي لعنته وأصله مأخوذ مما يرجع إلى معنى اللعن ، لأن معنى اللعن هو الإبعاد والطرد وبهله الله ، أي لعنه وأبعده من رحمته من قولك أبهله إذا أهمله وناقة باهل لا صرار عليها ، بل هي مرسلة مخلاة ، كالرجل الطريد المنفي ، وتحقيق معنى الكلمة : أن البهل إذا كان هو الإرسال والتخلية فكان من بهله الله فقد خلاه الله ووكله إلى نفسه ومن وكله إلى نفسه فهو هالك لا شك فيه فمن باهل إنسانا ، فقال : علي بهلة الله إن كان كذا ، يقول : وكلني الله إلى نفسي ، وفرضني إلى حولي وقوتي ، أي من كلاءته وحفظه ، كالناقة الباهل التي لا حافظ لها في ضرعها ، فكل من شاء حلبها وأخذ لبنها لا قوة لها في الدفع عن نفسها ، ويقال أيضا : رجل باهل ، إذا لم يكن معه عصا ، وإنما معناه أنه ليس معه ما يدفع عن نفسه ، والقول الأول أولى ، لأنه يكون قوله ﴿ثم نبتهل﴾ أي ثم

---

(١) تفسير الخازن . موافق للمطبوع ١٧٩/٥

نجتهد في الدعاء ، ونجعل اللعنة على الكاذب وعلى القول الثاني يصير التقدير : ثم نبتهل ، أي ثم نلتعن ﴿فنجعل لعنت الله على الكاذبين﴾ وهي تكرار ، بقي في الآية سؤالات أربع.

السؤال الأول : الأولاد إذا كانوا صغارا لم يجز نزول العذاب بهم وقد ورد في الخبر أنه صلوات الله عليه أدخل في المباهلة الحسن والحسين عليهما السلام فما الفائدة فيه ؟

.

والجواب : إن عادة الله تعالى جارية بأن عقوبة الاستئصال إذا نزلت بقوم هلكت معهم الأولاد والنساء ، فيكون ذلك في حق البالغين عقابا ، وفي حق الصبيان لا يكون عقابا ، بل يكون جاريا مجرى إماتتهم وإيصال الآلام والأسقام إليهم ومعلوم أن شفقة الإنسان على أولاده وأهله شديدة جدا فربما جعل الإنسان نفسه فداء لهم وجنة لهم ، وإذا كان كذلك فهو عليه السلام أحضر صبيانه ونساءه مع نفسه وأمرهم بأن يفعلوا مثل ذلك ليكون ذلك أبلغ في الزجر وأقوى في تخويف الخصم ، وأدل على وثوقه صلوات الله عليه وعلى آله بأن الحق معه.

السؤال الثاني : هل دلت هذه الواقعة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤٥

الجواب : أنها دلت على صحة نبوته عليه السلام من وجهين أحدهما : وهو أنه عليه السلام خوفهم بنزول العذاب عليهم ، ولو لم يكن واثقا بذلك ، لكان ذلك منه سعيا في إظهار كذب نفسه لأن بتقدير : أن يرغبوا في مباهلته ، ثم لا ينزل العذاب ، فحينئذ كان يظهر كذبه فيما أخبر ومعلوم أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان من أعقل الناس ، فلا يليق به أن يعمل عملا يفضي إلى ظهور كذبه فلما أصر على ذلك علمنا أنه إنما أصر عليه لكونه واثقا بنزول العذاب عليهم وثانيهما : إن القوم لما تركوا مباهلته ، فلولا أنهم عرفوا من التوراة والإنجيل ما يدل على نبوته ، وإلا لما /أحجموا عن مباهلته.

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : إنهم كانوا شاكين ، فتركوا مباهلته خوفا من أن يكون صادقا فينزل بهم ما ذكر من العذاب ؟

.

قلنا هذا مدفوع من وجهين الأول : أن القوم كانوا يبذلونه النفوس والأموال في المنازعة مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولو كانوا شاكين لما فعلوا ذلك الثاني : أنه قد نقل عن أولئك النصارى أنهم قالوا : إنه والله هو النبي المبشر به في التوراة والإنجيل ، وإنكم لو باهلتموه لحصل الاستئصال فكان ذلك تصريحا منهم بأن الامتناع عن المباهلة كان لأجل علمهم بأنه نبي مرسل من عند الله تعالى.

السؤال الثالث : أليس إن بعض الكفار اشتغلوا بالمباهلة مع محمد صلى الله عليه وسلم ؟

حيث قالوا ﴿اللهم إن كان هاذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السمآء﴾ (الأنفال : ٣٢) ثم إنه لم ينزل العذاب بهم ألبتة ، فكذا ههنا ، وأيضا فبتقدير نزول العذاب ، كان ذلك مناقضا لقوله ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ (الأنفال : ٣٣).

والجواب : الخاص مقدم على العام ، فلما أخبر عليه السلام بنزول العذاب في هذه السورة على التعيين وجب أن يعتقد أن الأمر كذلك.

السؤال الرابع : قوله ﴿إن هاذا لهو القصص الحق ﴾ هل هو متصل بما قبله أم لا ؟

.

والجواب : قال أبو مسلم : إنه متصل بما قبله ولا يجوز الوقف على قوله ﴿الكاذبين﴾ وتقدير الآية فنجعل لعنة الله على الكاذبين بأن هذا هو القصص الحق وعلى هذا التقدير كان حق ﴿ءان﴾ أن تكون مفتوحة ، إلا أنها كسرت لدخول اللام في قوله ﴿لهو﴾ كما في قوله ﴿إن ربهم بهم يومإاذ لخبير ﴾ (العاديات : ١١) وقال الباقون : الكلام تم عند قوله ﴿على الكاذبين﴾ وما بعده جملة أخرى مستقلة غير متعلقة بما قبلها والله أعلم.

". (١)

١٣-"اعلم أن هذا هو الجواب الثالث : عن تلك الشبهة لأن حاصل شبهتهم أن قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقى ، أما أنه خير فلوجهين أحدهما : أن المنافع هناك أعظم وثانيهما : أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار فيها أكثر ، وأما أنها أبقى فلأنها دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدما فكيف ونصيب كل أحد بالقياس إلى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس إلى البحر ، فظهر من هذا أن منافع الدنيا لا نسبة لها إلى منافع الآخرة ألبتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه على ذلك قال : ﴿أفلا تعقلون﴾ يعني أن من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجا عن حد العقل ، ورحم الله الشافعي حيث قال : من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى ، لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلون بالطاعة فكأنه رحمه الله إنما أخذه من هذه الآية ، ثم إنه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهو أنا لو قدرنا أن نعم الله كانت تنتهي إلى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضي ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا فكيف إذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة فأي عقل يرتاب في أن نعم الآخرة راجحة عليها ، وهذا هو المراد بقوله : ﴿أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه﴾ (الصافات : ٥٧) فهو يكون كمن أعطاه الله قدرا قليلا من متاع الدنيا ثم يكون في الآخرة من المحضرين للعذاب ، والمقصود أنهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا فقال الله لهم لو لم يحصل عقيب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقتضي ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا ، فكيف وهذه الدنيا يحصل بعدها العقاب الدائم ، وأورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام ليكون أبلغ في الاعتراف بالترجيح وتخصيص لفظ المحضرين بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن قال تعالى : ﴿لكنت من المحضرين﴾ (الصافات : ٥٧) ﴿فإنهم لمحضرون﴾ (الصافات : ١٢٧) وفي لفظه إشعار به لأن الإحضار مشعر بالتكليف والإلزام ، وذلك لا يليق بمجالس اللذة إنما يليق بمجالس الضرر والمكاره.

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع ص/١١٦٦

جزء : ٢٥ رقم الصفحة : ١٠

١٢

/ اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر في هذه الآية أنه يسأل الكفار يوم القيامة عن ثلاثة أشياء أحدها : قوله : ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركآءى الذين كنتم تزعمون﴾ لما ثبت أن الكفار يوم القيامة قد عرفوا بطلان ما كانوا عليه وعرفوا صحة التوحيد والنبوة بالضرورة فيقول لهم أين ما كنتم تعبدونه وتجعلونه شريكا في العبادة وتزعمون أنه يشفع ؟

أين هو لينصركم ويخلصكم من هذا الذي نزل بكم. ثم بين تعالى ما يقوله من حق عليه القول ، والمراد من القول هو قوله : ﴿لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ (هود : ١١٩) ومعنى حق عليه القول أي حق عليه مقتضاه ، واختلفوا في أن الذين حق عليهم هذا القول من هم ؟

فقال بعضهم الرؤساء الدعاة إلى الضلال ، وقال بعضهم الشياطين قوله : ﴿ربنا ها ؤلاء الذين أغوينآ﴾ هؤلاء مبتدأ والذين أغوينا صفته والراجع إلى الموصوف محذوف وأغويناهم الخبر والكاف صفة مصدر محذوف تقديره أغويناهم فغووا غيا مثل ما غوينا والمراد كما أن غينا باختيارنا فكذا غيهم باختيارهم يعني أن أغواءنا لهم ما ألجأهم إلى الغواية بل كانوا مختارين بالإقدام على تلك العقائد والأعمال ، وهذا معنى ما حكاه الله عن الشيطان أنه قال : ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا﴾ وقال تعالى لإبليس : ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ (

جزء : ٢٥ رقم الصفحة : ١٢

". (١)

١٤-"يرجع إلى معنى اللعن لأن معنى اللعن هو الإبعاد والطرد وبهله الله أي لعنه وأبعده من رحمته من قولك أبهله إذا أهمله وناقة باهل لا صرار عليها بل هي مرسلة مخلاة كالرجل الطريد المنفي وتحقيق معنى الكلمة أن البهل إذا كان هو الإرسال والتخلية فكان من بهله الله فقد خلاه الله ووكله إلى نفسه ومن وكله إلى نفسه فهو هالك لا شك فيه فمن باهل إنسانا فقال علي بهلة الله إن كان كذا يقول وكلني الله إلى نفسي وفرضني إلى حولي وقوتي أي من كلاءته وحفظه كالناقة الباهل التي لا حافظ لها في ضرعها فكل من شاء حلبها وأخذ لبنها لا قوة لها في الدفع عن نفسها ويقال أيضا رجل باهل إذا لم يكن معه عصا وإنما معناه أنه ليس معه ما يدفع عن نفسه والقول الأول أولى لأنه يكون قوله ثم نبتهل أي ثم نجتهد في الدعاء ونجعل اللعنة على الكاذب وعلى القول الثاني يصير التقدير ثم نبتهل أي ثم نلتعن فنجعل لعنت الله على الكاذبين وهي تكرار بقي في الآية سؤالات أربع

السؤال الأول الأولاد إذا كانوا صغارا لم يجز نزول العذاب بهم وقد ورد في الخبر أنه صلوات الله عليه أدخل في المباهلة الحسن والحسين عليهما السلام فما الفائدة فيه

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع ص/٣٥٠٥

والجواب إن عادة الله تعالى جارية بأن عقوبة الاستئصال إذا نزلت بقوم هلكت معهم الأولاد والنساء فيكون ذلك في حق البالغين عقابا وفي حق الصبيان لا يكون عقابا بل يكون جاريا مجرى إماتتهم وإيصال الآلام والأسقام إليهم ومعلوم أن شفقة الإنسان على أولاده وأهله شديدة جدا فربما جعل الإنسان نفسه فداء لهم وجنة لهم وإذا كان كذلك فهو عليه السلام أحضر صبيانه ونساءه مع نفسه وأمرهم بأن يفعلوا مثل ذلك ليكون ذلك أبلغ في الزجر وأقوى في تخويف الخصم وأدل على وثوقه صلوات الله عليه وعلى آله بأن الحق معه

السؤال الثاني هل دلت هذه الواقعة على صحة نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)

الجواب أنها دلت على صحة نبوته عليه السلام من وجهين أحدهما وهو أنه عليه السلام خوفهم بنزول العذاب عليهم ولو لم يكن واثقا بذلك لكان ذلك منه سعيا في إظهار كذب نفسه لأن بتقدير أن يرغبوا في مباهلته ثم لا ينزل العذاب فحينئذ كان يظهر كذبه فيما أخبر ومعلوم أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان من أعقل الناس فلا يليق به أن يعمل عملا يفضي إلى ظهور كذبه فلما أصر على ذلك علمنا أنه إنما أصر عليه لكونه واثقا بنزول العذاب عليهم وثانيهما إن القوم لما تركوا مباهلته فلولا أنهم عرفوا من التوراة والإنجيل ما يدل على نبوته وإلا لما أحجموا عن مباهلته

فإن قيل لم لا يجوز أن يقال إنهم كانوا شاكين فتركوا مباهلته خوفا من أن يكون صادقا فينزل بهم ما ذكر من العذاب قلنا هذا مدفوع من وجهين الأول أن القوم كانوا يبذلونه النفوس والأموال في المنازعة مع الرسول عليه الصلاة والسلام ولو كانوا شاكين لما فعلوا ذلك الثاني أنه قد نقل عن أولئك النصارى أنهم قالوا إنه والله هو النبي المبشر به في التوراة والإنجيل وإنكم لو باهلتموه لحصل الاستئصال فكان ذلك تصريحا منهم بأن الامتناع عن المباهلة كان لأجل علمهم بأنه نبي مرسل من عند الله تعالى". (١)

١٥-"المهلكين بقي أثره في ديارهم فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلا وكنا نحن الوارثين لها بعد هلاك أهلها وإذا لم يبق للشيء مالك معين قيل إنه ميراث الله لأنه الباقي بعد فناء خلقه ثم إنه سبحانه لما ذكر أنه أهلك تلك القرى بسبب بطر أهلها فكأن سائلا أورد السؤال من وجهين الأول لماذا ما أهلك الله الكفار قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) مع أنهم كانوا مستغرقين في الكفر والعناد الثاني لماذا ما أهلكهم بعد مبعث محمد (صلى الله عليه وسلم) مع تمادي القوم في الكفر بالله تعالى والتكذيب بمحمد (صلى الله عليه وسلم) فأجاب عن السؤال الأول بقوله وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم ءاياتنا وحاصل الجواب أنه تعالى قدم بيان أن عدم البعثة يجري مجرى العذر للقوم فوجب أن لا يجوز إهلاكهم إلا بعد البعثة ثم ذكر المفسرون وجهين أحدهما وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا أي في القرية التي هي أمها وأصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها رسولا لإلزام الحجة وقطع المعذرة الثاني وما كان ربك مهلك القرى التي في الأرض حتى يبعث في أم القرى يعني مكة رسولا وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) خاتم الأنبياء ومعنى يتلو عليهم ءاياتنا يؤدي ويبلغ وأجاب عن السؤال الثاني بقوله وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع ٨/٧٣

ظالمون أنفسهم بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فإن بعضهم قد آمن وبعضهم علم الله منهم أنهم سيؤمنون وبعض آخرون علم الله أنهم وإن لم يؤمنوا لكنه يخرج من نسلهم من يكون مؤمنا

ومآ أوتيتم من شى ء فمتاع الحيواة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحيواة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين

اعلم أن هذا هو الجواب الثالث عن تلك الشبهة لأن حاصل شبهتهم أن قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقى أما أنه خير فلوجهين أحدهما أن المنافع هناك أعظم وثانيهما أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار فيها أكثر وأما أنها أبقى فلأنها دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدما فكيف ونصيب كل أحد بالقياس إلى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس إلى البحر فظهر من هذا أن منافع الدنيا لا نسبة لها إلى منافع الآخرة ألبتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه على ذلك قال أفلا تعقلون يعني أن من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجا عن حد العقل ورحم الله الشافعي حيث قال من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلون بالطاعة فكأنه رحمه الله إنما أخذه من هذه الآية ثم إنه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهو أنا لو قدرنا أن نعم الله كانت تنتهي إلى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضي ترجيح نعم الآخرة". (١)

١٦-"فلما كان في جوف تلك الليلة خرج يونس عليه السلام من بين أظهرهم ، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم قدر ميل. وقال وهب : غامت السماء غيما عظيما ، أسود هائلا يدخن دخانا عظيما فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت سطوحهم ، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك ، فطلبوا يونس بينهم فلم يجدوه ، وقذف الله تعالى في قلوبهم التوبة ، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وأولادهم ودوابهم ولبسوا المسوح ، وأظهروا الإيمان والتوبة ، وأخلصوا النية ، وفرقوا بين كل والدة وولدها من النساء والدواب فحن بعضها إلى بعض ، وعلت أصواتها واختلطت بأصواتهم ، وعجوا وتضرعوا إلى الله تعالى وقالوا آمنا بما جاء به يونس عليه السلام ، فرحمهم الله تعالى ، واستجاب دعاءهم ، وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلهم. وكل ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة ، وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى أن الرجل

٤٣

كان يقلع الحجر وكان قد وضع عليه أساس بنيانه فيرده ، وقيل : خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا : قد نزل بنا العذاب فما ترى ؟

فقال لهم : قولوا يا حي حين لا حي ، ويا حي محيي الموتى ، ويا حي لا إله إلا أنت. فقالوها ، فكشف عنهم. وعن

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع ٦/٢٥

الفضيل بن عياض : اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت ، وأنت أعظم منها وأجل ، افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله ، وستأتي بقية القصة إن شاء الله تعالى في سورة والصافات.

فإن قيل : قد حكى الله تعالى عن فرعون أنه تاب في آخر الأمر ولم يقبل توبته ، وحكى عن قوم يونس أنهم آمنوا وقبل توبتهم ، فما الفرق بين الحالين ؟

أجيب : بأن فرعون إنما تاب بعد أن شاهد العذاب وهو وقت اليأس من الحياة ، أما قوم يونس فإنهم تابوا قبل ذلك ، فإنهم لما ظهرت أمارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل أن ينزل بهم ولم يباشرهم ، فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية ، وإن الله تعالى قد علم صدق نياتهم في التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فإنه لم يصدق في إيمانه ولا أخلص فلم يقبل منه. قال الله تعالى :

﴿ولو شاء ربك﴾ يا محمد ﴿لآمن﴾ بك وصدقك ﴿من في الأرض كلهم﴾ بحيث لم يشذ منهم أحد ﴿جميعا﴾ أي : مجتمعين على ذلك في آن واحد لا يختلفون في شيء منه ولكن لم يشأ أن يصدقك ويؤمن بك إلا من سبقت له السعادة في الأزل ، وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فإنه كان حريصا على إيمانهم كلهم ، فأخبر الله تعالى أنه لا يؤمن به إلا من سبقت له السعادة الأزلية فلا تتعب نفسك على إيمانهم. وهو قوله تعالى : ﴿أفأنت تكره الناس﴾ أي : الذين لم يرد الله إيمانهم ﴿حتى يكونوا مؤمنين﴾ أي : ليس إيمانهم إليك حتى تكرههم عليه وتحرص عليه ، إنما إيمان المؤمن وإضلال الكافر بمشيئة الله تعالى وقضائه وليس لأحد ذلك سواه. كما قال تعالى : ﴿وما كان﴾ أي : وما ينبغي وما يتأتى ﴿لنفس﴾ أي : واحدة فما فوقها ﴿أن تؤمن﴾ أي : يقع منها إيمان في وقت ما ﴿إلا بإذن الله﴾ أي : بإرادته لها بالإيمان ، فإن هدايتها إلى الله فهو المهدي والمضل.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٤٣

وقال ابن عباس بأمر الله. وقال عطاء : بمشيئة الله. ﴿ويجعل﴾ الله ﴿الرجس﴾ أي : العذاب والخذلان فإنه سببه. وقرأ شعبة وحده بالنون ﴿على الذين لا يعقلون﴾ أي : لا يتدبرون في آيات الله تعالى ، فينتفعوا بها وهم يدعون أنهم أعقل الناس ويتساقطون في مساوئ الأخلاق وهم يدعون أنهم أبعد الناس عنها ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . ولما بين الله تعالى في الآيات السابقة أن الإيمان لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى ومشيئته أمر بالنظر والاستدلال في الدلائل بقوله تعالى :

﴿قل انظروا﴾ أي : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات ﴿ماذا﴾ أي : الذي ﴿في السموات والأرض﴾ من الآيات وواضح الدلالات من عجائب صنعه ليدلكم على وحدته وكمال قدرته ، ففي العالم العلوي الشمس والقمر وهما دليلان على الليل والنهار والنجوم وحركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها ، والكواكب وما يختص بذلك من المنافع ، وفي العالم السفلي الجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان ، وأخصها حال الإنسان. كل ذلك من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى ، وانه خالقها ، كما قال القائل :

*وفي كل شيء له آية ** تدل على أنه واحد

٤٤

وقرأ عاصم وحمزة في الوصل بكسر اللام والباقون بضمها ، وأما الهمزة من انظروا فكل القراء يبتدؤون بالضم ﴿وما تغني الآيات﴾ أي : وإن كانت في غاية الوضوح ﴿والنذر﴾ جمع نذير ، أي : الرسل ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ في علم الله تعالى وحكمه.

تنبيه : قال النحويون : ما هنا تحتمل وجهين الأول : أن تكون نفيا بمعنى أن هذه الآيات والنذر لا تفيد الفائدة في حق من حكم الله تعالى عليه بأنه لا يؤمن كقولك : لا يغني عنك المال إذا لم تنفق. والثاني : أن تكون استفهاما كقولك ، أي : شيء يغني عنهم ، وهو استفهام بمعنى الإنكار.". (١)

١٧-"﴿وما رب العالمين﴾ أي : الذي زعمتما أنكما رسوله وإنما أتى بما دون من لأنها يسأل بها عن طلب الماهية كقولك ما العنقاء ، ولما كان جواب هذا السؤال لا يمكن تعريفه إلا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته عدل موسى عليه السلام إلى جواب ممكن فأجاب بصفاته تعالى ، كما قال تعالى إخبارا عنه :

﴿قال رب﴾ أي : خالق ومبدع ومدبر ﴿السموات﴾ كلها ﴿والأرض﴾ وإن تباعدت أجرامها بعضها من بعض ﴿وما بينهما﴾ أي : بين السموات والأرض فأعاد ضمير التثنية على جمعين اعتبارا بالجنسين وخصه بهذه الصفات لأنها أظهر خواصه وآثاره وفيه إبطال لدعواه أنه إله ، ومعنى قوله ﴿إن كنتم موقنين﴾ أي : إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب وإلا لم ينفع ، أو إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به لظهوره وإنارة دليله ، ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق.



جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٦

قال﴾ فرعون ﴿لمن حوله﴾ من أشراف قومه ، قال ابن عباس : وكانوا خمسمائة رجل عليهم الأسورة وكانت للملوك خاصة ﴿ألا تستمعون﴾ جوابه الذي لم يطابق السؤال ، سألته عن حقيقته وهو يجيبني بالفاعلية ، ولما كان يمكن أن يعتقد أن السموات والأرضين واجبة لذاتها فهي غنية عن الخالق.

﴿قال﴾ لهم موسى زيادة في البيان ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ فعدل عن التعريف بخالقية السموات والأرض إلى التعريف بكونه تعالى خالقا لهم ولآبائهم ، إذ لا يمكن أن يعتقد في نفسه وفي آبائه وأجداده كونهم واجبين لذواتهم لأن المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم وعدموا بعد الوجود ، وما كان كذلك استحال أن يكون واجبا لذاته واستحال وجوده إلا بالمؤثر فكان التعريف بهذا الأثر أظهر ولكن فرعون لم يكتف بذلك ولهذا.

﴿قال إن رسولكم﴾ على طريق التهكم إشارة إلى أن الرسول ينبغي أن يكون أعقل الناس ثم زاد الأمر بقوله : ﴿الذي أرسل إليكم﴾ أي : وأنتم أعقل الناس ﴿لمجنون﴾ لا يفهم السؤال فضلا عن أن يجيب عنه ، فكيف يصلح للرسالة من

(١) تفسير السراج المنير . موافق للمطبوع ٢/٣٣

الملوك ؟

فلما قال ذلك عدل موسى ج إلى طريق ثالث أوضح من الثاني بأن.

﴿قال رب المشرق والمغرب﴾ أي : الشروق والغروب ووقتهما وموضعهما ﴿وما بينهما﴾ من المخلوقات لأن التدبير المستمر على هذا الوجه العجيب لا يتم إلا بتدبير مدبر قادر ، وهذا بعينه طريقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع نمروذ ، فإنه استدل أولا بالإحياء والإماتة وهو الذي ذكر موسى عليه الصلاة السلام بقوله : ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ فأجابه نمروذ ﴿أنا أحي وأميت﴾ (البقرة : ٢٢٨)

فقال ﴿إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر﴾ (البقرة : ٢٥٨)

وهو الذي ذكره موسى ج بقوله : ﴿رب المشرق والمغرب﴾ وأما قوله : ﴿إن كنتم تعقلون﴾ فكأنه ج قال إن كنت من العقلاء عرفت أنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرت لك ، لأنك طلبت مني تعريف حقيقته

٤٧

ولا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته ، فلم يبق إلا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته ، وقد عرفت حقيقته بآثار حقيقته فمن كان عاقلا يقطع بأنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرته لك ، فلما انقطع فرعون عن الجواب ولزمته الحجة تكبر عن الحق وعدل إلى التخويف بأن.

﴿قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ أي : واحدا ممن هم في سجني على ما تعلم من حالي في اقتداري ومن سجوني وفظاعتها ، ومن حال من فيها من شدة الحصر والغلظ في الحجر. قال الكلبي : كان سجنه أشد من القتل لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه في هوة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق وحده لا يسمع ولا يبصر فيها شيئا ، وقرأ ابن كثير وحفص وعاصم بإظهار الذال عند التاء ، والباقون بالإدغام ، ثم ذكر موسى ج كلاما مجملا ليعلق فرعون قلبه به فيعدل عن وعيده ، بأن.

﴿

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٦

قال﴾ مدافعا بالتي هي أحسن إرخاء للعنان لإزادة البيان معنى لا يبقى معه عذر ولا نسيان ، لأن من العادة الجارية السكون إلى الإنصاف والرجوع إلى الحق والاعتراف ﴿أولو﴾ أي : أتسجنني ولو ﴿جئتك بشيء مبين﴾ أي : هل يحسن أن يذكر هذا مع اقتداري على أن آتيك بشيء بدليلين يدلان على وجود الله تعالى وعلى أني رسوله فعند ذلك.

﴿قال﴾ طمعا في أن يجد موضعا للتكذيب أو التلبيس ﴿فأت به﴾ أي : تسبب عن قولك هذا أني أقول ائت بذلك الشيء ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أي : فيما ادعيت من الرسالة.

تنبيه : الواو في أولو جئتك واو الحال وليتها الهمزة بعد حذف الفعل كما علم من التقرير ، فإن قيل : كيف قطع الكلام بما لا تعلق له بالأول وهو قوله أولو جئتك بشيء مبين أي : بآية بينة والمعجز لا يدل على ذلك كدلالة سائر ما تقدم ؟ أجيب : بأنه يدل بما أراد أن يظهره من انقلاب العصا حية على الله تعالى وعلى توحيده وعلى أنه صادق في ادعاء الرسالة

، فالذي ختم به كلامه ما تقدم.". (١)

١٨-"وإن ربك﴾ وحده ﴿لهو العزيز﴾ أي : في بطشه لأعدائه ﴿الرحيم﴾ في لطفه بأوليائه.
ثم أتبع قصة لوط عليه السلام بقصة شعيب عليه السلام وهي القصة السابعة قال تعالى :
﴿كذب أصحاب الأيكة﴾ أي : الغيضة ذات الأرض الجيدة التي تبتلع الماء فتنبت الشجر الكثير الملتف ﴿المرسلين﴾ لتكذيبهم شعيبا عليه السلام فيما أتى به من المعجزة المساوية في خرق العادة وعجز المتحدين بها عن مقاومتها لبقية المعجزات الآتي بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر ليكة بلام مفتوحة من غير ألف وصل وياء ساكنة ولا همزة قبلها وفتح تاء التأنيث ، والباقون بإسكان اللام وقبلها وصل وبعد اللام همزة مفتوحة بعدها ياء ساكنة وخفض تاء التأنيث ، قال أبو عبيدة : وجدنا في بعض التفاسير الفرق بين ليكة والأيكة فقيل : ليكة هو اسم للقرية التي كانوا فيها ، والأيكة : البلاد كلها فصار الفرق بينهما شبيها لما بين مكة وبكة ، ثم بين تعالى وقت تكذيبهم بقوله تعالى :
﴿إذ﴾ أي : حين ﴿قال لهم شعيب﴾ برفق ولطف ﴿ألا تتقون﴾ الله الذي تفضل عليكم بنعمه ولم يقل أخوهم شعيب لأنه لم يكن من أهل الأيكة في النسب لأنهم كانوا أهل بدو وكان عليه السلام قرويا ، لأن الله تعالى لم يرسل نبيا إلا من أهل القرى تشريفا لهم ، لأن البركة والحكمة في الاجتماع ، ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التعرب بعد الهجرة وقال : "من يرد الله به خيرا ينقله من البادية إلى الحاضرة ولما ذكر مدين قال أخاهم شعيبا لأنه كان منهم وكان الله تعالى بعثه إلى قومه أهل مدين وأصحاب الأيكة ، ثم أكد ما قاله بقوله :
﴿إني﴾ وأشار إلى تبشيرهم إن أطاعوه بقوله ﴿لكم رسول﴾ أي : من عند الله فهو أمرني أن أقول لكم ذلك ﴿أمين﴾ أي : لا خيانة عندي ولا غش فلذلك أبلغ جميع ما أرسلت به ولذلك تسبب عنه قوله :
﴿فاتقوا الله﴾ أي : المحسن إليكم بهذه الغيضة وغيرها ﴿وأطيعون﴾ لما ثبت من نصحي لكم ، ثم ذكر ما ذكر من تقدمه من الأنبياء من نفي ما يتوهم أن لهم رغبة في أجرة على دعائهم فقال :
﴿وما أسألكم عليه﴾ أي : دعائي لكم إلى الإيمان بالله تعالى ﴿من أجر﴾ ثم زاد في البراءة من الطمع في أحد من الخلق بقوله ﴿إن﴾ أي : ما ﴿أجري إلا على رب العالمين﴾ أي : المحسن إلى الخلائق كلهم فأنا لا أرجو أحدا سواه ، ثم نصحهم بقوله :
﴿أوفوا الكيل﴾ أي : أتموه إتماما لا شبهة فيه إذا كلتم كما توفونه إذا اكتلتم ﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾ أي : الناقصين لحقوق الناس في الكيل والوزن كما قال
٧٢
تعالى : ﴿ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾ (المطففين : ١ ، ٢) أي : الكيل ﴿وإذا كالوهم﴾

(١) تفسير السراج المنير . موافق للمطبوع ٣٢/٣

(المطففين : ٢)

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٧٠

أي : كالوا لهم ﴿أو وزنوهم﴾ أي : وزنوا لهم ﴿يخسرون﴾ (المطففين : ٣)

ينقصون الكيل أو الوزن.

﴿وزنوا﴾ أي : لأنفسكم ولغيركم ﴿بالقسطاس﴾ أي : الميزان الأقوم وأكد معناه بقوله ﴿المستقيم﴾ وقيل : هو بالرومية العدل ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر القاف ، والباقون بالضم.

تنبيه : الكيل على ثلاثة أضرب : واف ، وطفيف ، وزائد ، فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء بقوله تعالى : ﴿أوفوا الكيل﴾ ونهى عن المحرم الذي هو التطفيف بقوله تعالى : ﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾

ولم يذكر الزائد لأنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا إثم عليه ، والوزن في ذلك كالكيل ، ولهذا عمم في النهي عن النقص بقوله :

﴿ولا تبخسوا﴾ أي : تنقصوا ﴿الناس أشياءهم﴾ أي : في كيل أو وزن أو غير ذلك ، ثم أتبع ذلك بما هو أعم بقوله ﴿ولا تعثوا﴾ أي : لا تنصرفوا ﴿في الأرض﴾ من غير تأمل حال كونكم ﴿مفسدين﴾ أي : في المال أو غير ذلك كقطع الطريق والقتل ، ثم خوفهم بعد أن وعظهم ونهاهم عن الفساد من سطوة الجبار ما حل بمن هو أعظم منهم بقوله :

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٧٠

﴿واتقوا الذي خلقكم﴾ أي : من نطفة فإعدامكم أهون شيء عليه وأشار إلى ضعفهم وقوة من كان قبلهم بقوله ﴿والجبلة﴾ أي : الجماعة والأمم ﴿الأولين﴾ الذين كانوا على خلقة وطبيعة عظيمة كأنها الجبال قوة وصلابة لا سيما قوم هود الذين بلغت بهم الشدة حتى قالوا من أشد منا قوة ، وقد أخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، ثم إنهم أجابوه بالقدح في الرسالة أولا : باستصغار الوعيد ثانيا : بأن.

﴿قالوا إنما أنت من المسحرين﴾ أي : الذين كرر سحرهم مرة بعد أخرى حتى اختلفوا فصار كلامهم على غير نظام ، أو من المعللين بالطعام والشراب كما مضى في صالح عليه السلام أي : فأنت بعيد عن الصلاحية للرسالة ، ثم أشاروا إلى عدم صلاحية البشر لها مطلقا ولو كان أعقل الناس بقولهم :

﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ أي : فلا وجه لتخصيصك عنا بذلك وأتوا بالواو للدلالة على أنه جامع بين وصفين مناقضين منافيين

٧٣

للرسالة مبالغة في تكذيبه ، ولهذا قالوا ﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ أي : في دعواك.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٧٣". (١)

---

(١) تفسير السراج المنير ـ موافق للمطبوع ٣/٤٨

١٩-"﴿وما كان ربك﴾ أي : المحسن إليك بالإحسان بإرسالك إلى الناس ﴿مهلك القرى﴾ أي : هذا الجنس كله بجرم وإن عظم ﴿حتى يبعث في أمها﴾ أي : أعظمها وأشرفها ﴿رسولا﴾ لأن غيرها تبع لها ولم يشترط كونه من أمها فقد كان عيسى عليه السلام من الناصرة وبعث إلى بيت المقدس ﴿يتلوا عليهم﴾ أي : أهل القرى كلهم ﴿آياتنا﴾ الدالة على ما ينبغي لنا من الحكمة وبما لها من الإعجاز على نفوذ الكلمة وباهر العظمة إلزاما للحجة وقطعا للمعذرة لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ، ولذلك لما أردنا عموم الخلق بالرسالة جعلنا الرسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء من

١٦٠

أم القرى كلها وهي مكة البلد الحرام ﴿وما كنا مهلكي القرى﴾ أي : كلها بعد الإرسال ﴿إلا وأهلها ظالمون﴾ أي : غريقون في الظلم بالعصيان بترك ثمرات الإيمان وتكذيب الرسل.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ١٥٦

﴿وما أوتيتم من شيء﴾ أي : من أسباب الدنيا ﴿فمتاع﴾ أي : فهو متاع ﴿الحياة الدنيا﴾ تتمتعون بها أيام حياتكم وليس يعود نفعه إلى غيرها فهو آيل إلى فساد وإن طال زمن التمتع به ﴿وزينتها﴾ أي : فهو زينة الحياة الدنيا التي هي كلها فضلا عن زينتها إلى فناء فليست هي ولا شيء بأزلي ولا أبدي ﴿وما عند الله﴾ أي : الملك الأعلى وهو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ﴿خير﴾ على تقدير مشاركة ما في الدنيا له فالخيرية في ظنكم لأن الذي عنده أطيب وأكثر وأشهى وأزهى ﴿و﴾ هو مع ذلك كله ﴿أبقى﴾ لأنه وإن شارك متاع الدنيا في أنه لم يكن أزليا فهو أبدي وهذا جواب عن شبههم فإنهم قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقى من وجهين : الأول : أن المنافع هناك أعظم ، والثاني : أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر ، وأما أنها أبقى فلإنها دائمة غير منقطعة ومن قابل المتناهي بغير المتناهي كان عدما فظهر بهذا أن منافع الدنيا لا نسبة لها إلى منافع الآخرة فلا جرم نبه على ذلك بقوله تعالى : ﴿أفلا يعقلون﴾ أن الباقي خير من الفاني فيستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير فمن لم يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا فإنه يكون خارجا عن حد العقل ، قال ابن عادل ورحم الله الشافعي حيث قال : من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا

١٦١

المشتغلون بالطاعة ، فكأنه رحمه الله تعالى إنما أخذه من هذه الآية انتهى ، وقرأ أبو عمرو بالياء وهو أبلغ في الموعظة لاشتماله على الالتفات للإعراض به عن خطابهم ، والباقون بالتاء على الخطاب جريا على ما تقدم.



جزء : ٣ رقم الصفحة : ١٦١

أفمن وعدناه﴾ على عظمتنا في الغنى والقدرة والصدق ﴿وعدا حسنا﴾ لا شيء أحسن منه في موافقته للأمنية وبقائه وهو الجنة فإن حسن الوعد بحسن الموعود ولذلك سمى الله تعالى الجنة بالحسنى ﴿فهو لاقيه﴾ أي : مدركه لامتناع الخلف في

وعده ولذلك عطفه بالفاء المعطية معنى السببية ﴿كمن متعناه متاع الحياة الدنيا﴾ أي : الذي هو مشوب بالآلام مكدر بالمتاعب مستعقب للتحسر على الانقطاع ، وعن ابن عباس أن الله تعالى خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف : المؤمن والمنافق والكافر فالمؤمن يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع ﴿ثم هو﴾ مع ذلك كله ﴿يوم القيامة﴾ الذي هو يوم التغابن من خسر فيه لم يربح أصلا ﴿من المحضرين﴾ أي : المقهورين على الحضور إلى مكان يود لو افتدى منه بملء الأرض ذهبا لم يقبل منه ، قال قتادة يحضره المؤمن والكافر ، قال مجاهد : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل ، وقال محمد بن كعب نزلت في حمزة وعلي وفي أبي جهل ، وقال السدي : نزلت في عمار والوليد بن المغيرة.
تنبيه : ثم لتراخي حال الإحضار عن حال التمتع في الزمان أو الرتبة ، وقرأ ثم هو قالون والكسائي بسكون الهاء ، والباقون بالضم.". (١)

٢٠-"وأصحابه وقرأ زيد بن علي ، وابن محيصن ، وأبو نهيك بضم التاء وفتح الهاء وكسر الجيم مشددة مضارع هجر بالتشديد ، وهو محتمل لأن يكون تضعيفا للهجر أو للهجر (أو للهجر) وقرأ ابن أبي عاصم كالعامة إلا أنه بالياء من تحت ، وهو التفات.
قوله : ﴿أفلم يدبروا القول﴾ أي : يتدبروا القول ، يعني ما جاءهم من القول وهو القرآن من حيث إنه كان مباينا لكلام العرب في الفصاحة ، ومبرأ من التناقض مع طوله ، فيعرفوا ما فيه من الدلالات على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة الصانع ، والوحدانية ، فيتركوا الباطل ، ويرجعوا إلى الحق ﴿أم جآءهم ما لم يأت آبآءهم الأولين﴾ واعلم أن إقدامهم على كفرهم وجهلهم لا بد وأن يكون لأحد أمور أربعة : الأول : أن لا يتأملوا دليل ثبوته ، وهو المراد من قوله : ﴿أفلم يدبروا القول﴾ وهو القرآن يعني : أنه كان معروفا لهم.
والثاني : أن يعتقدوا أن مجيء الرسول على خلاف العادة ، وهو المراد من قوله : ﴿أم جآءهم ما لم يأت آبآءهم﴾ وذلك أنهم عرفوا بالتواتر مجيء الرسول إلى الأمم السالفة ، وكانت الأمم بين مصدق ناج وبين مكذب هالك ، أفما دعاهم ذلك إلى تصديق الرسل.
وقال بعضهم : " أم " هاهنا بمعنى " بل " والمعنى بل جاءهم ما لم يأت آباءهم.
والثالث : أن لا يكونوا عالمين بديانته ، وحسن خصاله قبله ادعائه النبوة ، وهو المراد من قوله : ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ والمعنى : أنهم كانوا يعرفونه قبل أن يدعي الرسالة ، وكونه في نهاية الأمانة والصدق وغاية الفرار عن الكذب والأخلاق الذميمة ، وكانوا يسمونه الأمين ، فكيف كذبوه بعد أن اتفقت كلمتهم على تسميته بالأمين.
والرابع : أن يعتقدوا فيه الجنون ، فيقولوا إنما حمله على ادعاء الرسالة جنونه ، وهو المراد بقوله ﴿أم يقولون به جنة﴾.
وهذا أيضا ظاهر الفساد ، لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة أنه أعقل الناس ، فالمجنون كيف يمكنه أن يأتي بمثل ما أتى به من الدلائل القاطعة ، والشرائع الكاملة.

---

(١) تفسير السراج المنير . موافق للمطبوع ٣/١٠٨

وفي كونهم سموه بذلك وجهان :

٢٤١

أحدهما : أنهم نسبوه إلى ذلك من حيث كان يطمع في انقيادهم له ، وكان ذلك من أبعد الأمور عندهم ، فنسبوه إلى الجنون لذلك.

والثاني : أنهم قالوا ذلك إيهاما لعوامهم لئلا ينقادوا له ، فذكروا ذلك استحقارا له.

ثم إنه – تعالى – بعد أن عد هذه الوجوه ، ونبه على فسادها قال : ﴿بل جآءهم بالحق﴾ أي : بالصدق والقول الذي لا يخفى صحته على عاقل ﴿وأكثرهم للحق كارهون﴾ لأنهم تمسكوا بالتقليد ، وعلموا أنهم لو أقروا بمحمد لزالت رياستهم ومناصبهم ، فلذلك كرهوه.

فإن قيل قوله : ﴿وأكثرهم للحق كارهون﴾ يدل على أن أقلهم لا يكرهون الحق.

فالجواب : أنه كان منهم من ترك الإيمان أنفة من توبيخ قومه ، وأن يقولوا ترك دين آبائه لا كراهة للحق.

قوله : ﴿ولو اتبع الحق أهوآءهم﴾ الجمهور على كسر الواو لالتقاء الساكنين وابن وثاب بضمها تشبيها بواو الضمير كما كسرت واو الضمير تشبيها بها.

فصل قال ابن جريج ومقاتل والسدي وجماعة : الحق هو الله.

أي : لو اتبع الله مرادهم فيما يفعل وقيل : لو اتبع مرادهم ، فيسمي لنفسه شريكا وولدا كما يقولون ﴿لفسدت السماوات والأرض﴾.

وقال الفراء والزجاج : المراد بالحق : القرآن.

أي : نزل القرآن بما يحبون من جعل الشريك والولد على ما يعتقدون ﴿لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾ وهو كقوله : ﴿لو كان فيهمآ آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء : ٢٢].

٢٤٢

". (١)

٢١-"الفاني يعني أن من لا يرجح الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجا عن حد العقل ، ورحم الله الشافعي حيث قال : من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله – تعالى – لأن أعقل الناس من أعطي القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلين بالطاعة ، فكأنه رحمه الله إنما أخذه من هذه الآية.

وقرأ أبو عمرو " أفلا يعقلون " بالياء من تحت التفاتا ، والباقون بالخطاب جريا على ما تقدم.

قوله : " فمن وعدناه " قرأ طلحة " أمن وعدناه " بغير فاء " وعدا حسنا " يعني الجنة " فهو لاقيه " مصيبة ومدركه وصائر إليه ﴿كمن متعناه متاع الحياة الدنيا﴾ وتزول عن قريب ﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ النار ، وقرأ الكسائي وقالون :

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع ص/٣٧٧٩

" ثم هو " بسكون الهاء إجراء لها مجرى الواو والفاء ، والباقون بالضم على الأصل ، وتخصيص لفظ " المحضرين " بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن ، قال تعالى ﴿لكنت من المحضرين﴾ [الصافات : ٥٧] ﴿فإنهم لمحضرون﴾ [الصافات : ١٢٧] وفي اللفظ إشعار به ، لأن الإحضار يشعر بالتكليف والإلزام ، وذلك لا يليق بمجالس اللذة ، وإنما يليق بمجالس الضرر والمكاره.

قوله : ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركآئي الذين كنتم تزعمون﴾ في الدنيا أنهم شركائي وتزعمون أنها تشفع فتخلصكم من هذا الذي نزل بكم ، وتزعمون مفعولاه محذوفان أي : (تزعمونهم شركاءه) ، ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ أي : وجب عليهم العذاب وهم رؤوس الضلالة وقيل : الشياطين.

أحدهما : أن هؤلاء مبتدأ ، والذين أغوينا صفته والعائد محذوف ، أي أغويناهم ، والخبر " أغويناهم " ، و "كما غوينا " نعت لمصدر محذفو ، ذلك المصدر مطاوع لهذا الفعل أي فغووا غيا كما غوينا ، قاله الزمخشري ، وهذا الوجه منعه أبو علي ،

٢٧٨

قال : لأنه ليس في الخبر زيادة فائدة على ما في صفته ، قال : فإن قلت : قد أوصل بقوله كما غوينا وفيه زيادة ، قلت : الزيادة في الظرف لا يصيره أصلا في الجملة لأن الظرف صلات ، ثم أعرب هو " هؤلاء " مبتدأ و " الذين أغوينا " خبره ، و " أغويناهم " مستأنف ، وأجاب أبو البقاء وغيره عن الأول بأن الظرف قد يلزم كقولك زيد عمرو في داره.

فصل المعنى : هؤلاء الذين دعوناهم إلى الغي وهم الأتباع ﴿أغويناهم كما غوينا﴾ أضللناهم كما ضللنا " تبرأنا إليك " منهم.

قوله : ﴿ما كانوا اا إيانا يعبدون﴾ إيانا مفعول " يعبدون " قدم لأجل الفاصلة وفي " ما " وجهان : أحدهما : هي نافية (أي تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا).

والثاني : مصدرية ولا بد من تقدير حرف جر أي : تبرأنا مما كانوا أي من عبادتهم إيانا ، وفيه بعد.

قوله : ﴿وقيل ادعوا شركآءكم﴾ أي : وقيل للكافلين ادعوا شركاءكم ، أي : الأصنام لتخلصكم من العذاب " فدعوهم " (فلم يستجيبوا) لهم لم يجيبوهم ، والأقرب أن هذا على سبيل التقريع ، لأنهم يعلمون أنه لا فائدة في دعائهم لهم.

قوله : ﴿لو أنهم كانوا﴾ جوابها محذوف أي : لما رأوا العذاب ، أو لدفعوه ، قال الضحاك ومقاتل : يعني المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما أبصروا في الآخرة ، وقيل : لو أنهم كانوا مهتدين في الدنيا لعلموا أن العذاب حق ، وقيل : لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب.

وقيل قد آن لهم أن

٢٧٩

." (١)

٢٢-"وأجيب بالمنع ولو سلم فلم لا يكفي الفصل بغشي أو نوح خفيف . ولو سلم أنه لا يكفي فلم استحال أن يجهل النبي ذلك كما جهل عدم جواز الرؤية زعمكم حين قال : ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ومما يدل على أن آدم قبل وسوسته قوله تعالى : ﴿ فأكلا ﴾ بالفاء مشعر بالعلية كقول الصحابي : « زنى ماعز فرجم » وما في الآية قد مر تفسيره في « الأعراف » إلا قوله : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ قال بعض الناس : إن آدم ذنبه كبيرة وإلا لم يوصف بالعصيان والغواية فإن العاصي والغاوي اسمان مذمومان عرفا وشرعا وقد ترتب الوعيد عليهما . وأجيب بأن المعصية مخالفة الأمر والأمر قد يكون مندوبا . وزيف بالمنع من أن المندوب غير مأمور به . ثم أن مخالفة عاص وإلا كان الأنبياء كلهم عصاة لأنهم لا ينكفون عن ترك المندوب . قالوا : يقال أشرت إليه في أمر كذا فعصاني وأمرته بشرب الدواء فعصاني . وأجيب بالمنع من أن هذا من مستعملات العرب العاربة ، ولو سلم فلعله إنما يقال ذلك إذا عرف أن المستشير لا بد له أن يفعل ذلك ، وحينئذ يكون معنى الإيجاب حاصلا وإن لم يكن وجوب شرعي لأن ذلك الإيجاب لم يصدر عن الشارع . ومنهم من زعم أنه ذنب صغير وهم عامة المعتزلة ورد بأن المعاصي إسم من يستحق العقاب وهذا لا يليق بالصغيرة . وأجاب أبو مسلم الأصفهاني بأنه عصى في مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف ولهذا قال سبحانه ﴿ فغوى ﴾ أي خاب من نعيم الجنة لأن الرشد هو أن يتوصل بشيء إلى شيء فيصل إلى المقصود والغي ضده ، وأنه سعى في طلب الخلود فنال ضد المقصود . وعن بعضهم ﴿ فغوى ﴾ أي بشم من كثرة الأكل وزيفه جار الله . ورد قول أبي مسلم بأن مصالح الدنيا تكون مباحة فلا يوصل تاركها بالعصيان .

قلت : في هذا نظر ، والأحوط في هذا الباب أن يعتقد كون هذه الواقعة قبل النبوة بدليل قوله : ﴿ ثم اجتباه ربه ﴾ أي اختاره للرسالة ﴿ وهدى ﴾ لحفظ أسباب العصمة . أصل الاجتباء هو الجمع كما مر في آخر « الأعراف » . يروى عن أبي أمامة : لو وزنت أحلام بني آدم لرجح حلمه . وقد قال الله تعالى : ﴿ ولم نجد له عزما ﴾ قال العلماء : فيه دليل على أنه لا راد لقضائه وما قدره كائن لا محالة ، وإذا جاء القضاء عمي البصر والدليل قد يكون غاية الظهور ومع ذلك يخفى على أعقل الناس كما خفي على آدم عداوة إبليس ، وأنه تعرض لسخط الله في شأنه حين امتنع من سجوده فكيف قبل من وسوسة ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ [الأنفال : ٦٨] قال المحققون : الأولى أن لا يطلق لفظ العاصي والغاوي على آدم عليه السلام وإن ورد في القرآن ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ لأنه لم تصدر عنه الزلة إلا مرة واحدة .". (٢)

٢٣-"ومعنى ﴿ إلا قليلا ﴾ قال ابن عباس : أي لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يوما أو ساعة . ويجوز أن يكون شؤم معاصيهم بقي في ديارهم فكل من سكنها من أعقابهم لم يسكن إلا قليلا . ﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾ كقوله ﴿

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع ص/٤٠١٦

(٢) تفسير النيسابوري ٥/٣٢٣

ولله ميراث السموات والأرض ﴾ [آل عمران : ١٨٠] لأنه الباقي بعد فناء خلقه . ثم كان لسائل أن يقول : ما بال الكفرة قبل مبعث محمد A لم يهلكوا مع تماديهم في الغي؟ فقال ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها ﴾ اي في القرية التي هي قصبتها وأصلها وغيرها من توابعها وأعمالها ﴿ رسولا يتلو عليهم آياتنا ﴾ بوحي وتبليغ وذلك لتأكيد الحجة وقطع المعذرة . قال في الكشاف : يحتمل أن يراد وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أم القرى – يعني مكة – رسولا وهو محمد A خاتم الأنبياء . وكان لقائل أن يقول : ما بال الكفار بعد مبعث محمد لم يهلكهم الله مع تكذيبهم وجحودهم فقال ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فمنهم من قد آمن ومنهم من سيؤمن ومنهم من يخرج من نسله من يؤمن . ثم اجاب عن شبهتهم بجواب ثالث وذلك أن حاصل شبهتهم أن قالا : تركنا الدين لأجل الدنيا . فبين تعالى بقوله ﴿ وما أوتيتم من شيء ﴾ الآية . أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقى لأنه أكثر وأدوم . ونبه على جهلهم بقوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ويرحم الله الشافعي حيث قال : إذا أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى ، لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير . نظير الاية قوله A « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » قال البرهان : إنما السورة « وما أوتيتم » الواو وفي الشورى ﴿ فما أوتيتم ﴾ [الآية : ٣٦] بالفاء لأنه لم يتعلق بما قبله ههنا كثير تعلق ، وقد تعلق في الشورى بما قبلها أشد تعلق ، ولأنه عقب ما لهم من المخافة ما أوتوه من الأمنة والفاء حرف التعقيب والواو والمجرد العطف . وإنما زاد في هذه السورة ﴿ وزينتها ﴾ . لأن المراد ههنا جميع أعراض الدنيا من الضرورات ومن الزين ، فالمتاع مالا غنى عنه من المأكول والمشروب والملبوس والمسكن والمنكوح ، والزينة وغيرها كالثياب الفاخرة والمراكب الرائعة والدور المشيدة . وأما في « الشورى » فلم يقصد الاستيعاب بل ما هو مطلوبهم في تلك الحالة من النجاة والأمن في الحياة فلم يحتج إلى ذكر الزينة . ثم زاد البيان المذكور تأكيدا بقوله ﴿ افمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه ﴾ لأن وعد الله يترتب عليه الإنجاز البتة وصاحبه يلقى الموعود لا محالة .". (١)

٢٤-"ومنهم من قال : إن هذه المدة على سبيل التقدير لا على سبيل التحقيق . والمعنى أنه لو اشتغل بذلك القضاء والحكومة أعقل الناس وأدهاهم لبقي فيه خمسين ألف سنة . ثم إنه تعالى يتمم ذلك القضاء والحكومة في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا . وأيضا الملائكة يعرجون إلى مواضع لو أراد واحد من أهل الدنيا أن يصعد إليها لبقي في ذلك الصعود خمسين ألف سنة ثم إنهم يصعدون إليها في ساعة . قاله وهب وجماعة من أهل التفسير . وقال أبو مسلم : إن هذا اليوم الدنيا كلها من أول ما خلق العالم إلى القيامة وفيه يقع عروج الملائكة . ثم لا يلزم من هذا أن يصير وقت القيامة معلوما لأنا لا ندري كم مضى وكم بقي . ومر في « ألم السجدة » . وقال جمع من المفسرين قوله ﴿ في يوم ﴾ من صلة ﴿ واقع ﴾ أي يقع ذلك العذاب في يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنيكم وهو يوم القيامة . وثم يحتمل أن يكون المراد منه استطالة ذلك اليوم لشدته على الكفار ، ويحتمل أن العذاب الذي سأله السائل يكون مقدرا بهذه المدة ثم ينقله الله

---

(١) تفسير النيسابوري ١٥٧/٦

تعالى إلى نوع آخر من العذاب . يروى عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس سئل عن هذه الآية وعن قوله ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ فقال : أيام سماها الله هو أعلم بها كيف تكون وأكره أن أقول فيها ما لا علم لي به . وقال وهب في الجواب : من أسفل العالم إلى أعلى شرف العرش مسيرة خمسين ألف سنة ، ومن أعلى السماء الدنيا إلى الأرض مسيرة ألف سنة ، لأن عرض كل سماء من السموات السبع مسيرة خمسمائة سنة ، وبين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة أخرى ، فالمراد مقدار ألف سنة لو صعدوا إلى سماء الدنيا ومقدار خمسين ألف سنة لو صعدوا إلى العرش . وفي قوله ﴿ فاصبر صبرا جميلا ﴾ تسلية للنبي A كأنه قيل له : إن العذاب قرب وقوعه فاصبر فقد شارفت الانتقام قال الكلبي : هذه الآية نزلت قبل أن يؤمر الرسول بالقتال إنهم يرون العذاب أو يوم القيامة بعيد الأمد بعيدا عن الإمكان ﴿ ونراه قريب ﴾ منه ثم قال ﴿ يوم ﴾ أي اذكر يوم ﴿ تكون السماء كالمهل ﴾ كدردي الزيت . عن ابن مسعود : كالفضة المذابة . ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ أي الصوف المصبوغ ألوانا لقوله ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾ [فاطر : ٢٧] وجوز جار الله أن ينتصب ﴿ يوم ﴾ ب ﴿ قريبا ﴾ أو بإضمار يقع لدلالة واقع عليه ، أو يراد به يوم تكون السماء كالمهل كان كيت وكيت ، أو هو بدل من يوم القيامة فيمن علقه ﴿ بواقع ﴾ قوله ﴿ ولا يسأل حميم ﴾ من قرأ بفتح الياء فظاهر أي لا يسأله بكيف حالك لاشتغال كل بنفسه ، ومن قرأ بالضم فالمعنى لا يسأل حميم عن حميم ليعرف شأنه من جهته كما يتعرف خبر الصديق من جهة صديقه فيكون على حذف الجار .". (١)

٢٥-"واعلم أن الإنسان وقت كونه نطفة ينكر صيرورته بشرا سويا في الزمان الآتي وعند تصوره بصورة البشر يلزمه الحجة فإنكاره الحشر إنكار عين ما كان فيه : وفي "المثنوي" :

س مثال توو آن حلقه زنيست

كزدرونش خواجه كويدخواجه نيست

حلقه زن زين نيست دريابدكه هست

س زحلقه برندارد هي دست

س هم انكارت مبين ميكند

كز جماد اوحشر صدفن ميكند

والإشارة ﴿ثم﴾ إن الله تعالى ﴿قضى﴾ للروح من حكمته ﴿أجلا﴾ لأيام فراقه عن الحضرة وبعده عن وطنه الحقيقي ﴿وأجل مسمى عنده﴾ وهو أجل الوصلة بعد الفرقة في مقام العندية كقوله

٦

﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ (القمر : ٥٥) فلأجل الفرقة مدى ومنتهى ولأجل الوصلة لا مدى ولا منتهى ، وإنما قال مسمى : لأن وقت الوصلة مسمى عنده وهو حين يجذبه إليه بجذبة ارجعي إلى ربك ولأيام الوصلة ابتداء وهو

(١) تفسير النيسابوري ٢١٢/٧

حين تطلع شمس التوحيد من مشرق القلوب إلى أن تبلغ حد استواء الوحدة ، ثم تتسرمد فلا غروب لها.
﴿ثم أنتم تمترون﴾ يا أهل الوصلة كما يمتري أهل الفرقة هذا محال جدا فعلى العاقل الاجتهاد قبل حلول الأجل والتهيؤ للوصول بحسن التوجه والعمل.
قال بعض المشايخ : من ضيع حكم وقته فهو جاهل ، ومن قصر فيه فهو غافل وفي الحديث : "إنخواص يسكنهم الرفيع من الجنان ، كانوا أعقل الناس كان هممهم المسابقة إلى ربهم عز وجل والمسارعة إلى ما يرضيه زهدوا في الدنيا وفي فضولها وفي رياستها ونعيمها فهانت عليهم فصبروا قليلا واستراحوا طويلا" .. روي .. أن السري السقطي قدس سره دخل عليه أبو القاسم الجنيد قدس سره وهو يبكي فقال له : ما يبكيك؟ قال : جاءتني البارحة الصبية ، فقالت : يا أبت هذه ليلة حارة وهذا الكوز تعلقه ههنا ، قال السري : فغلبتني عيناي فنمت فرأيت جارية من أحسن الخلق قد نزلت من السماء ، فقلت : لمن أنتت؟ قالت : لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان فتناولت الكوز وضربت به الأرض ، قال الجنيد : فرأيت الخزف المكسور ولم يرفعه حتى عفا عليه التراب يا هذا انظر إلى تركهم النعيم لم يرضوا لأنفسهم أن يشربوا ماء باردا أو يأكلوا طعاما لذيذا فحين راقبوا الأوقات عوضهم الله حالات خارجة عن حسابات الساعات فلا انتهاء لأذواقهم أصلا.
جزء : ٣ رقم الصفحة : ٢
﴿وهو﴾ أي : الله تعالى مبتدأ خبره قوله : ﴿الله﴾ باعتبار المعنى الوصفي أي المعبود ولذا تعلق به قوله : ﴿فى السماوات وفى الأرض﴾ والمعنى وهو المعبود والمستحق للعبادة فيهما ولا يلزم من كونه تعالى معبودا فيهما كونه متحيزا فيهما فإنه منزه عن الزمان والمكان .. روي .. أن إمام الحرمين أستاذ الإمام الغزالي نزل ببعض الأكابر ضيفا فاجتمع عنده العلماء والأكابر فقام واحد من أهل المجلس فقال ما الدليل على تنزهه عن المكان وهو قال : ﴿الرحمان على العرش استوى﴾ (طه : ٥) فقال : الدليل عليه قول يونس في بطن الحوت ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾ (الأنبياء : ٨٧) فتعجب منه الناظرون فالتمس صاحب الضيافة بيانه فقال الإمام إن ههنا فقيرا مديونا بألف درهم أد عنه دينه حتى أبينه فقبل صاحب الضيافة دينه فقال إن رسول الله لما ذهب في المعراج إلى ما شاء الله من العلي قال هناك "لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك" ولما ابتلى يونس عليه السلام بالظلمات في قعر البحر ببطن الحوت قال : ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾ فكل منهما خاطبه بقوله أنت وهو خطاب الحضور ولو كان هو في مكان لما صح ذلك فدل ذلك على أنه ليس في مكان ﴿يعلم سركم وجهركم﴾ خبر ثان ، أي : ما أسررتموه وما جهرتم به من الأقوال ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ أي : ما تفعلون لجلب نفع أو دفع ضر من الأعمال المكتسبة بالقلوب أو بالجوارح سرا وعلانية فيجازيكم على كل ذلك إن خيرا فخير وإن شرا فشر.
وفي "التأويلات النجمية" : ﴿وهو الله فى السماوات﴾ أي : في سموات الوجود ﴿وفى الأرض﴾ أي في أرض النفوس ﴿يعلم سركم﴾ الذي أودع فيكم وهو سر الخلافة الذي اختص به الإنسان لقبول الفيض الإلهي ﴿وجهركم﴾ أي ما هو
٧
ظاهر منكم من الصفات الحيوانية والأحوال النفسانية ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ باستعمال الاستعداد السري والجهري في المأمورات والمنهيات من الخير والشر وقد خص الإنسان بهذا الكسب أيضا دون الملك والحيوان فإن الملك لا يقدر إن

يكتسب من الصفات الحيوانية شيئا ولا الحيوان قادر على إن يكتسب من الصفات الملكية شيئا والإنسان متصرف في هاتين الصفتين وله اكتساب التخلق بأخلاق الله بالتقرب إلى الله بأداء ما افترض عليه والتزام النوافل واجتناب النواهي إلى أن يصير من خير البرية وله أيضا أن يكتسب من الشر ما يصير به شر البرية انتهى.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٢

". (١)

٢٦-"هو ربكم خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته وإليه ترجعون فيجازيكم على أعمالكم لا محالة.

أم يقولون قوم نوح افتريه الضمير المستتر المرفوع لنوح عليه السلام والبارز للوحي الذي بلغه إليهم.

قل يا نوح إن افتريته بالفرض البحت فهو لا يدل على أنه كان شاكا بل هو قول يقال : على وجه الإنكار عند اليأس من القبول فعلي إجرامي أي : وبال إجرامي وهو كسب الذنب فالمضاف محذوف ، وإن كنت صادقا فكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب فحذف لدلالة قوله تعالى : وأنا برىء مما تجرمون عليه ، أي : من إجرامكم في إسناد الافتراء إلي فلا وجه لإعراضكم عني ومعاداتكم لي.

وفيه إشارة إلى أن ذنوب النفس لا تنافي صفاء الروح ولا يتكدر الروح بها ما دام متبرئا منها لكن كل من القوى يتكدر بما قارفه من ذنوب نفسه ، فالجهل يكدر الروح والميل إلى ما سوى الله تعالى يكدر القلب ، والهوى يكدر النفس والشهوة تكدر الطبيعة.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ١٢٠

فعلى العاقل تجلية هذه المرائي وتصقيلها له تعالى والتوجه إلى الحضرة العلياء والعمل على وفق الهدى وترك المشتهيات.

قال حضرة شيخنا العلامة أبقاه الله بالسلامة : الإنسان ، أما حيواني وهم الذين غلب عليهم أوصاف الطبيعة وأحوال الشهوة ، وأما شيطاني وهم الذين غلب عليهم أوصاف النفس وأحوال الشيطنة ، وأما ملكي وهم الذين غلب عليهم أوصاف الروح وأحوال الملكية ، وإما صاحب الجانبين وهم الذين استوى واشترك فيهم وصف الطبيعة والنفس ووصف الملكية والروح.

وإما رحماني وهم الذين غلب عليهم وصف السر وحاله ثم الثلاثة الأول من يخرج منهم بالإيمان من النيا فهم يدخلون الجنة بالفضل أو بعد إقامة العدل وهم أصحاب اليمين وأرباب الجمال ، ومن يخرج من الدنيا بلا إيمان فيدخلون الجحيم بالعدل وهم أصحاب الشمال وأرباب الجلال ، والرابع : من يخرج منهم بالإيمان فهم أهل الأعراف والخامس : هم أرباب الكمال السابقون المقربون وما منا إلاله مقام معلوم ورزق مقسوم ، ثم الحيوانيون بعدما خرجوا من الدنيا يحشرون مع الشياطين والملكيون يحشرون مع الملائكة وأصحاب الجانبين يحشرون بين الطرفين والرحمانيون يحشرون مع قرب الرحمن قال عليه السلام : تموتون كما تعيشون وتحشرون كما تموتون انتهى كلامه.

---

(١) تفسير روح البيان . موافق للمطبوع ٥/٣

قال يحيى بن معاذ الرازي : الناس ثلاثة أصناف ، رجل شغله معاده عن معاشه.

ورجل شغله معاشه عن معاده ، ورجل مشتغل بهما جميعا فالأول : درجة الفائزين ، والثاني : درجة الهالكين ، والثالث : درجة المخاطرين وفي الحديث : إنخواص يسكنهم الرفيع من الجنان كانوا أعقل الناس قالوا يا رسول الله : كيف كانوا أعقل الناس؟ قال : كانت همتهم المسابقة إلى ربهم والمسارعة إلى ما يرضيه ، وزهدوا في الدنيا وفي رياستها ، وفي فضولها ونعيمها فهانت عليهم فصبروا قليلا ، واستراحوا طويلا.

تاكى م دنياي دنى اي دل دانا

حيفست زخوبى كه شود عاشق زشتى

١٢١

وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك أي : المصرين على الكفر ، وهو إقناط له عليه السلام من إيمانهم وإعلام لكونه كالمحال الذي لا يصح توقعه إلا من قد آمن.

وقال المولى أبو السعود رحمه الله : هذا الاستثناء على طريقة قوله تعالى : إلا ما قد سلف﴾(النساء : ٢٢) وقد سبق في أواخر سورة النساء.

وقال سعدي المفتي : إن قيل من قد آمن لا يحدث الإيمان بل يستمر عليه فكيف صح اتصال الاستثناء؟ قلنا قد تقرر أن لدوام الأمور المستمرة حكم الابتداء ولهذا لو حلف لا ألبس هذا الثوب وهو لابسه فلم ينزعه في الحال يحنث ومبنى الأيمان على العرف.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ١٢٠

وقال القطب العلامة : ﴿إلا من قد ءامن﴾ قد استعد للإيمان وتوقع منه ولا يراد الإيمان بالفعل وإلا لكان التقدير إلا من قد آمن فإنه يؤمن.

فلا تبتئس بما كانوا يفعلون هو تفتعل من البؤس ومعناه الحزن في استكانة وهي الخضوع ، أي : لا تحزن حزن بائس مستكين ، ولا تغتم بما كانوا يتعاطون من التكذيب والإيذاء في هذه المدة الطويلة فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم ، وعن النبي إنه قال : إن نوحا كان إذا جادل قومه ضربوه حتى يغشى عليه ، فإذا أفاق قال : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون انتهى.

ولما جاء هذا الوحي من عند الله تعالى دعا عليهم فقال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾(نوح : ٢٦).

وفي "المثنوى" :

نا حمولى انبيارا از امر دان

ورنه حمالست بدرا حلمشان

طبع راكشتند اندر حمل بد

نا حمولى كركند از حق بود

قال حضرة الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر : أول ما يتخلق المتخلق بعدم التأذي بأذى الأنام باحتماله صبرا ، وواسطته

أن لا يجدهم مؤذين لأنه موحد فيستوى عنده المسيء والمحسن في حقه ، وخاتمته أن يرى المسيء محسنا إليه فإنه عالم بالحقائق متحقق بالتجلي الإلهي وهي بداية التحقيق.

". (١)

٢٧-"والتعريف في العباد للاستغراق : لأن رأفة الله شاملة لكل الناس مسلمهم وكافرهم ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ [فاطر : ٤٥] ﴿الله لطيف بعباده﴾ [الشورى : ١٩] وما وعيدهم إلا لجلب صلاحهم ، وما تنفيذه بعد فوات المقصود منه إلا لصدق كلماته ، وانتظام حكمته سبحانه. ولك أن تجعل أل عوضا عن المضاف إليه أي بعباده فيكون بشارة للمؤمنين. أ هـ ﴿التحرير والتنوير حـ ٣ صـ ٧٧ ـ ٧٨﴾

موعظة

قال فى روح البيان :

اعلم ما يعمله الإنسان أو يقوله ينتفش فى صحائف النفوس السماوية وإذا تكرر صار ملكة راسخة لكنه مشغول عن تلك الهيآت الثابتة فى نفسه ونقوشها بالشواغل الحسية والوهمية والفكرية فإذا فارقت النفس الجسد وقامت قيامتها وجدت ما عملت من خير وشر محضرا لارتفاع الشواغل المانعة كقوله تعالى ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ فإن كان شرا تتمنى البعد فيما بينها وما بين ذلك اليوم أو ذلك العمل لتعذبها به فتصير تلك الهيآت صورتها إن كانت راسخة والأصورة تعذبها وتعذبت بحسبها ومن الله العصمة

فعلى العاقل أن يزكى نفسه عن الأخلاق الذميمة ويطهر قلبه عن لوث العلائق الدنيوية ويجتهد فى تحصيل مرضاة الله بالأعمال الصالحة والأقوال الحقة كى يجدها عند ربه يوم احتياجه ويفوز بالسعادة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط وأظمأ ما كانوا قط وأعرى من كانوا قط وأنصب ما كانوا قط فمن أطعم الله أطعمه ومن سقى الله سقاه ومن كسا الله كساه ومن عمل لله كفاه ". ﴿أخرجه الديلمى فى "مسند الفردوس" (٥ / ٤٦٨)﴾. أ هـ ﴿روح البيان حـ ٢ صـ ٢٨ ـ ٢٩﴾

لطيفة

قال الثعالبي :

عن منصور بن عمار ؛ أنه قال : أعقل الناس محسن خائف ، وأجهل الناس مسيء آمن ، فلما سمع عبد الملك بن مروان منه هذا الكلام ؛ بكى حتى بل ثيابه ، ثم قال له : اتل علي ، يا منصور ، شيئا من كتاب الله ، فتلا عليه : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا... ﴾ الآية ، فقال عبد الملك : قتلتني ، يا منصور ، ثم غشي عليه. أ هـ ﴿الجواهر

---

(١) تفسير روح البيان ـ موافق للمطبوع ٤/٧٣

الحسان حـ ١ صـ ٢٥٧﴾". (١)

٢٨-"والجواب : إن عادة الله تعالى جارية بأن عقوبة الاستئصال إذا نزلت بقوم هلكت معهم الأولاد والنساء ، فيكون ذلك في حق البالغين عقابا ، وفي حق الصبيان لا يكون عقابا ، بل يكون جاريا مجرى إماتتهم وإيصال الآلام والأسقام إليهم ومعلوم أن شفقة الإنسان على أولاده وأهله شديدة جدا فربما جعل الإنسان نفسه فداء لهم وجنة لهم ، وإذا كان كذلك فهو عليه السلام أحضر صبيانه ونساءه مع نفسه وأمرهم بأن يفعلوا مثل ذلك ليكون ذلك أبلغ في الزجر وأقوى في تخويف الخصم ، وأدل على وثوقه صلوات الله عليه وعلى آله بأن الحق معه.

السؤال الثاني : هل دلت هذه الواقعة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؟.

الجواب : أنها دلت على صحة نبوته عليه السلام من وجهين

أحدهما : وهو أنه عليه السلام خوفهم بنزول العذاب عليهم ، ولو لم يكن واثقا بذلك ، لكان ذلك منه سعيا في إظهار كذب نفسه لأن بتقدير : أن يرغبوا في مباهلته ، ثم لا ينزل العذاب ، فحينئذ كان يظهر كذبه فيما أخبر ومعلوم أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان من أعقل الناس ، فلا يليق به أن يعمل عملا يفضي إلى ظهور كذبه فلما أصر على ذلك علمنا أنه إنما أصر عليه لكونه واثقا بنزول العذاب عليهم

وثانيهما : إن القوم لما تركوا مباهلته ، فلولا أنهم عرفوا من التوراة والإنجيل ما يدل على نبوته ، وإلا لما أحجموا عن مباهلته.

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : إنهم كانوا شاكين ، فتركوا مباهلته خوفا من أن يكون صادقا فينزل بهم ما ذكر من العذاب ؟.

قلنا هذا مدفوع من وجهين

الأول : أن القوم كانوا يبذلونه النفوس والأموال في المنازعة مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولو كانوا شاكين لما فعلوا ذلك". (٢)

٢٩-"ج٢ص٥٥

والتقريع اللوم الشديد وقد مر بيان مأخذه والوعيد من قوله ة ﴿ فاتقوا ﴾ الخ وكون السورة أقصر سورة مع تنكيرها لأنه أقل ما يصدق عليه ، وعجزهم مع تهالكهم أدل دليل على ذلك والمهج جمع مهجة والمراد بها النفس هنا والجلاء بالكسر والمد

ترك الوطن والرحلة عنه. قوله : (والثاني تضمنهما الخ) هذا من قوله : ﴿ ولن تفعلوا ﴾ النفي ما

في المستقبل حالا وقد تحقق انتفاؤه وهذا وإن كان من الآية الثانية لكن لما كان المراد من

---

(١) جامع لطائف التفسير ٣٥٠/١٢

(٢) جامع لطائف التفسير ٥٤/١٤

﴿ ولن تفعلوا ﴾ الإتيان بتلك السورة وهو إنما يتضح بقرينة الأولى نسبه إليهما وقد أعترض! عليه
بان عجز طائفة مخصوصة لا يدل على عجز كل من عداهم في المستقبل فصدق الأخبار إنما يعلم بعد انقراض الأعصار كلها؟ جوابه يعلم مما ذكر. من اشتهارهم بالفصاحة وكونهم فرسان ميدان البلاغة الذين لا يمكن أن يدانيهم أحد في ذلك فإذا عجز مثلهم علم عجز غيرهم قطعا وأما كونه خطاب مشافهة مختصأ بالموجودين ف!ذا انقرضوا علم صدقه فليس بشيء ولما ورد عليه أنه لا يلزم من عدم العلم بشيء عدمه دفعه بقوله فإنهم لو عارضوه إلى آخره. قوله :) سيما والطاعنون فيه الخ) الطعن هو القدح في الشيء بإسناد ما هو معيب إليه بزعمه ، والذت بمعنى الدفع ويرد عليه أنه حذف لا من سيما وأتى بالواو بعدها وقد نص النحويون على عدم جوازه وأنه خطأ ، وفي شرح التسهيل للدماميني بعد ما ذكر أن سي بمعنى مثل وما زائدة أو موصولة وما بعدها أولى بالحكم وليس بمستثنى خلافا للنحاس والزجاج والفارسي وغيرهم من أهل العربية ووجهه أنه يخرج عما قبله من حيث أولويتة بالحكم المتقدم ويقال لا سيما بتخفيف الياء وما يوجد في كلام المصنفين من قولهم لا سيما والأمر كذا تركيب غير عربي ، وقال أبو حيان : عا يوجد من كلا ع! المولدين من قولهم سيما بحذف لا لا يوجد إلا في كلام من لا يحتج بكلامه وسي منصوب على أنه اسم لا انتهى. (أقول) هذا محصل ما ذكره في باب الاستثناء وما ذكر من الشخطئة سبقه إليه كثير من النحاة لكنه غير مسلم ، أما حذف لا فقد حكاه الرضي وقول الدماميني ، إني لم أقف عليه لا يسمع مع نقل الثقة وأما وقوع الجملة المقترنة بواو الحال بعدء فقد قال ابن الصائغ ومن خطه نقلت أنهم منعوه وقد وجدت في كلام السخاوي في شرح المفصل ما يقتفي جوازه. قال : إذا وقعت الجملة بعد لا سيما كقولك فلان مستحق لكذا لا سيما وقد فعل كذا فما كافة لسي عن الإضافة كربما يود والجملة في موضع الحال انتهى. وهو في غاية الظهور ، وأي مانع من حذف لا مع القرينة الدالة عليها وقد ذكروا وقوع الحال بعدها وجوزوا فيئ ما أن تكون كافة كما صرح به المعترض ومع هذا كيف يكون مثله خطأ ومن هنا علمت أن قوله قدس سره في شرح قول صاحب المواقف لا سيما والهمم قاصرة قوله والهمم !اصرة جملة مؤولة بالظرف نظرا إلى قرب الحال من ظرف الزمان فصح وقوعه! صلة لما ، وهذا من قبيل الميل إلى المعنى والإعراض عما يقتضيه اللفظ بظاهره
أي لا مثل انتفائه في زمان قصورا لهمم انتهى تكلف بارتكاب ما لا يليق بالعربية ولبعض الناس هنا كلام تركه خير من ذكره. قوله : (والثالث أنه عليه الصلاة والسلام ايخ) يعني أنه عليه الصلاة والسلام قد علم من حا له أنه أعقل الناس وأصدقهم لهجة فإذا بالغ في دعواه للمعارضة
من غير مبالاة علم تيقنه لحقية ما عنده وهذا استدلال مبني على ظاهر الحال لا برهان عقلي حتى يقال عليه إن عدم شك المدعي في دعواه لا يصير دليلا على صحة مدعاه لجواز أن يكون جزمه غير مطابق للواقع كما توهم ، ونحوه ما قيل إنه إنما يدل على صحة نبوته لو ثبتت عصمته عن الخطأ وهو فرع ثبوت نبوته فإثباته به مصادرة والمصنف رحمه الله تبع الإمام فيه وصاحب الكشاف لم يتعرض له لذلك وشدبر ، وقوله فتدحض بدال وبحاء مهملة وضاد معجمة مرفوع أو منصوب وهو إما مضارع دحض يدحض كسأل يسأل بصيخة المبني للفاعل أو مضارع أدحض مزيده مبنيا للفاعل أو المفعول ، والحجة الداحضة الزائلة يقال أدحضت فلانا في حجته فدحض وأدحضت حجته فدحضت وهو استعارة من دحض الرجل وهو زللها ، ثم شاع حتى صار حقيقة فيما ذكر وقوله دل على أن النار مخلوقة معدة الآن كون النار والجنة موجودتين الآن

مذكور في كتب الكلام مقرر". (١)

٣٠-"ج٨ص٢٣٣

أي لما آذوه حين عرض نفسه على القبائل بمكة ، وهو مشهور فإن كانت في قصة أحد فالآية مدنية كما مرت الإشارة إليه في أول السورة. قوله : (واللام دليلها ا لأنها لا تدخل بعد النافية ، ولذا تسمى الفارقة على ما عرف عند النحاة والشزر بشين وزاي معجمتين ثم راء مهملة نظرا لغضبان بمؤخر عينه وهو معروف وقوله : يزلون قدمك أي يزيلون ثباتها ويرهقونها وهو من أبلغ المعاني وألطفها كقوله :

يتقارضون إذا التقوا في موطن نظرا يزل مواطئ الأقدام

قوله : (عيانون) أي كثيرون في الإصابة بالعين يقال : عانه يعينه إذ نظر إليه فأثر نظره فيه ،

وقد قيل : إن قراءة هذه الآية تدفع ضرر العين وقوله وفي الحديث الخ هو حديث صحيح ذكره السيوطي في الجامع الصغير من عدة طرق وقوله : لتدخل الخ عبارة عن إهلاك كل ما أصابته وفي العين وكونها حقا وردت أحاديث كثيرة. قوله : (ولعله يكون من خصائص بعض النفوس الخ) هو لا ينافي مذهب أهل السنة من أن الإصابة بمحض خلق الله كما توهم فإنه لا مانع من خلقها في بعض دون بعض ، وجعله مختصا به بمحض خلقه كما خص السم بالعقرب والحية ، وفي كتاب الروح تأثير النفس لا ينكر لا سيما عند تجردها من علائق البدن كمن نظر

إلى حجر عظيم فشقه أو إلى نعمة فأزالها وهو مما يشاهد على اختلاف الأعصار ، ويضيفونه إلى العين باعتبار أن النفس تؤثر بواسطتها غالبا وقد لا يكون بواسطة كان يوصف له شيء فتتوجه له نفسه فتفسده انتهى ولا عبرة بإنكار بعض المبتدعة له ، وقال بعض أصحاب الطبائع : إنه ينبعث من العين قوة سمية تؤثر فيما نظره كما فصل في شرح مسلم ، وقالط القاضي عياض يجتنب من عرف بذلك وينبغي للإمام حبسه ومنعه عن مخالطة الناس كفا لضرره فيرزقه من بيت المال ، وقوله : ليرهقونك يحتمل الإهمال والإعجام وقوله : حيرة الخ أي لا جهلا به فإنهم يعلمون أنه أعقل الناس ، وقوله : وما هو الخ جملة حالية من فاعل يقولون والرابط الواو فقط أو من عموم العالمين الشامل لهم ، وقوله : جننوه أي نسبوه للجنون بواسطة تسليط الجن عليه بزعمهم لأجل نزول القرآن ، المعجز عليه لقولهم : إنه كهانة والقاء عليه من الجن وقوله : بين الخ إشارة إلى أنه تكذيب من الله لهم ، قوله وعن النبي حديث موضوع. تمت السورة والحمد لله وأفضل صلاة وسلام على أفضل الأنام وآله وصحبه الكرام.

سورة الحاقة

لم يختلف في نزولها وعدد آياتها.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله : (أي الساعة) والقيامة المعروفة لأنها تسمى ساعة فهي اسم جامد ، وقوله : أو الحالة التي يحق بكسر الحاء وضمها

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى ٢/٥٥

من باب ضرب وكتب ومعناه يتحقق ويجب فهي صفة لموصوف مقدر ، وتفسيرها هنا بيليق لا يليق وكذا معنى قوله : تحق فيها الأمور أي تتحقق بصيغة المعلوم والمجهول من حققته إذا عرفت حقيقته وهو على الأول لازم على الأخير متعد. قوله : (أو يقع فيها حواق الأمور) أي ثوابتها وواجباتها ، وقيل أوساطها وهو عطف على قوله تعرف حقيقتها ولم يذكره عقب الأول لاشتراكهما في كون الحاقة من حق الشيء اللازم إذا ثبت ليظهر تعلق قوله : على الإسناد المجازي به أيضا ولا يتوهم اختصاصه بالثاني كما في انكشاف ، ولم يلتفت لنقدير المضاف فيه على الثاني أي ذو الحاقة لأنه ليس من تسمية الشيء باسم ملابسه فإنه ذا الحاقة هو الله تعالى وتقليل التأويل أولى ، وما قيل من أنه جعل الفعل للساعة مجازا وهو لأهلها على الوجه الأخير وعلى الثاني يحتمل الإسناد المجازي أيضا لأن الثبوت والوجوب لما فيها فالإسناد إلى الزمان مجازي ، ويحتمل أن يراد ذو الحاقة بتسمية الشيء باسم ملابسه وهذا أرجح لأن الساعة وما فيها سواء في وجوب الثبوت فتضعف قرينة الإسناد المجازي والتجوز فيه تصوير ومبالغة فقيل : إنه جعله أرجح لأن ظاهر ما ذكره يمنع من الحمل على الإسناد المجازي لأن المساواة الواقعية لا تنافي قصد المبالغة في أحد المتساويين لداع". (١)

٣١-"تفسير قوله تعالى: (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك .)

قال تعالى: ﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ [النساء:١١٣] قوله تعالى: (ولولا فضل الله عليك ورحمته) يا محمد! (لهمت) أي: أوشكت واقتربت.

(طائفة منهم أن يضلوك) الآية تبين أن المعصوم من عصمه الله سبحانه وتعالى، حتى لو كان نبيا من الأنبياء، والمحفوظ من حفظه الله تبارك وتعالى، ولذلك قال رب العزة: ﴿ فالصالحات قانتات حافظات للغيب ﴾ [النساء:٣٤] فهن حافظات للغيب لا بأسوتهن ولا بقوتهن، ولا بتماسكهن، لكن قال تعالى: ﴿ بما حفظ الله ﴾ [النساء:٣٤] أي: بتثبيت الله عز وجل لهن، فالمثبت من ثبته الله تعالى.

ويقول الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ﴾ [الإسراء:٧٤] ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)، ويوسف عليه الصلاة السلام يقول: ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ [يوسف:٣٣].

قوله تعالى: (لهمت طائفة منهم أن يضلوك) أي: يصرفوك عن طريق الحق إلى الباطل، وعن القضاء الحق إلى القضاء الظالم الجائر، وهب أن الرسول صلى الله حكم على البريء أنه يستحق القتل فهنا قرر العلماء أن قضاء الدنيا لا يحل حراما ولا يحرم حلالا.

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى ٢٣٣/٨

فالرسول صلى الله عليه وسلم أعقل الناس، وسيد ولد آدم، وقاض رزين عاقل، وقاض نبي، وفيه كل صفات الخير، ومع ذلك يقول: (إنكم تختصمون لدي ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من أخيه وإنما أقضي على نحو مما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما اقتطع له قطعة من نار، إن شاء قبلها وإن شاء تركها)، أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وقد يكون القاضي عاقلا رشيدا رزينا متحريا في البحث عن كل القرائن المحيطة ومع ذلك يخطئ، فقد يجيء من أسلوبه ساحر كمحام كذاب ساحر يسحر القاضي بمقالاته، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (إن من البيان لسحرا) أي: من الكلام كلام سحر يغير لك الشيء عن حقيقته، فقد يكون الرجل بريئا غاية البراءة، فيأتي محامي الخصم يتكلم فيجعله متلبسا بالقضية لا يستطيع التحرك منها، والعكس، فالقاضي يقضي على نحو مما يسمع، وليس له أن يحكم حتى بعلمه السابق، بل يحكم بالقرائن والبينات ولا يحكم بالظنون، كذلك الشهود يشهدون على نحو مما يرون، دون البناء على المخيلات والاستنباطات.

وكما أسلفنا ابتداء: أن من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من يقضي أحيانا قضاء لا يكون صوابا، فنبي الله داود عليه الصلاة والسلام لما اختصمتا إليه المرأتان في الطفل إذ كان لكل امرأة منهما طفل فجاء الذئب وعدا على طفل أحدهما وهرب به، فبقي طفل واحد، فكل امرأة ادعت أن هذا الطفل لها، فتحاكمتا إلى نبي الله داود عليه الصلاة والسلام، فجاء نبي الله داود يحكم والبينات غير واضحة، فقضى نبي الله داود عليه الصلاة والسلام بالطفل للكبرى خطأ، لكنه مأجور عليه الصلاة والسلام، فخرجتا من عند داود وسليمان واقف على الباب فسألهما: لمن قضى بهذا الطفل؟ قالتا: للكبرى، فأتى بسكين وقال: نقطعه بينكما نصفين، فدب الحنان إلى قلب أمه الحقيقية فقالت: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها، فعلم بالقرينة أن هذا الطفل إنما هو للصغرى فحكم به لها.

فالقاضي قد يخطئ إما لعدم توفيق الله سبحانه وتعالى، أو لعدم توفر البينات، أو لعدم توفر العلم الكافي في بعض الأوقات، كما روي أن أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه رأى امرأة يسحبها الناس، فقال: ما هذه؟ قالوا: هذه مجنونة بني فلان زنت، فأمر بها عمر رضي الله عنه أن ترجم، فقال: على رسلكم، فذهب إلى عمر وقال: يا أمير المؤمنين! أما بلغك أن الحد رفع عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيق .

؟ وذكر الحديث، فأمر عمر رضي الله عنه بإلغاء الحكم فلم ترجم المجنونة.

فعلى كل من يقضي بين الناس أن يجتهد قدر الاستطاعة، ويسأل ربه التوفيق والسداد، فالمسدد من سدده الله، الرسول صلى الله عليه وسلم كان يسأل ربه فيقول: (اللهم إني أسألك السداد سداد السهم).

قوله تعالى: (وما يضلون إلا أنفسهم) أي: أنهم إذا أضلوك أضلوا أنفسهم بالدرجة الأولى، فمن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه، وهذا على فرض أنه تم لهم الإضلال، ولكن لم يتم الله لهم نياتهم السيئة.". (١)

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي ٩/١٨

٣٢-"" صفحة رقم ٥٧٨ "

أنظر إليك) [الأعراف : ١٤٣] ومما يدل على أن آدم قبل وسوسته قوله تعالى : (فأكلا بالفاء مشعر بالعلية كقول الصحابي : (زنى ماعز فرجم) وما في الآية قد مر تفسيره في (الأعراف) إلا قوله : (وعسى آدم ربه فغوى (قال بعض الناس : إن آدم ذنبه كبيرة وإلا لم يوصف بالعصيان والغواية فإن العاصي والغاوي اسمان مذمومان عرفا وشرعا وقد ترتب الوعيد عليهما. وأجيب بأن المعصية مخالفة الأمر والأمر قد يكون مندوبا. وزيف بالمنع من أن المندوب غير مأمور به. ثم أن مخالفة عاص وإلا كان الأنبياء كلهم عصاة لأنهم لا ينفون عن ترك المندوب. قالوا : يقال أشرت إليه في أمر كذا فعصاني وأمرته بشرب الدواء فعصاني. وأجيب بالمنع من أن هذا من مستعملات العرب العاربة ، ولو سلم فلعله إنما يقال ذلك إذا عرف أن المستشير لا بد له أن يفعل ذلك ، وحينئذ يكون معنى الإيجاب حاصلا وإن لم يكن وجوب شرعي لأن ذلك الإيجاب لم يصدر عن الشارع. ومنهم من زعم أنه ذنب صغير وهم عامة المعتزلة ورد بأن المعاصي إسم من يستحق العقاب وهذا لا يليق بالصغير. وأجاب أبو مسلم الأصفهاني بأنه عصى في مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف ولهذا قال سبحانه) فغوى (أي خاب من نعيم الجنة لأن الرشد هو أن يتوصل بشيء إلى شيء فيصل إلى المقصود والغي ضده ، وأنه سعى في طلب الخلود فنال ضد المقصود. وعن بعضهم) فغوى (أي بشم من كثرة الأكل وزيفه جار الله. ورد قول أبي مسلم بأن مصالح الدنيا تكون مباحة فلا يوصل تاركها بالعصيان. قلت : في هذا نظر ، والأحوط في هذا الباب أن يعتقد كون هذه الواقعة قبل النبوة بدليل قوله : (ثم احتباه ربه (أي اختاره للرسالة) وهدى (لحفظ أسباب العصمة. أصل الاجتباء هو الجمع كما مر في آخر (الأعراف). يروى عن أبي أمامة : لو وزنت أحلام بني آدم لرجح حلمه. وقد قال الله تعالى : (ولم نجد له عزما (قال العلماء : فيه دليل على أنه لا راد لقضائه وما قدره كائن لا محالة ، وإذا جاء القضاء عمي البصر والدليل قد يكون غاية الظهور ومع ذلك يخفى على أعقل الناس كما خفي على آدم عداوة إبليس ، وأنه تعرض لسخط الله في شأنه حين امتنع من سجوده فكيف قبل من وسوة) لولا كتاب من الله سبق) [الأنفال : ٦٨] قال المحققون : الأولى أن لا يطلق لفظ العاصي والغاوي على آدم عليه السلام وإن ورد في القرآن) وعسى آدم ربه فغوى (لأنه لم تصدر عنه الزلة إلا مرة واحدة. وصيغة اسم الفاعل تنبي عن المزاولة ، ولأن المسلم إذ تاب عن الشرب أو الزنا وحسنت توبته لا يقال له شارب وزان ، ولأن السيد يجوز له أن يشتم عبده بما شاء وليس لغيره ذلك.) قال اهبطا (قد مر تفسير مثله في (البقرة) خاطبهما بالهبوط لأنهما أصلا". (١)

٣٣-"" صفحة رقم ٣٥٣ "

الخافض كقوله) واختار موسى قومه) [الأعراف : ١٥٥] أو على أنه ظرف مكان مجازا كأن النظر استقر في المعيشة ، أو على حذف المضاف أي بطرت أيام معيشتها كخفوق النجم ، أو بتضمين بطرت معنى كفرت وعطلت ، والبطر سوء احتمال الغنى وهو أن لا يحفظ حق الله فيه. ومعنى) إلا قليلا (قال ابن عباس : أي لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥٧٨/٤

يوما أو ساعة. ويجوز أن يكون شؤم معاصيهم بقي في ديارهم فكل من سكنها من أعقابهم لم يسكن إلا قليلا.) وكنا نحن الوارثين (كقوله) ولله ميراث السموات والأرض) [آل عمران : ١٨٠] لأنه الباقي بعد فناء خلقه. ثم كان لسائل أن يقول : ما بال الكفرة قبل مبعث محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يهلكوا مع تماديهم في الغي ؟ فقال) وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها (اي في القرية التي هي قصبتها وأصلها وغيرها من توابعها وأعمالها) رسولا يتلو عليهم آياتنا (بوحي وتبليغ وذلك لتأكيد الحجة وقطع المعذرة. قال في الكشاف : يحتمل أن يراد وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أم القرى – يعني مكة – رسولا وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) خاتم الأنبياء. وكان لقائل أن يقول : ما بال الكفار بعد مبعث محمد لم يهلكهم الله مع تكذيبهم وجحودهم فقال) وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون (بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فمنهم من قد آمن ومنهم من سيؤمن ومنهم من يخرج من نسله من يؤمن. ثم اجاب عن شبهتهم بجواب ثالث وذلك أن حاصل شبهتهم أن قالا : تركنا الدين لأجل الدنيا. فبين تعالى بقوله) وما أوتيتم من شيء (الآية. أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقى لأنه أكثر وأدوم. ونبه على جهلهم بقوله) أفلا تعقلون (ويرحم الله الشافعي حيث قال : إذا أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى ، لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير. نظير الاية قوله (صلى الله عليه وسلم) (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت). قال البرهان : إنما السورة (وما أوتيتم) الواو وفي الشورى) فما أوتيتم) [الآية : ٣٦] بالفاء لأنه لم يتعلق بما قبله ههنا كثير تعلق ، وقد تعلق في الشورى بما قبلها أشد تعلق ، ولأنه عقب ما لهم من المخافة ما أوتوه من الأمناء والفاء حرف التعقيب والواو والمجرد العطف. وإنما زاد في هذه السورة) وزينتها (. لأن المراد ههنا جميع أعراض الدنيا من الضرورات ومن الزين ، فالمتاع مالا غنى عنه من المأكول والمشروب والملبوس والمسكن والمنكوح ، والزينة وغيرها كالثياب الفاخرة والمراكب الرائعة والدور المشيدة. وأما في (الشورى) فلم يقصد الاستيعاب بل ما هو". (١)

٣٤-"" صفحة رقم ٣٥٦ "

فلا يجوز فيه إلا الهمز وفاقا لأنه إن كان من سأل المهموز فظاهر ، وإن كان من غير المهموز انقلبت الياء همزة كما في بائع .

وقوله (للكافرين (صفة أخرى للعذاب أي بعذاب واقع ، لا محالة كائن للكافرين ، أو متعلق بواقع أي نازل لأجلهم ، أو كلام مستأنف جواب للسائل الذي سأل : إن العذاب على من ينزل أي هو للكافرين .

والظاهر أن قوله) من الله (يتعلق) بدافع (أي لا دافع له من جهة الله لأنه قضاء مبرم .

وجوز أن يتصلف بواقع أي نازل من عند) ذي المعارج (المصاعد .

روى الكلبي عن ابن عباس أنها السموات لأن الملائكة يعرجون فيها .

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣٥٣/٥

وقال قتادة : ذي الفواضل والنعم بحسب الأرواح ومراتب الاستحقاق والاستعداد .

وقيل : هي الجنة لأنها درجات .

وقال في التفسير الكبير .

وهي مراتب أرواح الملكية المختلفة بالشدة والضعف وبسببها يصل آثار فيض الله إلى العالم السفلي الكبير .

وهي مراتب أرواح الملكية المختلفة بالشدة كالمصاعد لمراتب الحاجات التي ترفع إليها ، كالمنازل لآثار الرحمة من ذلك العالم إلينا .

قوله) تعرج الملائكة والروح (وفي مواضع أخرى يوم يقوم الروح والملائكة .

قيل : إن الروح أعظم الملائكة قدرا وهو أول في درجة نزول الأنوار من جلال الله ، وأما المتكلمون أرواح سائر الملائكة والبشر في آخر درجات منازل الأرواح .

وبين الطرفين معارج مراتب فالجمهور منهم قالوا : إن اروح هو جبريل عليه السلام .

ولا استدلال لأهل التشبيه في لفظ) المعارج (فإنا بينا أنها المراتب .

قووله) إليه (إلى عرشه أو حكمه أو إلى حيث تهبط أوامره أو إلى مواضع العز والكرامة .

والأكثرون على أن قوله) في يوم (من صلة) تعرج (، أي يحصل العروج في مثل هذا اليوم وهو يوم القيامة .

قال الحسن : يعني من موقفهم للحساب إلى حين يقضي بين العباد خمسون ألف سنة من سني الدنيا ، ثم بعد ذلك يستقر أهل الجنة في الجنة إلى آخر الآية .

والأصح أن هذا الطول إنما يكون للكافر لما روي عن أبي سعيد الخدري أنه قيل لرسوله (صلى الله عليه وسلم) : ما أطول هذا اليوم ؟ فقال : والذي نفسي بيه إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة في الدنيا .

ومنهم من قال : إن ذلك الموقف وإن طال فقد يكون سببا لمزيد السرور والراحة للمؤمن .

ومنهم من قال : إن هذه المدة على سبيل التقدير لا على سبيل التحقيق .

والمعنى أنه لو اشتغل بذلك القضاء والحكومة أعقل الناس وأدهاهم لبقي فيه همسين ألف سنة .

ثم إنه تعالى يتمم ذلك القضاء والحكومة في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا .

وأيضا الملائكة يعرجون إلى مواضع لو أراد واحد من أهل الدنيا أن يصعد إليها لبقي في ذلك الصعود خمسين ألف سنة ثم إنهم يصعدون إليها في ساعة .

قاله وهب وجماعة من أهل التفسير .

وقال أبو مسلم : إن هذا". (١)

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣٥٦/٦

٣٥-"(وما أوتيتم) يا كفار مكة (من شيء) من الأشياء (فمتاع) أي فهو متاع (الحياة الدنيا) تتمتعون به مدة حياتكم، أو بعض حياتكم ثم تزولون عنه، أو يزول عنكم (وزينتها) تتزينون به أيام عيشكم، ثم يفنى وعلى كل حال فذلك إلى فناء وانقضاء.

(وما عند الله) من ثوابه وجزائه (خير) من ذلك الزائل الفاني لأنه لذة خالصة عن شوب الكدر (وأبقى) لأنه يدوم أبدا، وذلك ينقضي بسرعة.

(أفلا تعقلون) أن الباقي أفضل من الفاني وما فيه لذة خالصة غير مشوبة أفضل من اللذات المشوبة بالكدر، المنغصة بعوارض البدن والقلب قيل من لم يرجح الآخرة على الدنيا فليس بعاقل، قال الشافعي رحمه الله: من وصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف إلى المشتغلين بطاعة الله، وقرئ؛ يعقلون بالياء، والتاء على الخطاب وهي أرجح لقوله وما أوتيتم.

وأخرج مسلم والبيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " يقول الله عز وجل يا ابن آدم مرضت فلم تعدني الحديث بطوله ".

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عبد بن عبيد بن عمير قال: يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا، وأعطش ما كانوا، وأعرى ما كانوا فمن أطعم لله عز وجل أطعمه الله ومن كسا لله عز وجل كساه الله، ومن سقى لله عز وجل سقاه الله ومن كان في رضاء الله كان الله في رضاه.". (١)

٣٦-"(وما صاحبكم بمجنون) الخطاب لأهل مكة والمراد بصاحبكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والمعنى وما محمد يا أهل مكة بمجنون، وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون وغيره في شيء، وأنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم.

وهذه الجملة داخلة في جواب القسم فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل وأن محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليس كما يقولون من أنه مجنون، وأنه يأتي بالقرآن من جهة نفسه.". (٢)

٣٧-" ٢٢ - ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ الخطاب لأهل مكة والمراد بصاحبهم رسول الله صلى الله عليه و سلم والمعنى : وما محمد يا أهل مكة بمجنون وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون وغيره في شيء وأنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم وهذه الجملة داخلة في جواب القسم فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل وأن محمدا صلى الله عليه و سلم ليس كما يقولون من أنه مجنون وأنه يأتي بالقرآن من

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن ١٣٨/١٠

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن ١٠٦/١٥

جهنة نفسه ". (١)

٣٨-"السادسة : لله العزة بالعلو والعظمة ، لقوله :

(وهو العلي العظيم).

وللرسول بالرفعة ، لقوله : (ورفعنا لك ذكرك). وللمؤمنين بالقبول والرحمة ، لقوله : (إن الله يغفر الذنوب جميعا).

السابعة : لله عزة المعبودية لقوله : (وأنا ربكم فاعبدون).

وللرسول عزة المتبوعية ، لقوله (واتبعوه لعلكم تهتدون).

وللمؤمنين عزة العبودية ، لقوله : (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله).

الثامنة : لله عز الإستغناء : (والله الغني وأنتم الفقراء). ولرسول عز الإغناء : (ووجدك عائلا فأغنى). وللمؤمنين عز الإغناء : (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته).

التاسعة : قال على رضى الله عنه من أراد عزا بدون ذل ، وهيبة بغير سلطان ، وغنى بغير مال ، وحسبا بغير نسب فليخرج نفسه من ذل المعصية إلى عز الطاعة.

العاشرة : قال هارون الرشيد لمنصور بن عمار من أعقل الناس ، وأجهلهم ، وأغناهم ، وأعزهم ؟

فقال أعقلهم محسن خائف ، وأجهلهم مسيئ آمن ، وأغناهم القانع ، وأعزهم الأتقياء.

* * *

المقام السادس : الطاعة :

قال الله تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم). وهاهنا نكت : ". (٢)

٣٩-"السادسة : لله العزة بالعلو والعظمة ، لقوله :

(وهو العلي العظيم).

وللرسول بالرفعة ، لقوله : (ورفعنا لك ذكرك). وللمؤمنين بالقبول والرحمة ، لقوله : (إن الله يغفر الذنوب جميعا).

السابعة : لله عزة المعبودية لقوله : (وأنا ربكم فاعبدون).

وللرسول عزة المتبوعية ، لقوله (واتبعوه لعلكم تهتدون).

وللمؤمنين عزة العبودية ، لقوله : (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله).

الثامنة : لله عز الإستغناء : (والله الغني وأنتم الفقراء). ولرسول عز الإغناء : (ووجدك عائلا فأغنى). وللمؤمنين عز الإغناء : (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته).

---

(١) فتح القدير ٥٥٢/٥

(٢) من أسرار التنزيل ص/١٢٢

التاسعة : قال على رضى الله عنه من أراد عزا بدون ذل ، وهيبة بغير سلطان ، وغنى بغير مال ، وحسبا بغير نسب فليخرج نفسه من ذل المعصية إلى عز الطاعة.

العاشرة : قال هارون الرشيد لمنصور بن عمار من أعقل الناس ، وأجهلهم ، وأغناهم ، وأعزهم ؟

فقال أعقلهم محسن خائف ، وأجهلهم مسيئ آمن ، وأغناهم القانع ، وأعزهم الأتقياء.

* * *

المقام السادس : الطاعة :

قال الله تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم). وهاهنا نكت : ". [1]

٤٠-" صفحة رقم ٧٢٦

أي لم يكن في كونهم وصف الهداية ، بل زادوا بذلك ضلالا ؛ قال البخاري في المناقب من صحيحه : حدثنا أبو النعمان حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام) قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها (- إلى قوله : (وما كانوا مهتدين (.

وله في وفد بني حنيفة من المغازي عن مهدي بن ميمون قال : سمعت أبا رجاء العطاردي يقول : كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجرا أحسن منه ألقيناه فأخذنا الآخر ، وإذا لم نجد حجرا جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به ، فإذا دخل شهر رجب قلنا : منصل الأسنة ، فلا ندع رمحا فيه حديدة ولا سهما فيه حديدة إلا نزعناه فألقيناه شهر رجب .

ولما كان مدار القرآن على تقرير التوحيد والنبوة وتوابعها والمعاد والقضاء والقدر والفعل بالاختيار ، وأتقن تقرير هذه الأصول لا سيما في هذه السورة ، وانتهى إلى شرح أحوال السعداء والأشقياء ، وعجب سبحانه ممن أشرك وأنكر البعث وفعل أفعال المشركين تعجيبا بعد تعجيب ، وهجن طريقتهم ووبخهم توبيخا في إثر توبيخ بتكذيبهم للداعي من غير حجة ، وحكى أقوالهم الباطلة ودعاويهم الفاسدة مع ادعائهم أنهم أنصف الناس ، ومخالفتهم للهادي بغير ثبت ولا بينة مع ادعائهم أنهم أبصر الناس ، وبطلبهم للآيات تعنتا مع ادعائهم أنهم أعقل الناس ، وإخلاصهم في الشدة وإشراكهم في الرخاء مع ادعائهم أنهم أشكر الناس ، وعبادتهم للجن وتعوذهم بهم مع ادعائهم أنهم أشجع الناس - إلى أن عجب منهم فيما شرعوه لأنفسهم فميا رزقهموه سبحانه من حيوان وجماد ومضوا عليه خلفا عن سلف ، تنبيها على ضعف عقولهم وقلة علومهم تنفيرا للناس عن الالتفات إليهم واغترار بأقوالهم ، قال في موضع الحال من

٧٧ ( ) وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام ( ) ٧

[الأنعام : ١٣٦] مبينا عظيم ملكه وشمول قدرته وباهر اختياره وعظمته ، زيادة في التعجيب منهم في تصرفهم في ملكه بغير إذنه سبحانه وشرعهم ما لم يأذن فيه في سياق كافل بإقامة الحجة على تقرير التوحيد عودا على بدء وعللا بعد نهل ،

---

(١) من أسرار التنزيل ص/١٢٢

لأنه المدار الأعظم والأصل الأقوم : (وهو) أي لا غيره) الذي أنشأ) أي من العدم) جنات) أي من العنب وغيره) معروشات) أي مرفوعات عن الأرض على الخشب ونحوه ، أي لا تصلح إلا معروشة ، ومتى لم ترفع عن الأرض تلف ثمرها) وغير معروشات) أي غير مرفوعات على الخشب ، أي لا تصلح إلا مطروحة على". (١)

٤١-" صفحة رقم ١٧٠

) إلى الهدى) أي إلى الذي يدل الداعي إليه قطعا ، على أن المختلف عنه سيئ المزاج ، محتاج إلى العلاج ، لكونه تخلف عما لا يتخلف عنه من له نوع صلاح لكونه أشرف الأشياء ، فالمختلف عنه راض لنفسه بالدون) لا يتبعوكم) أي في ذلك الهدى الذي دعوتموهم إليه ولم بالغتم في الاستتباع ، ولعله عبر بصيغة الافتعال إشارة إلى أنها لا يتصور منها قصد التبع فضلا عن إيجاده ، ثم بين أن ذلك ليس بأمر عارض ، بل هو مستمر دائم بقوله مستأنفا تأكيدا للمعنى : (سواء عليكم (ولما كان السواء لا يكون إلا بين أمرين ، تشوف السامع إليهما فقال ؛) أدعوتموهم) أي وجد منكم ذلك الدعاء الذي أشير إلى استمراره ، وعبر بالاسمية إشارة إلى أنهم لا يدعونهم في وقت الشدائد ، بل يدعون الله فقال : (أو أنتم صامتون) أي عن ذلك الدوام على عادتكم في الإعراض عن دعائهم في أوقات الملمات ، فالذين دعون معتقديهم في وقت الضرورات أقبح حالافي ذلك من المشركين ويجوز أن تكون الآية من الاحتباك ، فيكون نظمها : أدعوتموهم مرة أو أنتم داعوهم دائما أم صمتم عن دعائهم في وقت ما أم أنتم صامتون دائما عن دعائهم ، حاكم في كل هذه الأجوبة سواء في عدم الإجابة ، لا اختلاف فيه بوجه ، دل بالفعل أولا على حذف مثله ثانيا ، وبالاسم ثانيا على حذف مثله أولا ولما كان اتباع من يدعي أنه أعقل الناس وأبعدهم عن النقائص وأعرقهم في معالي الأخلاق وأرفعهم عن سفسافها لمن هذا سبيله أخزى الخزي وأقبح العار ، وكانوا مع العلم بهذا الذي وصفت به - معبوداتهم يفعلون في الإشراك بهم وفي خوفهم ورجائهم ما هو عين الجهل ؛ كرر تبكيهم باتباعهم في أسلوب آخر أوضح مما قبله في تبيين النقائص والتنبيه على المعايب ملجئ إلى الاعتراف أو التصريح بالعناد أو الجنون فقال مؤكدا : (إن الذين تدعون) أي أيها المشركون كون دعاء عبادة ملازمين لذلك ، أو أنه أطلق الدعاء على العبادة إشارة إلى أنه لا تصح عبادة من ليس فيه قابلية أن يدعى ، والحاصل أن الدعاء يلازم المعبود ولما كان دعؤهم لهم إنما هو على سبيل الإشراك ، قال مشيرا إلى سفوك رتبتهم بإثبات الجار : (من دون الله) أي الذي له صفات الكمال والعظمه والجلال) عباد أمثالكم) أي في العجز عن كل شيء لا سيما عما وقع بع التحدي من معارضة القرآن وغيرها ، وأنتم تزيدون عليها بالحياة والعقل ، والمعبود لا يصح أن يكون مثل العابد فكيف إذا كان ؛ ولما كانوا لا يسلمون أنهم أمثالهم ، سبب عن ذلك أمرهم بدعائهم لبيان دعوى المثلية بل الدونية فقال : (فادعوهم) أي إلى شيء من الأشياء". (٢)

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب) ٧٢٦/٢

(٢) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب) ١٧٠/٣

٤٢-" صفحة رقم ٢٦٩

الكوفيين بفتح الياء وكسر الدال ، ومن هاد ما بوجه من الوجوه على قراءة الجمهور بالبناء للمفعول) من يضل) أي من يحكم بضلاله ، وهو الذي أضلهم فلا يمكن غيره أن يهديهم لأنه لا غالب لأمره ؛ وقرئ شاذا بفتح الياء من ضل بمعنى نسي ، أي فلا تمكن هداية من نسيه ، أي تركه من الهداية ترك المنسي فإنه ليس في يد غيره شيء ، ونقل الصغاني في مجمع البحرين أنه يقال : ضل فلان البعير أي أضله ، والضلال عند العرب سلوك غير سبيل القصد ، فالمعنى أنه كان سببا لسلوك البعير غير مقصود ، فمعنى الآية : لا تهدي من يضله الله - بفتح الياء ، أي يكون سببا لسلوكه غير سبيل القصد ، فلا تحزن ولا يضيق صدرك من عدم تأثرهم بنصحك وإخلاصك في الدعاء ، ولا يقع في فكرك أن في دعائك نقصا ، إنما النقص في مرائيهم العمياء ، وليس عليك إلا البلاغ .

وقوله تعالى - : (وما لهم) أي هؤلاء الذين أضلهم الله وجميع من يضله) من ناصرين) أي ينصروكم عند مجازاتهم على الضلال ، لينقذوهم مما لحقهم عليه من الوبال ، كما فعل بالمكذبين من قبلهم - عطف على نتيجة ما قبله ، وهو فلا هادي لهم ما أراد الله ضلالهم ، وتبكيت لهم وتقريع وحث وتهييج على أن يقوموا بأنفسهم ويستعينوا بمن شاؤوا على نصب دليل ما يدعونه من أنهم أتبع الناس للحق ، إما بأن يبرهنوا على صحة معتقدهم أو يعينوهم على الرجوع عنه عند العجز عن ذلك ، أو يكفوا عنهم العذاب إذا حاق بهم .

ولما كان من حقهم - بعد قيام الأدلة على كمال قدرته وشمول علمه وبلوغ حكمته في إبداع جميع المخلوقات مما نعلم ومالا نعلم على أبدع ترتيب وأحسن نظام - تصديق الهداة في إعلامهم بأنه سبحانه يعيدهم للبعث وأنهم لم يفعلوا ولا طرقوا لذلك احتمالا ، بل حلفوا على نفيه من غير شبهة عرضت لهم ولا إخبار عن علم وصل إليهم فعل الجلف الجافي الغبي العاسي ، أتبع ذلك سبحانه تعجيبا آخر من حالهم ، فقال - عاطفا على) وقال الذين أشركوا (لأن كلا من الجملتين لبيان تكذيبهم الرسل والتعجيب منهم في ذلك ، دالا على ان اعتقادهم مضمون هذه الجملة هو الذي جرأهم على قول الأولى وما تفرغ منها - : (وأقسموا بالله) أي الملك الأعظم) جهد أيمانهم (جعلت الأيمان جاهدة لكثرة ما بالغوا فيها : (لا يبعث الله) أي الذي له الإحاطة بكل شيء) من يموت) أي يحيي أحدا بعد موته ، استنادا منهم إلى مجرد استبعاد مالم تجر به نفسه عندهم عادة ، جمودا منهم عن حلها بأن النشأة الأولى كانت من غير عادة ، مع ادعائهم أنهم أعقل الناس وأحدهم أذهانا وأثقبهم أفهاما .

ثم رد عليهم بقوله تعالى : (بلا) أي ليبعثهم لأنه لا مانع له من ذلك وقد وعد". (١)

٤٣-" صفحة رقم ٣١٩

ولما كان الإنسان قد يضطر إلى أكل كل ما يمكن أكله ، بين لهم أنه رفق بهم فأباح لهم سد الرمق من الحرام فقال تعالى : (فمن اضطر) أي كيفما وقع له الاضطرار) غير با غ (على مضطر آخر) ولا عاد (سد الرمق .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب) ٤/٢٦٩

ولما كان الإذن في الأكل من هذه الأشياء حال الضرورة إنما هو رخصة ، وكانت الشهوة داعية إلى ما فوق المأذون فيه قال تعالى : (فإن الله) أي المختص بصفات الكمال ، بسبب تناوله منها على ما حده) غفور رحيم (فمن زاد على ما أذن له فيه فهو جدير بالانتقام .

النحل : (١١٦ - ١١٩) ولا تقولوا لما. . . . .

) ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم (( )

ولما تبين في هذه الآية - كما مضى تقريره في الأنعام - جميع المحرم أكله من الحيوانات ، فعلم بذلك جهلهم فيما حرموه على أنفسهم لأجل أصنامهم ، صرح بالنهي عنه إبلاغا في تأكيد ذلك الحصر فقال تعالى : (ولا تقولوا) أي بوجه من الوجوه في وقت ما .

ولما كان تحليلهم وتحريمهم قولا فارغا ليس له حقيقة أصلا ، لأنه لا دليل عليه ، عبر عنه بأنه وصف باللسان لا يستحق أن يدخل إلى القلب فقال تعالى : (لما تصف) أي لأجل الذي تصفه) ألسنتكم) أي من الأنعام والحروث والزروع .

ولما حرك النفس إلى معرفة ما يقال لأجل ذلك ، بين مقول ذلك القول فقال تعالى : (الكذب) أي القول الذي هو عين الكذب .

ولما اشتد التشوف إلى تعيين ذلك المقول ، أبدل منه فقال تعالى : (هذا حلال وهذا حرام (ويجوز أن يكون) الكذب (مفعول) تصف (فتكون) ما (مصدرية ، أي لوصفها إياه ، فكأن حقيقة الكذب كانت مجهولة فلم تعرف إلا بوصف ألسنتهم لها ، فهو مبالغة في وصف كلامهم بالكذب ، وما بعده مقول القول .

ولما كانوا - كما تقدم يدعون أنهم أعقل الناس ، فكان اللائق بهم إرخاء للعنان النسبة إلى معرفة اللوازم عند الإقدام على الملزومات ، قال تعالى : (لتفتروا على الله) أي الملك الأعلى) الكذب (لأن من قال على أحد ما لم يأذن فيه كان قوله كذبا ، وكان كذبه لقصد افتراء الكذب ، وإلا لكان في غاية الجهل ، فدار أمرهم في مثل هذا". (١)

٤٤-" صفحة رقم ٣٥٦

أفراده بعد أن لم تكن : (ربكم) أي الموجد لكم والمربي والمحسن) ورب آبائكم الأولين (وفرعون - الذي تقرون بأنه ربكم - كان إذ ذاك عدما محضا ، أو ماء صرفا في ظهر أبيه ، فبطل كون أحد منهم ربا لمن بعده كما بطل كون أحد ممن قبلهم من الهالكين ربا لهم ، لأن الكل عدم .

فلما أوضح بذلك بطلان ما حملهم على اعتقاده من ربوبيته لم يتمالك أن) قال إن رسولكم (على طريق التهكم ، إشارة إلى أن الرسول ينبغي ان يكون أعقل الناس ، ثم زاد الأمر وضوحا بقوله : (الذي أرسل إليكم (اي وأنتم أعقل الناس)

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب) ٣١٩/٤

لمجنون (حيث لا يفهم أني أساله عن حقيقة مرسله فكف يصلح للرسالة من الملوك .
فلما أساء الأدب ، فاشتد تشوف السامع إلى معرفة جوابه عنه ، استأنف تعالى الإخبار بذلك ، فحكى أنه ذكر له ما لا يمكنه أن يدعي طاعته له ، وهو أكثر تغيرا وأعجب تنقلا بأن) قال رب المشرق والمغرب (اي الشروق والغروب ووقتهما وموضعهما) وما بينهما (اي من الناس الذين ليسوا في طاعتكم ، والحيوان والجماد ، بسبب ما ترون من قدرته على تقليب النيرات من بزوغ الشمس والقمر والنجوم وأفولها وما يظهر عنهما من الليل والنهار على تصاريف مختلفة ، وحركات متقاربة لو لا هي لما علمتم شيئا من أموركم ، ولا تمكنتم من أحوالكم ، وهذا الدليل أبين الكل لتكرر الحركة فيه وغير ذلك من معالمه ، ولذلك بهت نمرود لما ألقاه عليه الخليل عليه الصلاة والسلام .
ولما دعاه (صلى الله عليه وسلم) باللين فأساء الأدب عليه في الجواب الماضي ، ختم هذا البرهان بقوله : (إن كنتم تعقلون) أي فأنتم تعلمون ذلك ، فخيرهم بين الإقرار بالجنونن أو العقل ، بما أشار إليه من الأدلة في مقابلة ما نسبوه إليه من الجنون بسكوتهم وقول عظيمهم بغير شبهة ، ردا لهم عن الضلالة ، وإنقاذا من واضح الجهالة ، فكان قوله أنكأ مع أنه ألطف ، وأوضح مع أنه أستر وأشرف .
فلما علو أنه قد قطعه بما أوضح من الأمر ، ووصل معه في الغلظة إلى ما إن سكت عنه أوهن من حاله ، وفتر من عزائم رجاله ، تكلم بما السكوت أولى منه ، فأخبر تعالى بقوله : (قال (عادلا عن الحجاج بعد الخوض فيه إلى المغالبة التي هي أبين علامات الانقطاع : (لئن اتخذت إلها غيري (اي تعمدت أخذه وأفردته بتوجيه جميع قصدك إليه) لأجعلنك من المسجونين) أي واحدا ممن هم في سجوني على ما تعلم من حالي في اقتداري ، ومن سجوني في فظاعتها ، ومن حال من فيها من شدة الحصر ، والغلظ في الحجر) قال (مدافعا بالتي هي أحسن إرخاء للعنان ، لإرادة البيان ، حتى لا". (١)

٤٥-" صفحة رقم ٣٨٨
سيما قوم هود عليه السلام الذين هم عرب مثلكمن وقد بلغت بهم الشدة في أبدانهم ، والصلابة في جميع أركانهم ، إلى أن قالوا
٧٧ ( ) من أشد منا قوة ( ) ٧
[فصلت : ١٥] وقد بلغكم ما أنزل بهم سبحانه من بأسه ، لأن العرب أعلم الناس بأخبارهم .
ولما كان الحاصل ما مضى الإعلام بالرسالة ، والتحذير من المخالفة ، لأنها تؤدي إلى الضلالة إلى أن ختم ذلك بالإشارة بالتعبير بالجبلة إلى أن عذابه تعالى عظيم ، لا يستعصي عليه صغير ولا كبير ، أجابوه بالقدح في الرسالة أولا ، وباستصغار الوعيد ثانيا ، بأن) قالوا إنما أ ، ت م المسحرين) أي الذين كرر سحرهم مرة بعد أخرى حتى اختبلوا ، فصار كلامهم على غير نظام ، أو من المعللين بالطعام والشراب كما مضى في صالح عليه السلام ، أي فأنت بعيد من الصلاحية للرسالة : ثم اشاروا إلى عدم صلاحية البشر مطلقا لها ولو كانوا أعقل الناس وابعدهم عن الآفة بقولهم ، عاطفين بالواو إشارة إلى

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب) ٣٥٦/٥

عراقته فيما وصفوه به من جهة السحر والسحر ، وأنه لا فرق بينه وبينهم : (وما أنت إلا بشر مثلنا) أي فلا وجه لتخصيصك عنا بذلك ، والدليل على أن عطف ذلك ابلغ من إتباعه من غير عطف جزمهم بظن كذبه في قولهم ؛) وإن) أي وإنا) نظنك لمن الكاذبين) أي العرقين في الكذب – هذا مذهب البصرين في أن) إن (مخففة من الثقيلة ، والذي يقتضيه السياق ترجح مذهب الكوفيين هنا البصريين في أن) إن (نافية ، فإنهم أرادوا بإثبات الواو في) وما (المبالغة في نفي إرساله بتعداد ما ينافيه ، فيكون مرادهم أنه ليس لنا ظن يتوجه إلى غير كذب ، وهو أبلغ من إثبات الظن به ، ويؤيده تسبيبهم عنه سؤاله استهزاء به وتعجيزا له إنزال العذاب بخلاف ما تقدم عن قوم صالح عليه السلام ، فقالوا : (فأسقط علينا كسفا (بإسكان السين على قراءة الجماعة وفتحها في رواية حفص ، وكلاهما جمع كسفة ، اي قطعا) من السماء) أي سحاب ، أو الحقيقة ، وهذا الطلب لتصميمهم على التكذيب ، ولو كان فيهم ادنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلا عن طلبه ولا سيما كونه على وجخ التهكم ، ولذلك قالوا : (إن كنت) أي كونا هو لك كالجبلة) من الصادقين) أي العريقين في الصدق ، المشهورين فيما بين أهله ، لنصدقك فيما لزم من أمرك لنا باتخاذ الوقاية من العذاب من التهديد بالعذاب ، وما أحسن نظره إلى تهديده لهم بما لله عليهم من القدرة في خلقهم وخلق من كانوا أشد منهم قوة وإهلاكهم بأنواع العذاب لما عصوه بتكذيب رسله .

ولما كان عذاب العاصي يتوقف على العلم المحيط بأعماله ، والقدرة على نكاله ، استأنف تعالى الحكاية عنه في تنبيهه لهم على ذلك بقوله : (قال (مشيرا إلى أنه لا شيء من ذلك إلا إلى من أرسله ، وهو متصف بكلا الوصفين ، وأما هو فإنه وإن كان". (١)

٤٦-" صفحة رقم ٥٧٨

شيء إذا أصابتهم مصيبة خافوا منها الهلاك) مخلصين (بالتوحيد) له الدين (بالإعراض عن شركائهم بالقلب واللسان ، لما هم له محققون أنه لا منجى عند تلك الشدائد غيره) فلما نجاهم) أي الله سبحانه ، موصلا لهم) لى البر إذا هم) أي حين الوصول إلى البر) يشركون (فصح أنهم لا يعلمون ، لأنهم لا يعقلون ، حيث يقرون بعجز آلهتهم ويشركونها معه ، ففي ذلك أعظم التهكم بهمح قال البغوي : قال عكرمة : كانوا إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام ، فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها في البحر وقالوا يا رب يا رب .

وقال الرازي في اللوامع : وهذا دليل على أن معرفة الرب في فطرة كل إنسان ، وأنهم إن غفلوا في السراء فلا شك أنهم يلوذون إليه في حال الضراء – انتهى .

فعلم أن الاشتغال بالدنيا هو الصاد عن كل خير وأن الانقطاع عنها معين للفطرة الأولى المستقيمة ، ولهذا نجد الفقراء اقرب غلى كل خير .

ولما كانوا مع هذا الفعل – الذي لا يفعله إلا مسلوب العقل – يدعون أنهم أعقل الناس وأبصرهم بلوازم الأفعلا وما يشين

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب) ٣٨٨/٥

الرجال ، وكان فعلهم هذا كفرا للنعمة ، مع ادعائهم أنهم أشكرالناس للمعروف ، قال منبها أن عادتهم مخالفة لعادة المؤمنين في جعلهم نعمة النجاة سببا لزيادة طاعاتهم ، فعل أنه ما كا إخلاصهم في البحر إلا صورة لا حقيقة لها : (ليكفروا بما آتيناهم (على عظمتنا من هذه النعمة التي يكفي في عظمتها أنه لا يمكن غيرنا أن يفعلها ما اشركوا إلا لأجل هذا الكفر ، وإلا لكانوا فاعلين لشيء من غير قصد ، فيكون ذلك فعل من لا عقل له اصلا وهم يحاشون عن مثل ذلك) وليتمتعوا (بما يجتمعون عليه في الإشراك من التواصل والتعاون ، وعند من سكن اللام – وهم ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون عن نافع – يكون معطوفا تهديدا على مقدر هو (فليكفروا) أو على) ليكفروا (السابق ، على أن لامه للأمر ، وسيأتي في الروم إن شاء الله تعالى ما يؤيده) فسوف يعلمون (بوعد لا خلف فيه ما يحل بهم بهذا الفعل الذي هو دائر بين كفر وجنون .

ولماكن قد فعل بهم سبحانه من الأمن الشديد المديد في البر دون سائر العربب عكس ما ذكر من حال خوفهم الشديد في البحر ، وكان قادرا على إخافتهم في البر كمت قدر على إخافتهم في البحر ليدوم إخلاصهم ، وكان كفرهم عند الأمن بعد الإخلاص عند الخوف – مع أنه أعظم النقائص – هزلا لا يفعله إلا من أمن مثل تلك المصيبة في البر ، توجه الإنكار في نحو أن يقال : إلم يروا أنا قادرون على إخافتهم وإهلاكهم في البر كما نحن قادرون على ذلك في البحر كما فعلنا بغيرهم فعطف عليه قوله : (أولم يروا) أي بعيون بصائرهم) أنا جعلنا) أي بعظمتنا لهم) حرما (وقال تعالى : (آمنا (".[(١)]

٤٧-" صفحة رقم ٦٢٦

المفاجأة : (إذا فريق منهم (اي طائفة هي أهل لمفارقة) بربهم (اي المحسن إليعهم دائما ، المجدد لهم هذا الإحسان من هذا الضر) يشركون (بدل ما لزمهم من أنهم يشكرون فعلم أن الحق الذي لا معدل عنه الإنابة في كل حال إليه كما أجمعوا في وقت الشدائد عليه ، وأن غير مما فرقهم ضلال ، لا يعدله قبالا ولا ما يعدله قبال .

ولما كان هذا الفعل مما لا يفعله إلا شديد الغباوة أو العناد ، وكانوا يدعون أنهم أعقل الناس ، ربا بهم عن منزلة البله إلى ما الجنون خير منه تهكما بهم فقال : (ليكفروا بما (ولفت الكلام إلى مظهر العظمة فقال : (آتيناهم) أي من الرحمة التي من عظمتها أنه لا يقدر عليها غيرنا أمنا من أن يقعوا في شدة اخرى فنهلكهم بما أغضبونان أو توسلا بذلك إلى أن نخلصهم متى وقعوا في أمثالها ، فلما أضل عقولهم وأسفه آراءهم .

ولما كان فعلهم هذا سببا لغاية الغضب ، دل عليه بتهديده ملتفتا إلى المخاطبة بقوله : (فتمتعوا) أي بما اردتم فيه بالشرك من اجتماعكم عند الأصنام وتواصلكم بها وتعاطفكم ، وسبب عن هذا التمتع قوله : (فسوف تعلمون (اي يكون لكم بوعد لا خلف فيه علم فتعرفون إذا حل بكم البلاء وأحاط بكم جميعا المكروه هل ينفعكم شيء من الأصنام أو من اتخذتم عنده يدا بعبادتها ووافقتموه في التقرب إليها .

ولما بكتهم بقوله : (هل لكم مما ملكت أيمانكم (ووصل به ما تقدم أنه في غاية التواصل ، عاد له ملتفتا إيذانا بالتهاون

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب) ٥٧٨/٥

بهم إلى مقام الغيبة إبعادا لهم عن جنابه حيث جلى لهم هذه الأدلة واستمروا في خطر إغضابه بقوله : (أم أنزلنا (بما لنا من العظمة) عليهم سلطانا) أي دليلا واضحا قاهرا) فهو) أي ذلك السلطان لظهور بيانه) يتكلم (كلاما مجازيا بدلالته وإفهامه ، وسيشهد) بما (اي بصحة الذي)كانوا) أي كونا راسخا) به) أي خاصة) يشركون (بحيث لم يجدوا بدا من متابعته لتزول عنهم الملامة ، وهذه العبارة تدل على أنهم لازموا الشرك ملازمة صيرته لهم خلقا لا ينفك .

الروم : (٣٦ - ٣٩) وإذا أذقنا الناس. .. . .

) وإذآ أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشآء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ومآ آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ومآ آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ( )

ولما بان بهذين المتعادلين أنهلم يضطرهم إلى الإشراك عرف في أنفسهم مستمر دائم ، ولا دليل عقلي ظاهر ، ولا أمر من الله قاهر ، فبان أنهم لم يتبعوا عقلا ولا نقلا ، ". (١)

٤٨-" صفحة رقم ٢١٥

ولما لم تكن نفس متأهلة للحمل تخلو من وزر تحمله ، والمعصوم من عصم الله ، قال : (وازرة (دون نفس ، أي لا تحمل حاملة من جهة الإثم) وزر) أي حمل وثقل) أخرى (لتعذب به ، بل كان واحد منكم له مما كسبت يداه ما ثقوم به عليه الحجة في الأخذ مباشرة وتسببا مع تفاوتكم في الوزر ، ولا يحمل أحد إلا ما اقترفه هو ، لا تؤخذ نفس بذنب أخرى الذي يخصها كما تقعل جبابرة الدنيا .

ولما أثبت أنه لا يؤخذ إلا بوزر ، ونفى أن يحمل أحد وزر غيره ، وكان ربما أوهم أن ذلك خاص ببعض الأحوال أو الأشخاص ، وكان عظم الوزر يوجب عظم الأخذ ، نفى ذلك الإيهام ودل القدرة على المفاوتة بينهم في الأجر وإن كان أخذهم في آن واحد بقوله : (وإن تدع) أي نفس) مثقلة) أي بالذنوب سواء كانت كفرا أو غيره ، أحدا) إلى حملها) أي الخاص بها من الذنوب التي ليست على غيرها بمباشرة ولا تسبب ليخفف عنها العذاب بسبب خفته) لا يحمل) أي من حامل ما) منه شيء) أي لا طواعية ولا كرها .

بل لكل امرئ شأن يغنيه أصلا وتسببا) ولو كان (ذلك الداعي أو المدعو للحمل) ذا قربى (لمن دعاه ، وحاصل الأولى أنه لا يهلك أحد بذنب غيره بل بذنب نفسه ، والثانية أنه لا يحط عن أحد ذنبه ليسلم .

ولما كان هذا أمرا - مع كونه جليا - خالعا للقلوب ، فكان بحيث يشتد تعجب السامع ممن يسمعه ولا يخشى ، فقال مزيلا لهذا العجب على سبيل النتيجة : (إنما تنذر) أي إنذارا يفيد الرجوع عن الغي ، فلاختصاصهم بالنفع كانوا كأنهم مختصون بالإنذار ، وهو كما قال القشيري : الإعلام بموضع المخافة .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب) ٦٢٦/٥

) الذين يخشون) أي يوقعون هذا الفعل في الحال يواظبون عليه في الاستقبال .

ولما كان أعقل الناس من خاف المحسن لان أقل عقابة قطع إحسانه قال : (ربهم (.

ولما كان أوفى الناس عقلا وأعلاهم همة وأكرمهم عنصرا من كانت غيبته مثل حضوره ، وكان لا يحتاج – مع قول الداعي وما يظهر له من سمته وحسن قوله وفعله – إلى آية يظهرها ولا خارقة يبرزها ، وإنما إيمانه تصديقا للداعي في إخباره بالأمر المغيب من غير كشف غطاء قال : (بالغيب) أي حال كونهم غائبين عما دعوا إليه وخوفوا به ، أو حال كونه غائبا عنهم أو غائبين عمن يمكن مراءاته ، فهم مخلصون في خشيتهم سواء بحيث لا يطلع إلا الله ، ولا نعلم أحدا وازى خديجة والصديق رضي الله عنهما في ذلك .

ولما كانت الصلاة جامعة لخضوع الظاهر والباطن ، فكانت أشرف العبادات ، وكانت إقامتها بمعنى حفظ جميع حدودها في كل حال أدل الطاعات على الإخلاص ، ". (١)

٤٩-" صفحة رقم ٤٢٥

ولما ذكر سبحانه أنه المختص بالملك وحده ، وأتبعه بما يرضيه وما يسخطه ، أقام الدليل على ذلك الاختصاص مع أنه أوضح من الشمس بدليل وجداني لكل أحد على وجه ذمهم فيه بالتناقض الذي هم أعظم البأس الذي هم أعظم البأس ذما له ونفرة منه وذما به فقال : (وإذا (وهي – والله أعلم – حيالة من واو) تصرفون (وكان الأصل : مسكم ، ولكنه عموم ودل بلفت القول عن الخطاب على الوصف الموجب للنسيان فقال : (مس الإنسان) أي هذا النوع الآنس بنفسه مؤمنه وكافره) ضر) أي ضر كان من جهة يتوقعها – بما أشار إليه الظرف تقدم تنبيهكم من غفلتكم عليه بقوله (ذلكم الله ربكم) ذاكرا صفة إحسانه) منبيا) أي راجعا رجوعا عظيما) إليه (بباطنه مخلصا في ذلك عالما أنه لا يكفيه أمره غيهر ضرورة يجدها في نفسه لأن الضر أزل عنه الأمومة والحظوظ ، معرضا عما كان يزعم من الشركاء معرفا لسان حاله أنه لا شريك له سبحانه كما هو الحق فتطابق في حال الضراء الحق والاعتقاد .

ولما كان الإنسان لما جبل عليه من الجزع واليأس إذا كان في ضر استبعد كل البعد أن يكشف عنه ، لتقيده بالجزئيات وقصوره على التعلق بالأسباب ، أشار إلى ذلك مع الإشارة إلى الوعد بتحقيق الفرج فقال : (ثم) أي بعد استبعاده جدا .

ولما كان الرخاء محقا ، وهو أكثر من الشدة ، عبر بأداة التحقق ، فقال منبها بالتعبير ب (خول) على أن غطاءه ابتداء فضل منه لا يستحق أحد عليه متمكنا ابتداء ، وجعله حسن القيام عليه قادرا على إجادة تعهده) نعمة منه (ومكنه فيها) نسي) أي مع دعائه أن يشكر على الإحسان ، فكانت مدة تخويله ظرف نسيانه ، فعلم أن صلاحه بالضراء) ما) أي الأمر الذي)كان يدعوا (ربه على وجه الإخلاص) إليه (إلى كشفه من ذلك الضر الذي كان ، وأعلم بتقارب وقتي النسيان والإنابة بإثبات الجار فقال : (من قبل) أي قبل حال التخويل بتقارب وقتي النسيان والإنابة بإثبات الجار فقال

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب) ٦/٢١٥

: (لله) أي الذي لا مكافئ له بشهادة الفطرة والعقل والسمع) أندادا) أي لكونه يتأهلهم ، فينزلهم بذلك منزلة من يكون قادرا على المعارضة والمعاندة ، فقد علم من التعبير بالنسيان أنه عالم بربه ، ولذلك دعاه في كشف ضره وأنه جعل علمه عند الإحسان إليه جهلا ، فكان كمن لا يعلم من سائر الحيوانات العجم .

ولما كان ذلك في غاية الضلال ، لكونه – مع أنه خطأ – موجبا لقطع الإحسان وعدم الإجابة في كشف الضر مرة أخرى وكانوا يدعون أنهم أعقل الناس ، وكان هذا". (١)

٥٠-" صفحة رقم ١١٦

عارفون بأن إنذاره لا يتخلف) معرضون (ومن غوائله آمنون ، فهم بما يغضبنا فاعلون ، شهدت عندهم شواهد الوجود فما سمعوا لها ولا أصغوا إليها وأنذرتهم الرسل والكتب من عند الله فأعرضوا عنها واشمأزوا منها .

الأحقاف : (٤ – ٦) قل أرأيتم ما. .. . . .

) قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذآ أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعآئهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعدآء وكانوا بعبادتهم كافرين (( )

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير رحمه الله تعالى : لما قدم ذكر الكتاب وعظيم الرحمة به وجليل بيانه ، وأردف ذلك بما تضمنته سورة الشريعة من توبيخ من كذب به وقطع تعلقهم وأنه سبحانه قد نصب من دلائل السماوات والأرض إلى ما ذكر في صدر السورة ما كل قسم منها كاف في الدلالة وقائم بالحجة ، ومع ذلك فلم يجر عليهم التمادي على ضلالهم والانهماك في سوء حالهم وسيىء محالهم ، أردفت بسورة الأحقاف تسجيلا بسوء مرتكبهم وإعلاما باليم منقلبهم فقال تعالى) وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى (ولو اعتبرا بعظيم ارتباط ذلك الحق وإحكامه وإتقانه لعلموا أنه لم يوجد عبثا ، ولكنهم عموا عن الآيات وتنكبوا عن انتهاج الدلالات) والذين كفروا عما أنذروا معرضون (ثم أخذ سبحانه وتعالى في تعنيفهم وتقريعهم في عبادة ما لا يضر ولا ينفع فقال) أفرأيتم ما تدعون من دون الله (– إلى قوله : (وكانوا بعبادتهم كافرين (ثم ذكر عنادهم عن سماع الآيات فقال : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات (الآيات ، ثم التحم الكلام وتناسج إلى آخر السورة – انتهى .

ولما قرر سبحانه الأصل الدال على التوحيد وإثبات العدل والحرمة بالبعث للفصل ، وكانوا يقولون : إنهم أعقل الناس ، وكان العاقل لا يأمن غوائل الإنذار إلا أن أعد لها ما يتحقق دفعه لها وكان لا يقدر على دفع المتوعد إلا من يساوه أو يزيد عليه بشركة أو غيرها ، وكانوا يدعون في أصنامهم أنها شركاء ، بنى على ذلك الأصل فتاريعه ، وبدأ بإبطال متمسكهم فقال سبحانه وتعالى آمرا له (صلى الله عليه وسلم) بأن ينبههم على سفههم بأنهم أعرضوا عما قد يضرهم من غير احتراز منه دالا على عدم إلهية ما دعوه آلهة بعدم الدليل على إلهيتها من عقل أو نقل ، لأن منصب الإلهية لا يمكن أن يثبت له

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب) ٤٢٥/٦

من الشرف ما هو معلوم بغير دليل قاطع : (قل) أي لهؤلاء المعرضين أنفسهم لغاية الخطر منكرا عليهم تبكيتا وتوبيخا : (أرءيتم) أي أخبروني بعد تأمل ورؤية باطنة) ما تدعون (".[1]

٥١-" صفحة رقم ٢٧٣

طرائق السماء التي لا تكاد تنتظم ، ولا يعرف أولها من آخرها ، واختلاف هذه الأشياء المقسم بها من أول السورة واختلاف غاياتها لكنه مع ذلك متدافع ، وإن كنتم تجتهدون في تزيينه وتقريبه للأفهام وتحسينه فإنه لا يكاد إذا عرضه الناقد على الفكر النافذ ينضبط بضابط ولا يرتبط برابط ، بل تارة تقولون : هذا شعر فيلزمكم وصفه بما تصفون به الشعر من الاتساق بالوزن المجرد والروي المتحد ، والعذوبة والرشاقة ، وتارة تقولون : هذا سحر فيلزمكم مع الإفرار بالعجز عنه أنه لا حقائق له والواقع أنه لا يتأمله ذو فهم إلا رأى حقائقه أثبت من الجبال ، وتارة تقولون : أضغاث أحلام ، فيلزمكم أنه لا ينضبط بضابط ، ولا يكون له مفهوم يحصل ، ولا يعجز أحد عن تلفيق مثله ، فقد أبطلتم قولكم : إنه شعر وإنه سحر .

وارة تقولون : إنه كهانة فيلزمكم أن تعتقدوا منه ما تعتقدون في أقوال الكهان من الغخبار باملغيبات وإظهار الخبء وفصل الحكم ، فقد نقضتم جميع أقوالكم الماضية وناديتم على أنفسكم بالمباهتة ، تقولون في الآتي به : إنه شاعر وساحر ومجنون وكاهن وكاذب ، وكل قول منها ينقض الآخر ، وأنتم تدعون أنكم أصدق الناس وأبعدهم عن عار الكذب ، وأنكم أعقل الناس وأنصفهم ، فقد تباعد أولا ما بين أقوالكم ، ثم ما بينها وبين أفعالكم ، فكان اختلاف طرائق النجوم دالا على مانع مختار تام العلم كامل القدرة ، وكذا اختلاف قولكم على هذا الوجه مع ما لكم من العقول دال على قاهر لكم على ذلك ، فهما آيتان في الآفاق وفي أنفسكم .

الذاريات : (٩ - ١٨) يؤفك عنه من. .. . . .

) يؤفك عنه من أفك قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون يسألون أيان يوم الدين يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون إن المتقين في جنات وعيون آخذين مآ آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون (( )

ولما كان هذا الاختلاف مما لا يكاد يصدق لأنه لا يقع فيه عاقل ، بين سببه بأنهم مغلوبون عليه بقهر يد القدرة فقال : (يؤفك) أي يصرف بأيسر أمر وأسهله عن سنن الاستقامة ، ويقلب من وجهه لقفاه) عنه) أي يصدر صرفه عن هذا القول مجازا لما يلزمه من عاره ، فهو لأجل ذلك يقوله) من أفك) أي قلبه قلب قاهر أي تبين بهذا الصرف الذي هو أعظم الصرف أنه حكم في الأزل حكما ثابتا جامعا ، فصار لا يصد عنه قول ولا فعل إلا كان مقلوبا وجهه إلى قفاه لا يمكن أن يأتي منه بشيء على وجهه ، فكأنه لا مأفوك سواه لشدة افكه وعجيب أمره .". [2]

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب) ١١٦/٧

(٢) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب) ٢٧٣/٧

٥٢-" صفحة رقم ٤٧٢
الشهوة والعقل وفيه الأنس بنفسه ما ينسيه أكثر مهمه ، ولهذا قالت الملائكة عليهم الصلاة والسلام
٧٧ ( ) أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ( ) ٧
[البقرة : ٣٠] لأنهم علموا أنه إذا جمع الغضب والشهوة إلى العقل جاءت المنازعة فيتولد الفساد من الشهوة والسفك من الغضب) في أحسن تقويم) أي كائن منا روحا وعقلا أو أعم من ذلك بما جعلنا له من حسن الخلق والخلق بما خص به من انتصاب القامة وحسن الصورة واجتماع خواص الكائنات ونظائر سائر الممكنات بعد ما شارك فيه غيره من السمع والبصرة والذوق واللمس والشم الجوارح التي هيأته لما خلق له حتى قيل إنه العالم الأصغر كما مضى بسط ذلك في سورة الشمس ثم ميزناه بما أودعناه فيه بما جعلناه عليه من الفطرة الأولى التي لا تبديل لها من الطبع الأول السليم الذي هيأناه به وقويناه بقدرتنا لقبول الحق ، وبمثل ما قلته في حمل الآية على الفطرة الأولى قال الأصفهاني في تفسير
٧٧ ( ) كان الناس أمة واحدة ( ) ٧
[البقرة : ٢١٣] في البقرة ، وقال ابن برجان هنا : مفطور على فطرة الإسلام الدين القيم ، ثم لما منحناه به من العقل المدرك القويم ، فكما جعلنا له شكلا يميزه عن سائر الحيوان منحناه عقلا يهديه إلى العروج عن درك النيران إلى درج الجنان بالإيمان والأعمال الصالحة البالغة نهاية الإحسان ، بدليل من فيه من الأنبياء الذين أكملهم محمد على جميعهم أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام والتابعين له بإحسان الذين ملؤوا الأرض علما وحمة ونورا ، قال البغوي : خلقه سبحانه وتعالى مديد القامة يتناول مأكوله بيده مزينا بالعقل والتمييز - انتهى ، والعقل هو المقصود في الحقيقة من الإنسان لأن من أسمائه اللب ، ومن المعلوم أن المقصود كل شيء لبه وهو الشرع كما مضى في آخر النساء ، والظاهر أن عقول الناس بحسب الخلق متقاربة وأنها إنما تفاوتت بحسب الجبلة فبعضهم جعل سبحانه وتعالى عنصره وجبلته في غاية الفساد فلا تزال جبلته تردي على عقله فيتناقص إلى أن يصير إلى أسوأ الأحوال ، فكل ميسر لما خلق له ، وبعضهم يصرف عقله بحسب ما هيأه الله له إلى ما ينجيه ، وبعضهم يصرفه لذلك إلى ما يريده ، لأنك تجد أعقل الناس في شيء وأعرفهم به أشدهم بلادة في شيء آخر ، وأغباهم في شيء أذكاهم في شيء آخر - فاعتبر ذلك ، وبذلك انتظم أمر الخلق في أمر معاشهم بالعلوم والصنائع والأحوال - والله الهادي ، وهذه الآية تدل على أن الله سبحانه وتعالى منزه عن التركيب والصورة لأنه لو كان في شيء منهما لكان هو الأحسن لأن كل صفة يشترك فيها الخلق والحق فالمبالغة للحق كالعالم والأعلم والكريم والأكرم - قاله الأستاذ أبو القاسم القشيري في تفسيره ، وصيغة (أفعل) لا تدل على ما قاله الزنادقة ، وإن عزي ذلك إلى بعض الأكابر من قولهم : ليس في الإمكان أبدع مما كان ، ". (١)

٥٣-"ولما كان مدار القرآن على تقرير التوحيد والنبوة وتوابعها والمعاد والقضاء والقدر والفعل بالاختيار ، وأتقن تقرير هذه الأصول لا سيما في هذه السورة ، وانتهى إلى شرح أحوال السعداء والأشقياء ، وعجب سبحانه ممن أشرك

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب) ٤٧٢/٨

وأنكر البعث وفعل أفعال المشركين تعجيبا بعد تعجيب ، وهجن طريقتهم ووبخهم توبيخا في إثر توبيخ بتكذيبهم للداعي من غير حجة ، وحكى أقوالهم الباطلة ودعاويهم الفاسدة مع ادعائهم أنهم أنصف الناس ، ومخالفتهم للهادي بغير ثبت ولا بينة مع ادعائهم أنهم أبصر الناس ، وبطلبهم للآيات تعنتا مع ادعائهم أنهم أعقل الناس ، وإخلاصهم في الشدة وإشراكهم في الرخاء مع ادعائهم أنهم أشكر الناس ، وعبادتهم للجن وتعوذهم بهم مع ادعائهم أنهم أشجع الناس - إلى أن عجب منهم فيما شرعوه لأنفسهم فميا رزقهموه سبحانه من حيوان وجماد ومضوا عليه خلفا عن سلف ، تنبيها على ضعف عقولهم وقلة علومهم تنفيرا للناس عن الالتفات إليهم واغترار بأقوالهم ، قال في موضع الحال من ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام﴾ [الأنعام : ١٣٦] مبينا عظيم ملكه وشمول قدرته وباهر اختياره وعظمته ، زيادة في التعجيب منهم في تصرفهم في ملكه بغير إذنه سبحانه وشرعهم ما لم يأذن فيه في سياق كافل بإقامة الحجة على تقرير التوحيد عودا على بدء وعللا بعد نهل ، لأنه المدار الأعظم والأصل الأقوم : ﴿وهو﴾ أي لا غيره ﴿الذي أنشأ﴾ أي من العدم ﴿جنات﴾ أي من العنب وغيره ﴿معروشات﴾ أي مرفوعات عن الأرض على الخشب ونحوه ، أي لا تصلح إلا معروشة ، ومتى لم ترفع عن الأرض تلف ثمرها ﴿وغير معروشات﴾ أي غير مرفوعات على الخشب ، أي لا تصلح إلا مطروحة على

٧٢٦

الأرض مثقلة بما يحكم وصولها إليها ، ومتى ارتفعت عن الأرض تلفت ، فما ذلك لطبيعة ولا غيرها وإلا لاستوت الجنات كلها لأن نسبتها إلى السماء والأرض واحدة ، فما اختلف إلا بفاعل مختار واحد لا شريك له ، لا يكون إلا ما يريد.

(١) ."

٥٤-"﴿إلى الهدى﴾ أي إلى الذي يدل الداعي إليه قطعا ، على أن المختلف عنه سيئ المزاج ، محتاج إلى العلاج ، لكونه تخلف عما لا يتخلف عنه من له نوع صلاح لكونه أشرف الأشياء ، فالمختلف عنه راض لنفسه بالدون ﴿لا يتبعوكم﴾ أي في ذلك الهدى الذي دعوتموهم إليه ولم بالغتم في الاستتباع ، ولعله عبر بصيغة الافتعال إشارة إلى أنها لا يتصور منها قصد التبع فضلا عن إيجاده ، ثم بين أن ذلك ليس بأمر عارض ، بل هو مستمر دائم بقوله مستأنفا تأكيدا للمعنى : ﴿سواء عليكم﴾ ولما كان السواء لا يكون إلا بين أمرين ، تشوف السامع إليهما فقال ؛ ﴿أدعوتموهم﴾ أي وجد منكم ذلك الدعاء الذي أشير إلى استمراره ، وعبر بالاسمية إشارة إلى أنهم لا يدعونهم في وقت الشدائد ، بل يدعون الله فقال : ﴿أو انتم صامتون*﴾ أي عن ذلك الدوام على عادتكم في الإعراض عن دعائهم في أوقات الملمات ، فالذين دعون معتقديهم في وقت الضرورات أقبح حالافي ذلك من المشركين ويجوز أن تكون الآية من الاحتباك ، فيكون نظمها : أدعوتموهم مرة أو أنتم داعوهم دائما أم صمتم عن دعائهم في وقت ما أم أنتم صامتون دائما عن دعائهم ، حاكم في كل هذه الأجوبة سواء في عدم الإجابة ، لا اختلاف فيه بوجه ، دل بالفعل أولا على حذف مثله ثانيا ، وبالاسم ثانيا على

---

(١) نظم الدرر . موافق للمطبوع ١١٣٦/٢

حذف مثله أولا ولما كان اتباع من يدعي أنه أعقل الناس وأبعدهم عن النقائص وأعرقهم في معالي الأخلاق وأرفعهم عن سفسافها لمن هذا سبيله أخزى الخزي وأقبح العار ، وكانوا مع العلم بهذا الذي وصفت به – معبوداتهم يفعلون في الإشراك بهم وفي خوفهم ورجائهم ما هو عين الجهل ؛ كرر تبكيهم باتباعهم في أسلوب آخر أوضح مما قبله في تبيين النقائص والتنبيه على المعايب ملجئ إلى الاعتراف أو التصريح بالعناد أو الجنون فقال مؤكدا : ﴿إن الذين تدعون﴾ أي أيها المشركون كون دعاء عبادة ملازمين لذلك ، أو أنه أطلق الدعاء على العبادة إشارة إلى أنه لا تصح عبادة من ليس فيه قابلية أن يدعى ، ". (١)

٥٥-"ولما كان من حقهم – بعد قيام الأدلة على كمال قدرته وشمول علمه وبلوغ حكمته في إبداع جميع المخلوقات مما نعلم ومالا نعلم على أبدع ترتيب وأحسن نظام – تصديق الهداة في إعلامهم بأنه سبحانه يعيدهم للبعث وأنهم لم يفعلوا ولا طرقوا لذلك احتمالا ، بل حلفوا على نفيه من غير شبهة عرضت لهم ولا إخبار عن علم وصل إليهم فعل الجلف الجافي الغبي العاسي ، أتبع ذلك سبحانه تعجيبا آخر من حالهم ، فقال – عاطفا على ﴿وقال الذين أشركوا﴾ لأن كلا من الجملتين لبيان تكذيبهم الرسل والتعجيب منهم في ذلك ، دالا على ان اعتقادهم مضمون هذه الجملة هو الذي جرأهم على قول الأولى وما تفرغ منها – : ﴿وأقسموا بالله﴾ أي الملك الأعظم ﴿جهد أيمانهم﴾ جعلت الأيمان جاهدة لكثرة ما بالغوا فيها : ﴿لا يبعث الله﴾ أي الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿من يموت﴾ أي يحيي أحدا بعد موته ، استنادا منهم إلى مجرد استبعاد مالم تجر به نفسه عندهم عادة ، جمودا منهم عن حلها بأن النشأة الأولى كانت من غير عادة ، مع ادعائهم أنهم أعقل الناس وأحدهم أذهانا وأثقبهم أفهاما.

ثم رد عليهم بقوله تعالى : ﴿بلا﴾ أي ليبعثهم لأنه لا مانع له من ذلك وقد وعد

٢٦٩

به ﴿وعدا﴾ وبين أنه لا بد منه بقوله : ﴿عليه﴾ وزاده تأكيدا في مقابلة اجتهادهم في أيمانهم بقوله : ﴿حقا﴾ أي لأنه قادر عليه وهو لا يبدل القول لديه ، فصار واجبا لهواه ﴿ولكن أكثر الناس﴾ أي بما لهم من الاضطراب ﴿لا يعلمون*﴾ أي لا علم لهم يوصلهم إلى ذلك لأنه من عالم الغيب لا يمكن عقولهم الوصول إليه بغير إرشاد من الله ، ولا هم يقبلون أقوال الدعاة إليه الذين أيدهم بروح منه لتقيدهم بما توصلهم إليه عقولهم ، وهي مقصورة على عالم الشهادة لا يمكنها الترقي منه إلى عالم الغيب بغير وساطة منه سبحانه تعالى ، فلذلك ترى الإنسان منهم يأبى ذلك استعبادا لأن يكون شيء معقول لا يصل إليه بمجرد عقله وهو خصيم مبين.

---

(١) نظم الدرر . موافق للمطبوع ٣/٢٧٦

" . (١)

٥٦-"ولما كانوا – كما تقدم يدعون أنهم أعقل الناس ، فكان اللائق بهم إرخاء للعنان النسبة إلى معرفة اللوازم عند الإقدام على الملزومات ، قال تعالى : ﴿لتفتروا على الله﴾ أي الملك الأعلى ﴿الكذب﴾ لأن من قال على أحد ما لم يأذن فيه كان قوله كذبا ، وكان كذبه لقصد افتراء الكذب ، وإلا لكان في غاية الجهل ، فدار أمرهم في مثل هذا
٣١٩
بين الغباوة المفرطة أو قصد ما لا يقصده عاقل ، وهذا باب من التهكم عجيب ، فكأنه قيل : فما يستحقون على ذلك ؟ فأجاب بقوله تعالى : ﴿إن الذين يفترون﴾ أي يقتطعون عمدا ﴿على الله﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿الكذب﴾ منكم ومن غيركم ﴿لا يفلحون*﴾.

ولما كان الفلاح عندهم هو العيش الواسع في هذه الدنيا ، أجاب من كأنه قال : فإنا ننظرهم بنعمة ورفاهة ؟ فقال تعالى : ﴿متاع قليل﴾ أي ما هم فيه لفنائه وإن امتد ألف عام ﴿ولهم﴾ بعده ﴿عذاب أليم*﴾ ومن ألمه العظيم دوامه فأي متاع هذا.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٣١٩
ولما بين لهم نعمته بتوسعته عليهم بما ضيقوا به على أنفسهم ، بين لهم نعمة أخرى بتمييزهم على بني إسرائيل فقال تعالى : ﴿وعلى الذين هادوا﴾ أي اليهود ﴿حرمنا﴾ أي بعظمتنا عقوبة لهم بعدوانهم وكذبهم على ربهم ﴿ما قصصنا﴾ أي بما لنا من العظمة التي كان المقصوص بها معجزا ﴿عليك﴾.

ولما لم يكن قص ذلك عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم مستغرقا زمان القبل ، أدخل الجار فقال : ﴿من قبل﴾ أي في الأنعام ﴿وما ظلمناهم﴾ أي الذين وقع منهم الهود بتحريمنا عليهم ما حرمنا ﴿ولكن كانوا﴾ أي دائما طبعا لهم وخلقا مستمرا ﴿أنفسهم﴾ أي خاصة ﴿يظلمون*﴾ أي بالبغي والكفر ، فضيقنا عليهم معاملة بالعدل ، وعاملناكم أنتم حيث ظلمتم بالفضل ، فاشكروا النعمة واحذروا غوائل النقمة.

" . (٢)

---

(١) نظم الدرر ـ موافق للمطبوع ٤/٤٢٢

(٢) نظم الدرر ـ موافق للمطبوع ٤/٤٩٣

٥٧-"أفراده بعد أن لم تكن : ﴿ربكم﴾ أي الموجد لكم والمربي والمحسن ﴿ورب آبائكم الأولين*﴾ وفرعون - الذي تقرون بأنه ربكم - كان إذ ذاك عدما محضا ، أو ماء صرفا في ظهر أبيه ، فبطل كون أحد منهم ربا لمن بعده كما بطل كون أحد ممن قبلهم من الهالكين ربا لهم ، لأن الكل عدم.

فلما أوضح بذلك بطلان ما حملهم على اعتقاده من ربوبيته لم يتمالك أن ﴿قال إن رسولكم﴾ على طريق التهكم ، إشارة إلى أن الرسول ينبغي ان يكون أعقل الناس ، ثم زاد الأمر وضوحا بقوله : ﴿الذي أرسل إليكم﴾ أى وأنتم أعقل الناس ﴿لمجنون﴾ حيث لا يفهم أني أساله عن حقيقة مرسله فكف يصلح للرسالة من الملوك.

فلما أساء الأدب ، فاشتد تشوف السامع إلى معرفة جوابه عنه ، استأنف تعالى الإخبار بذلك ، فحكى أنه ذكر له ما لا يمكنه أن يدعي طاعته له ، وهو أكثر تغيرا وأعجب تنقلا بأن ﴿قال رب المشرق والمغرب﴾ أى الشروق والغروب ووقتهما وموضعهما ﴿وما بينهما﴾ أى من الناس الذين ليسوا في طاعتكم ، والحيوان والجماد ، بسبب ما ترون من قدرته على تقليب النيرات من بزوغ الشمس والقمر والنجوم وأفولها وما يظهر عنهما من الليل والنهار على تصاريف مختلفة ، وحركات متقاربة لو لا هي لما علمتم شيئا من أموركم ، ولا تمكنتم من أحوالكم ، وهذا الدليل أبين الكل لتكرر الحركة فيه وغير ذلك من معالمه ، ولذلك بهت نمرود لما ألقاه عليه الخليل عليه الصلاة والسلام.

ولما دعاه صلى الله عليه وسلم باللين فأساء الأدب عليه في الجواب الماضي ، ختم هذا البرهان بقوله : ﴿إن كنتم تعقلون﴾ أي فأنتم تعلمون ذلك ، فخيرهم بين الإقرار بالجنونن أو العقل ، بما أشار إليه من الأدلة في مقابلة ما نسبوه إليه من الجنون بسكوتهم وقول عظيمهم بغير شبهة ، ردا لهم عن الضلالة ، وإنقاذا من واضح الجهالة ، فكان قوله أنكأ مع أنه ألطف ، وأوضح مع أنه أستر وأشرف.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٣٥٥

". (١)

٥٨-"ولما كان الحاصل ما مضى الإعلام بالرسالة ، والتحذير من المخالفة ، لأنها تؤدي إلى الضلالة إلى أن ختم ذلك بالإشارة بالتعبير بالجبلة إلى أن عذابه تعالى عظيم ، لا يستعصي عليه صغير ولا كبير ، أجابوه بالقدح في الرسالة أولا ، وباستصغار الوعيد ثانيا ، بأن ﴿قالوا إنما أ ، ت م المسحرين*﴾ أي الذين كرر سحرهم مرة بعد أخرى حتى اختبلوا ، فصار كلامهم على غير نظام ، أو من المعللين بالطعام والشراب كما مضى في صالح عليه السلام ، أي فأنت بعيد من الصلاحية للرسالة : ثم اشاروا إلى عدم صلاحية البشر مطلقا لها ولو كانوا أعقل الناس وابعدهم عن الآفة بقولهم ، عاطفين

(١) نظم الدرر . موافق للمطبوع ٥/٥٩٧

بالواو إشارة إلى عراقته فيما وصفوه به من جهة السحر والسحر ، وأنه لا فرق بينه وبينهم : ﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ أي فلا وجه لتخصيصك عنا بذلك ، والدليل على أن عطف ذلك ابلغ من إتباعه من غير عطف جزمهم بظن كذبه في قولهم ؛ ﴿وإن﴾ أي وإنا ﴿نظنك لمن الكاذبين*﴾ أي العرقين في الكذب – هذا مذهب البصرين في أن ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة ، والذي يقتضيه السياق ترجح مذهب الكوفيين هنا البصريين في أن ﴿إن﴾ نافية ، فإنهم أرادوا بإثبات الواو في ﴿وما﴾ المبالغة في نفي إرساله بتعداد ما ينافيه ، فيكون مرادهم أنه ليس لنا ظن يتوجه إلى غير كذب ، وهو أبلغ من إثبات الظن به ، ويؤيده تسبيبهم عنه سؤاله استهزاء به وتعجيزا له إنزال العذاب بخلاف ما تقدم عن قوم صالح عليه السلام ، فقالوا : ﴿فأسقط علينا كسفا﴾ بإسكان السين على قراءة الجماعة وفتحها في رواية حفص ، وكلاهما جمع كسفة ، أي قطعا ﴿من السماء﴾ أي سحاب ، أو الحقيقة ، وهذا الطلب لتصميمهم على التكذيب ، ولو كان فيهم ادنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلا عن طلبه ولا سيما كونه على وجخ التهكم ، ولذلك قالوا : ﴿إن كنت﴾ أي كونا هو لك كالجبلة ﴿من الصادقين*﴾ أي العريقين في الصدق ، المشهورين فيما بين أهله ، لنصدقك فيما لزم من أمرك لنا باتخاذ الوقاية من العذاب من". (١)

٥٩–"ولما كانوا مع هذا الفعل – الذي لا يفعله إلا مسلوب العقل – يدعون أنهم أعقل الناس وأبصرهم بلوازم الأفعلا وما يشين الرجال ، وكان فعلهم هذا كفرا للنعمة ، مع ادعائهم أنهم أشكرالناس للمعروف ، قال منبها أن عادتهم مخالفة لعادة المؤمنين في جعلهم نعمة النجاة سببا لزيادة طاعاتهم ، فعل أنه ما كا إخلاصهم في البحر إلا صورة لا حقيقة لها : ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ على عظمتنا من هذه النعمة التي يكفي في عظمتها أنه لا يمكن غيرنا أن يفعلها ما اشركوا إلا لأجل هذا الكفر ، وإلا لكانوا فاعلين لشيء من غير قصد ، فيكون ذلك فعل من لا عقل له اصلا وهم يحاشون عن مثل ذلك ﴿وليتمتعوا﴾ بما يجتمعون عليه في الإشراك من التواصل والتعاون ، وعند من سكن اللام – وهم ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون عن نافع – يكون معطوفا تهديدا على مقدر هو " فليكفروا " أو على ﴿ليكفروا﴾ السابق ، على أن لامه للأمر ، وسيأتي في الروم إن شاء الله تعالى ما يؤيده ﴿فسوف يعلمون*﴾ بوعد لا خلف فيه ما يحل بهم بهذا الفعل الذي هو دائر بين كفر وجنون.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٥٧٦

ولماكن قد فعل بهم سبحانه من الأمن الشديد المديد في البر دون سائر العريب عكس ما ذكر من حال خوفهم الشديد في البحر ، وكان قادرا على إخافتهم في البر كمت قدر على إخافتهم في البحر ليدوم إخلاصهم ، وكان كفرهم عند الأمن بعد الإخلاص عند الخوف – مع أنه أعظم النقائص – هزلا لا يفعله إلا من أمن مثل تلك المصيبة في البر ، توجه الإنكار في نحو أن يقال : إلم يروا أنا قادرون على إخافتهم وإهلاكهم في البر كما نحن قادرون على ذلك في البحر كما فعلنا بغيرهم

---

(١) نظم الدرر . موافق للمطبوع ٦٤٣/٥

فعطف عليه قوله : ﴿أولم يروا﴾ أي بعيون بصائرهم ﴿أنا جعلنا﴾ أي بعظمتنا لهم ﴿حرما﴾ وقال تعالى : ﴿آمنا﴾ ٥٧٨

". (١)

٦٠-"المفاجأة : ﴿إذا فريق منهم﴾ أى طائفة هي أهل لمفارقة ﴿بربهم﴾ أى المحسن إليعهم دائما ، المجدد لهم هذا الإحسان من هذا الضر ﴿يشركون*﴾ بدل ما لزمهم من أنهم يشكرون فعلم أن الحق الذي لا معدل عنه الإنابة في كل حال إليه كما أجمعوا في وقت الشدائد عليه ، وأن غير مما فرقهم ضلال ، لا يعدله قبالا ولا ما يعدله قبال.

ولما كان هذا الفعل مما لا يفعله إلا شديد الغباوة أو العناد ، وكانوا يدعون أنهم أعقل الناس ، ربا بهم عن منزلة البله إلى ما الجنون خير منه تهكما بهم فقال : ﴿ليكفروا بما﴾ ولفت الكلام إلى مظهر العظمة فقال : ﴿آتيناهم﴾ أي من الرحمة التي من عظمتها أنه لا يقدر عليها غيرنا أمنا من أن يقعوا في شدة اخرى فنهلكهم بما أغضبونان أو توسلا بذلك إلى أن نخلصهم متى وقعوا في أمثالها ، فلما أضل عقولهم وأسفه آراءهم!.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٦٢٤

ولما كان فعلهم هذا سببا لغاية الغضب ، دل عليه بتهديده ملتفتا إلى المخاطبة بقوله : ﴿فتمتعوا﴾ أي بما اردتم فيه بالشرك من اجتماعكم عند الأصنام وتواصلكم بها وتعاطفكم ، وسبب عن هذا التمتع قوله : ﴿فسوف تعلمون*﴾ أى يكون لكم بوعد لا خلف فيه علم فتعرفون إذا حل بكم البلاء وأحاط بكم جميعا المكروه هل ينفعكم شيء من الأصنام أو من اتخذتم عنده يدا بعبادتها ووافقتموه في التقرب إليها.

". (٢)

٦١-"ولما لم تكن نفس متأهلة للحمل تخلو من وزر تحمله ، والمعصوم من عصم الله ، قال : ﴿وازرة﴾ دون نفس ، أي لا تحمل حاملة من جهة الإثم ﴿وزر﴾ أي حمل وثقل ﴿أخرى﴾ لتعذب به ، بل كان واحد منكم له مما كسبت يداه ما تقوم به عليه الحجة في الأخذ مباشرة وتسببا مع تفاوتكم في الوزر ، ولا يحمل أحد إلا ما اقترفه هو ، لا تؤخذ نفس بذنب أخرى الذي يخصها كما تفعل جبابرة الدنيا.

ولما أثبت أنه لا يؤخذ إلا بوزر ، ونفى أن يحمل أحد وزر غيره ، وكان ربما أوهم أن ذلك خاص ببعض الأحوال أو

---

(١) نظم الدرر . موافق للمطبوع ٥/٩٣٠

(٢) نظم الدرر . موافق للمطبوع ٥/١٠٠٣

الأشخاص ، وكان عظم الوزر يوجب عظم الأخذ ، نفى ذلك الإيهام ودل القدرة على المفاوتة بينهم في الأجر وإن كان أخذهم في آن واحد بقوله : ﴿وإن تدع﴾ أي نفس ﴿مثقلة﴾ أي بالذنوب سواء كانت كفرا أو غيره ، أحدا ﴿إلى حملها﴾ أي الخاص بها من الذنوب التي ليست على غيرها بمباشرة ولا تسبب ليخفف عنها العذاب بسبب خفته ﴿لا يحمل﴾ أي من حامل ما ﴿منه شيء﴾ أي لا طواعية ولا كرها.

بل لكل امرئ شأن يغنيه أصلا وتسببا ﴿ولو كان﴾ ذلك الداعي أو المدعو للحمل ﴿ذا قربى﴾ لمن دعاه ، وحاصل الأولى أنه لا يهلك أحد بذنب غيره بل بذنب نفسه ، والثانية أنه لا يحط عن أحد ذنبه ليسلم.

ولما كان هذا أمرا – مع كونه جليا – خالعا للقلوب ، فكان بحيث يشتد تعجب السامع ممن يسمعه ولا يخشى ، فقال مزيلا لهذا العجب على سبيل النتيجة : ﴿إنما تنذر﴾ أي إنذارا يفيد الرجوع عن الغي ، فلاختصاصهم بالنفع كانوا كأنهم مختصون بالإنذار ، وهو كما قال القشيري : الإعلام بموضع المخافة.

﴿

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢١٤

الذين يخشون﴾ أي يوقعون هذا الفعل في الحال يواظبون عليه في الاستقبال.

ولما كان أعقل الناس من خاف المحسن لان أقل عقابة قطع إحسانه قال : ﴿ربهم﴾.

". (١)

٦٢-"ولما كان الرخاء محقا ، وهو أكثر من الشدة ، عبر بأداة التحقق ، فقال منبها بالتعبير بـ " خول " على أن غطاءه ابتداء فضل منه لا يستحق أحد عليه متمكنا ابتداء ، وجعله حسن القيام عليه قادرا على إجادة تعهده ﴿نعمة منه﴾ ومكنه فيها ﴿نسي﴾ أي مع دعائه أن يشكر على الإحسان ، فكانت مدة تخويله ظرف نسيانه ، فعلم أن صلاحه بالضراء ﴿ما﴾ أي الأمر الذي ﴿كان يدعوا﴾ ربه على وجه الإخلاص ﴿إليه﴾ إلى كشفه من ذلك الضر الذي كان ، وأعلم بتقارب وقتي النسيان والإنابة بإثبات الجار فقال : ﴿من قبل﴾ أي قبل حال التخويل بتقارب وقتي النسيان والإنابة بإثبات الجار فقال : ﴿لله﴾ أي الذي لا مكافئ له بشهادة الفطرة والعقل والسمع ﴿أندادا﴾ أي لكونه يتأهلهم ، فينزلهم بذلك منزلة من يكون قادرا على المعارضة والمعاندة ، فقد علم من التعبير بالنسيان أنه عالم بربه ، ولذلك دعاه في كشف ضره وأنه جعل علمه عند الإحسان إليه جهلا ، فكان كمن لا يعلم من سائر الحيوانات العجم.

---

(١) نظم الدرر . موافق للمطبوع ٦/٣١٣

ولما كان ذلك في غاية الضلال ، لكونه – مع أنه خطأ – موجبا لقطع الإحسان وعدم الإجابة في كشف الضر مرة أخرى وكانوا يدعون أنهم أعقل الناس ، وكان هذا

٤٢٥

الضلال في غاية الظهور ، وكان العاقل لا يفعل شيئا إلا لعلة ، عظمهم تهكما بهم عن أن يكونوا ضلوا هذا الضلال الظاهر من غير قصد إليه ، فقال مشيرا إلى ذلك كله : ﴿ليضل﴾ أي بنفسه عند فتح الياء ، ويضل غيره عند من ضمها ﴿عن سبليه﴾ أي الطريق الموصل إلى رضوانه ، الموجب للفوز بإحسانه.

". (١)

٦٣-"ولما قرر سبحانه الأصل الدال على التوحيد وإثبات العدل والحرمة بالبعث للفصل ، وكانوا يقولون : إنهم أعقل الناس ، وكان العاقل لا يأمن غوائل الإنذار إلا أن أعد لها ما يتحقق دفعه لها وكان لا يقدر على دفع المتوعد إلا من يساوه أو يزيد عليه بشركة أو غيرها ، وكانوا يدعون في أصنامهم أنها شركاء ، بنى على ذلك الأصل فتاريعه ، وبدأ بإبطال متمسكهم فقال سبحانه وتعالى آمرا له صلى الله عليه وسلم بأن ينبههم على سفههم بأنهم أعرضوا عما قد يضرهم من غير احتراز منه دالا على عدم إلهية ما دعوه آلهة بعدم الدليل على إلهيتها من عقل أو نقل ، لأن منصب الإلهية لا يمكن أن يثبت وله من الشرف ما هو معلوم بغير دليل قاطع : ﴿قل﴾ أي لهؤلاء المعرضين أنفسهم لغاية الخطر منكرا عليهم تبكيتا وتوبيخا : ﴿أرءيتم﴾ أي أخبروني بعد تأمل ورؤية باطنة ﴿ما تدعون﴾

١١٦

أي دعاء عبادة ، ونبه على سفولهم بقوله تعالى : ﴿من دون الله﴾ أي الملك الأعظم الذي كل شيء دونه ، فلا كفوء له.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١١٦

ولما كان من المعلوم أن الاستفهام عن رؤية ما مشاهدتهم له معلومة لا يصح إلى بتأويل أنه عن بعض الأحوال ، وكان التقدير : أهم شركاء في الأرض ، استأنف قوله : ﴿أروني ما﴾ وأكد الكلام بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ماذا خلقوا﴾ أي اخترعوه ﴿من الأرض﴾ ليصح ادعاء أنهم شركاء فيها باختراع ذلك الجزي.

ولما كان معنى الكلام وترجمته : أروني أهم شركاء في الأرض ؟ عادله بقوله : ﴿أم لهم﴾ أي الذين تدعونهم ﴿شرك في السماوات﴾ أ] نوع من أنواع الشركة : تدبير – كما يقول أهل الطبائع ، أو خلق أو غيره ، أروني ذلك الذي خلقوه منها ليصح ادعاؤكم فيهم واعتمادكم عليهم بسببه.

---

(١) نظم الدرر . موافق للمطبوع ٦٢٧/٦

فالآية من الاحتباك : ذكر الخلق أولا دليلا على حذفه ثانيا ، والشركة ثانية دليلا على حذفها أولا.

". (١)

٦٤-"وارة تقولون : إنه كهانة فيلزمكم أن تعتقدوا منه ما تعتقدون في أقوال الكهان من الغخبار باملغيبات وإظهار الخبء وفصل الحكم ، فقد نقضتم جميع أقوالكم الماضية وناديتم على أنفسكم بالمباهتة ، تقولون في الآتي به : إنه شاعر وساحر ومجنون وكاهن وكاذب ، وكل قول منها ينقض الآخر ، وأنتم تدعون أنكم أصدق الناس وأبعدهم عن عار الكذب ، وأنكم أعقل الناس وأنصفهم ، فقد تباعد أولا ما بين أقوالكم ، ثم ما بينها وبين أفعالكم ، فكان اختلاف طرائق النجوم دالا على مانع مختار تام العلم كامل القدرة ، وكذا اختلاف قولكم على هذا الوجه مع ما لكم من العقول دال على قاهر لكم على ذلك ، فهما آيتان في الآفاق وفي أنفسكم.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٠

ولما كان هذا الاختلاف مما لا يكاد يصدق لأنه لا يقع فيه عاقل ، بين سببه بأنهم مغلوبون عليه بقهر يد القدرة فقال : ﴿يؤفك﴾ أي يصرف بأيسر أمر وأسهله عن سنن الاستقامة ، ويقلب من وجهه لقفاه ﴿عنه﴾ أي يصدر صرفه عن هذا القول مجازا لما يلزمه من عاره ، فهو لأجل ذلك يقوله ﴿من أفك *﴾ أي قلبه قلب قاهر أي تبين بهذا الصرف الذي هو أعظم الصرف أنه حكم في الأزل حكما ثابتا جامعا ، فصار لا يصد عنه قول ولا فعل إلا كان مقلوبا وجهه إلى قفاه لا يمكن أن يأتي منه بشيء على وجهه ، فكأنه لا مأفوك سواه لشدة افكه وعجيب أمره.

٢٧٣

". (٢)

٦٥-"إلى أن يصير إلى أسوأ الأحوال ، فكل ميسر لما خلق له ، وبعضهم يصرف عقله بحسب ما هيأه الله له إلى ما ينجيه ، وبعضهم يصرفه لذلك إلى ما يريده ، لأنك تجد أعقل الناس في شيء وأعرفهم به أشدهم بلادة في شيء آخر ، وأغباهم في شيء أذكاهم في شيء آخر - فاعتبر ذلك ، وبذلك انتظم أمر الخلق في أمر معاشهم بالعلوم والصنائع والأحوال - والله الهادي ، وهذه الآية تدل على أن الله سبحانه وتعالى منزه عن التركيب والصورة لأنه لو كان في شيء منهما لكان هو الأحسن لأن كل صفة يشترك فيها الخلق والحق فالمبالغة للحق كالعالم والأعلم والكريم والأكرم - قاله

---

(١) نظم الدرر ـ موافق للمطبوع ١٧٣/٧

(٢) نظم الدرر ـ موافق للمطبوع ٤١٨/٧

الأستاذ أبو القاسم القشيري في تفسيره ، وصيغة " أفعل " لا تدل على ما قاله الزنادقة ، وإن عزي ذلك إلى بعض الأكابر من قولهم : ليس في الإمكان أبدع مما كان ،

٤٧٢

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٧٠

". (١)

٦٦-"أ قال وقال عطاء عن بن عباس رفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم قال أفضل الناس أعقل الناس قال بن عباس وذلكم نبيكم صلى الله عليه وسلم

الحارث / الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج٢/ص٨١٢ ح٨٣٧". (٢)

٦٧-"كذا في المرقاة

قوله (وفيه عن زيد بن أبي أوفى) أي وفي الباب عن زيد بن أبي أوفى وهو صحابي ولم أقف على من أخرج حديثه

١ - باب [٣٧٢١] قوله (حدثنا عبيد الله بن موسى) العبسي الكوفي (عن عيسى بن عمر) الأسدي الهمداني بسكون الميم كنيته أبو عمر الكوفي القارىء ثقة من السابعة

قوله (كان عند النبي صلى الله عليه و سلم طير) أي مشوي أو مطبوخ أهدي إليه صلى الله عليه و سلم (يأكل معي) بالرفع ويجوز الجزم (فجاء علي فأكل معه) قال التوربشتي هذا الحديث لا يقاوم ما أوجب تقديم أبي بكر والقول بخيريته من الأخبار الصحاح منضما إليها إجماع الصحابة لمكان سنده فإن فيه لأهل النقل مقالا ولا يجوز حمل أمثاله على ما يخالف الإجماع لا سيما والصحابي الذي يرويه ممن دخل في هذا الإجماع واستقام عليه مدة عمره ولم ينقل عنه خلافه فلو ثبت عنه هذا الحديث فالسبيل أن يأول على وجه لا ينقض عليه ما اعتقده ولا يخالف ما هو أصح منه متنا وإسنادا وهو أن يقال يحمل قوله بأحب خلقك على أن المراد منه ائتني بمن هو من أحب خلقك إليك فيشاركه فيه غيره وهم المفضلون بإجماع الأمة وهذا مثل قولهم فلان أعقل الناس وأفضلهم أي من أعقلهم وأفضلهم ومما يبين لك أن حمله على العموم غير جائز هو أن النبي صلى الله عليه و سلم من جملة خلق الله ولا جائز أن يكون عليا أحب إلى الله منه فإن قيل ذلك شيء عرف بأصل الشرع قلنا والذي نحن فيه عرف أيضا بالنصوص الصحيحة وإجماع الأمة فيأول هذا الحديث على الوجه الذي ذكرناه أو على أنه أراد بأحب خلقه إليه من بني عمه وذويه وقد كان النبي صلى الله عليه و سلم يطلق القول وهو يريد تقييده

ويعم به ويريد تخصيصه

---

(١) نظم الدرر ـ موافق للمطبوع ٧٠٣/٨

(٢) التبويب الموضوعي للأحاديث ٨٣٨/١

فيعرفه ذوو الفهم بالنظر إلى الحال أو الوقت أو الأمر الذي هو فيه انتهى

قال القارىء الوجه الأول هو المعول ونظيره ما ورد أحاديث بلفظ أفضل الأعمال في أمور لا يمكن جمعها إلا بأن يقال في بعضها إن التقدير من أفضلها

قوله (هذا حديث غريب الخ) قال في المختصر له طرق كثيرة كلها ضعيفة وقد ذكره بن الجوزي في الموضوعات وأما الحاكم فأخرجه في المستدرك وصححه واعترض عليه ". (١)

٦٨-"أحمده أبلغ حمد وأزكاه ، وأشمله وأنماه ، وأشهد أن لا إله إلا الله البر الكريم ، الرؤوف الرحيم ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، وحبيبه وخليله ، الهادي إلى صراط مستقيم ، والداعي إلى دين قويم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى سائر النبيين ، وآل كل ، وسائر الصالحين .

أما بعد ، فقد قال الله تعالى : ؟ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ؟ [الذاريات (٥٦ ، ٥٧)] وهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة ، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة ، فإنها دار نفاد لا محل إخلاد ، ومركب عبور لا منزل حبور ، ومشرع انفصام لا موطن دوام ، فلهذا كان الأيقاظ من أهلها هم العباد ، وأعقل الناس فيها هم الزهاد . قال الله تعالى : ؟ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ؟ [يونس (٢٤)] . والآيات في هذا المعنى كثيرة . ولقد أحسن القائل :

؟

إن لله عبادا فطنا (؟

؟

طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا (؟

؟؟

؟؟

فنظروا فيها فلما علموا (؟

؟". (٢)

---

(١) تحفة الأحوذي ١٥٣/١٠

(٢) تطريز رياض الصالحين ٢/١

٦٩-"وهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة، فإنها دار نفاد لا محل إخلاد، ومركب عبور لا منزل حبور، ومشرع انفصام لا موطن دوام، فلهذا كان الأيقاظ من أهلها هم العباد، وأعقل الناس فيها هم الزهاد. قال الله تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ [يونس: ٢٤]. والآيات في هذا المعنى كثيرة. ولقد أحسن القائل:

إن لله عبادا فطنا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحي وطنا

جعلوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا

فإذا كان حالها ما وصفته، وحالنا وما خلقنا له ما قدمته؛ فحق على المكلف أن يذهب بنفسه مذهب الأخيار، ويسلك مسلك أولي النهى والأبصار، ويتأهب لما أشرت إليه، ويهتم بما نبهت عليه. وأصوب طريق له في ذلك، وأرشد ما يسلكه من المسالك، التأدب بما صح عن نبينا سيد الأولين والآخرين، وأكرم السابقين واللاحقين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين. وقد قال الله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ [المائدة: ٢] وقد صح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»، وأنه قال: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله». وأنه قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا»، وأنه قال لعلي - رضي الله عنه: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم».". (١)

٧٠-"وقال العراقي في تخريج أحاديثه: رواه الترمذي، وقال: وجلف الخبز والماء بدل قوله: طعام يقوم به صلبه، وقال: صحيح. أما حقوق الدنيا مما ذكر فالإعراض عنه ليس بمطلوب، لكن من غير أن يشغله ذلك عن القيام بفريضة الوقت (بالزهادة) مصدر كالزهد وسيأتي تعريفه (فإنها) أي: الدنيا (دار نفاد) أي: فناء، قال الله تعالى: ﴿إن هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾ (ص: ٥٤) (لا محل إخلاد) عدل إليه عن خلود للسجع (ومركب عبور لا منزل حبور) أي: إنها مركب يتوصل بها إلى الدار الآخرة، وليست منزل الفرح والسرور. قال : «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وأخرج الترمذي وغيره حديثا فيه أنه قال: «ما لي وللدنيا/ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» (ومشرع انفصام) أي: انقطاع، (لا موطن دوام) ولا يخفى ما في عبارته من الاستعارات، وذلك أنه شبه الدنيا أولا بالمركب الذي يتوصل به إلى المكان المراد بجامع أن كلا منهما يتوصل لما بعده، فالدنيا لا يوصل بها إلى الآخرة إلا بالعبور فيها والمرور منها لسبقها عليها، والبلد المراد لا يوصل إليه إلا بركوب نحو الدابة. وثانيا بالمشرع: أي محل الماء بجامع الورود لكل، وأطلق عليها اسم المشبه به ففيه تشبيه بليغ (فلهذا) أي: ما ذكر (كان الأيقاظ) جمع يقظ بكسر القاف. في «النهاية»: رجل

(١) تطريز رياض الصالحين ص/٧

فطن ويقظ ويقظان: إذا كان فيه معرفة وفطنة ا هـ. (من أهلها) أي: الدنيا (هم العباد) وأعلاهم فيها أرباب العرفان با (وأعقل الناس فيها هم الزهاد) قال الدميري في «منظومة رموز الكنوز»:

وأكيس الناس وأعقل الورى

هم الذين زهدوا فيما ترى

إذ نبذوا الدنيا لعلمهم بها

ورغبوا في أختها لقربها". [(١)]

٧١-"وقال العراقي في تخريج أحاديثه: رواه الترمذي، وقال: وجلف الخبز والماء بدل قوله: طعام يقوم به صلبه، وقال: صحيح. أما حقوق الدنيا مما ذكر فالإعراض عنه ليس بمطلوب، لكن من غير أن يشغله ذلك عن القيام بفريضة الوقت (بالزهادة) مصدر كالزهد وسيأتي تعريفه (فإنها) أي: الدنيا (دار نفاد) أي: فناء، قال الله تعالى: ﴿إن هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾ (ص: ٥٤) (لا محل إخلاد) عدل إليه عن خلود للسجع (ومركب عبور لا منزل حبور) أي: إنها مركب يتوصل بها إلى الدار الآخرة، وليست منزل الفرح والسرور. قال : «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وأخرج الترمذي وغيره حديثا فيه أنه قال: «ما لي وللدنيا/ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» (ومشرع انفصام) أي: انقطاع، (لا موطن دوام) ولا يخفى ما في عبارته من الاستعارات، وذلك أنه شبه الدنيا أولا بالمركب الذي يتوصل به إلى المكان المراد بجامع أن كلا منهما يتوصل لما بعده، فالدنيا لا يوصل بها إلى الآخرة إلا بالعبور فيها والمرور منها لسبقها عليها، والبلد المراد لا يوصل إليه إلا بركوب نحو الدابة. وثانيا بالمشرع: أي محل الماء بجامع الورود لكل، وأطلق عليها اسم المشبه به ففيه تشبيه بليغ (فلهذا) أي: ما ذكر (كان الأيقاظ) جمع يقظ بكسر القاف. في «النهاية»: رجل فطن ويقظ ويقظان: إذا كان فيه معرفة وفطنة ا هـ. (من أهلها) أي: الدنيا (هم العباد) وأعلاهم فيها أرباب العرفان با (وأعقل الناس فيها هم الزهاد) قال الدميري في «منظومة رموز الكنوز»:

وأكيس الناس وأعقل الورى

هم الذين زهدوا فيما ترى

إذ نبذوا الدنيا لعلمهم بها

ورغبوا في أختها لقربها

(١٨/١)

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ١٨/١

(".)(١)

٧٢-"قوله: " أي الأعمال أفضل؟ قال: طول القيام " قد مر فيما تقدم أن مثل هذا الجواب على حسب اختلاف الأحوال والأشخاص، فإنه قد يقال خير الأشياء كذا، ولا يراد أنه خير جميع الأشياء من جميع الوجوه "، وفي جميع الأحوال والأشخاص بل في حال دون حال، أو يكون المراد من قوله" طول القيام" يعني: من أفضل الأعمال طول القيام، كما يقال: فلان أعقل الناس وأفضلهم، ويراد انه من أعقلهم ومن أفضلهم. ثم اختلف العلماء في النوافل أيها أفضل؟ طول القيام وإن قل الركوع، والسجود ؟ أو الإكثار من الركوع والسجود ؟ فقيل: طول القيام أفضل لهذا الحديث، ولما روى مسلم في "صحيحه" من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أفضل الصلاة ، طول القنوت " والمراد به هاهنا القيام، وهو مذهب أبي حنيفة،،- الشافعي أيضا. وقال صاحب " المحيط ": وطول القيام أفضل من طول الركوع والسجود، واستدل بالحديث المذكور ، وقيل: الإكثار من الركوع والسجود أفضل، وإن خف ، القيام، لقوله- عليه السلام- لربيعة بن كعب: " فأعني على نفسك بكثرة السجود " الحديث (١) وقد مر الكلام في هذا الباب مستوفى.

***

٣٠٠- باب: صلاة الليل مثنى مثنى

أي: هذا باب في بيان صلاة الليل النافلة ركعتين ركعتين.

١٢٩٦- ص- نا القعنبي، عن مالك، عن نافع، وعبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر، أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الليل ؟ فقال رسول الله- عليه السلام-: " صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشي أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة، توتر له ما قد صلى " (٢) .

---

(١) تقدم قبل خمسة أحاديث.

(٢) مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب: صلاة الليل مثنى مثنى (٧٤٩/ ١٤٥) ، النسائي: كتاب قيام الليل، باب: كيف الوتر بواحدة؟ (٣/ ٢٣٣) ، ابن "ماجه : كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في صلاة الليل ركعتان (١٣٢٠)".

(٢)

٧٣-" فى باب صلاة الوتر وقال اسمه واقد ولقبه وقدان ولهم أيضا أبو يعفور ثالث اسمه عبدالكريم بن يعفور الجعفى البصرى يروى عنه قتيبة ويحيى بن يحيى وغيرهما وآباء يعفور هؤلاء الثلاثة ثقات واما الوليد بن العيزار فبالعين المهملة المفتوحة وبالزاى قبل الالف والراء بعدها وأما قوله أخبرنا معمر عن الزهري عن حبيب مولى عروة بن الزبير عن عروة بن الزبير عن

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لـ ابن علان الصديقى ١٨/١

(٢) شرح أبي داود للعيني ٢٣١/٥

أبي مراوح عن أبي ذر ففيه لطيفة من لطائف الاسناد وهو أنه اجتمع فيه أربعة تابعيون يروى بعضهم عن بعض وهو الزهري وحبيب وعروة وأبو مراوح فاما الزهري وعروة وأبو مراوح فتابعيون معروفون واما حبيب مولى عروة فقد روى عن اسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنهما قال محمد بن سعد مات حبيب مولى عروة هذا قديما فى آخر سلطان بنى أمية فروايته عن اسماء مع هذا ظاهرها أنه أدركها وأدرك غيرها من الصحابة فيكون تابعيا والله اعلم أما معانى الاحاديث وفقهها فقد يستشكل الجمع بينها مع ما جاء فى معناها من حيث أنه جعل فى حديث ابى هريرة ان الافضل الايمان بالله ثم الجهاد ثم الحج وفى حديث ابى ذر الايمان والجهاد وفى حديث بن مسعود الصلاة ثم بر الوالدين ثم الجهاد وتقدم فى حديث عبد الله بن عمرو أي الاسلام خير قال تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف وفى حديث أبى موسى وعبد الله بن عمرو أى المسلمين خير قال من سلم المسلمون من لسانه ويده وصح فى حديث عثمان خيركم من تعلم القرآن وعلمه وأمثال هذا فى الصحيح كثيرة واختلف العلماء فى الجمع بينها فذكر الامام الجليل أبو عبد الله الحليمى الشافعى عن شيخه الامام العلامة المتقن ابى بكر القفال الشاشى الكبير وهو غير القفال الصغير المروزى المذكور فى كتب متأخرى أصحابنا الخراسانيين قال الحليمى وكان القفال أعلم من لقيته من علماء عصره أنه جمع بينها بوجهين احدهما أن ذلك اختلاف جواب جرى على حسب اختلاف الاحوال والاشخاص فانه قد يقال خير الاشياء كذا ولا يراد به خير جميع الاشياء من جميع الوجوه وفى جميع الاحوال والاشخاص بل فى حال دون حال أو نحو ذلك واستشهد فى ذلك بأخبار منها عن بن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال حجة لمن لم يحج أفضل من أربعين غزوة وغزوة لمن حج أفضل من أربعين حجة الوجه الثانى أنه يجوز أن يكون المراد من أفضل الاعمال كذا أو من خيرها أو من خيركم من فعل كذا فحذفت من وهي مرادة كما يقال فلان أعقل الناس ". (١)

٧٤-"وقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: «إن الله يحمي عبده الدنيا، وهو يحميه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب»(١).

وعن البراء بن عازب(٢) عن النبي – صلى الله عليه وسلم –: «إن لله خواص يسكنهم الرفيع من الجنان في أعلى عليين كانوا أعقل الناس» قلنا: يا رسول الله كيف كانوا أعقل الناس؟ قال «كان همهم المسابقة إلى الله تعالى والمسارعة إلى ما يرضيه، زهدوا في الدنيا وفي فضولها في رياستها ونعيمها، فهانت عليهم فصبروا قليلا فاسترحوا طويلا»(٣).

وذكر القرطبي: أن رجلا قال: يا رسول الله أخبرني بجلساء الله يوم القيامة؟ قال: «هم الخائفون الخاضعون المتواضعون الذاكرون الله كثيرا» قال: فهم أول الناس دخولا الجنة؟ قال: «لا» قال: فمن أول الناس يدخلون؟ قال: «الفقراء يسبقون الناس إلى الجنة، فتخرج إليهم الملائكة فيقولون: ارجعوا إلى الحساب فيقولون: على ما نحاسب ما أفيضت علينا من الأموال في الدنيا فنقبض ونبسط، وما كنا أمراء نعدل ونجور، ولكن جاءنا أمر الله فعرفناه حتى أتانا اليقين»(٤).

---

(١) شرح النووي على مسلم ٢/٧٧

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٢١/٧، رقم ١٠٤٥٠) عن محمود بن لبيد، ولم نقف عليه عند غيره.
(٢) هو: البراء بن عاز ب بن الحارث الخزرجي ، أبو عمارة : قائد صحابي من أصحاب الفتوح، أسلم صغيرا وغزا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خمس عشرة غزوة، أولها غزوة الخندق، ولما ولي عثمان الخلافة جعله أميرا على الري بفارس سنة ٢٤هـ، فغزا أبهر غربي قزوين وفتحها ، ثم قزوين فملكها ، وانتقل إلى زنجان فافتتحها عنوة، وعاش إلى أيام مصعب ابن الزبير فسكن الكوفة واعتزل الأعمال. وتوفي في زمنه سنة:٧١ هـ، روى له البخاري ومسلم.
(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٧/١)، والحارث في مسنده (٨١٤/٢، رقم ٨٤٤) عن البراء.
(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٤٣/٨)، وابن المبارك في كتاب الزهد (٨٠/١، رقم ٢٨٣) عن سعيد بن المسيب مرسلا.". (١)

٧٥-"الثاني: المراد بقوله تعالى: ؟فيومئذ لا يسأل عن ذنبه أنس ولا جان؟[الرحمن: ٣٩] أنهم لا يسألون سؤال استخبار بل سؤال التوبيخ وتقريع.
الثالث: أن المراد لا يسأل عن ذنبه غيره من الإنس والجان كما لا يحمل ذنبه غيره كما قال تعالى: ؟ولا تزر وازرة وزر أخرى؟[الأنعام: ١٦٤].
ثم استدل البخاري بالآية الثالثة فقال: «وقال الله – عز وجل –: ؟لمثل هذا فليعمل العاملون؟[الصافات: ٦١] والمعنى: لمثل هذا الفوز العظيم فليؤمن الكافرون، فأطلق العمل وأراد به الإيمان.
* * *

قال البخاري:
حدثنا أحمد بن يونس وموسى بن إسماعيل قالا حدثنا إبراهيم بن سعد قال حدثنا ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سئل أى العمل أفضل فقال: «إيمان بالله ورسوله». قيل: ثم ماذا قال «الجهاد فى سبيل الله». قيل: ثم ماذا قال: «حج مبرور» (١)

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها: قوله: «سئل» أبهم السائل وهو أبو ذر الغفاري.
قوله: «قيل ثم ماذا؟ قال: الجهاد» وقع في مسند الحارث أبي أسامة عن إبراهيم ابن سعد «ثم جهاد» فواخى بين الثلاثة في التنكير، بخلاف ما عند المصنف. وقال الكرماني: الإيمان لا يتكرر كالحج، والجهاد قد يتكرر، فالتنوين للإفراد الشخصي، والتعريف للكمال. إذ الجهاد لو أتى به مرة مع الاحتياج إلى التكرار لما كان أفضل. وتعقب عليه بأن التنكير من جملة وجوهه التعظيم، وهو يعطي الكمال. وبأن التعريف من جملة وجوهه العهد، وهو يعطي الإفراد الشخصي، فلا يسلم الفرق. قلت: وقد ظهر من رواية الحارث التي ذكرتها أن التنكير والتعريف فيه من تصرف الرواة، لأن مخرجه واحد، فالإطالة في

---

(١) شرح صحيح البخاري لشمس الدين السفيري ١٠/٦

طلب الفرق في مثل هذا غير طائلة، والله الموفق.

قوله: «حج مبرور» أي: مقبول ومنه بر حجك. وقيل: المبرور الذى لا يخالطه إثم. وقيل: الذى لا رياء فيه.

فائدة قال النووي: ذكر في هذا الحديث الجهاد بعد الإيمان، وفي حديث أبي ذر لم يذكر الحج وذكر العتق، وفي حديث ابن مسعود بدأ بالصلاة ثم البر ثم الجهاد، وفي الحديث المتقدم ذكر السلامة من اليد واللسان. قال العلماء: اختلاف الأجوبة في ذلك باختلاف الأحوال، واحتياج المخاطبين، وذكر ما لم يعلمه السائل والسامعون وترك ما علموه، ويمكن أن يقال: إن لفظة «من» مرادة كما يقال: فلان أعقل الناس، والمراد من أعقلهم، ومنه حديث: «خيركم خيركم لأهله» ومن المعلوم أنه لا يصير بذلك خير الناس.

فإن قيل: لم قدم الجهاد وليس بركن على الحج وهو ركن؟ فالجواب: إن نفع الحج قاصر غالبا، ونفع الجهاد متعد غالبا، أو كان ذلك حيث كان الجهاد فرض عين -ووقوعه فرض عين إذ ذاك متكرر- فكان أهم منه فقدم والله أعلم. انظر فتح الباري (١/٧٨).". (١)

٧٦-"بيان استنباط الفوائد منها الدلالة على نيل الدرجات بالأعمال ومنها الدلالة على أن الإيمان قول وعمل ومنها الدلالة على أن الأفضل بعد الإيمان الجهاد وبعده الحج المبرور فان قلت في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أي العمل أفضل قال الصلاة على وقتها ثم ذكر بر الوالدين ثم الجهاد وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أي الاسلام خير قال تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف وفي حديث ابي موسى رضي الله عنه أي الإسلام افضل قال من سلم المسلمون من لسانه ويده وفي حديث ابي ذر رضي الله عنه سألت رسول الله أي العمل أفضل قال الإيمان بالله والجهاد في سبيله قلت فأي الرقاب افضل قال أغلاها ثمنا وأنفسها عند أهلها الحديث ولم يذكر فيه الحج وكلها في الصحيح قلت قد ذكر الإمام الحسين بن الحسن بن محمد بن حكيم الحليمي الشافعي عن القفال الكبير الشافعي الشاشي واسمه ابو بكر محمد بن علي في كيفية الجمع وجهين أحدهما أنه جرى على اختلاف الأحوال والأشخاص كما روي أنه عليه السلام قال حجة لمن يحج افضل من أربعين غزوة وغزوة لمن حج أفضل من أربعين حجة والآخر أن لفظة من مرادة والمراد من أفضل الأعمال كذا كما يقال فلان أعقل الناس أي من أعقلهم ومنه قوله عليه السلام خيركم خيركم لأهله ومعلوم انه لا يصير بذلك خير الناس قلت وبالجواب الأول أجاب القاضي عياض فقال أعلم كل قوم بما لهم إليه حاجة وترك ما لم تدعهم إليه حاجة أو ترك ما تقدم علم السائل إليه أو علمه بما لم يكمله من دعائم الإسلام ولا بلغه عمله وقد يكون للمتأهل للجهاد الجهاد في حقه أولى من الصلاة وغيرها وقد يكون له أبوان لو تركهما لضاعا فيكون برهما أفضل لقوله عليه السلام ففيهما فجاهد وقد يكون الجهاد أفضل من سائر الأعمال عند استيلاء الكفار على بلاد المسلمين قلت الحاصل أن اختلاف الأجوبة في هذه الأحاديث لاختلاف الأحوال ولهذا سقط ذكر الصلاة والزكاة والصيام في هذا الحديث المذكور

---

(١) شرح صحيح البخاري لشمس الدين السفيري ٢٦/٢٥

في". (١)

٧٧-" ٩ -

([٣٣٤١] باب في التشديد في الدين)

(ها هنا أحد) وفي رواية النسائي قال كنا مع النبي صلى الله عليه و سلم في جنازة فقال أها ها هنا من بني فلان أحد ثلاثا (إني لم أنوه بكم) بصيغة المضارع المتكلم من نوهته تنويها إذا رفعته والمعنى لا أرفع لكم ولا أذكر لكم إلا خيرا كذا في فتح الودود

وقال في القاموس نوهه وبه دعاه ورفعه انتهى

(مأسور) أي محبوس وممنوع عن دخوله الجنة

قاله في فتح الودود (فلقد رأيته) أي الرجل من بني فلان وهذه مقولة سمرة (أدى) أي ذلك الرجل (عنه) أي عن المأسور بدينه

قال المنذري وأخرجه النسائي وذكر أنه روى عن الشعبي مرسلا وذكر البخاري في التاريخ الكبير وقال لا يعلم لسمعان سماع عن سمرة

ولا للشعبي من سمعان (قال أبو داود سمعان بن مشنج) بمعجمة ونون ثقيلة ثم جيم على وزن معظم

قال في تهذيب التهذيب وروى عنه عامر الشعبي ولم يرو عنه غيره

قال البخاري ولا نعلم لسمعان سماعا من سمرة ولا للشعبي من سمعان وثقه بن حبان وأبو نصر بن ماكولا وقال ليس له غير حديث واحد انتهى

[٣٣٤٢] (إن أعظم الذنوب عند الله) قال العلقمي أي من أعظمها فحذف من وهي مرادة كما يقال أعقل الناس ويراد أنه من أعقلهم (أن يلقاه) خبر إن

قال المناوي أي أن يلقى الله متلبسا بها مصرا عليها وهو إما ظرف أو حال انتهى

أي في حال لقيه بها (بها) أي بأعظم الذنوب ". (٢)

٧٨-"لا رياء فيه. "فائدة" قال النووي: ذكر في هذا الحديث الجهاد بعد الإيمان، وفي حديث أبي ذر لم يذكر الحج وذكر العتق، وفي حديث ابن مسعود بدأ بالصلاة ثم البر ثم الجهاد، وفي الحديث المتقدم ذكر السلامة من اليد واللسان. قال العلماء: اختلاف الأجوبة في ذلك باختلاف الأحوال، واحتياج المخاطبين، وذكر ما لم يعلمه السائل والسامعون وترك ما علموه، ويمكن أن يقال: إن لفظة " من " مرادة كما يقال: فلان أعقل الناس، والمراد من أعقلهم، ومنه حديث: "خيركم

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٧/٢

(٢) عون المعبود ١٣٧/٩

خيركم لأهله " ومن المعلوم أنه لا يصير بذلك خير الناس، فإن قيل: لم قدم الجهاد وليس بركن على الحج وهو ركن؟ فالجواب: إن نفع الحج قاصر غالبا، ونفع الجهاد متعد غالبا، أو كان ذلك حيث كان الجهاد فرض عين – ووقوعه فرض عين إذ ذاك متكرر – فكان أهم منه فقدم، والله أعلم.". (١)

٧٩-"٢٥ – قوله : (حدثنا أحمد بن يونس)

هو أحمد بن عبد الله بن يونس اليربوعي الكوفي ، نسب إلى جده .

قوله : (سئل)

أبهم السائل ، وهو أبو ذر الغفاري ، وحديثه في العتق .

قوله : (قيل ثم ماذا ؟ قال : الجهاد)

وفي مسند الحارث أبي أسامة عن إبراهيم بن سعد " ثم جهاد " فواخى بين الثلاثة في التنكير ، بخلاف ما عند المصنف . وقال الكرماني : الإيمان لا يتكرر كالحج ، والجهاد قد يتكرر ، فالتنوين للإفراد الشخصي ، والتعريف للكمال . إذ الجهاد لو أتى به مرة مع الاحتياج إلى التكرار لما كان أفضل . وتعقب عليه بأن التنكير من جملة وجوهه التعظيم ، وهو يعطي الكمال . وبأن التعريف من جملة وجوهه العهد ، وهو يعطي الإفراد الشخصي ، فلا يسلم الفرق . قلت : وقد ظهر من رواية الحارث التي ذكرتها أن التنكير والتعريف فيه من تصرف الرواة ؛ لأن مخرجه واحد ، فالإطالة في طلب الفرق في مثل هذا غير طائلة ، والله الموفق .

قوله : (حج مبرور)

أي مقبول ومنه بر حجك ، وقيل المبرور الذي لا يخالطه إثم ، وقيل الذي لا رياء فيه .

(فائدة)

قال النووي : ذكر في هذا الحديث الجهاد بعد الإيمان ، وفي حديث أبي ذر لم يذكر الحج وذكر العتق ، وفي حديث ابن مسعود بدأ بالصلاة ثم البر ثم الجهاد ، وفي الحديث المتقدم ذكر السلامة من اليد واللسان . قال العلماء : اختلاف الأجوبة في ذلك باختلاف الأحوال ، واحتياج المخاطبين ، وذكر ما لم يعلمه السائل والسامعون وترك ما علموه ، ويمكن أن يقال : إن لفظة " من " مرادة كما يقال فلان أعقل الناس والمراد من أعقلهم ، ومنه حديث " خيركم خيركم لأهله " ومن المعلوم أنه لا يصير بذلك خير الناس ، فإن قيل لم قدم الجهاد وليس بركن على الحج وهو ركن ؟ فالجواب : أن نفع الحج قاصر غالبا ، ونفع الجهاد متعد غالبا ، أو كان ذلك حيث كان الجهاد فرض عين – ووقوعه فرض عين إذ ذاك متكرر – فكان أهم منه فقدم ، والله أعلم .". (٢)

---

(١) فتح الباري– تعليق ابن باز ٧٩/١

(٢) فتح الباري لابن حجر ٤٣/١

٨٠-" ١١٧٩ - (أعظم الأيام) أي أعظمها (عند الله يوم النحر) لأنه يوم الحج الأكبر وفيه معظم أعمال النسك (ثم يوم القر) ثاني يوم النحر لأنهم يقرون فيه أي يقيمون ويستحمون مما تعبوا في الأيام الثلاثة ذكره الزمخشري . وقال البغوي : سمي به لأن أهل الموسم يوم التروية وعرفة والنحر في تعب من الحج فكان الغد من النحر قرأ اه . وفضلهما لذاتهما أو فيما يخصهما من وظائف العبادة والجمهور على أن يوم عرفة أفضل ثم النحر فمعنى قوله أفضل أي من أفضل كما يقال فلان أعقل الناس أي وأعلمهم

(حم د ك) في الأضاحي (عن عبد الله بن قرط) بضم القاف الأزدي الثمامي بضم المثلثة وخفة الميم كان اسمه شيطانا فسماه النبي صلى الله عليه و سلم عبد الله شهد اليرموك وغيره واستعمله معاوية على حمص قال الحاكم صحيح وأقره الذهبي ". (١)

٨١-" ٢٢٠٦ - (إن أعظم الذنوب) أي من أعظمها على وزان قولهم فلان أعقل الناس أي من أعقلهم (عند الله أن يلقاه بها عبد) أي أن يلقى الله بها ملتبسا (بعد الكبائر التي نهى الله عنها) في القرآن والسنة (أن يموت الرجل وعليه دين) جملة حالية (لا يدع) أي لا يترك (له قضاء) (١) قال الطيبي : قوله أن يلقاه خبر وأن يموت بدل منه لأنك إذا [ص ٤٢٦] قلت إن أعظم الذنوب عند الله موت الرجل وعليه دين استقام ولأن لقاء العبد ربه إنما هو بعد الموت ورجل مظهر أقيم مقام العبد أو لاستبعاد ملاقاته مالكه بهذا الشين ثم إعادته بلفظ رجل وتنكيره تحقيرا وتوهينا له وإنما جعله هنا دون الكبائر لأن الاستدانة لغير معصية غير معصية والقائم بعدم وفائه بسبب عارض من تضييع حق الآدميين وأما الكبائر فمنهية لذاتها

(حم د) في البيوع (عن أبي موسى) الأشعري ولم يضعفه فهو صالح وسنده جيد

---

(١) وهذا محمول على ما إذا قصر في الوفاء أو استدان لمعصية ". (٢)

٨٢-" ٣٩٩٠ - (خياركم خيركم لأهله) أي حلائله وبنيه وأقاربه يعني هو من خياركم كما يقال خير الأشياء كذا ولا يراد تفضيله في نفسه على جميع الأشياء لكن على أنه خيرها في حال دون حال ولو واحد دون آخر كما قد يتضرر واحد بكلام في غير محله فيقول ما شيء أفضل من السكوت إلى حيث لا يحتاج إلى الكلام ثم قد يتضرر بالسكوت مرة فيقول ما شيء أفضل من الكلام ويقال فلان أعقل الناس وأفضلهم ويراد من أعقلهم ذكره الحليمي

---

(١) فيض القدير ٢/٣

(٢) فيض القدير ٢/٤٢٥

(طب عن أبي كبشة) الأنماري سعيد بن عمر أو عمر بن سعيد أو عامر بن سعد صحابي نزل الشام وروى عن أبي بكر ". (١)

٨٣-" ٤١٠٢ - (خيركم) يعني من خياركم وأفاضلكم من كان معظم بره لأهله كما يقال فلان أعقل الناس أي من أعقلهم فلا يصير بذلك خير الناس مطلقا والأهل قد يخص الزوجة وأولادها وقد يطلق على جملة الأقارب فهم أولى من الأجانب (خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي) أي برا ونفعا لهم دينا ودينا أي فتابعوني ما آمركم بشيء إلا وأنا أفعله (ما أكرم النساء إلا كريم وما) وفي نسخة ولا (أهانهن إلا لئيم) ومن ثم كان يعتني بهن ويهتم بتفقد أحوالهن فكان إذا صلى العصر دار على نسائه فدنا منهن واستقرأ أحوالهن فإذا جاء الليل انقلب إلى صاحبه النوبة وكان إذا شربت عائشة من الإناء أخذه فوضع فمه على موضع فمها وشرب وإذا تعرقت عرقا وهو العظم الذي عليه اللحم أخذه فوضع فمه على موضع فمها رواه مسلم ولما أراد أن يحمل صفية بنت حيي على بعير نصب لها فخذه لتضع رجلها عليه فلوت ساقها عليه وفي تذكرة ابن عراق عن الإمام مالك يجب على الرجل أن يتجنب إلى أهل داره حتى يكون أحب الناس إليهم وذكر نحوه يوسف الصدفي المالكي

(ابن عساكر) في التاريخ (عن علي) أمير المؤمنين ". (٢)

٨٤-"من غلبته سدة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع لا يعرف الرباء إلا المخلصون لو اجتهدت كل الجهد على أن ترضي الناس كلهم فلا سبيل لذلك فأخلص عملك ونيتك لله لو أوصى رجل بشيء لأعقل الناس كلهم فلا سبيل لذلك فأخلص عملك ونيتك الله لو أوصى رجل بشيء لأعقل الناس صرف للزهاد سياسة الناس أشد من سياسة الدواب العاقل من عقله عقله عن كل مذموم ومن نم لك بن بك من وعظ أخاه سرا فقد نصحه ومن وعظه علانية فقد فضحه التواضع من أخلاق الكرام والتكبر من شيم اللئام أربع الناس قدرا من لا يرى قدره الشفاعات زكاة المروآت من ولي القضاء فلم يفتقر فهو لص لا بأس للفقيه أن يكون معه سفيه يسافه به مداراة الأحمق غاية لا تدرك الانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء والانفراد عنهم مكسبة للعداوة فكن بين المنقبض والمنبسط لأن". (٣)

٨٥-"شيطانا فسماه النبي عبد الله ذكره المؤلف عن النبي قال أن أعظم الأيام ي أيام عيدالأضحى فلا ينافي ما في الأحاديث الصحيحة أن أفضل الأيام يوم عرفة أو أيام الأشهر الحرم كذا قيل وفيه بحث وقال الطيبي رحمه الله أي من أعظم الأيام لأن العشر أفضل مما عداها ا هـ وأراد بالعشر عشر رمضان أو عشر ذي الحجة لأنه ورد مت من أيام العمل الصالح

---

(١) فيض القدير ٣/٤٦٦

(٢) فيض القدير ٣/٤٩٦

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١/٤٩

فيها أحب إلى الله من عشر ذي الحجة وهو معارض بما صح في الأخبار الصريحة بأن أيام العشر الأواخر من رمضان أفضل الأيام فينبغي أن يقيد الحديث الأول بأيام الأشهر الحرم ولا يبعد أن يقال الأفضلية مختلفة باعتبار الحيثية أو الإضافية والنسبية فلا يحتاج إلى تقدير من التبعيضية عند الله أي في حكمه فإنه منزه عن الزمان كما أنه مقدس عن المكان يوم النحر أي أول أيام النحر لأنه العيد الأكبر ويعمل فيه أكبر أعمال الحج حتى قال تعالى فيه يو الحج الأكبر التوبة ثم يوم القر بفتح القاف وتشديد الراء أي يوم القرر بخلاف ما قبله وما بعده من حيث الانتشار قال بعض الشراح وهو اليوم الأول من أيام التشريق سمي بذلك لأن الناس يقرون يومئذ في منازلهم بمنى ولا ينفرون عنه بخلاف اليومين الأخيرين ولعل المقتضي لفضلهما فضل ما يخصهما من وظائف العبادات وقد ورد في الحديث الصحيح بأن عرفة أفضل الأيام فالمراد ههنا أي من أفضل الأيام كقولهم فلان أعقل الناس أي من أعقلهم والمراد بتلك الأيام يوم النحر وأيام التشريق قال ثور يعني أحد رواة الحديث وهو أي يوم القرهو اليوم الثاني أي من أيام النحر أو من أيام العيد فلا ينافي ما سبق من أنه أول أيام التشريق قال أي عبد الله وقرب بتشديد الراء مجهولا لرسول الله بدنات خمس أو ست شك من الراوي أو ترديد من عبد الله يريد تقريب الأمر أي بدنات من بدن النبي فطفقن بكسر الفاء الثانية أي شرعن يزدلفن أي يتقربن ويسعين إليه بأيتهن يبدأ قال الطيبي رحمه الله أي منتظرات بأيتهن يبدأ للتبرك بيد رسول". (١)

٨٦-"يخشى فيه من تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين وهذا باب أمر بمحافظته وجيء أمر بالذب عنه فحقيق علينا أن ننصر فيه الحق ونقدم فيه الصدق وهذا حديث تدلس به المبتدع شأنه ويوصل به المنتحل جناحه ليتخذه ذريعة إلى الطعن في خلافة

أبي بكر رضي الله عنه التي هي أول حكم أجمع عليه المسلمون في هذه الأمة وأقوم عماد أقيم به الدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقول وبالله التوفيق هذا الحديث لا يقاوم ما أوجب تقديم أبي بكر والقول بخيريته من الأخبار الصحاح منضما إليها إجماع الصحابة لمكان سنده فإن فيه لأهل النقل مقالا ولا يجوز حمل أمثاله على ما يخالف الإجماع لا سيما والصحابي الذي يرويه ممن دخل في هذا الإجماع واستقام عليه مدة عمره ولم ينقل عنه خلافه فلو ثبت عنه هذا الحديث فالسبيل أن يؤول على وجه لا ينقض عليه ما اعتقده ولا يخالف ما هو أصح منه متنا وإسنادا وهو أن يقال يحمل قوله بأحب خلقك على أن المراد منه ائتني بمن هو من أحب خلقك إليك فيشاركه فيه غيره وهم المفضلون بإجماع الأمة وهذا مثل قولهم فلان أعقل الناس وأفضلهم أي من أعقلهم وأفضلهم ومما يبين لك أن حمله على العموم غير جائز هو أن النبي صلى الله عليه وسلم من جملة خلق الله ولا جائز أن يكون علي أحب إلى الله منه فإن قيل ذلك شيء عرف بأصل الشرع قلنا والذي نحن فيه عرف أيضا بالنصوص الصحيحة وإجماع الأمة فيؤول هذا الحديث على الوجه الذي ذكرناه أو على أنه أراد به أحب خلقه إليه من بني عمه وذويه وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يطلق القول وهو يريد تقييده ويعم به ويريد تخصيصه فيعرفه ذوو الفهم بالنظر إلى الحال أو الوقت أو الأمر الذي هو فيه قال الطيبي والوجه الذي يقتضيه المقام هو

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١١٤/٩

الوجه الثاني لأنه صلى الله عليه وسلم كان يكره أن يأكل وحده لأنه ليس من شيمة أهل المروءات فطلب من الله تعالى أن يؤتى له من يؤاكله وكان ذلك برا وإحسانا منه إليه وأبر المبرات". (١)

٨٧-"الدهلوي في حجة الله (ج٢ : ص٤٣) : الفضل يختلف باختلاف الاعتبار والمقصود هنا ، أي في حديث أبي هريرة الذي نحن في شرحه بيان الفضل باعتبار تنويه دين الله وظهور شعار الله ، وليس بهذا الاعتبار بعد الإيمان كالجهاد والحج – انتهى . وقال القفال الشافعي الكبير : إن ذلك اختلاف جواب جرى على حسب اختلاف الأحوال والأشخاص فإنه قد يقال ((خير الأشياء كذا)) ولا يراد به خير جميع الأشياء من جميع الوجوه والحيثيات والاعتبارات وفي جميع الأحوال والأوقات ولجميع الأشخاص والأفراد بل في حال دون حال ولواحد دون واحد ومن وجه دون وجه وفي وقت دون وقت ، قال : ويجوز أن يكون المراد من أفضل الأعمال كذا أو من خيرها أو من خيركم من فعل كذا فحذفت من وهي مرادة كما يقال فلان أعقل الناس وأفضلهم ويراد أنه من أعقلهم وأفضلهم . ومن ذلك قول رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ : خيركم خيركم لأهله ، ومعلوم أنه لا يصير بذلك خير الناس مطلقا . قال النووي : وعلى هذا الجواب يكون الإيمان أفضلها مطلقا ، والباقيات متساويات في كونها من أفضل الأعمال والأحوال ، ويعرف فضل بعضها على بعض بدلائل تدل عليها وتختلف باختلاف الأحوال والأشخاص انتهى . وقد تقدم شيء من الكلام في هذا في الفصل الثاني من باب الذكر ، وإن شئت

متفق عليه .

٢٥٣١- (٣) وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من حج لله فلم يرفث ولم يفسق

". (٢)

٨٨-"١٠٦٤ أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القر(صحيح)

(حم د ك) عن عبدالله بن قرط .

الشرح:

(أعظم الأيام) أي أعظمها (عند الله يوم النحر) لأنه يوم الحج الأكبر، وفيه معظم أعمال النسك (ثم يوم القر) ثاني يوم النحر لأنهم يقرون فيه أي يقيمون ويستحمون مما تعبوا في الأيام الثلاثة ذكره الزمخشري. وقال البغوي: سمي به لأن أهل الموسم يوم التروية وعرفة والنحر في تعب من الحج فكان الغد من النحر قرا اهـ. وفضلهما لذاتهما أو فيما يخصهما من وظائف العبادة، والجمهور على أن يوم عرفة أفضل ثم النحر فمعنى قوله أفضل أي من أفضل كما يقال فلان أعقل الناس

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٤٣٨/١٧

(٢) مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح ٦٤٥/٨

أي وأعلمهم.
١٠٦٥ أعظم الناس أجرا في الصلاة أبعدهم إليها ممشى فأبعدهم و الذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجرا من الذي يصليها ثم ينام
(صحيح) (ق) عن أبي موسى (هـ) عن أبي هريرة .
الشرح:
(أعظم) لفظ رواية الشيخين فيما وقفت عليه إن أعظم (الناس أجرا) أي ثوابا وهو نصب على التمييز (في الصلاة أبعده) بالرفع خبر أعظم الناس (إليها ممشى) بفتح فسكون تمييز أي أبعدهم مسافة إلى المسجد لكثرة الخطا فيه المتضمنة للمشقة (فأبعدهم) أي أبعدهم ثم أبعدهم فالفاء هنا بمعنى ثم وأما قول الكرماني للاستمرار كالأمثل فالأمثل فمنعه العيني بأنه لم يذكر أحد من النحات أنها تجيء بمعناه واستثنى من أفضليته بعد الدار عن المسجد الإمام ومن تعطل القريب لغيبته ٠٠٠(والذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام) ولو في آخر الوقت (أعظم أجرا من الذي يصليها) في وقت الاختيار وحده أو مع الإمام بغير انتظار (ثم ينام) فكما أن بعد المكان مؤثر في زيادة الأجر فكذا طول الزمن للمشقة ٠٠٠٠٠
١٠٦٦ أعظم الناس فرية اثنان: شاعر يهجوا القبيلة بأسرها و رجل انتفى من أبيه (صحيح) (ابن أبي الدنيا في ذم الغضب هـ) عن عائشة .
الشرح:". (١)

"وقوله: وآخرين مقرنين في الأصفاد [٣٨ \ ٣٨] .
وصفة البساط، وصفة حمل الريح له، وصفة جنود سليمان من الجن والإنس والطير كل ذلك مذكور بكثرة في كتب التفسير، ونحن لم نطل به الكلام في هذا الكلام المبارك.

قوله تعالى: وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين.
الظاهر أن قوله: وأيوب منصوب بـ «اذكر» مقدرا، ويدل على ذلك قوله تعالى في «ص» : واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب [٣٨ \ ٤١] .
وقد أمر - جل وعلا - في هاتين الآيتين الكريمتين نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يذكر أيوب حين نادى ربه قائلا: أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين [٢١ \ ٨٣] وأن ربه استجاب له فكشف عنه جميع ما به من الضر، وأنه آتاه أهله، وآتاه مثلهم معهم رحمة منه - جل وعلا - به وتذكيرا للعابدين، أي الذين يعبدون الله؛ لأنهم هم المنتفعون بالذكرى.
وهذا المعنى الذي ذكره هنا ذكره أيضا في سورة «ص» في قوله: واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب

---

(١) مصابيح التنوير على صحيح الجامع الصغير للألباني ١/٢

وعذاب إلى قوله: لأولي الألباب [٣٨ \ ٤١ - ٤٣] والضر الذي مس أيوب، ونادى ربه ليكشفه عنه كان بلاء أصابه في بدنه وأهله وماله. ولما أراد الله إذهاب الضر عنه أمره أن يركض برجله ففعل، فنبعت له عين ماء، فاغتسل منها، فزال كل ما بظاهر بدنه من الضر، وشرب منها فزال كل ما بباطنه. كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله: اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب [٣٨ \ ٤٢] .

وما ذكره في «الأنبياء» من أنه آتاه أهله ومثلهم معهم رحمة منه وذكرى لمن يعبده بينه في «ص» في قوله: ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب [٣٨ \ ٤٣] وقوله في «الأنبياء» : وذكرى للعابدين [٢١ \ ٨٤] مع قوله في «ص» ، وذكرى لأولي الألباب [٣٨ \ ٤٣] فيه الدلالة الواضحة على أن أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال هم الذين يعبدون الله وحده ويطيعونه. وهذا يؤيد قول من قال من أهل العلم: إن من أوصى بشيء من ماله لأعقل الناس أن تلك الوصية تصرف لأتقى الناس وأشدهم طاعة لله تعالى؛ لأنهم هم أولو الألباب، أي العقول." (١)

"والقصر المستفاد من الاستثناء قصر ادعائي لأن للأمم أقوالا غير ذلك وأحوالا أخرى، وإنما قصروا على هذا اهتماما بذكر هذه الحالة العجيبة من البهتان، إذ يرمون أعقل الناس بالجنون وأقومهم بالسحر.

وإسناد القول إلى ضمير الذين من قبل مشركي العرب الحاضرين إسناد باعتبار أنه قول أكثرهم فإن الأمور التي تنسب إلى الأقوام والقبائل تجري على اعتبار الغالب.

[٥٣]

[سورة الذاريات (٥١) : آية ٥٣]

أتواصوا به بل هم قوم طاغون (٥٣)

الاستفهام مستعمل في التعجيب من تواطئهم على هذا القول على طريقة التشبيه البليغ، أي كأنهم أوصى بعضهم بعضا بأن يقولوه. فالاستفهام هنا كناية عن لازمه وهو التعجيب لأن شأن الأمر العجيب أن يسأل عنه.

والجملة استئناف بياني لأن تماثل هؤلاء الأمم في مقالة التكذيب يثير سؤال سائل

عن منشأ هذا التشابه.

وضمير تواصوا عائد إلى ما سبق من الموصول ومن الضمير الذي أضيف إليه قبلهم، أي أوصى بعضهم بعضا حتى بلغت الوصية إلى القوم الحاضرين.

وضمير به عائد على المصدر المأخوذ من فعل إلا قالوا ساحر أو مجنون [الذاريات: ٥٢] ، أي أتواصوا بهذا القول.

وفعل الوصية يتعدى إلى الموصى عليه بالباء كقوله تعالى: وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر [العصر: ٣] .

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٤/ ٢٣٧

وبل إضراب عن مفاد الاستفهام من التشبيه أو عن التواصي به، ببيان سبب التواطؤ على هذا القول فإنه إذا ظهر السبب بطل العجب. أي ما هو بتواص ولكنه تماثل في منشأ ذلك القول، أي سبب تماثل المقالة تماثل التفكير." (١)

"وهل يعقل التسوية بين الموعود وعدا حسنا وهو الجنة وما فيها من الثواب والممتع بمتاع الدنيا، أي الذي أعطي منها بعض ما أراد، ثم يوم القيامة كان من المحضرين في النار. قال القشيري: والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم. وقال الثعلبي: وبالجملة، فإنها نزلت في كل كافر متع في الدنيا بالعافية والغنى، وله في الآخرة النار، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله، وله في الآخرة الجنة.

والخلاصة: تترجح منافع الآخرة على منافع الدنيا بأمرين: الدوام والبقاء، وعدم العقاب، أما منافع الدنيا فهي إلى انقطاع وفناء، ويحصل بعدها العقاب الدائم إذا لم تقترن بطاعة الله.

٥- دل قوله سبحانه: أفلا تعقلون على أن من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا، كان خارجا عن حد العقل السليم.

واستدل الشافعي رحمه الله بهذا القول على أن من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس، صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى لأن أعقل الناس من أعطى القليل، وأخذ الكثير، وما هم إلا المشتغلون بطاعة الله تعالى.

تقريع المشركين يوم القيامة بأسئلة ثلاثة

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٦٢ الى ٦٧]

ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون (٦٢) قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون (٦٣) وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون (٦٤) ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين (٦٥) فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون (٦٦) فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين (٦٧)." (٢)

"إنه لقول رسول كريم هذا هو المقسم عليه، أي إن القرآن تبليغ رسول كريم، ومقول قاله جبريل عليه السلام الشريف الكريم العزيز عند الله، ونزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، فليس القرآن من كلام البشر، وإنما وصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من جبريل الذي تلقاه عن ربه عز وجل.

ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين هذه أوصاف أربعة أخرى لجبريل عليه السلام، فهو شديد القوى في الحفظ التام والتبليغ الكامل، وذو رفعة عالية، ومكانة سامية عند الله سبحانه، ومطاع بين الملائكة، يرجعون إليه ويطيعونه، فهو من السادة الأشراف، مؤتمن على الوحي والرسالة من ربه، وعلى غير ذلك. وإنما قال: ثم أي عند الله، وقرئ «ثم» تعظيما

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٢/٢٧

(٢) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ١٤٠/٢٠

للأمانة وبيانا لأنها أفضل صفاته المعدودة.

ووصف جبريل بالأمين تزكية عظيمة من الله لرسوله الملكي وعبده جبريل، كما زكى عبده ورسوله البشرى محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله: وما صاحبكم بمجنون.

وبعد بيان أوصاف الرسول الملك، ذكر تعالى وصف المرسل إليه، فقال:

وما صاحبكم بمجنون أي وليس محمد صلى الله عليه وسلم يا أهل مكة بمجنون، كما تزعمون.

وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره، وبأنه أعقل الناس وأكملهم.

ونظير الآية قوله تعالى: أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة، إن هو إلا نذير مبين [الأعراف ٧/ ١٨٤] ، وقوله: قل: إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد [سبأ ٣٤/ ٤٦] ، وقوله: أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين، ثم تولوا عنه، وقالوا: معلم مجنون [الدخان ٤٤/ ١٣- ١٤] .

ولقد رآه بالأفق المبين أي قد رأى محمد جبريل على صورته الأصلية، له ست مائة جناح، في مطلع أو أفق الشمس الأعلى من قبل المشرق، بحيث." (١)

"واختفائها مرة أخرى من الدليل على قدرة خالقها ومصرفها.

وأقسم الله أيضا بالليل إذا أقبل بظلامه لما فيه من السكون والرهبة، وبالصبح إذا أضاء وامتد حتى يصير نهارا واضحا، لما فيه من التفتح والبهجة.

والمقسم المحلوف عليه هو أن القرآن الكريم نزل به جبريل: تنزيل من رب العالمين [الواقعة ٥٦/ ٨٠] . وإنما نسب الكلام إلى جبريل عليه السلام باعتبار أنه الواسطة بين الله وبين أنبيائه ورسله.

٣- وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بخمسة أوصاف، هي: كريم عزيز على الله، ذو قوة في الحفظ وأداء، طاعة الله ومعرفته وترك الإخلال بها، وذو مكانة وجاه عند رب العرش، ومطاع بين الملائكة فهو من السادة الأشراف، وأمين على وحي الله ورسالاته، قد عصمه الله من الخيانة والزلل.

وقوله: عند ذي العرش.. هذه العندية ليست عندية المكان، كقوله تعالى: ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته [الأنبياء ٢١/ ١٩] وليست عندية الجهة، بدليل

قوله في الحديث: «أنا عند المنكسرة قلوبهم»

بل عندية الإكرام والتشريف والتعظيم «١» .

٤- رد الله تعالى على المشركين المتقولين بأن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بمجنون كما زعموا، بأنهم أعلم الناس بأمره، وبأنه أعقل الناس وأكملهم.

٥- رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام في صورته الحقيقية، له ست مائة جناح بالأفق المبين، أي بمطلع

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٩٠/٣٠

الشمس من قبل المشرق، فهو مبين لأنه ترى الأشياء من جهته، وذلك ليتأكد ويطمئن بأنه ملك مقرب، لا شيطان رجيم.

٦- أخبر الله تعالى عن نبيه بأنه لا يضن بشيء من الغيب أي الوحي وخبر

(١) تفسير الرازي: ٣١/ ٧٣." (١)

"فعصم الله نبيه صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية، وذكر نحوه الماوردي والقرطبي وكذلك الكشاف مع اختلاف في بعض العبارات، وعبارة الكشاف: فقال الرجل لرسول الله: لم أر كاليوم رجلا - يريد بذلك أنه لم ير رجلا مثل الرسول - فعصمه الله.

ولقد صح من عدة طرق أن العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر، فالعين حق.

وذلك من خصائص بعض النفوس، ولله تعالى أن يخص ما شاء منها بما شاء.

قال العلامة الآلوسي في تعقيبه على ذلك: وأنا لا أزيد على القول بأنه من تأثيرات النفوس (ولا أكيف ذلك) فالنفس الإنسانية من أعجب مخلوقات الله - عز وجل - وكم طوى فيها أسرارا وعجائب تتحير فيها العقول ولا ينكرها إلا مجنون أو جهول.

ولا يسعني أن أنكر العين لكثرة الأحاديث الواردة فيها ومشاهدة آثارها على اختلاف الأعضاء.

ولابن كثير كلام كثير في هذا المقام فليرجع إليه من أراد.

(لما سمعوا الذكر) أي: يزلقونك بأبصارهم وقت سماعهم القرآن؛ وذلك لشدة بغضهم وحسدهم لرسول الله حين سماعه (ويقولون) لغاية حيرتهم في أمره - عليه الصلاة والسلام - ونهاية جهلهم بما في القرآن من عجائب الحكم وبدائع العلوم ولتنفير الناس منه: (إنه لمجنون): أي: ينسبونه إلى الجنون): أي: ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن، أي: حكموا بجنونه لسماعهم القرآن منه وهم يعلمون أنه أعقل الناس وأحكمهم، وحيث كان مدار حكمهم الباطل ما سمعوا منه صلى الله عليه وسلم من القرآن رد - سبحانه - ذلك ببيان علو شأن القرآن وسطوع برهانه فقال: (وما هو إلا ذكر للعالمين).

٥٢ - ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين (٥٢)﴾:

الأسلوب يفيد بطلان قولهم وتعجيب السامعين من جرأتهم على التفوه بتلك الفرية العظيمة." (٢)

"ونسب- سبحانه- القول إلى الرسول- وهو جبريل- لأنه هو الواسطة في تبليغ الوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم وصف- سبحانه- أمين وحيه جبريل بخمس صفات: أولها: قوله كريم أى: ملك شريف، حسن الخلق، بهى المنظر، ثانيها: ذي قوة أى: صاحب قوة وبطش.

كما قال- تعالى-: علمه شديد القوى.. ثالثها: عند ذي العرش مكين أى: أن من صفات جبريل- عليه السلام- أنه ذو

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٣٠/٩٣

(٢) التفسير الوسيط - مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ١٠/١٥٤٦

مكانة رفيعة، ومنزلة عظيمة عند الله- تعالى-.

رابعها: قوله- تعالى- مطاع أى يطيعه من معه من الملائكة المقربين.

وخامسها: قوله: - سبحانه- ثم أمين و «ثم» بفتح الثاء- ظرف مكان للبعيد. والعامل ما قبله أو ما بعده، والمعنى: أنه مطاع في السموات عند ذي العرش، أو أمين فيها، أى: يؤدى ما كلفه الله- تعالى- به بدون أية زيادة أو نقص.

قال الشوكاني: ومن قال إن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم فالمعنى: أنه ذو قوة على تبليغ الرسالة إلى الأمة، مطاع يطيعه من أطاع الله، أمين على الوحى.

وقوله: وما صاحبكم بمجنون: الخطاب لأهل مكة، والمراد بصاحبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والمعنى: وما محمد يا أهل مكة بمجنون، وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره، وأنه ليس مما يرمونه من الجنون وغيره في شيء، وأنهم افتروا عليه ذلك، عن علم منهم، بأنه أعقل الناس وأكملهم، وهذه الجملة داخلة في جواب القسم.

فأقسم- سبحانه- بأن القرآن نزل به جبريل، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس كما يقولون من أنه مجنون، وأنه يأتى بالقرآن من جهة نفسه «١» .

فالمقصود بالآية نفى الجنون عن النبي صلى الله عليه وسلم بأكمل وجه، وتوبيخ أعدائه الذين اتهموه بتهمة هم أول من يعلم- عن طريق مشاهدتهم لاستقامة تفكيره، وسمو أخلاقه- أنه أكمل الناس عقلا وأقومهم سلوكا.

وقوله- سبحانه-: ولقد رآه بالأفق المبين معطوف- أيضا- على قوله- تعالى- قبل ذلك: إنه لقول رسول كريم فهو من جملة المقسم عليه.

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٥ ص ٣٩١، للشوكاني.." (١)

"واضح قالوا: لا أقسم، أي لا يحتاج إلى قسم، وقيل: إن الإتيان ب (لا) في القسم لتعظيم المقسم به.

والمعنى هنا أقسم بالكواكب جميعها التي تخنس، أي تختفي بالنهار تحت ضوء الشمس، وتكنس بالليل، أي تظهر بالليل في أماكنها، كما تظهر الظباء من كنسها، أي بيوتها، والمراد بها: الكواكب السيارة السبعة: وهي الشمس، والقمر، وزحل وعطارد، والمريخ، والزهرة، والمشتري. وهو رأي الجمهور.

وأقسم بالليل إذا أقبل بظلامه، لما فيه من الرهبة، والصبح إذا أقبل وامتد وظهر وأضاء بنوره الأفق. وجواب القسم هو: إن هذا القرآن هو تبليغ ونقل رسول كريم عند الله، وهو جبريل عليه السلام، في قول جمهور الناس، ولجبريل صفات أربع: أنه شديد القوى في الحفظ التام والتبليغ الكامل، وذو رفعة عالية، ومكانة سامية عند الله سبحانه، ومطاع بين الملائكة، يرجعون إليه ويطيعونه، مؤتمن على الوحي والرسالة من ربه، وعلى غير ذلك.

وقوله: ثم أي عند الله تعالى. وقوله: عند ذي العرش متعلق بقوله: ذي قوة أو متعلق بقوله مكين ومعناه: له مكانة ورفعة. ومطاع ثم أمين (٢١) معناه:

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ١٥/٣٠٣

مقبول القول، مصدق فيما يقوله، مؤتمن على ما يرسل به ويؤديه من وحي وامتثال أمر.

وليس محمد صلى الله عليه وسلم صاحبكم يا أهل مكة بمجنون، كما تزعمون. وقوله تعالى: وما صاحبكم وصف بالصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره، وبأنه أعقل الناس وأكملهم.

وتالله، لقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام على صورته الأصلية، له ست مائة جناح، في مطلع أو أفق الشمس الأعلى من قبل المشرق، بحيث حصل له علم بدهي بأنه ملك مقرب، يطمأن لنزوله بالوحي عليه، لا شيطان رجيم.

وليس محمد صلى الله عليه وسلم على ما أنزله الله عليه، من الوحي وخبر السماء، ببخيل مقصر." (١)

"مالك في الموطأ، وفيه زيادة في أوله، أخرجه الترمذي وصححه وأقره الحفاظ، ورواه البيهقي في الشعب.

٦٤ - " ابن آدم، أطع ربك تسمى عاقلا، ولا تعصه فتسمى جاهلا (حل) عن أبي هريرة وأبي سعيد".

(ابن آدم) خطاب عام لكل بني آدم من المذكور والإناث والصبيان وغيرهم، والعقلاء والمجانين، إلا أنه خص العقلاء المكلفين لأدلة أخرى، وهو منادي، والمطلوب استمالة قلب السامع للإصغاء إلى ما يلقى إليه من قوله (أطع ربك) والطاعة الانقياد له في كل ما أمر به ونهى عنه، والتعيين بالرب مع إضافته إلى المخاطب إيقاظ له بأنه مملوك، وأن من شأن المملوك، طاعة مالكه، سيما إذا كان مفيضا عليه إحسانه مسبلا عليه امتنانه، مبتدئا بإيجاده فضلا وبإبقائه له، وإدرار نعمه عليه (تسمى عاقلا)، لم يجزمه في جواب الأمر؛ لأنه لم يقصد السببية؛ لأنها لا يناسب هنا؛ لأنها تقضي بأنه ليس بعاقل إن لم يطع ربه، مع أنه عاقل أطاع أو عصى إذ هو مكلف إلا أنه لما كان عاصيا كان كأنه غير مستحق؛ لأن يسمي عاقلا فإن العاقل من عقله غفلة عن معاصيه وحجزه عن مناهيه (ولا تعصه فتسمي جاهلا) لأنه مع العصيان لا يستحق أن يسمي عاقلا؛ لأنه اسم تشريف وتكريم لا يستحقه إلا من قام بمعناه؛ لأن من غمره مولاه ومالكه بالنعم وأفاض عليه من جوده ما لا يحيط به الإحصاء إذا عصاه كان من الجهل في رتبة هي أعظم رتب الجهل، ولا يستحق أن يكون من ذوي العقل ولذا جعلهم الله كالأنعام بل أضل، وخص تعالى الخطاب في القرآن بذوي الألباب تعريضا بأن من لا لب له ينتفع به كالبهائم، ويأتي حديث أفلح من رزق لبا، وقال الفقهاء: وأعقل الناس أزهدهم؛ لأنه لا يزهد في الدنيا إلا أرغب الناس في طاعة مولاه ويأتي حديث: "الكيس من عمل لما بعد." (٢)

"وحفظه وذلك بمعاودة تلاوته كما أتى بهذا اللفظ عند الشيخين وسيأتي (فلهو أشد تفصيا) بالفاء والصاد المهملة فمثناة تحتية في النهاية (١) أي أشد خروجا يقال تفصيت عن الأمر تفصيا إذا خرجت منه وتخلصت (من صدور الرجال) التي هي محل حفظه كما قال: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ [العنكبوت: ٤٩] (من النعم) بفتحتين الإبل والشياه أو خاص بالإبل قاله في القاموس (٢) والمراد هنا الأول (من عقلها) جمع عقال ككتاب وكتب وهو ما يشد

---

(١) التفسير الوسيط للزحيلي وهبة الزحيلي ٢٨٣٢/٣

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٢٥٤/١

به البعير والحديث أمر بتعهد القرآن وحفظه بالتلاوة وقد قدر - صلى الله عليه وسلم - مدة معلومه سيأتي أحاديثها (حم ق ت ن عن ابن مسعود) (٣).

٩٦٩ - "استرشدوا العاقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا (خط) في رواية مالك عن أبي هريرة (ض) ".

(استرشدوا العاقل) أي اطلبوا [١/ ٢٧٤] رشده أي ما يرشدكم إليه والرشد خلاف الغي والعاقل ذو العقل وهو على ما في القاموس (٤) نور روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية وابتداء وجوده عند إحسان الولد ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ انتهى. واعلم أنهم ذكروا للعقل خمسة أقسام.

الأول: غريزي وهو في كل آدمي مؤمن وكافر.

الثاني: ما يكسبه الإنسان من مخالطة العقلاء.

الثالث: عقل المؤمن الذي اهتدى به إلى الإيمان.

الرابع: عقل الزهاد، ولذا يقول الفقهاء: أعقل الناس أزهدهم.

---

(١) النهاية (٣/ ٤٥٢).

(٢) القاموس المحيط (صـ ٧٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٣٢) ومسلم (٧٩٠) والترمذي (٢٩٤٢) والنسائي (٢/ ١٥٤)، وأحمد (١/ ٤٢٣).

(٤) القاموس المحيط (ص ١٣٣٦).." (١)

"الخاء مع الياء المثناة التحتية

٣٩٥٦ - " خيار المؤمنين القانع، وشرارهم الطامع". القضاعي عن أبي هريرة.

(خيار المؤمنين) خيار بزنة كتاب جمع خير ككيس أي كثير الخير والمراد أن المرتضى المختار عند الله تعالى: (القانع) ما أتاه وهو الذي لا يطمح لنفسه إلى ما عند غيره ولا يتأسف على فائت، أخبر عن الجمع بالمفرد لأنه أراد به الجنس. (وشرارهم) جمع شرير أي كثير الشر يقيض الخير والشر يقيض الخير. (الطامع) أفرده لما ذكر آنفا والطمع مفتاح كل شر فمن أطاعه قاده إلى كل بلية، واعلم: أن هذه الصفة الآتية في هذه الأحاديث التي هي اسم تفضيل إلى آخره الخاء مع الياء المثناة التحتية ليس المراد أن من وصف بها خير من كل من أضيف إليها فليس المراد أن القانع مثلا خير من كل أفراد الأمة من المؤمنين بل المراد في ذلك الإخبار بأنه ذو خير ومن الخيار قال الحليمي (١): إذا قلت خير الأشياء كذا لا يراد تفضيله في نفسه على جميع الأشياء لكن على أنه خيرها في حال دون حال وواحد دون آخر كما قد ينصرف واحد بالكلام فيقول: لا شيء أفضل من السكوت أي حيث لا يحتاج إلى الكلام ثم قد ينصرف بالسكوت فيقول: لا شيء أفضل من الكلام ويقال فلان أعقل الناس وأفضلهم والمراد من أعقلهم وأفضلهم، والمراد من خيار المؤمنين كذا قاله (القضاعي (٢) عن أبي

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٣١٨/٢

هريرة) ورواه عنه الديلمي أيضا.

---

(١) انظر: شعب الإيمان (٤/ ١٠).

(٢) أخرجه القضاعي في الشهاب (١٢٧٤، ١٢٧٥)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٨٦٣)، وقال في الضعيفة (٣٥٥٧): ضعيف جدا.." (١)

"- صلى الله عليه وسلم -: "ففيهما فجاهد" (١).

الجواب الثاني: أن لفظة "من": مراده، والمراد: من أفضل الأعمال كما يقال: فلان أعقل الناس، والمراد: من أعقلهم، ومنه الحديث: "خيركم خيركم لأهله" (٢) ومعلوم أنه لا يصير بذلك خير الناس، وكقولهم: أزهد الناس في العالم جيرانه (٣).

= بالعقر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافا وثقالا، شبابا وشيوخا، كل على قدر طاقته، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقاتل أو مكثر. اهـ. "الجامع لأحكام القرآن" ٨/ ١٥١ وأما قول المصنف -رحمه الله- والعياذ بالله، يستعيذ بالله مما يتعين به الجهاد، ألا وهو هجوم عدو أو فرض عدو سيطرته على بلد من البلاد، وذلك أيضا من باب حديث عبد الله بن أبي أوفي الآتي (٢٩٦٥ - ٢٩٦٦) والذي قال فيه - صلى الله عليه وسلم -: "أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية ... " الحديث.

(١) سيأتي برقم (٣٠٠٤) كتاب: الجهاد والسير، باب: الجهاد بإذن الأبوين، ورواه مسلم (٢٥٤٩) كتاب: البر، باب: بر الوالدين وأنهما أحق به. من حديث عبد الله ابن عمرو.

(٢) رواه الترمذي (٣٨٩٥)، والدارمي ٣/ ١٤٥١ (٢٣٠٦)، وابن حبان ٩/ ٤٨٤ (٤١٧٧)، والقزويني في "التدوين" ٣/ ٤١٣ - ٤١٤ من حديث عائشة، وصححه الألباني في "الصحيحة" (٢٨٥).

وفي الباب من حديث ابن عباس وأبي كبشة الأنماري والزبير بن العوام وأبي هريرة ومعاوية وعبد الرحمن بن عوف.

انظر: "مجمع الزوائد" ٤/ ٣٠٣، "السلسلة الصحيحة" (١١٧٤، ٢٦٧٨).

(٣) حديث موضوع، رواه عن جابر ابن عدي في "الكامل" ٨/ ٩٤، ورواه عن أبي هريرة أبو نعيم في "أخبار أصبهان" ١/ ٨٣ - ٨٤، ١٧١.

وفي الباب عن أبي الدرداء، وهو موضوع من طرقه الثلاثة كذا قال الألباني في "الضعيفة" (٢٧٥٠) فانظره. ورواه البيهقي في "شعب الإيمان" ٦/ ٢٠٤ (٧٩٠٩) عن الحسن قال: أزهد الناس في عالم جيرانه، وشر الناس لميت أهله يبكون عليه ولا يقضون دينه.." (٢)

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٥٢٧/٥

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ٦٣٠/٢

"وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلهم. وكل ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة، وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى أن الرجل كان يقلع الحجر وكان قد وضع عليه أساس بنيانه فيرده، وقيل: خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا يا حي حين لا حي، ويا حي محيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت. فقالوها، فكشف عنهم. وعن الفضيل بن عياض: اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت، وأنت أعظم منها وأجل، افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله، وستأتي بقية القصة إن شاء الله تعالى في سورة والصافات.

فإن قيل: قد حكى الله تعالى عن فرعون أنه تاب في آخر الأمر ولم يقبل توبته، وحكى عن قوم يونس أنهم آمنوا وقبل توبتهم، فما الفرق بين الحالين؟ أجيب: بأن فرعون إنما تاب بعد أن شاهد العذاب وهو وقت اليأس من الحياة، أما قوم يونس فإنهم تابوا قبل ذلك، فإنهم لما ظهرت أمارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل أن ينزل بهم ولم يباشرهم، فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية، وإن الله تعالى قد علم صدق نياتهم في التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فإنه لم يصدق في إيمانه ولا أخلص فلم يقبل منه. قال الله تعالى:

﴿ولو شاء ربك﴾ يا محمد ﴿لآمن﴾ بك وصدقك ﴿من في الأرض كلهم﴾ بحيث لم يشذ منهم أحد ﴿جميعا﴾ أي: مجتمعين على ذلك في آن واحد لا يختلفون في شيء منه ولكن لم يشأ أن يصدقك ويؤمن بك إلا من سبقت له السعادة في الأزل، وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فإنه كان حريصا على إيمانهم كلهم، فأخبر الله تعالى أنه لا يؤمن به إلا من سبقت له السعادة الأزلية فلا تتعب نفسك على إيمانهم. وهو قوله تعالى: ﴿أفأنت تكره الناس﴾ أي: الذين لم يرد الله إيمانهم ﴿حتى يكونوا مؤمنين﴾ أي: ليس إيمانهم إليك حتى تكرههم عليه وتحرص عليه، إنما إيمان المؤمن وإضلال الكافر بمشيئة الله تعالى وقضائه وليس لأحد ذلك سواه. كما قال تعالى: ﴿وما كان﴾ أي: وما ينبغي وما يتأتى ﴿لنفس﴾ أي: واحدة فما فوقها ﴿أن تؤمن﴾ أي: يقع منها إيمان في وقت ما ﴿إلا بإذن الله﴾ أي: بإرادته لها بالإيمان، فإن هدايتها إلى الله فهو المهدي والمضل.

وقال ابن عباس بأمر الله. وقال عطاء: بمشيئة الله. ﴿ويجعل﴾ الله ﴿الرجس﴾ أي: العذاب والخذلان فإنه سببه. وقرأ شعبة وحده بالنون ﴿على الذين لا يعقلون﴾ أي: لا يتدبرون في آيات الله تعالى، فينتفعوا بها وهم يدعون أنهم أعقل الناس ويتساقطون في مساوئ الأخلاق وهم يدعون أنهم أبعد الناس عنها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات. ولما بين الله تعالى في الآيات السابقة أن الإيمان لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى ومشيئته أمر بالنظر والاستدلال في الدلائل بقوله تعالى:

﴿قل انظروا﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات ﴿ماذا﴾ أي: الذي ﴿في السموات والأرض﴾ من الآيات وواضح الدلالات من عجائب صنعه ليدلكم على وحدته وكمال قدرته، ففي العالم العلوي الشمس والقمر وهما دليلان على الليل والنهار والنجوم وحركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها، والكواكب وما يختص بذلك من المنافع، وفي العالم السفلي الجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان، وأخصها حال الإنسان. كل ذلك من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، وانه خالقها، كما قال." (١)

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ٣٩/٢

"تولى تربيتي هم الذين استعبدتهم فلا منة لك علي لأن التربية كانت من قبل أمي ومن قومي، ليس لك إلا مجرد الاسم وهذا ما يعد إنعاما.

فإن قيل: لم جمع الضمير في منكم وخفتكم مع إفراده في تمنها وعبدت؟ أجيب: بأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله، كما مرت الإشارة إليه بدليل قوله تعالى: ﴿إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ (القصص: ٢٠)

وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد، ولما قال له بوابه إن ههنا من يزعم أنه رسول رب العالمين وأدخله عليه.

﴿قال﴾ له ﴿فرعون﴾ عند دخوله حائدا عن جوابه منكرا لخالقه على سبيل التجاهل كما أنكر هؤلاء الرحمن متجاهلين وهم أعرف الناس بغالب أفعاله كما كان فرعون يعرف لقول موسى عليه الصلاة والسلام ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ (الإسراء: ١٠٢)

﴿وما رب العالمين﴾ أي: الذي زعمتما أنكما رسوله وإنما أتى بما دون من لأنها يسأل بها عن طلب الماهية كقولك ما العنقاء، ولما كان جواب هذا السؤال لا يمكن تعريفه إلا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته عدل موسى عليه السلام إلى جواب ممكن فأجاب بصفاته تعالى، كما قال تعالى إخبارا عنه:

﴿قال رب﴾ أي: خالق ومبدع ومدبر ﴿السموات﴾ كلها ﴿والأرض﴾ وإن تباعدت أجرامها بعضها من بعض ﴿وما بينهما﴾ أي: بين السموات والأرض فأعاد ضمير التثنية على جمعين اعتبارا بالجنسين وخصه بهذه الصفات لأنها أظهر خواصه وآثاره وفيه إبطال لدعواه أنه إله، ومعنى قوله ﴿إن كنتم موقنين﴾ أي: إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب وإلا لم ينفع، أو إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به لظهوره وإنارة دليله، ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق.

﴿قال﴾ فرعون ﴿لمن حوله﴾ من أشراف قومه، قال ابن عباس: وكانوا خمسمائة رجل عليهم الأسورة وكانت للملوك خاصة ﴿ألا تستمعون﴾ جوابه الذي لم يطابق السؤال، سألته عن حقيقته وهو يجيبني بالفاعلية، ولما كان يمكن أن يعتقد أن السموات والأرضين واجبة لذاتها فهي غنية عن الخالق.

﴿قال﴾ لهم موسى زيادة في البيان ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ فعدل عن التعريف بخالقية السموات والأرض إلى التعريف بكونه تعالى خالقا لهم ولآبائهم، إذ لا يمكن أن يعتقد في نفسه وفي آبائه وأجداده كونهم واجبين لذواتهم لأن المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم وعدموا بعد الوجود، وما كان كذلك استحال أن يكون واجبا لذاته واستحال وجوده إلا بالمؤثر فكان التعريف بهذا الأثر أظهر ولكن فرعون لم يكتف بذلك ولهذا.

﴿قال إن رسولكم﴾ على طريق التهكم إشارة إلى أن الرسول ينبغي أن يكون أعقل الناس ثم زاد الأمر بقوله: ﴿الذي أرسل إليكم﴾ أي: وأنتم أعقل الناس ﴿لمجنون﴾ لا يفهم السؤال فضلا عن أن يجيب عنه، فكيف يصلح للرسالة من الملوك؟ فلما قال ذلك عدل موسى ج إلى طريق ثالث أوضح من الثاني بأن.

﴿قال رب المشرق والمغرب﴾ أي: الشروق والغروب ووقتهما وموضعهما ﴿وما بينهما﴾ من المخلوقات لأن التدبير المستمر على هذا الوجه العجيب لا يتم إلا بتدبير مدبر قادر، وهذا بعينه طريقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع نمروذ، فإنه." (١)

"﴿قالوا إنما أنت من المسحرين﴾ أي: الذين كرر سحرهم مرة بعد أخرى حتى اختلفوا فصار كلامهم على غير نظام، أو من المعللين بالطعام والشراب كما مضى في صالح عليه السلام أي: فأنت بعيد عن الصلاحية للرسالة، ثم أشاروا إلى عدم صلاحية البشر لها مطلقا ولو كان أعقل الناس بقولهم:

﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ أي: فلا وجه لتخصيصك عنا بذلك وأتوا بالواو للدلالة على أنه جامع بين وصفين مناقضين منافيين للرسالة مبالغة في تكذيبه، ولهذا قالوا ﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ أي: في دعواك.

تنبيه: مذهب البصريين أن ﴿إن﴾ هذه هي المخففة من الثقيلة، أي: وإنا نظنك، والذي يقتضيه السياق ترجيح مذهب الكوفيين هنا في أن ﴿إن﴾ نافية، فإنهم أرادوا بإثبات الواو في وما أنت المبالغة في نفي إرساله بتعداد ما ينافيه، فيكون مرادهم أنه ليس لنا ظن يتوجه إلى غير الكذب، وهو أبلغ من إثبات الظن به، ثم إن شعيبا عليه السلام كان توعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا فقالوا.

﴿فأسقط علينا كسفا﴾ أي: قطعا ﴿من السماء﴾ أي: السحاب أو الحقيقة ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أي: العريقين في الصدق المشهورين فيما بين أهله لنصدقك فيما لزم من أمرك لنا باتخاذ الوقاية من العذاب.

تنبيه: انظر إلى حسن نظر شعيب عليه السلام كيف هددهم بما لله عليهم من القدرة في خلقهم وخلق من كانوا أشد منهم قوة وإهلاكهم بأنواع العذاب لما عصوه بتكذيب رسلهم، وقرأ حفص بفتح السين، والباقون بالسكون وهنا همزتان مكسور، فقالون والبزي يسهل الهمزة الأولى من المد والقصر، وأسقطها أبو عمرو مع المد، والباقون بتحقيق الأولى.

﴿قال﴾ لهم شعيب في جوابهم ﴿ربي أعلم بما تعلمون﴾ فيجازيكم به فإن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره إلى أجل معلوم، وأما أنا فليس علي إلا البلاغ، وأنا مأمور به فلم أخوفكم من نفسي ولا ادعيت قدرة على عذابكم فطلبكم ذلك مني مضموم إلى ظلمكم بالتكذيب.

﴿فكذبوه﴾ أي: استمروا على تكذيبه ﴿فأخذهم﴾ أي: فتسبب عن تكذيبهم أن أخذهم ﴿عذاب يوم الظلة﴾ وهي سحابة على نحو ما طلبوا من قطع السماء، روي أن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعا وتسلط عليهم الرمض: وهو شدة الحر مع سكون الريح فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا شراب، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا، وروي أن شعيبا بعث إلى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الأيكة، فأهلكت مدين بصيحة جبريل، وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة ﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ وقدمنا أن تعظيم اليوم أبلغ من تعظيم العذاب.

﴿إن في ذلك﴾ أي: الأمر العظيم من الإنجاء المطرد لكل رسول ومن أطاعه والأخذ المطرد لمن عصاه في كل عصر بكل قطر بحيث لا يشذ من الفريقين إنسان قاص ولا دان ﴿لآية﴾ أي: دلالة واضحة عظيمة على صدق الرسل وأن يكونوا

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ٣/٨

جديرين بتصديق العباد لهم في جميع ما قالوه من البشائر والنذائر، بأن الله تعالى يهلك من عصاه وينجي من والاه لأنه الفاعل المختار لما يريد ﴿وما كان أكثرهم﴾ أي: أكثر قومك كما كان من قبلهم ﴿مؤمنين﴾ مع أنك قد أتيت قومك بما لا يكون معه شك لو لم يكن لهم بك معرفة قبل ذلك، فكيف وهم عارفون بأنك كنت قبل الرسالة." (١)

"وأبدا ﴿نحن﴾ لا غيرنا ﴿الوارثين﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم وسائر متصرفاتهم قال القائل:

تتخلف الآثار عن أصحابها ... حينا ويدركها الفناء فتتبع

﴿وما كان ربك﴾ أي: المحسن إليك بالإحسان بإرسالك إلى الناس ﴿مهلك القرى﴾ أي: هذا الجنس كله بجرم وإن عظم ﴿حتى يبعث في أمها﴾ أي: أعظمها وأشرفها ﴿رسولا﴾ لأن غيرها تبع لها ولم يشترط كونه من أمها فقد كان عيسى عليه السلام من الناصرة وبعث إلى بيت المقدس ﴿يتلوا عليهم﴾ أي: أهل القرى كلهم ﴿آياتنا﴾ الدالة على ما ينبغي لنا من الحكمة وبما لها من الإعجاز على نفوذ الكلمة وباهر العظمة إلزاما للحجة وقطعا للمعذرة لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا، ولذلك لما أردنا عموم الخلق بالرسالة جعلنا الرسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء من أم القرى كلها وهي مكة البلد الحرام ﴿وما كنا مهلكي القرى﴾ أي: كلها بعد الإرسال ﴿إلا وأهلها ظالمون﴾ أي: غريقون في الظلم بالعصيان بترك ثمرات الإيمان وتكذيب الرسل.

﴿وما أوتيتم من شيء﴾ أي: من أسباب الدنيا ﴿فمتاع﴾ أي: فهو متاع ﴿الحياة الدنيا﴾ تتمتعون بها أيام حياتكم وليس يعود نفعه إلى غيرها فهو آيل إلى فساد وإن طال زمن التمتع به ﴿وزينتها﴾ أي: فهو زينة الحياة الدنيا التي هي كلها فضلا عن زينتها إلى فناء فليست هي ولا شيء بأزلي ولا أبدي ﴿وما عند الله﴾ أي: الملك الأعلى وهو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ﴿خير﴾ على تقدير مشاركة ما في الدنيا له فالخيرية في ظنكم لأن الذي عنده أطيب وأكثر وأشهى وأزهى ﴿و﴾ هو مع ذلك كله ﴿أبقى﴾ لأنه وإن شارك متاع الدنيا في أنه لم يكن أزليا فهو أبدي وهذا جواب عن شبههم فإنهم قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقى من وجهين: الأول: أن المنافع هناك أعظم، والثاني: أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر، وأما أنها أبقى فلإنها دائمة غير منقطعة ومن قابل المتناهي بغير المتناهي كان عدما فظهر بهذا أن منافع الدنيا لا نسبة لها إلى منافع الآخرة فلا جرم نبه على ذلك بقوله تعالى: ﴿أفلا يعقلون﴾ أن الباقي خير من الفاني فيستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير فمن لم يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا فإنه يكون خارجا عن حد العقل، قال ابن عادل ورحم الله الشافعي حيث قال: من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلون بالطاعة، فكأنه رحمه الله تعالى إنما أخذه من هذه الآية انتهى، وقرأ أبو عمرو بالياء وهو أبلغ في الموعظة لاشتماله على الالتفات للإعراض به عن خطابهم، والباقون بالتاء على الخطاب جريا على ما تقدم.

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ٣٢/٣

﴿أفمن وعدناه﴾ على عظمتنا في الغنى والقدرة والصدق ﴿وعدا حسنا﴾ لا شيء أحسن منه في موافقته للأمنية وبقائه وهو الجنة فإن حسن الوعد بحسن الموعود ولذلك سمى الله تعالى الجنة بالحسنى ﴿فهو لاقيه﴾ أي: مدركه لامتناع الخلف في وعده ولذلك عطفه بالفاء المعطية معنى السببية ﴿كمن متعناه متاع الحياة الدنيا﴾ أي: الذي هو." (١)

"وأصحابه وقرأ زيد بن علي، وابن محيصن، وأبو نهيك بضم التاء وفتح الهاء وكسر الجيم مشددة مضارع هجر بالتشديد، وهو محتمل لأن يكون تضعيفا للهجر أو للهجر (أو للهجر) وقرأ ابن أبي عاصم كالعامة إلا أنه بالياء من تحت، وهو التفات.

قوله: ﴿أفلم يدبروا القول﴾ أي: يتدبروا القول، يعني ما جاءهم من القول وهو القرآن من حيث إنه كان مباينا لكلام العرب في الفصاحة، ومبرأ من التناقض مع طوله، فيعرفوا ما فيه من الدلالات على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة الصانع، والوحدانية، فيتركوا الباطل، ويرجعوا إلى الحق ﴿أم جآءهم ما لم يأت آبآءهم الأولين﴾ واعلم أن إقدامهم على كفرهم وجهلهم لا بد وأن يكون لأحد أمور أربعة:

الأول: أن لا يتأملوا دليل ثبوته، وهو المراد من قوله: ﴿أفلم يدبروا القول﴾ وهو القرآن يعني: أنه كان معروفا لهم.

والثاني: أن يعتقدوا أن مجيء الرسول على خلاف العادة، وهو المراد من قوله: ﴿أم جآءهم ما لم يأت آبآءهم﴾ وذلك أنهم عرفوا بالتواتر مجيء الرسول إلى الأمم السالفة، وكانت الأمم بين مصدق ناج وبين مكذب هالك، أفما دعاهم ذلك إلى تصديق الرسل.

وقال بعضهم: «أم» هاهنا بمعنى «بل» والمعنى بل جاءهم ما لم يأت آباءهم.

والثالث: أن لا يكونوا عالمين بديانته، وحسن خصاله قبله ادعائه النبوة، وهو المراد من قوله: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ والمعنى: أنهم كانوا يعرفونه قبل أن يدعي الرسالة، وكونه في نهاية الأمانة والصدق وغاية الفرار عن الكذب والأخلاق الذميمة، وكانوا يسمونه الأمين، فكيف كذبوه بعد أن اتفقت كلمتهم على تسميته بالأمين.

والرابع: أن يعتقدوا فيه الجنون، فيقولوا إنما حمله على ادعاء الرسالة جنونه، وهو المراد بقوله ﴿أم يقولون به جنة﴾ . وهذا أيضا ظاهر الفساد، لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة أنه أعقل الناس، فالمجنون كيف يمكنه أن يأتي بمثل ما أتى به من الدلائل القاطعة، والشرائع الكاملة.

وفي كونهم سموه بذلك وجهان:." (٢)

"الفاني يعني أن من لا يرجح الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجا عن حد العقل، ورحم الله الشافعي حيث قال: من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله – تعالى – لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلين بالطاعة، فكأنه رحمه الله إنما أخذه من هذه الآية. وقرأ أبو عمرو «أفلا يعقلون» بالياء من تحت التفاتا، والباقون بالخطاب جريا على ما تقدم.

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ١١١/٣

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٤١/١٤

قوله: «فمن وعدناه» قرأ طلحة «أمن وعدناه» بغير فاء «وعدا حسنا» يعني الجنة «فهو لاقيه» مصيبة ومدركه وصائر إليه ﴿كمن متعناه متاع الحياة الدنيا﴾ وتزول عن قريب ﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ النار، وقرأ الكسائي وقالون: «ثم هو» بسكون الهاء إجراء لها مجرى الواو والفاء، والباقون بالضم على الأصل، وتخصيص لفظ «المحضرين» بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن، قال تعالى ﴿لكنت من المحضرين﴾ [الصافات: ٥٧] ﴿فإنهم لمحضرون﴾ [الصافات: ١٢٧] وفي اللفظ إشعار به، لأن الإحضار يشعر بالتكليف والإلزام، وذلك لا يليق بمجالس اللذة، وإنما يليق بمجالس الضرر والمكاره. قوله: ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركآئي الذين كنتم تزعمون﴾ في الدنيا أنهم شركائي وتزعمون أنها تشفع فتخلصكم من هذا الذي نزل بكم، وتزعمون مفعولاه محذوفان أي: (تزعمونهم شركاءه) ، ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ أي: وجب عليهم العذاب وهم رؤوس الضلالة وقيل: الشياطين.

أحدهما: أن هؤلاء مبتدأ، والذين أغوينا صفته والعائد محذوف، أي أغويناهم، والخبر «أغويناهم» ، و «كما غوينا» نعت لمصدر محذوف، ذلك المصدر مطاوع لهذا الفعل أي فغووا غيا كما غوينا، قاله الزمخشري، وهذا الوجه منعه أبو علي،." (١)

"الأرض السابعة إلى منتهى أمره من فوق السماوات السبع، هذا معنى قول مجاهد. قال مجاهد: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ يعني بذلك نزول الوحي من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقداره ألف سنة؛ لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة سنة.

وقال عكرمة: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ قال: في يوم واحد من القضاء كعدل خمسين ألف سنة. وروى عكرمة عن ابن عباس: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ قال: هو يوم القيامة. وهو قول [مجاهد] وقتادة. وقيل: المعنى: لو حكم في ذلك اليوم أعقل الناس وأعدلهم لأقام خسمين ألف سنة قبل أن يحكم بين اثنين.

والروح: جبريل عليه السلام. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير والتقدير: سأل سائل." (٢)

"كذا في المرقاة

قوله (وفيه عن زيد بن أبي أوفى) أي وفي الباب عن زيد بن أبي أوفى وهو صحابي ولم أقف على من أخرج حديثه

١ - باب [٣٧٢١] قوله (حدثنا عبيد الله بن موسى) العبسي الكوفي (عن عيسى بن عمر) الأسدي الهمداني بسكون الميم كنيته أبو عمر الكوفي القارىء ثقة من السابعة

قوله (كان عند النبي صلى الله عليه وسلم طير) أي مشوي أو مطبوخ أهدي إليه صلى الله عليه وسلم (يأكل معي) بالرفع ويجوز الجزم (فجاء علي فأكل معه) قال التوربشتي هذا الحديث لا يقاوم ما أوجب تقديم أبي بكر والقول بخيريته من الأخبار الصحاح منضما إليها إجماع الصحابة لمكان سنده فإن فيه لأهل النقل مقالا ولا يجوز حمل أمثاله على ما يخالف الإجماع لا سيما والصحابي الذي يرويه ممن دخل في هذا الإجماع واستقام عليه مدة عمره ولم ينقل عنه خلافه فلو ثبت عنه هذا الحديث فالسبيل أن يأول على وجه لا ينقض عليه ما اعتقده ولا يخالف ما هو أصح منه متنا وإسنادا وهو أن يقال يحمل

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٧٨/١٥

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٧٦٩٩/١٢

قوله بأحب خلقك على أن المراد منه ائتني بمن هو من أحب خلقك إليك فيشاركه فيه غيره وهم المفضلون بإجماع الأمة وهذا مثل قولهم فلان أعقل الناس وأفضلهم أي من أعقلهم وأفضلهم ومما يبين لك أن حمله على العموم غير جائز هو أن النبي صلى الله عليه وسلم من جملة خلق الله ولا جائز أن يكون عليا أحب إلى الله منه فإن قيل ذلك شيء عرف بأصل الشرع قلنا والذي نحن فيه عرف أيضا بالنصوص الصحيحة وإجماع الأمة فيأول هذا الحديث على الوجه الذي ذكرناه أو على أنه أراد بأحب خلقه إليه من بني عمه وذويه وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يطلق القول وهو يريد تقييده ويعم به ويريد تخصيصه

فيعرفه ذوو الفهم بالنظر إلى الحال أو الوقت أو الأمر الذي هو فيه انتهى

قال القارىء الوجه الأول هو المعول ونظيره ما ورد أحاديث بلفظ أفضل الأعمال في أمور لا يمكن جمعها إلا بأن يقال في بعضها إن التقدير من أفضلها

قوله (هذا حديث غريب إلخ) قال في المختصر له طرق كثيرة كلها ضعيفة وقد ذكره بن الجوزي في الموضوعات وأما الحاكم فأخرجه في المستدرك وصححه واعترض عليه." (١)

"الرابعة: وعد الله لأهل هذه الخصلة بالمغفرة والأجر العظيم، فيزيل ما يكرهون ويعطيهم ما يحبون.

قوله: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ إلى قوله: ﴿غفور رحيم﴾ ١.

فيه مسائل:

الأولى: ذمه لمن أساء الأدب.

الثانية: ذكره أن أكثرهم لا يعقلون، مع كونهم من أعقل الناس في ظنهم ٢:

الثالثة: ذم العجلة، ومدح التأني.

الرابعة: رأفة الله ورحمته بالعباد ولو عصوه، لختمه الأدب بهذين الاسمين.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ ٣ ٤ الآية نزلت في.

---

١ قوله تعالى: (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم) الآيتان: ٤-٥.

٢ روى ابن إسحاق في قدوم وفد تميم على النبي صلى الله عليه وسلم ونزول سورة الحجرات أنهم لما دخلوا المسجد نادوا: أن اخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من صياحهم، قال ابن إسحاق: "وفيهم نزلت الآية".

راجع: سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٢٢-٢٢٣.

٣ سورة الحجرات آية: ٦.

---

(١) تحفة الأحوذي عبد الرحمن المباركفوري ١٥٣/١٠

٤ قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) الآية: ٦.." (١)

"وقوله: نفسه: نائبة عن «إياه» ، وهذه مخاطبة على معهود ما يفهمه البشر، والنفس في مثل هذا راجع إلى الذات، وفي الكلام حذف مضاف لأن التحذير إنما هو من عقاب وتنكيل ونحوه، قال ابن عباس، والحسن: / ويحذركم الله عقابه «١» .

وقوله تعالى: قل إن تخفوا ما في صدوركم ... الآية: الضمير في «تخفوا» هو للمؤمنين الذين نهوا عن الكافرين، والمعنى: إنكم إن أبطنتم الحرص على إظهار موالاتهم، فإن الله يعلم ذلك، ويكرهه منكم.

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٣٠ الى ٣٢]

يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤف بالعباد (٣٠) قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم (٣١) قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين (٣٢)

وقوله تعالى: يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، قال ابن هشام في «المغني» : «يوم» : نصب بمحذوف، تقديره: اذكروا أو احذروا، ولا يصح أن يكون ظرفا ل «يحذركم» كما زعم بعضهم لأن التحذير في الدنيا وقع لا في الآخرة. اهـ.

وقوله تعالى: وما عملت من سوء، يحتمل أن تكون «ما» معطوفة على «ما» الأولى، فهي في موضع نصب، ويكون «تود» في موضع الحال، وإليه ذهب الطبري «٢» وغيره، ويحتمل أن تكون «ما» رفع بالابتداء، والخبر في قوله: «تود» . وما بعده، والأمد:

الغاية المحدودة من المكان أو الزمان.

وقوله تعالى: والله رؤف بالعباد يحتمل أن يكون إشارة إلى أن تحذيره رأفة منه سبحانه بعباده، ويحتمل أن يكون ابتداء إعلام بهذه الصفة، فمقتضى ذلك: التأنيس لئلا يفرط الوعيد على نفس مؤمن، فسبحانه ما أرحمه بعباده!.

وعن منصور بن عمار «٣» أنه قال: أعقل الناس محسن خائف، وأجهل الناس مسيء

---

(١) ذكره ابن عطية (١/ ٤٢٠) .

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٢٣٠) .

(٣) منصور بن عمار بن كثير الواعظ، البليغ الصالح، الرباني، أبو السري السلمي، الخراساني، وقيل: البصري، كان عديم النظير في الموعظة والتذكير، روى عن الليث، وابن لهيعة، ومعروف الخياط، وهقل بن زياد، والمنكدر بن محمد، وبشير بن طلحة وجماعة، ولم يكن بالمتضلع من الحديث.

---

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) محمد بن عبد الوهاب ص/٣٥١

قال أبو حاتم: صاحب مواعظ، ليس بالقوي.

وقال ابن عدي: حديثه منكر.

وقال الدارقطني: يروي عن ضعفاء أحاديث لا يتابع عليها. -." (١)

"وقوله: إن هؤلاء يعني كفار قريش يحبون العاجلة يعني: الدنيا، واعلم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» «١» رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة، قال ابن الفاكهاني: قال القاضي أبو الوليد بن رشد: وأما الباعث على الزهد فخمسة أشياء:

أحدها: أنها فانية شاغلة للقلوب عن التفكر في أمر الله تعالى.

والثاني: أنها تنقص عند الله/ درجات من ركن إليها.

والثالث: أن تركها قربة من الله تعالى وعلو مرتبة عنده في درجات الآخرة.

والرابع: طول الحبس والوقوف في القيامة للحساب والسؤال عن شكر النعيم.

والخامس: رضوان الله تعالى والأمن من سخطه، وهو أكبرها قال الله عز وجل:

ورضوان من الله أكبر [التوبة: ٧٢] قال ابن الفاكهاني: ولو لم يكن في الزهد في الدنيا إلا هذه الخصلة التي هي رضوان الله تعالى- لكان ذلك كافيا-، فنعوذ بالله من إيثار الدنيا على ذلك، وقد قيل: من سمي باسم الزهد فقد سمي بألف اسم ممدوح، هذا مع ما للزاهدين من راحة القلب والبدن في الدنيا والآخرة، فالزهاد هم الملوك في الحقيقة، وهم العقلاء لإيثارهم الباقي على الفاني، وقد قال الشافعية: لو أوصى لأعقل الناس صرف إلى الزهاد، انتهى من «شرح الأربعين حديثا» ، ولفظ أبي الحسن الماوردي: وقد قيل: العاقل من عقل من الله أمره ونهيه حتى قال أصحاب الشافعي فيمن أوصى بثلث ماله: لأعقل الناس أنه يكون مصروفا للزهاد لأنهم انقادوا للعقل، ولم يغتروا بالأمل، انتهى، والأسر الخلقة واتساق الأعضاء والمفاصل، وعبارة البخاري: أسرهم: شدة الخلق، وكل شيء شددته من قتب أو غبيط فهو مأسور، والغبيط شيء يركبه النساء شبه المحفة، انتهى قال ع «٢» : ومن اللفظة: الإسار، وهو القيد الذي يشد به الأسير، ثم توعدهم سبحانه بالتبديل، وفي الوعيد بالتبديل احتجاج على منكري البعث، أي: من هذه قدرته في الإيجاد والتبديل فكيف تتعذر عليه الإعادة؟!.

وقال الثعلبي: بدلنا أمثالهم تبديلا قال ابن عباس: يقول: أهلكناهم، / وجئنا بأطوع لله منهم، انتهى «٣» .

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤١٥) .

(٣) ذكره القرطبي (١٩/ ٩٩) .." (٢)

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٢/ ٣٠

(٢) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٥/ ٥٣٤

"السيئة

قال ابن عباس: يدفعون بشهادة أن لا إله إلا الله وقيل يدفعون ما سمعوا من أذى المشركين وشتمهم بالصفح والعفو ومما رزقناهم ينفقون أي في الطاعة وإذا سمعوا اللغو أي القول القبيح أعرضوا عنه وذلك أن المشركين كانوا يسبون مؤمني أهل مكة ويقولون تبا لكم تركتم دينكم فيعرضون عنهم ولا يردون عليهم وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم أي لنا ديننا ولكم دينكم سلام عليكم ليس المراد منه سلام التحية ولكن سلام المتاركة والمعنى سلمتم منا لا نعارضكم بالشتم لا نبتغي الجاهلين يعني لا نحب دينكم الذي أنتم عليه. وقيل: لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال ثم نسخ ذلك بالقتال.

قوله تعالى إنك لا تهدي من أحببت أي هدايته وقيل أحببته لقرابته ولكن الله يهدي من يشاء وذلك أن الله تعالى يقذف في القلب نور الهداية فينشرح الصدر للإيمان وهو أعلم بالمهتدين أي بمن قدر له الهدى (م) عن أبي هريرة قال «إنك لا تهدي من أحببت، نزلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث راود عمه أبا طالب على الإسلام وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي طالب عند الموت: «يا عم قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة قال لولا أن تعيرني قريش يقولون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك» ثم أنشد:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

ولكن على ملة الأشياخ عبد المطلب وعبد مناف ثم مات فأنزل الله هذه الآية وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا يعني نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وذلك أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا لنعلم أن الذي تقول حق ولكن إن اتبعناك على دينك خفنا أن تخرجنا العرب من أرض مكة قال الله تعالى أولم نمكن لهم حرما آمنا وذلك أن العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضا وأهل مكة آمنون حيث كانوا لحرمة الحرم. ومن المعروف أنه كان تأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة يجبى إليه يعني يجلب ويجمع إليه ويحمل إلى الحرم من الشام مصر والعراق واليمن ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون يعني أن أكثر أهل مكة لا يعلمون ذلك. قوله عز وجل وكم أهلكنا من قرية يعني من أهل قرية بطرت معيشتها ي أشرت وطغت وقيل عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا قال ابن عباس: لم يسكنها إلا المسافرون سكونا قليلا وقيل لم يعمروا منها إلا أقلها وأكثرها خراب وكنا نحن الوارثين يعني لم يخلفهم فيها أحد بعد هلاكهم وصار أمرها إلى الله تعالى لأنه الباقي بعد فناء الخلق وما كان ربك مهلك القرى يعني الكافرة أهلها حتى يبعث في أمها رسولا ينذرهم وخص الأم ببعثة الرسول لأنه يبعث إلى الأشراف وهم سكان المدن وقيل حتى يبعث في أم القرى وهي مكة رسولا يعني محمدا صلى الله عليه وسلم لأنه خاتم الأنبياء يتلوا عليهم آياتنا أي أنه يؤدي إليهم ويبلغهم وقيل يخبرهم أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون أي مشركون.

قوله عز وجل وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها أي تتمتعون بها أيام حياتكم ثم هي إلى فناء وانقضاء وما عند الله خير وأبقى لأن منافع الآخرة خالصة عن الشوائب وهي دائما غير منقطعة ومنافع الدنيا كالذرة بالقياس إلى البحر

العظيم أفلا تعقلون أي أن الباقي خير من الفاني وقيل من لم يرجح الآخرة على الدنيا فليس بعاقل. ولهذا قال الشافعي: من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله لأن أعقل الناس من أعطي القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلون بطاعة الله تعالى أفمن وعدناه وعدا حسنا يعني الجنة فهو لاقيه أي مصيبه وصائر إليه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا أي وتزول عنه عن قريب ثم هو يوم القيامة من المحضرين أي في النار، قيل هذا في المؤمن والكافر وقيل نزلت في." (١)

"اعلم أنه سبحانه لما بين فيما قبل أنه لا ينصر أولئك الكفار أتبعه بعلة ذلك وهي أنه متى تليت آيات الله عليهم أتوا بأمور ثلاثة: أحدها: أنهم كانوا على أعقابهم ينكصون وهذا مثل يضرب فيمن تباعد عن الحق كل التباعد وهو قوله: فكنتم على أعقابكم تنكصون أي تنفرون عن تلك الآيات وعمن يتلوها كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع إلى ورائه وثانيها: قوله: مستكبرين به والهاء/ في (به) إلى ماذا تعود؟ فيه وجوه: أولها: إلى البيت العتيق أو الحرم كانوا يقولون لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم والذي يسوغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت وإن لم يكن لهم مفخرة إلا أنهم ولاته والقائمون به وثانيها: المراد مستكبرين بهذا التراجع والتباعد وثالثها: أن تتعلق الباء بسامرا أي يسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه، وهذا هو الأمر الثالث الذي يأتون به عند تلاوة القرآن عليهم، وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا وسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهجرون، والسامر نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع وقرئ سمرا وسامرا يهجرون من أهجر في منطقه إذا أفحش والهجر بالفتح الهذيان والهجر بالضم الفحش أو من هجر الذي هو مبالغة في هجر إذا هذى. ثم إنه سبحانه لما وصف حالهم رد عليهم بأن بين أن إقدامهم على هذه الأمور لا بد وأن يكون لأحد أمور أربعة: أحدها: أن لا يتأملوا في دليل ثبوته وهو المراد من قوله: أفلا يتدبرون القرآن فبين أن القول الذي هو القرآن كان معروفا لهم وقد مكنوا من التأمل فيه من حيث كان مباينا لكلام العرب في الفصاحة، ومبرأ عن التناقض في طول عمره، ومن حيث ينبه على ما يلزمهم من معرفة الصانع ومعرفة الوحدانية فلم لا يتدبرون فيه ليتركوا الباطل ويرجعوا إلى الحق وثانيها: أن يعتقدوا أن مجيء الرسل أمر على خلاف العادة وهو المراد من قوله: أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين وذلك لأنهم عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تتواتر على الأمم وتظهر المعجزات عليها وكانت الأمم بين مصدق ناج، وبين مكذب هالك بعذاب الاستئصال أفما دعاهم ذلك إلى تصديق الرسول وثالثها: أن لا يكونوا عالمين بديانته وحسن خصاله قبل ادعائه للنبوة وهو المراد من قوله: أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون نبه سبحانه بذلك على أنهم عرفوا منه قبل ادعائه الرسالة كونه في نهاية الأمانة والصدق وغاية الفرار من الكذب والأخلاق الذميمة فكيف كذبوه بعد أن اتفقت كلمتهم على تسميته بالأمين ورابعها: أن يعتقدوا فيه الجنون فيقولون إنما حمله على ادعائه الرسالة جنونه وهو المراد من قوله: أم يقولون به جنة وهذا أيضا ظاهر الفساد لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة أنه أعقل الناس،

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣/٣٦٨

والمجنون كيف يمكنه أن يأتي بمثل ما أتى به من الدلائل القاطعة والشرائع الكاملة، ولقد كان من المبغضين له عليه السلام من سماه بذلك وفيه وجهان: أحدهما: أنهم نسبوه إلى ذلك من." (١)

"بقوله: وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون أنفسهم بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فإن بعضهم قد آمن وبعضهم علم الله منهم أنهم سيؤمنون وبعض آخرون علم الله أنهم وإن لم يؤمنوا لكنه يخرج من نسلهم من يكون مؤمنا.

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٦٠ الى ٦١]

وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون (٦٠) أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين (٦١)

اعلم أن هذا هو الجواب الثالث عن تلك الشبهة لأن حاصل شبهتهم أن قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقى، أما أنه خير فلوجهين أحدهما: أن المنافع هناك أعظم وثانيهما: أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر، وأما أنها أبقى فلأنها دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدما فكيف ونصيب كل أحد بالقياس إلى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس إلى البحر، فظهر من هذا أن منافع الدنيا لا نسبة لها إلى منافع الآخرة ألبتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه على ذلك قال: أفلا تعقلون يعني أن من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجا عن حد العقل، ورحم الله الشافعي حيث قال: من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى، لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلون بالطاعة فكأنه رحمه الله إنما أخذه من هذه الآية، ثم إنه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهو أنا لو قدرنا أن نعم الله كانت تنتهي إلى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضي ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا فكيف إذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة فأي عقل يرتاب في أن نعم الآخرة راجحة عليها، وهذا هو المراد بقوله: أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه [الصافات: ٥٧] فهو يكون كمن أعطاه الله قدرا قليلا من متاع الدنيا ثم يكون في الآخرة من المحضرين للعذاب، والمقصود أنهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا فقال الله لهم لو لم يحصل عقيب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقتضي ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا، فكيف وهذه الدنيا يحصل بعدها العقاب الدائم، وأورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام ليكون أبلغ في الاعتراف بالترجيح وتخصيص لفظ المحضرين بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن قال تعالى: لكنت من المحضرين [الصافات: ٥٧] فإنهم لمحضرون [الصافات: ١٢٧] وفي لفظه إشعار به لأن الإحضار مشعر بالتكليف والإلزام، وذلك لا يليق بمجالس اللذة إنما يليق بمجالس الضرر والمكاره.

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٦٢ الى ٦٦]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨٦/٢٣

ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون (٦٢) قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون (٦٣) وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون (٦٤) ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين (٦٥) فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون (٦٦)." (١)

"إلى معنى اللعن، لأن معنى اللعن هو الإبعاد والطرد وبهله الله، أي لعنه وأبعده من رحمته من قولك أبهله إذا أهمله وناقة باهل لا صرار عليها، بل هي مرسلة مخلاة، كالرجل الطريد المنفي، وتحقيق معنى الكلمة: أن البهل إذا كان هو الإرسال والتخلية فكان من بهله الله فقد خلاه الله ووكله إلى نفسه ومن وكله إلى نفسه فهو هالك لا شك فيه فمن باهل إنسانا، فقال: علي بهلة الله إن كان كذا، يقول: وكلني الله إلى نفسي، وفرضني إلى حولي وقوتي، أي من كلاءته وحفظه، كالناقة الباهل التي لا حافظ لها في ضرعها، فكل من شاء حلبها وأخذ لبنها لا قوة لها في الدفع عن نفسها، ويقال أيضا: رجل باهل، إذا لم يكن معه عصا، وإنما معناه أنه ليس معه ما يدفع عن نفسه، والقول الأول أولى، لأنه يكون قوله ثم نبتهل أي ثم نجتهد في الدعاء، ونجعل اللعنة على الكاذب وعلى القول الثاني يصير التقدير: ثم نبتهل، أي ثم نلتعن فنجعل لعنت الله على الكاذبين وهي تكرار، بقي في الآية سؤالات أربع.

السؤال الأول: الأولاد إذا كانوا صغارا لم يجز نزول العذاب بهم وقد ورد في الخبر أنه صلوات الله عليه أدخل في المباهلة الحسن والحسين عليهما السلام فما الفائدة فيه؟.

والجواب: أن عادة الله تعالى جارية بأن عقوبة الاستئصال إذا نزلت بقوم هلكت معهم الأولاد والنساء، فيكون ذلك في حق البالغين عقابا، وفي حق الصبيان لا يكون عقابا، بل يكون جاريا مجرى إماتتهم وإيصال الآلام والأسقام إليهم ومعلوم أن شفقة الإنسان على أولاده وأهله شديدة جدا فربما جعل الإنسان نفسه فداء لهم وجنة لهم، وإذا كان كذلك فهو عليه السلام أحضر صبيانه ونساءه مع نفسه وأمرهم بأن يفعلوا مثل ذلك ليكون ذلك أبلغ في الزجر وأقوى في تخويف الخصم، وأدل على وثوقه صلوات الله عليه وعلى آله بأن الحق معه.

السؤال الثاني: هل دلت هذه الواقعة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟.

الجواب: أنها دلت على صحة نبوته عليه السلام من وجهين أحدهما: وهو أنه عليه السلام خوفهم بنزول العذاب عليهم، ولو لم يكن واثقا بذلك، لكان ذلك منه سعيا في إظهار كذب نفسه لأن بتقدير: أن يرغبوا في مباهلته، ثم لا ينزل العذاب، فحينئذ كان يظهر كذبه فيما أخبر ومعلوم أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان من أعقل الناس، فلا يليق به أن يعمل عملا يفضي إلى ظهور كذبه فلما أصر على ذلك علمنا أنه إنما أصر عليه لكونه واثقا بنزول العذاب عليهم وثانيهما: أن القوم لما تركوا مباهلته، فلولا أنهم عرفوا من التوراة والإنجيل ما يدل على نبوته، وإلا لما/ أحجموا عن مباهلته.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: إنهم كانوا شاكين، فتركوا مباهلته خوفا من أن يكون صادقا فينزل بهم ما ذكر من العذاب؟.

قلنا هذا مدفوع من وجهين الأول: أن القوم كانوا يبذلونه النفوس والأموال في المنازعة مع الرسول عليه الصلاة والسلام،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٨/٢٥

ولو كانوا شاكين لما فعلوا ذلك الثاني: أنه قد نقل عن أولئك النصارى أنهم قالوا: إنه والله هو النبي المبشر به في التوراة والإنجيل، وإنكم لو باهلتموه لحصل الاستئصال فكان ذلك تصريحا منهم بأن الامتناع عن المباهلة كان لأجل علمهم بأنه نبي مرسل من عند الله تعالى.

السؤال الثالث: أليس أن بعض الكفار اشتغلوا بالمباهلة مع محمد صلى الله عليه وسلم؟ حيث قالوا اللهم إن كان هذا هو." (١)

"(أفلا تعقلون؟) أي أفلا عقول لكم أيها القوم تتدبرون بها، فتعرفون الخير من الشر، وتختارون لأنفسكم خير المنزلتين على شرهما، وتؤثرون الدائم الذي لا نفاد له على الفاني الذي ينقطع، ومن أجل هذا أثر عن الشافعي رحمه الله أنه قال: من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث للمشتغلين بطاعة الله تعالى- وكأنه رحمه الله أخذه من هذه الآية.

ثم أكد ترجيح ما عند الله على ما فى الدنيا من زينة بقوله:

(أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين؟) أي أفمن وعدناه من خلقنا على طاعته إيانا بالجنة وجزيل نعيمها، مما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر، فآمن بما وعدناه وأطاعنا فاستحق أن ننجز له وعدنا فهو لاقيه حتما وصائر إليه، كمن متعناه الحياة الدنيا ونسى العمل بما وعدنا به أهل الطاعة، وآثر لذة عاجلة على لذة آجلة لا تنفد، ثم هو يوم القيامة إذا ورد على الله كان من المحضرين لعذابه وأليم عقابه؟.

وهذه الآية تبين حال كل كافر متع فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار، وحال كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة.

وخلاصة ذلك- أفمن سمع كتاب الله فصدق به، وآمن بما وعده الله فيه، كمن متعناه متاع الحياة الدنيا وقد كفر بالله وآياته ثم هو يوم القيامة من المحضرين لعذابه- الجواب الذي لا ثانى له- إنهما لا يستويان فى نظر العقل الرجيح؟!.

وتلخيص المعنى: إنهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا قيل لهم: لو لم يحصل عقب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقضى بترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا، فكيف وبعد هذه اللذة فيها يحصل العقاب الدائم؟.

وجاء الكلام بأسلوب الاستفهام ليكون أبلغ فى الاعتراف بالترجيح.." (٢)

"أنظر إليك [الأعراف: ١٤٣] ومما يدل على أن آدم قبل وسوسته قوله تعالى: فأكلا بالفاء والفاء مشعر بالعلية كقول الصحابي: «زنى ماعز فرجم» وما في الآية قد مر تفسيره في «الأعراف» إلا قوله: وعصى آدم ربه فغوى قال بعض الناس: إن آدم ذنبه كبيرة وإلا لم يوصف بالعصيان والغواية فإن العاصي والغاوي اسمان مذمومان عرفا وشرعا وقد ترتب الوعيد عليهما. وأجيب بأن المعصية مخالفة الأمر والأمر قد يكون مندوبا. وزيف بالمنع من أن المندوب غير مأمور به. ثم أن مخالفة عاص وإلا كان الأنبياء كلهم عصاة لأنهم لا ينكفون عن ترك المندوب. قالوا: يقال أشرت إليه في أمر كذا فعصاني وأمرته بشرب الدواء فعصاني. وأجيب بالمنع من أن هذا من مستعملات العرب العاربة، ولو سلم فلعله إنما يقال ذلك إذا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤٩/٨

(٢) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٧٩/٢٠

عرف أن المستشير لا بد له أن يفعل ذلك، وحينئذ يكون معنى الإيجاب حاصلا وإن لم يكن وجوب شرعي لأن ذلك الإيجاب لم يصدر عن الشارع. ومنهم من زعم أنه ذنب صغير وهم عامة المعتزلة ورد بأن المعاصي اسم من يستحق العقاب وهذا لا يليق بالصغيرة. وأجاب أبو مسلم الأصفهاني بأنه عصى في مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف ولهذا قال سبحانه فغوى أي خاب من نعيم الجنة لأن الرشد هو أن يتوصل بشيء إلى شيء فيصل إلى المقصود والغي ضده، وأنه سعى في طلب الخلود فنال ضد المقصود. وعن بعضهم فغوى أي بشم من كثرة الأكل وزيفه جار الله. ورد قول أبي مسلم بأن مصالح الدنيا تكون مباحة فلا يوصف تاركها بالعصيان.

قلت: في هذا نظر، والأحوط في هذا الباب أن يعتقد كون هذه الواقعة قبل النبوة بدليل قوله: ثم اجتباه ربه أي اختاره للرسالة وهدى لحفظ أسباب العصمة. أصل الاجتباء هو الجمع كما مر في آخر «الأعراف» . يروى عن أبي أمامة: لو وزنت أحلام بني آدم لرجح حلمه. وقد قال الله تعالى: ولم نجد له عزما قال العلماء: فيه دليل على أنه لا راد لقضائه وما قدره كائن لا محالة، وإذا جاء القضاء عمي البصر والدليل قد يكون في غاية الظهور ومع ذلك يخفى على أعقل الناس كما خفي على آدم عداوة إبليس، وأنه تعرض لسخط الله في شأنه حين امتنع من سجوده فكيف قبل منه وسوسة لولا كتاب من الله سبق [الأنفال: ٦٨] قال المحققون: الأولى أن لا يطلق لفظ العاصي والغاوي على آدم عليه السلام وإن ورد في القرآن وعصى آدم ربه فغوى لأنه لم تصدر عنه الزلة إلا مرة واحدة، وصيغة اسم الفاعل تنبيء عن المزاولة، ولأن المسلم إذا تاب عن الشرب أو الزنا وحسنت توبته لا يقال له شارب وزان، ولأن السيد يجوز له أن يشتم عبده بما شاء وليس لغيره ذلك. قال اهبطا قد مر تفسير مثله في «البقرة» خاطبهما بالهبوط لأنهما أصلا." (١)

"الخافض كقوله واختار موسى قومه [الأعراف: ١٥٥] أو على أنه ظرف مكان مجازا كأن النظر استقر في المعيشة، أو على حذف المضاف أي بطرت أيام معيشتها كخفوق النجم، أو بتضمين بطرت معنى كفرت وعطلت، والبطر سوء احتمال الغنى وهو أن لا يحفظ حق الله فيه. ومعنى إلا قليلا قال ابن عباس: أي لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يوما أو ساعة. ويجوز أن يكون شؤم معاصيهم بقي في ديارهم فكل من سكنها من أعقابهم لم يسكن إلا قليلا. وكنا نحن الوارثين كقوله ولله ميراث السماوات والأرض [آل عمران: ١٨٠] لأنه الباقي بعد فناء خلقه. ثم كان لسائل أن يقول: ما بال الكفرة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم لم يهلكوا مع تماديهم في الغي؟ فقال وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها أي في القرية التي هي قصبتها وأصلها وغيرها من توابعها وأعمالها رسولا يتلوا عليهم آياتنا بوحي وتبليغ وذلك لتأكيد الحجة وقطع المعذرة. قال في الكشاف: يحتمل أن يراد وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أم القرى- يعني مكة- رسولا وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء. وكان لقائل أن يقول: ما بال الكفار بعد مبعث محمد لم يهلكهم الله مع تكذيبهم وجحودهم فقال وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فمنهم من قد آمن ومنهم من سيؤمن ومنهم من يخرج من نسله من يؤمن. ثم أجاب عن شبهتهم بجواب ثالث وذلك أن حاصل شبهتهم أن قالوا: تركنا الدين لأجل الدنيا. فبين تعالى بقوله وما أوتيتم من شيء

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٥٧٨/٤

الآية. أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقى لأنه أكثر وأدوم. ونبه على جهلهم بقوله أفلا تعقلون ويرحم الله الشافعي حيث قال: إذا أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى، لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير. نظير الآية

قوله صلى الله عليه وسلم «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» «١» .

قال البرهان: إنما السورة «وما أوتيتم» الواو وفي الشورى فما أوتيتم [الآية: ٣٦] بالفاء لأنه لم يتعلق بما قبله هاهنا كثير تعلق، وقد تعلق في الشورى بما قبلها أشد تعلق، ولأنه عقب ما لهم من المخافة ما أوتوه من الأمنة والفاء حرف التعقيب والواو والمجرد العطف. وإنما زاد في هذه السورة وزينتها.

لأن المراد هاهنا جميع أعراض الدنيا من الضرورات ومن الزين، فالمتاع ما لا غنى عنه من المأكول والمشروب والملبوس والمسكن والمنكوح، والزينة وغيرها كالثياب الفاخرة والمراكب الرائعة والدور المشيدة. وأما في «الشورى» فلم يقصد الاستيعاب بل ما هو

---

(١) رواه الترمذي في كتاب القيامة باب ٢٥. ابن ماجة في كتاب الزهد باب ٣١. أحمد في مسنده (٤/ ١٢٤) .." (١)

"فلا يجوز فيه إلا الهمز وفاقا لأنه إن كان من سأل المهموز فظاهر، وإن كان من غير المهموز انقلبت الياء همزة كما في بائع. وقوله للكافرين صفة أخرى للعذاب أي بعذاب واقع، لا محالة كائن للكافرين، أو متعلق بواقع أي نازل لأجلهم، أو كلام مستأنف جواب للسائل الذي سأل: إن العذاب على من ينزل أي هو للكافرين. والظاهر أن قوله من الله يتعلق ب دافع أي لا دافع له من جهة الله لأنه قضاء مبرم. وجوز أن يتصل بواقع أي نازل من عند ذي المعارج المصاعد. روى الكلبي عن ابن عباس أنها السموات لأن الملائكة يعرجون فيها.

وقال قتادة: ذي الفواضل والنعم بحسب الأرواح ومراتب الاستحقاق والاستعداد. وقيل: هي الجنة لأنها درجات. وقال في التفسير الكبير. وهي مراتب أرواح الملكية المختلفة بالشدة والضعف وبسببها يصل آثار فيض الله إلى العالم السفلي عادة، أو غير عادة فتلك الأرواح كالمصاعد لمراتب الحاجات التي ترفع إليها، وكالمنازل لآثار الرحمة من ذلك العالم إلينا.

قوله تعرج الملائكة والروح وفي مواضع أخرى يوم يقوم الروح والملائكة. قيل: إن الروح أعظم الملائكة قدرا وهو أول في درجة نزول الأنوار من جلال الله، ومنه تتشعب إلى أرواح سائر الملائكة والبشر في آخر درجات منازل الأرواح. وبين الطرفين معارج مراتب أرواح الملائكة ومدارج منازل الأنوار القدسية ولا يعلم تفصيلها إلا الله. وأما المتكلمون فالجمهور منهم قالوا: إن الروح هو جبريل عليه السلام. ولا استدلال لأهل التشبيه في لفظ المعارج فإنا بينا أنها المراتب. وقوله إليه إلى عرشه أو حكمه أو إلى حيث تهبط أوامره أو إلى مواضع العز والكرامة. والأكثرون على أن قوله في يوم من صلة تعرج أي يحصل العروج في مثل هذا اليوم وهو يوم القيامة. قال الحسن: يعني من موقفهم للحساب إلى حين يقضي بين العباد خمسون ألف سنة من سني الدنيا، ثم بعد ذلك يستقر أهل الجنة في الجنة إلى آخر الآية. والأصح أن هذا الطول إنما يكون للكافر لما

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٣٥٣/٥

روي عن أبي سعيد الخدري أنه قيل لرسوله صلى الله عليه وسلم: ما أطول هذا اليوم؟ فقال: والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة في الدنيا.

ومنهم من قال: إن ذلك الموقف وإن طال فقد يكون سببا لمزيد السرور والراحة للمؤمن. ومنهم من قال: إن هذه المدة على سبيل التقدير لا على سبيل التحقيق. والمعنى أنه لو اشتغل بذلك القضاء والحكومة أعقل الناس وأدهاهم لبقي فيه خمسين ألف سنة. ثم إنه تعالى يتمم ذلك القضاء والحكومة في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا. وأيضا الملائكة يعرجون إلى مواضع لو أراد واحد من أهل الدنيا أن يصعد إليها لبقي في ذلك الصعود خمسين ألف سنة ثم إنهم يصعدون إليها في ساعة. قاله وهب وجماعة من أهل التفسير. وقال أبو مسلم: إن هذا." (١)

"والتقريع اللوم الشديد وقد مر بيان مأخذه والوعيد من قوله ة ﴿فاتقوا﴾ الخ وكون السورة أقصر سورة مع تنكيرها لأنه أقل ما يصدق عليه، وعجزهم مع تهالكهم أدل دليل على ذلك والمهج جمع مهجة والمراد بها النفس هنا والجلاء بالكسر والمد

ترك الوطن والرحلة عنه. قوله: (والثاني تضمنهما الخ) هذا من قوله: ﴿ولن تفعلوا﴾ النفي ما

في المستقبل حالا وقد تحقق انتفاؤه وهذا وإن كان من الآية الثانية لكن لما كان المراد من

﴿ولن تفعلوا﴾ الإتيان بتلك السورة وهو إنما يتضح بقرينة الأولى نسبه إليهما وقد أعترض! عليه

بان عجز طائفة مخصوصة لا يدل على عجز كل من عداهم في المستقبل فصدق الأخبار إنما يعلم بعد انقراض الأعصار كلها؟ جوابه يعلم مما ذكر. من اشتهارهم بالفصاحة وكونهم فرسان ميدان البلاغة الذين لا يمكن أن يدانيهم أحد في ذلك فإذا عجز مثلهم علم عجز غيرهم قطعا وأما كونه خطاب مشافهة مختصأ بالموجودين ف! ذا انقرضوا علم صدقه فليس بشيء ولما ورد عليه أنه لا يلزم من عدم العلم بشيء عدمه دفعه بقوله فإنهم لو عارضوه إلى آخره. قوله:) سيما والطاعنون فيه الخ) الطعن هو القدح في الشيء بإسناد ما هو معيب إليه بزعمه، والذت بمعنى الدفع ويرد عليه أنه حذف لا من سيما وأتى بالواو بعدها وقد نص النحويون على عدم جوازه وأنه خطأ، وفي شرح التسهيل للدماميني بعد ما ذكر أن سي بمعنى مثل وما زائدة أو موصولة وما بعدها أولى بالحكم وليس بمستثنى خلافا للنحاس والزجاج والفارسي وغيرهم من أهل العربية ووجهه أنه يخرج عما قبله من حيث أولويته بالحكم المتقدم ويقال لا سيما بتخفيف الياء وما يوجد في كلام المصنفين من قولهم لا سيما والأمر كذا تركيب غير عربي، وقال أبو حيان: عا يوجد من كلاع! المولدين من قولهم سيما بحذف لا لا يوجد إلا في كلام من لا يحتج بكلامه وسي منصوب على أنه اسم لا انتهى. (أقول) هذا محصل ما ذكره في باب الاستثناء وما ذكر من الشخطئة سبقه إليه كثير من النحاة لكنه غير مسلم، أما حذف لا فقد حكاه الرضي وقول الدماميني، إني لم أقف عليه لا يسمع مع نقل الثقة وأما وقوع الجملة المقترنة بواو الحال بعدء فقد قال ابن الصائغ ومن خطه نقلت أنهم منعوه وقد وجدت في كلام السخاوي في شرح المفصل ما يقتفي جوازه. قال: إذا وقعت الجملة بعد لا سيما كقولك فلان مستحق لكذا لا سيما وقد فعل كذا فما كافة لسي عن الإضافة كربما يود والجملة في موضع الحال انتهى. وهو في غاية

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٣٥٦/٦

الظهور، وأي مانع من حذف لا مع القرينة الدالة عليها وقد ذكروا وقوع الحال بعدها وجوزوا فيئ ما أن تكون كافة كما صرح به المعترض ومع هذا كيف يكون مثله خطأ ومن هنا علمت أن قوله قدس سره في شرح قول صاحب المواقف لا سيما والهمم قاصرة قوله والهمم! اصرة جملة مؤولة بالظرف نظرا إلى قرب الحال من ظرف الزمان فصح وقوعه! صلة لما، وهذا من قبيل الميل إلى المعنى والإعراض عما يقتضيه اللفظ بظاهره

أي لا مثل انتفائه في زمان قصوروا لهمم انتهى تكلف بارتكاب ما لا يليق بالعربية ولبعض الناس هنا كلام تركه خير من ذكره. قوله: (والثالث أنه عليه الصلاة والسلام ايخ) يعني أنه عليه الصلاة والسلام قد علم من حا له أنه أعقل الناس وأصدقهم لهجة فإذا بالغ في دعواه للمعارضة

من غير مبالاة علم تيقنه لحقية ما عنده وهذا استدلال مبني على ظاهر الحال لا برهان عقلي حتى يقال عليه إن عدم شك المدعي في دعواه لا يصير دليلا على صحة مدعاه لجواز أن يكون جزمه غير مطابق للواقع كما توهم، ونحوه ما قيل إنه إنما يدل على صحة نبوته لو ثبتت عصمته عن الخطأ وهو فرع ثبوت نبوته فإثباته به مصادرة والمصنف رحمه الله تبع الإمام فيه وصاحب الكشاف لم يتعرض له لذلك وؤشدبر، وقوله فتدحض بدال وبحاء مهملة وضاد معجمة مرفوع أو منصوب وهو إما مضارع دحض يدحض كسأل يسأل بصيخة المبني للفاعل أو مضارع أدحض مزيده مبنيا للفاعل أو المفعول، والحجة الداحضة الزائلة يقال أدحضت فلانا في حجته فدحض وأدحضت حجته فدحضت وهو استعارة من دحض الرجل وهو زللها، ثم شاع حتى صار حقيقة فيما ذكر وقوله دل على أن النار مخلوقة معدة الآن كون النار والجنة موجودتين الآن مذكور في كتب الكلام مقرر." (١)

"أي لما آذوه حين عرض نفسه على القبائل بمكة، وهو مشهور فإن كانت في قصة أحد فالآية مدنية كما مرت الإشارة إليه في أول السورة. قوله: (واللام دليلها الأنها لا تدخل بعد النافية، ولذا تسمى الفارقة على ما عرف عند النحاة والشزر بشين وزاي معجمتين ثم راء مهملة نظرا لغضبان بمؤخر عينه وهو معروف وقوله: يزلون قدمك أي يزيلون ثباتها ويرهقونها وهو من أبلغ المعاني وألطفها كقوله:

يتقارضون إذا التقوا في موطن نظرا يزل مواطئ الأقدام

قوله: (عيانون) أي كثيرون في الإصابة بالعين يقال: عانه يعينه إذ نظر إليه فأثر نظره فيه،

وقد قيل: إن قراءة هذه الآية تدفع ضرر العين وقوله وفي الحديث الخ هو حديث صحيح ذكره السيوطي في الجامع الصغير من عدة طرق وقوله: لتدخل الخ عبارة عن إهلاك كل ما أصابته وفي العين وكونها حقا وردت أحاديث كثيرة. قوله: (ولعله يكون من خصائص بعض النفوس الخ) هو لا ينافي مذهب أهل السنة من أن الإصابة بمحض خلق الله كما توهم فإنه لا مانع من خلقها في بعض دون بعض، وجعله مختصا به بمحض خلقه كما خص السم بالعقرب والحية، وفي كتاب الروح تأثير النفس لا ينكر لا سيما عند تجردها من علائق البدن كمن نظر

إلى حجر عظيم فشقه أو إلى نعمة فأزالها وهو مما يشاهد على اختلاف الأعصار، ويضيفونه إلى العين باعتبار أن النفس

---

(١) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي الشهاب الخفاجي ٥٥/٢

تؤثر بواسطتها غالبا وقد لا يكون بواسطة كان يوصف له شيء فتتوجه له نفسه فتفسده انتهى ولا عبرة بإنكار بعض المبتدعة له، وقال بعض أصحاب الطبائع: إنه ينبعث من العين قوة سمية تؤثر فيما نظره كما فصل في شرح مسلم، وقالط القاضي عياض يجتنب من عرف بذلك وينبغي للإمام حبسه ومنعه عن مخالطة الناس كفا لضرره فيرزقه من بيت المال، وقوله: ليرهقونك يحتمل الإهمال والإعجام وقوله: حيرة الخ أي لا جهلا به فإنهم يعلمون أنه أعقل الناس، وقوله: وما هو الخ جملة حالية من فاعل يقولون والرابط الواو فقط أو من عموم العالمين الشامل لهم، وقوله: جننوه أي نسبوه للجنون بواسطة تسليط الجن عليه بزعمهم لأجل نزول القرآن، المعجز عليه لقولهم: إنه كهانة والقاء عليه من الجن وقوله: بين الخ إشارة إلى أنه تكذيب من الله لهم، قوله وعن النبي حديث موضوع. تمت السورة والحمد لله وأفضل صلاة وسلام على أفضل الأنام وآله وصحبه الكرام.

سورة الحاقة

لم يختلف في نزولها وعدد آياتها.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله: (أي الساعة) والقيامة المعروفة لأنها تسمى ساعة فهي اسم جامد، وقوله: أو الحالة التي يحق بكسر الحاء وضمها من باب ضرب وكتب ومعناه يتحقق ويجب فهي صفة لموصوف مقدر، وتفسيرها هنا بيليق لا يليق وكذا معنى قوله: تحق فيها الأمور أي تتحقق بصيغة المعلوم والمجهول من حققته إذا عرفت حقيقته وهو على الأول لازم على الأخير متعد. قوله: (أو يقع فيها حواق الأمور) أي ثوابتها وواجباتها، وقيل أوساطها وهو عطف على قوله تعرف حقيقتها ولم يذكره عقب الأول لاشتراكهما في كون الحاقة من حق الشيء اللازم إذا ثبت ليظهر تعلق قوله: على الإسناد المجازي به أيضا ولا يتوهم اختصاصه بالثاني كما في انكشاف، ولم يلتفت لنقدير المضاف فيه على الثاني أي ذو الحاقة لأنه ليس من تسمية الشيء باسم ملابسه فإنه ذا الحاقة هو الله تعالى وتقليل التأويل أولى، وما قيل من أنه جعل الفعل للساعة مجازا وهو لأهلها على الوجه الأخير وعلى الثاني يحتمل الإسناد المجازي أيضا لأن الثبوت والوجوب لما فيها فالإسناد إلى الزمان مجازي، ويحتمل أن يراد ذو الحاقة بتسمية الشيء باسم ملابسه وهذا أرجح لأن الساعة وما فيها سواء في وجوب الثبوت فتضعف قرينة الإسناد المجازي والتجوز فيه تصوير ومبالغة فقيل: إنه جعله أرجح لأن ظاهر ما ذكره يمنع من الحمل على الإسناد المجازي لأن المساواة الواقعية لا تنافي قصد المبالغة في أحد المتساويين لداع." (١)

"ويقظان: إذا كان فيه معرفة وفطنة اهـ. (من أهلها) أي: الدنيا (هم العباد) وأعلاهم فيها أرباب العرفان با (وأعقل الناس فيها هم الزهاد) قال الدميري في «منظومة رموز الكنوز» :

وأكيس الناس وأعقل الورى

هم الذين زهدوا فيما ترى

(١) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي الشهاب الخفاجي ٢٣٣/٨

إذ نبذوا الدنيا لعلمهم بها

ورغبوا في أختها لقربها

(قال الله تعالى) : مبينا حال الدنيا في زوالها وسرعة تحولها وانتقالها ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به﴾ أي اختلط بسبب المطر ﴿نبات الأرض﴾ واشتبك بعضه في بعض. ومحل ﴿مما يأكل الناس والأنعام﴾ حال من نبات أو صفة له ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها﴾ زينتها وحسنها وظهر الزهري ﴿وازينت﴾ بالزهر والنبات. وقرىء ﴿وأزينت﴾ مخففة «وازيانت» كابياضت ﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ متمكنون من تحصيل ثمارها ﴿أتاها أمرنا﴾ قضاؤنا ﴿ليلا أو نهارا﴾ أي في أحدهما ﴿فجعلناها﴾ أي فجعلنا زرعها ﴿حصيدا﴾ أي محصودا ﴿كأن لم تغن﴾ لم تقم ﴿بالأمس﴾ بالزمان الماضي لا اليوم الذي قبل يومك فقط، وقرىء «يغن» بالتحتية ذكره الكواشي في «التفسير الصغير» ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ .

قال البيضاوي: الآية في الأصل العلامة الظاهرة، وتقال للمصنوعات من حيث إنها تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته، ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها بفصل، واشتقاقها من أي لأنها تبين أيا من أي، أو من أوى إليه وأصلها أية أو أوية كتمرة فأبدلت عينها على غير قياس، أو أيية أو أوية كرمكة." (١)

"قوله: " أي الأعمال أفضل؟ قال: طول القيام " قد مر فيما تقدم أن مثل هذا الجواب على حسب اختلاف الأحوال والأشخاص، فإنه قد يقال خير الأشياء كذا، ولا يراد أنه خير جميع الأشياء من جميع الوجوه "، وفي جميع الأحوال والأشخاص بل في حال دون حال، أو يكون المراد من قوله" طول القيام" يعني: من أفضل الأعمال طول القيام، كما يقال: فلان أعقل الناس وأفضلهم، ويراد انه من أعقلهم ومن أفضلهم. ثم اختلف العلماء في النوافل أيها أفضل؟ طول القيام وإن قل الركوع، والسجود؟ أو الإكثار من الركوع والسجود؟ فقيل: طول القيام أفضل لهذا الحديث، ولما روى مسلم في "صحيحه" من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أفضل الصلاة ، طول القنوت " والمراد به هاهنا القيام، وهو مذهب أبي حنيفة،،- الشافعي أيضا. وقال صاحب " المحيط ": وطول القيام أفضل من طول الركوع والسجود، واستدل بالحديث المذكور، وقيل: الإكثار من الركوع والسجود أفضل، وإن خف ، القيام، لقوله- عليه السلام- لربيعة بن كعب: " فأعني على نفسك بكثرة السجود " الحديث (١) وقد مر الكلام في هذا الباب مستوفى.

***

٣٠٠- باب: صلاة الليل مثنى مثنى

أي: هذا باب في بيان صلاة الليل النافلة ركعتين ركعتين.

١٢٩٦- ص- نا القعنبي، عن مالك، عن نافع، وعبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر، أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الليل؟ فقال رسول الله- عليه السلام-: " صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشي أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة، توتر له ما قد صلى " (٢) .

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ابن علان ٣٦/١

(١) تقدم قبل خمسة أحاديث.

(٢) مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب: صلاة الليل مثنى مثنى (٧٤٩/ ١٤٥) ، النسائي: كتاب قيام الليل، باب: كيف الوتر بواحدة؟ (٣/ ٢٣٣) ، ابن "ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في صلاة الليل ركعتان (١٣٢٠)."
(١)

"وقال تعالى ؟فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل؟ [التوبة: ٣٨] .

وقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: «إن الله يحمي عبده الدنيا، وهو يحميه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب» (١)
.

وعن البراء بن عازب (٢) عن النبي – صلى الله عليه وسلم –: «إن لله خواص يسكنهم الرفيع من الجنان في أعلى عليين كانوا أعقل الناس» قلنا: يا رسول الله كيف كانوا أعقل الناس؟ قال «كان همهم المسابقة إلى الله تعالى والمسارعة إلى ما يرضيه، زهدوا في الدنيا وفي فضولها في رياستها ونعيمها، فهانت عليهم فصبروا قليلا فاسترحوا طويلا» (٣) .

وذكر القرطبي: أن رجلا قال: يا رسول الله أخبرني بجلساء الله يوم القيامة؟ قال: «هم الخائفون الخاضعون المتواضعون الذاكرون الله كثيرا» قال: فهم أول الناس دخولا الجنة؟ قال: «لا» قال: فمن أول الناس يدخلون؟ قال: «الفقراء يسبقون الناس إلى الجنة، فتخرج إليهم الملائكة فيقولون: ارجعوا إلى الحساب فيقولون: على ما نحاسب ما أفيضت علينا من الأموال في الدنيا فنقبض ونبسط، وما كنا أمراء نعدل ونجور، ولكن جاءنا أمر الله فعرفناه حتى أتانا اليقين» (٤) .

وقال النبي – صلى الله عليه وسلم – «اتقوا الله فإنه يقول يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي فتقول الملائكة: من هم يا ربنا فيقول: الفقراء الصابرون الصادقون الراضون بقدري، أدخلوهم الجنة، فيدخلون الجنة، ويأكلون ويشربون، والأغنياء في الحساب يترددون» (٥) .

قال العلامي في تفسيره (٦)

: «إن إبليس يعرض الدنيا على من يريدها كل يوم،

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٢١/٧، رقم ١٠٤٥٠) عن محمود بن لبيد، ولم نقف عليه عند غيره.

(٢) هو: البراء بن عاز ب بن الحارث الخزرجي، أبو عمارة: قائد صحابي من أصحاب الفتوح، أسلم صغيرا وغزا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خمس عشرة غزوة، أولها غزوة الخندق، ولما ولي عثمان الخلافة جعله أميرا على الري بفارس سنة ٢٤هـ، فغزا أبهر غربي قزوين وفتحها، ثم قزوين فملكها، وانتقل إلى زنجان فافتتحها عنوة، وعاش إلى أيام مصعب ابن الزبير فسكن الكوفة واعتزل الأعمال. وتوفي في زمنه سنة: ٧١ هـ، روى له البخاري ومسلم.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٧/١) ، والحارث في مسنده (٨١٤/٢، رقم ٨٤٤) عن البراء.

---

(١) شرح أبي داود للعيني بدر الدين العيني ٢٣١/٥

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٤٣/٨) ، وابن المبارك في كتاب الزهد (٨٠/١، رقم ٢٨٣) عن سعيد بن المسيب مرسلا.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) هكذا بالأصل: «العلامي» ، ويوجد في المصادر أن هناك تفسيرا يسمى بتفسير العلامي وهو مشهور بهذا الاسم إلا أنه من تصنيف القطب الشيرازي، قال في كشف الظنون (١٢٣٥/٢) : فتح المنان في تفسير القرآن وهو كبير في أربعين مجلدا للعلامة قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي المتوفى سنة عشر وسبعمائة وهو المعروف بتفسير العلامي، وانظر أيضا في ذلك أبجد العلوم (١٨٦/٢) .

ولم يترجم له الحافظ السيوطي في طبقات المفسرين (١٩٨/١، ترجمة: ٢٣٩) وإنما ترجم لرجل آخر قال فيه: محمود بن محمد الشيرازي الشهير بابن العلائي، العالم الفاضل العلامة قطب الدين أبو الفضل كان ماهرا في التفسير وصنف: فتح المنان في تفسير القرآن، توفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

فيحتمل أن يكون قد وقع تصحيف في الأصل من ابن العلائي إلى العلامي، ويحتمل أن يكون الشيرازي نفسه مشهورا بهذه النسبة فأطلقوا على تفسيره هذا الاسم، كما في أبجد العلوم وكشف الظنون، ومن الممكن أن يكونا شخص واحد وأخطأت المصادر في سنة الوفاة فالأول توفي سنة ٧١٠، والثاني سنة ٥٨١. والله أعلم.

انظر في ترجمة قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي طبقات الشافعية الكبرى (٣٨٦/١٠، ترجمة: ١٤١٠) ، والدرر الكامنة (١٠٠/٦، ترجمة: ٢٢٧١) .." (١)

"قال البخاري:

حدثنا أحمد بن يونس وموسى بن إسماعيل قالا حدثنا إبراهيم بن سعد قال حدثنا ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سئل أى العمل أفضل فقال: «إيمان بالله ورسوله» . قيل: ثم ماذا قال «الجهاد فى سبيل الله» . قيل: ثم ماذا قال: «حج مبرور» (١) .

قوله: «حدثنا أحمد بن يونس وموسى بن إسماعيل، قال: أنبانا إبراهيم بن سعد قال: حدثنا ابن شهاب عن سعيد بن المسيب» هذا هو إمام التابعين سعيد بن المسيب بن حزن القرشي المخزومي، من الفقهاء وأبيه وجده صحابيان.

والمسيب بفتح الياء على المشهور وقيل: بكسرها، وكان يكره فتح الياء ويحب أن يقال المسيب بكسر الياء، واجتمع بعمر وعثمان وعلي وسعد بن أبي وقاص وسمع منهم الأحاديث، وروى عنهم وعن أبي هريرة، وكان زوجا لابنته وأعلم الناس بحديثه،

---

(١) للحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث فوائد عظيمة منها: قوله: «سئل» أبهم السائل وهو أبو ذر الغفاري.

قوله: «قيل ثم ماذا؟ قال: الجهاد» وقع في مسند الحارث أبي أسامة عن إبراهيم ابن سعد «ثم جهاد» فواخى بين الثلاثة

---

(١) شرح البخاري للسفيري = المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية شمس الدين السفيري ١٣٤/١

في التنكير، بخلاف ما عند المصنف. وقال الكرماني: الإيمان لا يتكرر كالحج، والجهاد قد يتكرر، فالتنوين للإفراد الشخصي، والتعريف للكمال. إذ الجهاد لو أتى به مرة مع الاحتياج إلى التكرار لما كان أفضل. وتعقب عليه بأن التنكير من جملة وجوهه التعظيم، وهو يعطي الكمال. وبأن التعريف من جملة وجوهه العهد، وهو يعطي الإفراد الشخصي، فلا يسلم الفرق.
قلت: وقد ظهر من رواية الحارث التي ذكرتها أن التنكير والتعريف فيه من تصرف الرواة، لأن مخرجه واحد، فالإطالة في طلب الفرق في مثل هذا غير طائلة، والله الموفق.
قوله: «حج مبرور» أي: مقبول ومنه بر حجك. وقيل: المبرور الذى لا يخالطه إثم. وقيل: الذى لا رياء فيه.
فائدة قال النووي: ذكر في هذا الحديث الجهاد بعد الإيمان، وفي حديث أبي ذر لم يذكر الحج وذكر العتق، وفي حديث ابن مسعود بدأ بالصلاة ثم البر ثم الجهاد، وفي الحديث المتقدم ذكر السلامة من اليد واللسان. قال العلماء: اختلاف الأجوبة في ذلك باختلاف الأحوال، واحتياج المخاطبين، وذكر ما لم يعلمه السائل والسامعون وترك ما علموه، ويمكن أن يقال: إن لفظة «من» مرادة كما يقال: فلان أعقل الناس، والمراد من أعقلهم، ومنه حديث: «خيركم خيركم لأهله» ومن المعلوم أنه لا يصير بذلك خير الناس.
فإن قيل: لم قدم الجهاد وليس بركن على الحج وهو ركن؟ فالجواب: إن نفع الحج قاصر غالبا، ونفع الجهاد متعد غالبا، أو كان ذلك حيث كان الجهاد فرض عين -ووقوعه فرض عين إذ ذاك متكرر- فكان أهم منه فقدم والله أعلم. انظر فتح الباري (١/٧٨) .." (١)

"الفصل الثالث

٢٦٤٤ - عن سلمة بن الأكوع، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((من ضحى منكم، فلا يصبحن بعد ثالثة وفي بيته منه شيء)). فلما كان العام المقبل قالوا: يارسول الله! نفعل كما فعلنا العام الماضي؟ قال: ((كلوا، وأطعموا، وادخروا؛ فإن ذلك العام كان بالناس جهد، فأردت أن تعينوا فيهم)) متفق عليه.

بينهما؟ قلنا: إنا قد وجدنا في الحديث الصحيح ما قد دل علي أن الأيام العشر أفضل الأيام؛ لأنها أحب الأيام إلي الله، فيكون معنى قوله: ((أفضل الأيام يوم النحر)) أي من أفضل الأيام. كما يقال: فلان أعقل الناس وأعلمهم أي من أعقل الناس وأعلمهم. قوله: ((يوم القر)) ((نه)): هو الغد من يوم النحر؛ لأن الناس يقرون فيه بمنى، أي يسكنون ويقيمون. ((حس)): سمي به لأن أهل الموسم يوم التروية وعرفة والنحر في تعب من الحج؛ فإذا كان الغد من يوم النحر قروا بمنى. ((قال ثور)) هو أحد من الرواة. قوله: ((يزدلفن)) أي يقربن منه يفتعلن من القرب، فأبدلت التاء دالا لأجل الزاي. ((مظ)): أي تسعى كل واحدة من تلك البدن إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، لينحرها قيل: استلذاذا واعتدادا ببركة يد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قوله: ((بأيتهن يبدأ)) الباء في ((بأيتهن)) صلة ((يبدأ)) والاستفهام متأول بجوابه أي تتوخى كل واحدة قربه لي الله عليه وسلم وأنه بأشرفها وأكملها أو بأتوقها إلي إزهاق نفسها، وأنزعها إلي الفداء يبدأ،

---

(١) شرح البخاري للسفيري = المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية شمس الدين السفيري ٢/٢٥

والجملة حال مؤكدة من ((يزدلفن)) أي يزدلفن متقربات به. قوله: ((فلما وجبت)) ((تو)): الوجوب السقوط، من وجب الحائط إذا سقط، ووجبت الشمس وجبة، إذا غربت، وهو مقتبس من قوله تعالي:﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾وفيه من البلاغة ما لا يخفي، وذلك أنه تعالي ذكر البدن وعظم شأنها، ثم أشار بمقتضى اللفظ إلي أنها تنحر قياما، فإن وجوب الجنوب منها إنما يتصور إذا كانت قائمة، وتلك السنة فيها.

قوله: ((فتكلم)) عطف علي ((وجبت))، و" قال "كلام الراوي. وقوله: ((فقلت: ما قال)) أي قال الراوي: سألت الذي يليه: ما قال؟ فقال صلى الله عليه وسلم: ((من شاء اقتطع)) أي هدى المهدي – للمحتاجين، ((ومن شاء اقتطع)) ((حس)): فيه دليل علي جواز هبة المشاع؛ وعلي جواز أخذ النثار في عقد الأملاك؛ وأنه ليس من النهب الذي نهي عنه. وكرهه بعض العلماء خوفا من أن يدخل فيما نهي عنه من النهبى.

الفصل الثالث

الحديث الأول عن سلمة: قوله: ((جهد)) ((نه)): بالضم الوسع والطاقة، وبالفتح المشقة، وقيل: المبالغة والغاية، وقيل: هما لغتان في الوسع والطاقة؛ فأما في المشقة والغاية فالفتح لا غير. قوله: ((أن تعينوا فيهم)) أي تعينوهم؛ فجعل المتعدي منزلة اللازم، وعداه بقي مبالغة، أي أردت أن توقعوا الإعانة فيهم، وتجعلوهم مكانا لها لشدة احتياجهم وافتقارهم، نحو قوله." (١)

"٦٠٩٥ – وعن علي [رضي الله عنه]، قال: كنت إذا سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني وإذا سكت ابتدأني. رواه الترمذي، وقال: هذا حديث ((حسن غريب)) [٦٠٩٥].

٩٠٦٩ – وعنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أنا دار الحكمة، وعلي بابها)) رواه الترمذي، وقال: هذا حديث غريب، وقال: روى بعضهم هذا الحديث عن شريك ولم يذكروا فيه عن الصنابحي، ولا نعرف هذا الحديث عن أحد من الثقات غير شريك [٦٠٩٦].

إجماع [الصحابة] لمكان سنده، فإن فيه لأهل النقل مقالا، ولا يجوز حمل أمثاله على ما يخالف الإجماع، لاسيما الصحابي الذي يرويه منم ذخل في هذا الإجماع واستقام عليه مدة عمره، ولم ينقل عنه خلافه، فلو ثبت عنه هذا الحديث؛ فالسبيل أن يؤول على وجه لا ينتقض عليه ما اعتقده، ولا يخالف ما هو أصح منه متنا وإسنادا، وهو أن يقال: يحمل قوله: بأحب خلقك علي، أن المراد منه ائتني بمن هو من أحب خلقك إليك، فيشاركه فيه غيره، وهم المفضلون بإجماع الأمة، وهذا مثل قولهم: لأن أعقل الناس وأفضلهم أي: من أعقلهم وأفضلهم، ومما يبن لك أن حمله على العموم غير جائز هو أن النبي صلى الله عليه وسلم من جملة خلق الله، ولا جائز أن يكون علي أحب إلى الله منه، فإن قيل: ذلك شيء عرف بأصل الشرع؛ قلن: والذي نحن فيه عرف أيضا بالنصوص الصحيحة وإجماع الأمة، فيؤول هذا الحديث على الوجه الذي ذكرناه، أو على أنه أراد به أحب خلقه إليه من بني عم وذويه، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يطلق القول، وهو يريد تقييده، ويعم به،

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن الطيبي ٦/٢٠٠٧

وهو يريد تخصيصه، فيعرفه ذوو الفهم بالنظر إلى الحال أو الوقت أو الأمر الذي هو فيه.

أقول: والوجه الذي يقتضيه المقام هو الوجه الثاني، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يكره أن يأكل وحده، لأنه ليس من سمت أهل المروءات، فطلب من الله تعالى أن (يوتي) زيادة من ((النهاية)) لابن الأثير وقد سقطت من (ك). له من يؤاكله، وكان ذلك برا وإحسانا منه إليه، وأبر المبرات بذوي الرحم وصلته، كأنه قال: بأحب خلقك إليك من ذوي القرابة والقريبة، ومن هو أولى بإحساني وبري إليه.

الحديث السادس والسابع عن علي رضي الله عنه: قوله: ((وعلي بابها)) لعل الشيعة أرادوا بهذا." (١)

"في باب صلاة الوتر وقال اسمه واقد ولقبه وقدان ولهم أيضا أبو يعفور ثالث اسمه عبد الكريم بن يعفور الجعفي البصري يروي عنه قتيبة ويحيى بن يحيى وغيرهما وآباء يعفور هؤلاء الثلاثة ثقات وأما الوليد بن العيزار فبالعين المهملة المفتوحة وبالزاي قبل الألف والراء بعدها وأما قوله أخبرنا معمر عن الزهري عن حبيب مولى عروة بن الزبير عن عروة بن الزبير عن أبي مراوح عن أبي ذر ففيه لطيفة من لطائف الإسناد وهو أنه اجتمع فيه أربعة تابعيون يروي بعضهم عن بعض وهو الزهري وحبيب وعروة وأبو مراوح فأما الزهري وعروة وأبو مراوح فتابعيون معروفون وأما حبيب مولى عروة فقد روى عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قال محمد بن سعد مات حبيب مولى عروة هذا قديما في آخر سلطان بني أمية فروايته عن أسماء مع هذا ظاهرها أنه أدركها وأدرك غيرها من الصحابة فيكون تابعيا والله أعلم أما معاني الأحاديث وفقهها فقد يستشكل الجمع بينها مع ما جاء في معناها من حيث إنه جعل في حديث أبي هريرة أن الافضل الايمان بالله ثم الجهاد ثم الحج وفي حديث أبي ذر الإيمان والجهاد وفى حديث بن مسعود الصلاة ثم بر الوالدين ثم الجهاد وتقدم في حديث عبد الله بن عمرو أي الإسلام خير قال تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف وفي حديث أبي موسى وعبد الله بن عمرو أي المسلمين خير قال من سلم المسلمون من لسانه ويده وصح في حديث عثمان خيركم من تعلم القرآن وعلمه وأمثال هذا في الصحيح كثيرة واختلف العلماء في الجمع بينها فذكر الإمام الجليل أبو عبد الله الحليمي الشافعي عن شيخه الإمام العلامة المتقن أبي بكر القفال الشاشي الكبير وهو غير القفال الصغير المروزي المذكور في كتب متأخري أصحابنا الخراسانيين قال الحليمي وكان القفال أعلم من لقيته من علماء عصره أنه جمع بينها بوجهين أحدهما أن ذلك اختلاف جواب جرى على حسب اختلاف الأحوال والأشخاص فإنه قد يقال خير الأشياء كذا ولا يراد به خير جميع الأشياء من جميع الوجوه وفي جميع الأحوال والأشخاص بل في حال دون حال أو نحو ذلك واستشهد فى ذلك بأخبار منها عن بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حجة لمن لم يحج أفضل من أربعين غزوة وغزوة لمن حج أفضل من أربعين حجة الوجه الثاني أنه يجوز أن يكون المراد من أفضل الأعمال كذا أو من خيرها أو من خيركم من فعل كذا فحذفت من وهي مرادة كما يقال فلان أعقل الناس." (٢)

---

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن الطيبي ٣٨٨٦/١٢

(٢) شرح النووي على مسلم النووي ٧٧/٢

"فلهذا كان الأيقاظ من أهلها هم العباد، وأعقل الناس فيها هم الزهاد؛ قال الله تعالي: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) (يونس: ٢٤) والآيات في هذا المعني كثيرة.

إن لله عبادا فطنا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحي وطنا

جعلوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا

فإذا كان حالها ما وصفته، وحالنا ما خلقنا له، ما قدمته؛ فحق على المكلف أن يذهب بنفه مذهب الأخيار، ويسلك مسلك أولى النهي والأبصار، ويتأهب لما اشر ت إليه، ويهتم بما نبهت عليه.

وأصوب طريق له في ذلك، وأرشد ما يسلكه السالكين: التأدب بما صح عن نبينا سيد الأولين والآخرين، وأكرم السابقين اللاحقين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين، وقد فال الله تعالي:) وتعاونوا على البر والتقوى) (المائدة: من الآية٢) وقد صح عن رسول الله صلي الله عليه وسلم أنه قال: ((والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه وأنه قال: ((من." (١)

"وعن الشافعي: العلم ما نفع، ليس العلم ما حفظ.

وعنه: اللبيب العاقل هو الفطن المتغافل.

وعنه: لو أعلم أن الماء البارد ينقص مروءتي ما شربته.

وقيل له: ما لك تكثر من إمساك العصا ولست بضعيف؟ قال: لأذكر أني مسافر.

وقال: من لزم الشهوات لزمته عبودية أبناء الدنيا.

وقال: الخير في خمسة: غنى النفس، وكف الأذى، وكسب الحلال، والتقوى، والثقة بالله.

وعنه: أنفع الذخائر التقوى وأضرها العدوان.

وعنه: اجتناب المعاصي وترك ما لا يعنيك ينور القلب عليك بالخلوة، إياك ومخالطة السفهاء ومن لا ينصفك، إذا تكلمت فيما لا يعنيك ملكتك الكلمة ولم تملكها.

وعنه: لو أوصى رجل بشيء لأعقل الناس صرف إلى الزهاد.

وعنه: سياسة الناس أشد من سياسة الدواب.

وعنه: العاقل من عقله عقله عن كل مذموم.

---

(١) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٨/١

وعنه: للمروءة أركان أربعة حسن الخلق والسخاء والتواضع والنسك.

وعنه: لا يكمل الرجل إلا بأربع: بالديانة والأمانة والصيانة والرزانة.

وعنه: ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته.

وعنه: علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقا.

وعنه: من نم لك نم عليك.

وعنه قال: التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم اللئام، التواضع يورث المحبة والقناعة تورث الراحة.." (١)

"كون العهد من وجوهه، على أنا، وإن سلمنا ما قاله، ولكنا لا نسلم كونه للعهد ههنا، لان تعريف الإسم تارة يكون لواحد من أفراد الحقيقة الجنسية باعتبار عهديته في الذهن، لكونه فردا من أفرادها، وتارة يكون لاستغراق جميع الأفراد، ولا يفرق بينهما إلا بالقرينة على أنا نقول: إن المعهود الذهني في المعنى كالنكرة، نحو: رجل فإن السوق، في قولك: ادخل السوق، يحتمل كل فرد فرد من أفراد السوق على البدل، كما أن: رجلا، يحتمل كل فرد فرد من ذكور بني آدم على البدل، ولهذا يقدر، يسبني، في قول الشاعر:

(ولقد أمر على اللئيم يسبني ... فمضيت ثمت، قلت: لا يعنيني)

وصفا للئيم لا حالا، لوجوب كون ذي الحال معروفة، واللئيم كالنكرة، فافهم. فان قلت: قد وقع في (مسند الحارث بن أبي اسامة) عن ابراهيم بن سعد: ثم جهاد، بالتنكير، كما وقع: إيمان وحج. قلت: يكون التنكير في الجهاد على هذه الرواية للإفراد الشخصي، كما في الإيمان والحج، مع قطع النظر عن تكرره عند الاحتياج، أو يكون التنوين في الثلاثة إشارة إلى التعظيم، وبهذا يرد على من يقول: إن التنكير والتعريف فيه من تصرف الرواة، لأن مخرجه واحد، فالإطالة في طلب الفرق في مثل هذا غير طائلة، ولقد صدق القائل: انباض عن غير توتير.

بيان استنباط الفوائد منها: الدلالة على نيل الدرجات بالأعمال. ومنها: الدلالة على أن الإيمان قول وعمل. ومنها: الدلالة على أن الأفضل بعد الإيمان الجهاد، وبعده الحج المبرور. فان قلت: في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: (أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها) ثم ذكر بر الوالدين، ثم الجهاد. وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: (أي الاسلام خير؟ قال: تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف) . وفي حديث ابي موسى، رضي الله عنه: (أي الإسلام افضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده) . وفي حديث ابي ذر، رضي الله عنه: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أي العمل أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيله. قلت: فأي الرقاب افضل؟ قال: أغلاها ثمنا وأنفسها عند أهلها) الحديث ولم يذكر فيه الحج، وكلها في الصحيح. قلت: قد ذكر الإمام الحسين بن الحسن بن محمد بن حكيم الحليمي الشافعي، عن القفال الكبير الشافعي الشاشي، واسمه ابو بكر محمد بن علي، في كيفية الجمع وجهين: أحدهما: أنه جرى على اختلاف الأحوال والأشخاص، كما روي أنه، عليه السلام، قال: حجة لمن يحج افضل من أربعين غزوة، وغزوة لمن

---

(١) شرح مسند الشافعي الرافعي، عبد الكريم ٢٠/١

حج أفضل من أربعين حجة، والآخر أن لفظة: من، مرادة، والمراد من أفضل الأعمال، كذا. كما يقال: فلان أعقل الناس، أي من أعقلهم، ومنه قوله: عليه السلام: (خيركم خيركم لأهله) . ومعلوم انه لا يصير بذلك خير الناس. قلت: وبالجواب الأول أجاب القاضي عياض، فقال: أعلم كل قوم بما لهم إليه حاجة، وترك ما لم تدعهم إليه حاجة، أو ترك ما تقدم علم السائل إليه أو علمه بما لم يكمله من دعائم الإسلام ولا بلغه عمله، وقد يكون للمتأهل للجهاد الجهاد في حقه أولى من الصلاة وغيرها، وقد يكون له أبوان لو تركهما لضاعا، فيكون برهما أفضل، لقوله، عليه السلام: (ففيهما فجاهد) وقد يكون الجهاد أفضل من سائر الأعمال عند استيلاء الكفار على بلاد المسلمين. قلت: الحاصل أن اختلاف الأجوبة، في هذه الأحاديث لاختلاف الأحوال، ولهذا سقط ذكر الصلاة والزكاة والصيام في هذا الحديث المذكور في هذا الباب، ولا شك أن الثلاث مقدمات على الحج والجهاد، ويقال: إنه قد يقال: خير الأشياء كذا، ولا يراد أنه خير من جميع الوجوه في جميع الأحوال والاشخاص، بل في حال دون حال، فإن قيل: كيف قدم الجهاد على الحج، مع أن الحج من أركان الاسلام، والجهاد فرض كفاية؟ يقال: إنما قدمه للاحتياج إليه أول الإسلام، ومحاربة الأعداء، ويقال: إن الجهاد قد يتعين كسائر فروض الكفاية، وإذا لم يتعين لم يقع الا فرض كفاية، وأما الحج فالواجب منه حجة واحدة، وما زاد نفل فإن قابلت واجب الحج بمتعين الجهاد، كان الجهاد أفضل لهذا الحديث، ولأنه شارك الحج في الفرضية، وزاد بكونه نفعا متعديا إلى سائر الأمة، وبكونه ذبا عن بيضة الإسلام. وقد قيل: ثم، ههنا للترتيب في الذكر كقوله تعالى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ (البلد: ١٧) وقيل: ثم لا يقتضي ترتيبا، فإن قابلت نفل الحج بغير متعين الجهاد، كان الجهاد أفضل لما أنه يقع فرض كفاية، وهو أفضل من النفل بلا شك؛ وقال إمام الحرمين في كتاب (الغياثى) : فرض الكفاية عندي أفضل من فرض العين من حيث أن فعله مسقط للحرج عن الأمة بأسرها، وبتركه يعصى المتمكنون منه كلهم، ولا شك في عظم وقع ما هذه صفته، والله اعلم.." (١)

"٩ - (باب في التشديد في الدين)

[٣٣٤١] (ها هنا أحد) وفي رواية النسائي قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة فقال أها ها هنا من بني فلان أحد ثلاثا (إني لم أنوه بكم) بصيغة المضارع المتكلم من نوهته تنويها إذا رفعته والمعنى لا أرفع لكم ولا أذكر لكم إلا خيرا كذا في فتح الودود

وقال في القاموس نوهه وبه دعاه ورفعه انتهى

(مأسور) أي محبوس وممنوع عن دخوله الجنة

قاله في فتح الودود (فلقد رأيته) أي الرجل من بني فلان وهذه مقولة سمرة (أدى) أي ذلك الرجل (عنه) أي عن المأسور بدينه

قال المنذري وأخرجه النسائي وذكر أنه روى عن الشعبي مرسلا وذكر البخاري في التاريخ الكبير وقال لا يعلم لسمعان سماع عن سمرة

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري بدر الدين العيني ١/١٨٩

ولا للشعبي من سمعان (قال أبو داود سمعان بن مشنج) بمعجمة ونون ثقيلة ثم جيم على وزن معظم

قال في تهذيب التهذيب وروى عنه عامر الشعبي ولم يرو عنه غيره

قال البخاري ولا نعلم لسمعان سماعا من سمرة ولا للشعبي من سمعان وثقه بن حبان وأبو نصر بن ماكولا وقال ليس له غير حديث واحد انتهى

[٣٣٤٢] (إن أعظم الذنوب عند الله) قال العلقمي أي من أعظمها فحذف من وهي مرادة كما يقال أعقل الناس ويراد أنه من أعقلهم (أن يلقاه) خبر إن

قال المناوي أي أن يلقى الله متلبسا بها مصرا عليها وهو إما ظرف أو حال انتهى

أي في حال لقيه بها (بها) أي بأعظم الذنوب." (١)

"لا رياء فيه فائدة قال النووي ذكر في هذا الحديث الجهاد بعد الإيمان وفي حديث أبي ذر لم يذكر الحج وذكر العتق وفي حديث بن مسعود بدأ بالصلاة ثم البر ثم الجهاد وفي الحديث المتقدم ذكر السلامة من اليد واللسان قال العلماء اختلاف الأجوبة في ذلك باختلاف الأحوال واحتياج المخاطبين وذكر ما لم يعلمه السائل والسامعون وترك ما علموه ويمكن أن يقال إن لفظة من مرادة كما يقال فلان أعقل الناس والمراد من أعقلهم ومنه حديث خيركم خيركم لأهله ومن المعلوم أنه لا يصير بذلك خير الناس فإن قيل لم قدم الجهاد وليس بركن على الحج وهو ركن فالجواب أن نفع الحج قاصر غالبا ونفع الجهاد متعد غالبا أو كان ذلك حيث كان الجهاد فرض عين ووقوعه فرض عين إذ ذاك متكرر فكان أهم منه فقدم والله أعلم! !

(قوله باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة)

حذف جواب قوله إذا للعلم به كأنه يقول إذا كان الإسلام كذلك لم ينتفع به في الآخرة ومحصل ما ذكره واستدل به أن الإسلام يطلق ويراد به الحقيقة الشرعية وهو الذي يرادف الإيمان وينفع عند الله وعليه قوله تعالى إن الدين عند الله الإسلام وقوله تعالى فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ويطلق ويراد به الحقيقة اللغوية وهو مجرد الانقياد والاستسلام فالحقيقة في كلام المصنف هنا هي الشرعية ومناسبة الحديث للترجمة ظاهرة من حيث إن المسلم يطلق على من أظهر الإسلام وإن لم يعلم باطنه فلا يكون مؤمنا لأنه ممن لم تصدق عليه الحقيقة الشرعية وأما اللغوية فحاصلة

[٢٧] قوله عن سعد هو بن أبي وقاص كما صرح به الإسماعيلي في روايته وهو والد عامر الراوي عنه كما وقع في الزكاة عند المصنف من رواية صالح بن كيسان قال فيها عن عامر بن سعد عن أبيه واسم أبي وقاص مالك وسيأتي تمام نسبه في مناقب سعد إن شاء الله تعالى قوله أعطى رهطا الرهط عدد من الرجال من ثلاثة إلى عشرة قال القزاز وربما جاوزوا ذلك

---

(١) عون المعبود وحاشية ابن القيم العظيم آبادي، شرف الحق ١٣٧/٩

قليلا ولا واحد له من لفظه ورهط الرجل بنو أبيه الأدنى وقيل قبيلته وللإسماعيلي من طريق بن أبي ذئب أنه جاءه رهط فسألوه فأعطاهم فترك رجلا منهم قوله وسعد جالس فيه تجريد وقوله أعجبهم إلي فيه التفات." (١)

"صلى الله عليه وسلم فالمعنى: أنه ذو قوة على تبليغ الرسالة إلى الأمة «مطاع» يطيعه من أطاع الله «أمين» على الوحي وما صاحبكم بمجنون الخطاب لأهل مكة، والمراد بصاحبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمعنى: وما محمد يا أهل مكة بمجنون، وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون وغيره في شيء، وأنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم، وهذه الجملة داخلة في جواب القسم، فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس كما يقولون من أنه مجنون، وأنه يأتي بالقرآن من جهة نفسه ولقد رآه بالأفق المبين اللام واقعة جواب قسم محذوف، أي: وتالله لقد رأى محمد جبريل بالأفق المبين، أي: بمطلع الشمس من قبل المشرق لأن هذا الأفق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو مبين لأن من جهته ترى الأشياء. وقيل: بالأفق المبين: أقطار السماء ونواحيها، ومنه قول الشاعر:

أخذنا بآفاق السماء عليكم ... لنا قمراها والنجوم الطوالع

وإنما قال سبحانه: ولقد رآه بالأفق المبين مع أنه قد رآه غير مرة لأنه رآه هذه المرة في صورته له ستمائة جناح، قال سفيان: إنه رآه في أفق السماء الشرقي. وقال ابن بحر: في أفق السماء الغربي. وقال مجاهد: رآه نحو أجياد، وهو مشرق مكة، و «المبين» صفة للأفق، قاله الربيع. وقيل: صفة لمن رآه قاله مجاهد، وقيل: معنى الآية: ولقد رأى محمد ربه عز وجل، وقد تقدم القول في هذا في سورة النجم وما هو أي: محمد صلى الله عليه وسلم على الغيب يعني خبر السماء وما اطلع عليه مما كان غائبا علمه عن أهل مكة بضنين بمتهم، أي: هو ثقة فيما يؤدي عن الله سبحانه. وقيل: «بضنين» : ببخيل، أي: لا يبخل بالوحي، ولا يقصر في التبليغ، وسبب هذا الاختلاف اختلاف القراء فقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي «بظنين» بالظاء المشالة، أي: بمتهم، والظنة: التهمة، واختار هذه القراءة أبو عبيد قال: لأنهم لم يبخلوه ولكن كذبوه. وقرأ الباقون بضنين بالضاد، أي: ببخل، من ضننت بالشيء أضن ضنا إذا بخلت. قال مجاهد: أي لا يضن عليكم بما يعلم بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه. وقيل: المراد جبريل إنه ليس على الغيب بضنين، والأول أولى وما هو بقول شيطان رجيم أي: وما القرآن بقول شيطان من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب. قال الكلبي: يقول إن القرآن ليس بشعر ولا كهانة كما قالت قريش. قال عطاء:

يريد بالشيطان: الشيطان الأبيض الذي كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة جبريل يريد أن يفتنه. ثم بكتهم سبحانه ووبخهم فقال: فأين تذهبون أي: أين تعدلون عن هذا القرآن وعن طاعته، كذا قاله قتادة. وقال الزجاج: معناه أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم، يقال: أين تذهب؟ وإلى أين تذهب؟ وحكى الفراء عن العرب: ذهبت الشام، وخرجت العراق، وانطلقت السوق، أي: إليها. قال:

---

(١) فتح الباري لابن حجر ابن حجر العسقلاني ١/٧٩

سمعناه في هذه الأحرف الثلاثة، وأنشد لبعض بني عقيل:

تصيح بنا حنيفة إذ رأتنا- وأي الأرض تذهب بالصياح." (١)

"١١٧٩ - (أعظم الأيام) أي أعظمها (عند الله يوم النحر) لأنه يوم الحج الأكبر وفيه معظم أعمال النسك (ثم يوم القر) ثاني يوم النحر لأنهم يقرون فيه أي يقيمون ويستحمون مما تعبوا في الأيام الثلاثة ذكره الزمخشري. وقال البغوي: سمي به لأن أهل الموسم يوم التروية وعرفة والنحر في تعب من الحج فكان الغد من النحر قرأ اه. وفضلهما لذاتهما أو فيما يخصهما من وظائف العبادة والجمهور على أن يوم عرفة أفضل ثم النحر فمعنى قوله أفضل أي من أفضل كما يقال فلان أعقل الناس أي وأعلمهم

(حم د ك) في الأضاحي (عن عبد الله بن قرط) بضم القاف الأزدي الثمامي بضم المثلثة وخفة الميم كان اسمه شيطانا فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله شهد اليرموك وغيره واستعمله معاوية على حمص قال الحاكم صحيح وأقره الذهبي." (٢)

"٢٢٠٦ - (إن أعظم الذنوب) أي من أعظمها على وزان قولهم فلان أعقل الناس أي من أعقلهم (عند الله أن يلقاه بها عبد) أي أن يلقى الله بها ملتبسا (بعد الكبائر التي نهى الله عنها) في القرآن والسنة (أن يموت الرجل وعليه دين) جملة حالية (لا يدع) أي لا يترك (له قضاء) (١) قال الطيبي: قوله أن يلقاه خبر وأن يموت بدل منه لأنك إذا -[٤٢٦]- قلت إن أعظم الذنوب عند الله موت الرجل وعليه دين استقام ولأن لقاء العبد ربه إنما هو بعد الموت ورجل مظهر أقيم مقام العبد أو لاستبعاد ملاقاته مالكه بهذا الشين ثم إعادته بلفظ رجل وتنكيره تحقيرا وتوهينا له وإنما جعله هنا دون الكبائر لأن الاستدانة لغير معصية غير معصية والقائم بعدم وفائه بسبب عارض من تضييع حق الآدميين وأما الكبائر فمنهية لذاتها

(حم د) في البيوع (عن أبي موسى) الأشعري ولم يضعفه فهو صالح وسنده جيد

---

(١) وهذا محمول على ما إذا قصر في الوفاء أو استدان لمعصية." (٣)

"٣٩٩٠ - (خياركم خيركم لأهله) أي حلائله وبنيه وأقاربه يعني هو من خياركم كما يقال خير الأشياء كذا ولا يراد تفضيله في نفسه على جميع الأشياء لكن على أنه خيرها في حال دون حال ولو واحد دون آخر كما قد يتضرر واحد بكلام في غير محله فيقول ما شيء أفضل من السكوت إلى حيث لا يحتاج إلى الكلام ثم قد يتضرر بالسكوت مرة فيقول ما شيء أفضل من الكلام ويقال فلان أعقل الناس وأفضلهم ويراد من أعقلهم ذكره الحليمي

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٥/٤٧٤

(٢) فيض القدير المناوي ٢/٣

(٣) فيض القدير المناوي ٢/٤٢٥

(طب عن أبي كبشة) الأنماري سعيد بن عمر أو عمر بن سعيد أو عامر بن سعد صحابي نزل الشام وروى عن أبي بكر." (١)

"٤١٠٢ - (خيركم) يعني من خياركم وأفاضلكم من كان معظم بره لأهله كما يقال فلان أعقل الناس أي من أعقلهم فلا يصير بذلك خير الناس مطلقا والأهل قد يخص الزوجة وأولادها وقد يطلق على جملة الأقارب فهم أولى من الأجانب (خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي) أي برا ونفعا لهم دينا ودنيا أي فتابعوني ما آمركم بشيء إلا وأنا أفعله (ما أكرم النساء إلا كريم وما) وفي نسخة ولا (أهانهن إلا لئيم) ومن ثم كان يعتني بهن ويهتم بتفقد أحوالهن فكان إذا صلى العصر دار على نسائه فدنا منهن واستقرأ أحوالهن فإذا جاء الليل انقلب إلى صاحبه النوبة وكان إذا شربت عائشة من الإناء أخذه فوضع فمه على موضع فمها وشرب وإذا تعرقت عرقا وهو العظم الذي عليه اللحم أخذه فوضع فمه على موضع فمها رواه مسلم ولما أراد أن يحمل صفية بنت حيي على بعير نصب لها فخذه لتضع رجلها عليه فلوت ساقها عليه وفي تذكرة ابن عراق عن الإمام مالك يجب على الرجل أن يتجنب إلى أهل داره حتى يكون أحب الناس إليهم وذكر نحوه يوسف الصدفي المالكي

(ابن عساكر) في التاريخ (عن علي) أمير المؤمنين." (٢)

"..

على الجميع. وإذا كان هكذا فالجهاد أولى بالتحريض والتقديم من الحج لأنه يكون حينئذ فرض عين ووقوعه فرض عين إذ ذاك متكرر فكان أهم منه. وقيل: قدم لأن نفع الجهاد متعد لما فيه من المصلحة العامة للمسلمين مع بذل النفس فيه بخلاف الحج فيهما، لأن نفعه قاصر ولا يكون فيه بذل النفس. وقيل ((ثم)) ها هنا للترتيب في الذكر كقوله تعالى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ (٩٠: ١٧) فإنه من المعلوم أنه ليس المراد ها هنا الترتيب في الفعل وفي الحديث دليل على أن الإيمان بالله ورسوله أفضل من الجهاد والجهاد أفضل من الحج، وقد اختلفت الأحاديث المشتملة على بيان فاضل الأعمال من مفضولها فتارة تجعل الأفضل الإيمان كما في الحديث الذي نحن في شرحه، وتارة الصلاة لوقتها كما في حديث ابن مسعود، وتارة إطعام الطعام وقراءة السلام كما في حديث ابن عمرو، وتارة السلامة من اليد واللسان كما في حديث أبي موسى، وتارة الجهاد كما في حديث أبي سعيد، وتارة ذكر الله كما في حديث أبي الرداء، وتارة غير ذلك، واستشكلت للمعارضة الظاهرة، أي تباين الأجوبة واختلافها مع اتحاد السؤال. وأجيب بأنه - صلى الله عليه وسلم - سئل عن المفاضلة في الأعمال عدة مرات وكان يجيب على ذلك بما يناسب المقام والوقت ويصلح لحال السائل والمخاطب، فإن لكل إنسان عملا يصلح له ولا ينجح إلا به فينبغي توقيفه على ما خفى عليه وتوجيهه إليه، وكذلك الوقت يختلف، فوقت تكون الصدقة أفضل من غيرها كوقت المجاعات والحاجة، وتارة يكون الجهاد أفضل من غيره كوقت الزحف الملجئ والنفير العام،

---

(١) فيض القدير المناوي ٣/٤٦٦

(٢) فيض القدير المناوي ٣/٤٩٦

وتارة يكون طلب العلم الشرعي أنفع للحاجة إليه والانصراف عنه، وكذلك وظائف اليوم والليلة، فساعة يكون الاستغفار والتوبة والدعاء أولى من القراءة، وساعة أخرى تكون الصلاة وهكذا. وقال الشاه ولي الله الدهلوي في حجة الله (ج٢: ص٤٣) : الفضل يختلف باختلاف الاعتبار والمقصود هنا، أي في حديث أبي هريرة الذي نحن في شرحه بيان الفضل باعتبار تنويه دين الله وظهور شعار الله، وليس بهذا الاعتبار بعد الإيمان كالجهاد والحج - انتهى. وقال القفال الشافعي الكبير: إن ذلك اختلاف جواب جرى على حسب اختلاف الأحوال والأشخاص فإنه قد يقال ((خير الأشياء كذا)) ولا يراد به خير جميع الأشياء من جميع الوجوه والحيثيات والاعتبارات وفي جميع الأحوال والأوقات ولجميع الأشخاص والأفراد بل في حال دون حال ولواحد دون واحد ومن وجه دون وجه وفي وقت دون وقت، قال: ويجوز أن يكون المراد من أفضل الأعمال كذا أو من خيرها أو من خيركم من فعل كذا فحذفت من وهي مرادة كما يقال فلان أعقل الناس وأفضلهم ويراد أنه من أعقلهم وأفضلهم. ومن ذلك قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: خيركم خيركم لأهله، ومعلوم أنه لا يصير بذلك خير الناس مطلقا. قال النووي: وعلى هذا الجواب يكون الإيمان أفضلها مطلقا، والباقيات متساويات في كونها من أفضل الأعمال والأحوال، ويعرف فضل بعضها على بعض بدلائل تدل عليها وتختلف باختلاف الأحوال والأشخاص انتهى. وقد تقدم شيء من الكلام في هذا في الفصل الثاني من باب الذكر، وإن شئت." (١)

"ونشر علم الحديث، وشاع ذكره، وفضله إلى أن ملأ البقاع، والأسماع. قال محمد بن الحسن في مدح الشافعي: إنه استعار مني كتاب الأوسط لأبي حنيفة، وحفظه في يوم وليلة.

ولما صنف كتاب الرسالة أعجب به أهل عصره، وأجمعوا على استحسانه، وأنه من الخوارق حتى قال المزني: قرأته خمسمائة مرة ما من مرة إلا وقد استفدت منه شيئا لم أكن عرفته، وكان أحمد يدعو له في صلاته لما رأى اهتمامه بنصر السنة. وصنف في العراق كتابه القديم المسمى بالحجة، ثم رحل إلى مصر سنة تسع وتسعين ومائة، وصنف كتبه الجديدة بها، ورجع عن تلك، ومجموعها يبلغ مائة وثلاثة عشر مصنفا، وشاع ذكرها في البلدان، وقصده الناس من الأقطار للأخذ عنه، وكذا أصحابه من بعده لسماع كتبه، حتى اجتمع في يوم على باب الربيع تسعمائة راحلة. وابتكر أصول الفقه، وكتاب القسامة، وكتاب الجزية، وكتاب أهل البغي، وكان حجة في اللغة، والنحو، وأذن له مسلم بن خالد مفتي مكة في الإفتاء بها، وعمره خمس عشرة سنة، وربما أوقد له المصباح في الليلة ثلاثين مرة، ولم يبقه دائم الوقود. قال ابن أخته من أمه: لأن الظلمة أجلى للقلوب. وكان يقول: إذا صح الحديث، فهو مذهبي، واضربوا بقولي الحائط، وانفرد بالإعراض عن التمسك بالحديث الضعيف في غير الفضائل، ومن كلامه الدال على إخلاصه: وددت أن كل ما تعلمه الناس أوجر عليه، ولا يحمدوني قط، ووددت إذا ما ناظرت أحدا أن يظهر الحق على يديه.

ومن حكمه البالغة: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة، ومن أراد الدنيا، والآخرة فعليه بالعلم أي: مع العمل، وما أفلح في العلم إلا من طلبه في الذلة، ولقد كنت أطلب القرطاس فيعز علي، لا يتعلم أحد هذا العلم بالملكة، وعزة النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلة النفس، وضيق العيش أفلح، تفقه قبل أن ترأس فإذا ترأست فلا سبيل إلى التفقه. زينة العلم الورع،

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح عبيد الله الرحماني المباركفوري ٣٠١/٨

والحلم، لا عيب في العلماء أقبح من رغبتهم فيما زهدهم الله فيه، وزهدهم فيما رغبهم الله فيه. فقر العلماء فقر اختيار وفقر الجهال فقر اضطرار، الناس في غفلة من سورة ﴿والعصر - إن الإنسان لفي خسر﴾ [العصر: ١ - ٢] من لم تعزه التقوى فلا تقوى له، ما فرغت من العلم قط، طلب فضول الدنيا عقوبة عاقب الله بها أهل التوحيد. من غلبته شدة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها، ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع، لا يعرف الرياء إلا المخلصون، لو اجتهدت كل الجهد على أن ترضي الناس كلهم فلا سبيل لذلك فأخلص عملك ونيتك لله، لو أوصى رجل بشيء لأعقل الناس صرف للزهاد، سياسة الناس أشد من سياسة الدواب، العاقل من عقله عقله عن كل مذموم، ومن نم لك نم بك، من وعظ أخاه سرا فقد نصحه ومن وعظه علانية فقد فضحه، التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم اللئام. أرفع الناس قدرا من لا يرى قدره. الشفاعات زكاة المروءات. من ولي القضاء فلم يفتقر فهو لص. لا بأس للفقيه أن يكون معه سفيه يسافه به. مداراة الأحمق غاية لا تدرك. الانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء، والانفراد عنهم مكسبة للعداوة فكن بين المنقبض والمنبسط، لأن يبتلى المرء بكل ذنب ما عدا الشرك خير من أن ينظر في الكلام فإني والله اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط. وكان يكتب ثلث الليل، ثم يصلي ثلثه، ثم ينام ثلثه، ويختم كل يوم ختمة. أقول: لعله في أيام رمضان. وقال: ما كذبت قط، ولا حلفت بالله صادقا، ولا كاذبا، وما تركت غسل الجمعة قط، وما شبعت منذ ستة عشرة سنة إلا شبعة طرحتها من ساعتي قال الكرابيسي: سمعته يقول: يكره للرجل أن يقول: قال الرسول - صلى الله عليه وسلم -، لكن يقول: قال رسول الله. وكان له اليد الطولى في السخاء، قدم من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار فما برح من مجلس سلام الناس عليه حتى فرقها كلها، وسقط سوطه فناوله إنسان فأمر غلامه بإعطائه ما معه من الدنانير فكانت سبعة، أو تسعة، وانقطع." (١)

"ولا يبعد أن يقال: الأفضلية مختلفة باعتبار الحيثية، أو الإضافية النسبية، فلا يحتاج إلى تقدير " من " التبعيضية. (عند الله) : أي: في حكمه، فإنه منزه عن الزمان، كما أنه مقدس عن المكان (يوم النحر) : أي: أول أيام النحر؛ لأنه العيد الأكبر، ويعمل فيه أكبر أعمال الحج، حتى قال - تعالى - فيه: ﴿يوم الحج الأكبر﴾ [التوبة: ٣] " ثم يوم القر ": بفتح القاف وتشديد الراء: أي: يوم القرار، بخلاف ما قبله، وما بعده من حيث الانتشار. قال بعض الشراح: وهو اليوم الأول من أيام التشريق، سمي بذلك لأن الناس يقرون يومئذ في منازلهم بمنى، ولا ينفرون عنه، بخلاف اليومين الأخيرين، ولعل المقتضي لفضلهما فضل ما يخصهما من وظائف العبادات، وقد ورد في الحديث الصحيح، أن عرفة أفضل الأيام، فالمراد ههنا أي: من أفضل الأيام، كقولهم: فلان أعقل الناس، أي: من أعقلهم، والمراد بتلك الأيام يوم النحر، وأيام التشريق.

قال ثور: يعني أحد رواة الحديث (وهو) : أي: يوم القر هو (اليوم الثاني) : أي: من أيام النحر، أو من أيام العيد، فلا ينافي ما سبق من أنه أول أيام التشريق (قال) : أي: عبد الله (وقرب) : بتشديد الراء مجهولا (لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدنات خمس أو ست) : شك من الراوي، أو ترديد من عبد الله يريد تقريب الأمر، أي: بدنات من بدن النبي -

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح الملا على القاري ٢٢/١

صلى الله عليه وسلم - (فطفقن) : بكسر الفاء الثانية أي: شرعن (يزدلفن) : أي: يتقربن، ويسعين (إليه بأيتهن يبدأ) : قال الطيبي - رحمه الله: أي: منتظرات بأيتهن يبدأ للتبرك بيد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في نحرهن اهـ. قيل: وهذا من معجزاته (قال) : أي: عبد الله (فلما وجبت جنوبها) : أي: سقطت على الأرض (قال) : أي: عبد الله، وهو تأكيد؛ كذا قيل.

وقال الطيبي - رحمه الله: أي: الراوي (فتكلم) : أي: النبي - صلى الله عليه وسلم - قال الطيبي، فيلزم منه أن يقال بزيادة الفاء، وعندي أن ضمير " قال " راجع إليه - صلى الله عليه وسلم - وقوله: فتكلم (بكلمة خفية) : عطف تفسير لـ " قال " (لم أفهمها) : أي: لخفاء لفظها (فقلت) : أي: للذي يليه، أو يليني (ما قال؟) : أي: النبي - صلى الله عليه وسلم - (قال) : أي: المسئول، وفي " المصابيح ": فقال (قال) : أي: النبي - صلى الله عليه وسلم - (من شاء) : أي: من المحتاجين (اقتطع) : أي: أخذ قطعة منها، أو قطع منها لنفسه، وفي " المصابيح ": فليقتطع منه أي: من لحمها. (رواه أبو داود) .

(وذكر حديثا ابن عباس) : أي: قال كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الحديث (وجابر) : أي: البقرة عن سبعة (في: باب الأضحية) : والأظهر أنه اعتذار من صاحب المشكاة بأنه أسقطها من تكرار، ويحتمل أن يكون اعتراضا بأنه حولهما عن ذلك الباب، لأنهما أنسب إلى ذلك الباب، والله - تعالى - أعلم بالصواب.." (١)

"٦٠٩٤ - وعن أنس - رضي الله عنه - قال: «كان عند النبي - صلى الله عليه وسلم - طير، فقال: " اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطير " فجاءه علي، فأكل معه» . رواه الترمذي وقال: هذا حديث غريب.

٦٠٩٤ - (وعن أنس قال: كان عند النبي - صلى الله عليه وسلم - طير) ، أي مشوي أو مطبوخ أهدي إليه - صلى الله عليه وسلم - وفي رواية أهدت امرأة من الأنصار إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طيرين بين رغيفين فقدمت إليه (فقال: " «اللهم ائتني بأحب خلقك إليك» ") وفي رواية: وإلى رسولك (" يأكل ") : بالرفع وفي نسخة بالجزم (" معي هذا الطير " فجاءه علي فأكل معه. رواه الترمذي، وقال: هذا حديث غريب) . أي إسنادا أو متنا ولا منع من الجمع. قال ابن الجوزي: موضوع. وقال الحاكم: ليس بموضوع، وفي المختصر قال: له طرق كثيرة كلها ضعيفة. وفي الرياض: رواه أحمد في المناقب " تو ": نحن وإن كنا بحمد الله لا نجهل فضل علي - رضي الله عنه - وقدمه وسوابقه في الإسلام، واختصاصه برسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقرابته القريبة، ومؤاخاته إياه في الدين ونتمسك بحبه بأقوى وأولى مما يدعيه الغالون فيه، فلسنا نرى أن نضرب عن تقرير أمثال هذه الأحاديث في نصابها صفحا لما يخشى فيها من تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين.

وهذا باب أمرنا بمحافظته وجيء أمرنا بالذب عنه، فحقيق علينا أن ننصر فيه الحق ونقدم فيه الصدق، وهذا حديث يريش به المبتدع سهامه، ويوصل به في المبتدع جناحه فيتخذه ذريعة إلى الطعن في خلافة أبي بكر - رضي الله عنه - التي هي

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح الملا على القاري ١٨٢٦/٥

أول حكم أجمع عليه المسلمون في هذه الأمة، وأقوم عماد أقيم به الدين بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فنقول، وبالله التوفيق: هذا الحديث لا يقاوم ما أوجب تقديم أبي بكر والقول بخيريته من الأخبار الصحاح منضما إليها إجماع المسلمين لمكان سنده، فإن فيه لأهل النقل مقالا، ولا يجوز حمل أمثاله على ما يخالف الإجماع، ولا سيما والصحابي الذي يرويه ممن دخل في هذا الإجماع واستقام عليه مدة عمره، ولم ينقل عنه خلافه، فلو ثبت عنه هذا الحديث. فالسبيل أن يؤول على وجه لا ينتقض عليه ما اعتقده، ولا يخالف ما هو أصح منه متنا وإسنادا، وهو أن يقال يحمل قوله بأحب خلقك على أن المراد ائتني بمن هو أحب خلقك إليك، فيشاركه فيه غيره، وهم المفضلون بإجماع الأمة، وهذا مثل قولهم: فلان أعقل الناس وأفضلهم أي: من أعقلهم وأفضلهم، ومما يبين لك أن حمله على العموم غير جائز هو أن النبي – صلى الله عليه وسلم – من جملة خلق الله، ولا جائز أن يكون علي أحب إلى الله منه فإن قيل: ذلك شيء غريب لأصل الشرع. قلنا: والذي نحن فيه فرع أيضا بالنصوص الصحيحة وإجماع الأمة، فيؤول هذا الحديث على الوجه الذي ذكرناه، أو على أنه أراد به أحب خلقه إليه من بني عمه وذويه؟ ، وقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يطلق القول، وهو يريد تقييده ويعم به، ويريد تخصيصه فيعرفه ذوو الفهم بالنظر إلى الحال أو الوقت أو الأمر الذي هو فيه.." (١)

"أنصف الناس، ومخالفتهم للهادي بغير ثبت ولا بينة مع ادعائهم أنهم أبصر الناس، وبطلبهم للآيات تعنتا مع ادعائهم أنهم أعقل الناس، وإخلاصهم في الشدة وإشراكهم في الرخاء مع ادعائهم أنهم أشكر الناس، وعبادتهم للجن وتعوذهم بهم مع ادعائهم أنهم أشجع الناس – إلى أن عجب منهم فيما شرعوه لأنفسهم فيما رزقهموه سبحانه من حيوان وجماد ومضوا عليه خلفا عن سلف، تنبيها على ضعف عقولهم وقلة علومهم تنفيرا للناس عن الالتفات إليهم واغترار بأقوالهم، قال في موضع الحال من

﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام﴾ [الأنعام: ١٣٦] مبينا عظيم ملكه وشمول قدرته وباهر اختياره وعظمته، زيادة في التعجيب منهم في تصرفهم في ملكه بغير إذنه سبحانه وشرعهم ما لم يأذن فيه في سياق كافل بإقامة الحجة على تقرير التوحيد عودا على بدء وعللا بعد نهل، لأنه المدار الأعظم والأصل الأقوم: ﴿وهو﴾ أي لا غيره ﴿الذي أنشأ﴾ أي من العدم ﴿جنات﴾ أي من العنب وغيره ﴿معروشات﴾ أي مرفوعات عن الأرض على الخشب ونحوه، أي لا تصلح إلا معروشة، ومتى لم ترفع عن الأرض تلف ثمرها ﴿وغير معروشات﴾ أي غير مرفوعات على الخشب، أي لا تصلح إلا مطروحة على الأرض مثقلة بما يحكم وصولها إليها، ومتى ارتفعت." (٢)

"ولما كان السواء لا يكون إلا بين أمرين، تشوف السامع إليهما فقال؛ ﴿أدعوتموهم﴾ أي وجد منكم ذلك الدعاء الذي أشير إلى استمراره، وعبر بالاسمية إشارة إلى أنهم لا يدعونهم في وقت الشدائد، بل يدعون الله فقال: ﴿أم أنتم صامتون*﴾ أي عن ذلك على الدوام على عادتكم في الإعراض عن دعائهم في أوقات الملمات، فالذين يدعون معتقديهم في وقت الضرورات أقبح حالا في ذلك من المشركين ويجوز أن تكون الآية من الاحتباك، فيكون نظمها: أدعوتموهم مرة أو

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح الملا على القاري ٩/٣٩٣٨

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٧/٢٨٩

أنتم داعوهم دائما أم صمتم عن دعائهم في وقت ما أم أنتم صامتون دائما عن دعائهم، حاكم في كل هذه الأجوبة سواء في عدم الإجابة، لا اختلاف فيه بوجه، دل بالفعل أولا على حذف مثله ثانيا، وبالاسم ثانيا على حذف مثله أولا.

ولما كان اتباع من يدعي أنه أعقل الناس وأبعدهم عن النقائص وأعرقهم في معالي الأخلاق وأرفعهم عن سفسافها لمن هذا سبيله أخزى الخزي وأقبح العار، وكانوا مع العلم بهذا الذي وصفت به – معبوداتهم يفعلون في الإشراك بهم وفي خوفهم ورجائهم ما هو عين الجهل؛ كرر تبكيتهم باتباعهم في أسلوب آخر أوضح مما قبله في تبيين النقائص والتنبيه على المعايب ملجيء إلى الاعتراف أو التصريح بالعناد أو الجنون فقال مؤكدا: ﴿إن الذين تدعون﴾ أي أيها المشركون دعاء." (١)

"لا حقيقة له والقذر والقباحة والغضب والعقاب الناشيء عنه.

ولما كان ما في هذه السورة من الدلائل قد وصل في البيان إلى حد لا يحتاج فيه إلى غير مجرد العقل قال: ﴿على الذين لا يعقلون﴾ أي لا يوجد لهم عقل، فهم لذلك لا ينتفعون بالآيات وهم يدعون أنهم أعقل الناس فيتساقطون في مساوىء الأخلاق وهم يدعون أنهم أبعد الناس عنها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ والنفس: خاصة الشيء التي لو بطل ما سواها لم يبطل ذلك الشيء، ونفسه وذاته واحد.." (٢)

"ولما كان من حقهم – بعد قيام الأدلة على كمال قدرته وشمول علمه وبلوغ حكمته في إبداع جميع المخلوقات مما نعلم وما لا نعلم على أبدع ترتيب وأحسن نظام – تصديق الهداة في إعلامهم بأنه سبحانه يعيدهم للبعث وأنهم لم يفعلوا ولا طرقوا لذلك احتمالا، بل حلفوا على نفيه من غير شبهة عرضت لهم ولا إخبار عن علم وصل إليهم فعل الجلف الجافي الغبي العاسي، أتبع ذلك سبحانه تعجيبا آخر من حالهم، فقال – عاطفا على ﴿وقال الذين أشركوا﴾ لأن كلا من الجملتين لبيان تكذيبهم الرسل والتعجيب منهم في ذلك، دالا على ان اعتقادهم مضمون هذه الجملة هو الذي جرأهم على قول الأولى وما تفرع منها –: ﴿وأقسموا بالله﴾ أي الملك الأعظم ﴿جهد أيمانهم﴾ جعلت الأيمان جاهدة لكثرة ما بالغوا فيها: ﴿لا يبعث الله﴾ أي الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿من يموت﴾ أي يحيي أحدا بعد موته، استنادا منهم إلى مجرد استبعاد مالم تجر به نفسه عندهم عادة، جمودا منهم عن حلها بأن النشأة الأولى كانت من غير عادة، مع ادعائهم أنهم أعقل الناس وأحدهم أذهانا وأثقبهم أفهاما.

ثم رد عليهم بقوله تعالى: ﴿بلى﴾ أي ليبعثهم لأنه لا مانع له." (٣)

"حقيقة الكذب كانت مجهولة فلم تعرف إلا بوصف ألسنتهم لها، فهو مبالغة في وصف كلامهم بالكذب، وما بعده مقول القول.

ولما كانوا – كما تقدم يدعون أنهم أعقل الناس، فكان اللائق بهم إرخاء للعنان النسبة إلى معرفة اللوازم عند الإقدام على الملزومات، قال تعالى: ﴿لتفتروا على الله﴾ أي الملك الأعلى ﴿الكذب﴾ لأن من قال على أحد ما لم يأذن فيه كان قوله

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ١٩٤/٨

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٢١١/٩

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ١٦١/١١

كذبا، وكان كذبه لقصد افتراء الكذب، وإلا لكان في غاية الجهل، فدار أمرهم في مثل هذا بين الغباوة المفرطة أو قصد ما لا يقصده عاقل، وهذا باب من التهكم عجيب، فكأنه قيل: فما يستحقون على ذلك؟ فأجاب بقوله تعالى: ﴿إن الذين يفترون﴾ أي يقتطعون عمدا ﴿على الله﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿الكذب﴾ منكم ومن غيركم ﴿لا يفلحون *﴾ .

ولما كان الفلاح عندهم هو العيش الواسع في هذه الدنيا، أجاب من كأنه قال: فإنا ننظرهم بنعمة ورفاهة؟ فقال تعالى: ﴿متاع قليل﴾ أي ما هم فيه لفنائه وإن امتد ألف عام ﴿ولهم﴾ بعده ﴿عذاب أليم *﴾ ومن أله العظيم دوامه فأي متاع هذا.

ولما بين لهم نعمته بتوسعته عليهم بما ضيقوا به على أنفسهم، بين لهم نعمة أخرى بتمييزهم على بني إسرائيل فقال تعالى:." (١)

"وفرعون – الذي تقرون بأنه ربكم – كان إذ ذاك عدما محضا، أو ماء صرفا في ظهر أبيه، فبطل كون أحد منهم ربا لمن بعده كما بطل كون أحد ممن قبلهم من الهالكين ربا لهم، لأن الكل عدم.

فلما أوضح بذلك بطلان ما حملهم على اعتقاده من ربوبيته لم يتمالك أن ﴿قال إن رسولكم﴾ على طريق التهكم، إشارة إلى أن الرسول ينبغي أن يكون أعقل الناس، ثم زاد الأمر وضوحا بقوله: ﴿الذي أرسل إليكم﴾ أي وأنتم أعقل الناس ﴿لمجنون﴾ حيث لا يفهم أني أساله عن حقيقة مرسله فكف يصلح للرسالة من الملوك.

فلما أساء الأدب، فاشتد تشوف السامع إلى معرفة جوابه عنه، استأنف تعالى الإخبار بذلك، فحكى أنه ذكر له ما لا يمكنه أن يدعي طاعته له، وهو أكثر تغيرا وأعجب تنقلا بأن ﴿قال رب المشرق والمغرب﴾ أي الشروق والغروب ووقتهما وموضعهما ﴿وما بينهما﴾ أي من الناس الذين ليسوا في طاعتكم، والحيوان والجماد، بسبب ما ترون من قدرته على تقليب النيرات من بزوغ الشمس والقمر والنجوم وأفولها وما يظهر عنهما من الليل والنهار على تصاريف مختلفة، وحركات متقاربة." (٢)

"لأنها تؤدي إلى الضلالة إلى أن ختم ذلك بالإشارة بالتعبير بالجبلة إلى أن عذابه تعالى عظيم، لا يستعصي عليه صغير ولا كبير، أجابوه بالقدح في الرسالة أولا، وباستصغار الوعيد ثانيا، بأن ﴿قالوا إنما أنت من المسحرين*﴾ أي الذين كرر سحرهم مرة بعد أخرى حتى اختبلوا، فصار كلامهم على غير نظام، أو من المعللين بالطعام والشراب كما مضى في صالح عليه السلام، أي فأنت بعيد من الصلاحية للرسالة: ثم أشاروا إلى عدم صلاحية البشر مطلقا لها ولو كانوا أعقل الناس وأبعدهم عن الآفة بقولهم، عاطفين بالواو إشارة إلى عراقته فيما وصفوه به من جهة السحر والسحر، وأنه لا فرق بينه وبينهم: ﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ أي فلا وجه لتخصيصك عنا بذلك، والدليل على أن عطف ذلك أبلغ من إتباعه من غير عطف جزمهم بظن كذبه في قولهم؛ ﴿وإن﴾ أي وإنا ﴿نظنك لمن الكاذبين*﴾ أي العريقين في الكذب – هذا مذهب البصريين في أن ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة، والذي يقتضيه السياق ترجح مذهب الكوفيين هنا في أن ﴿إن﴾ نافية، فإنهم

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ١١/٢٧٠

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ١٤/٢٦

أرادوا بإثبات الواو في ﴿وما﴾ المبالغة في نفي إرساله بتعداد ما ينافيه، فيكون مرادهم أنه ليس لنا ظن يتوجه إلى غير الكذب، وهو أبلغ من إثبات الظن به، ويؤيده." (١)

"﴿يشركون*﴾ فصح أنهم لا يعلمون، لأنهم لا يعقلون، حيث يقرون بعجز آلهتهم ويشركونها معه، ففي ذلك أعظم التهكم بهم؛ قال البغوي: قال عكرمة: كانوا إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام، فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها في البحر وقالوا يا رب! يا رب.

وقال الرازي في اللوامع: وهذا دليل على أن معرفة الرب في فطرة كل إنسان، وأنهم إن غفلوا في السراء فلا شك أنهم يلوذون إليه في حال الضراء - انتهى. فعلم أن الاشتغال بالدنيا هو الصاد عن كل خير وأن الانقطاع عنها معين للفطرة الأولى المستقيمة، ولهذا نجد الفقراء أقرب إلى كل خير.

ولما كانوا مع هذا الفعل - الذي لا يفعله إلا مسلوب العقل - يدعون أنهم أعقل الناس وأبصرهم بلوازم الأفعال وما يشين الرجال، وكان فعلهم هذا كفرا للنعمة، مع ادعائهم أنهم أشكرالناس للمعروف، قال مبينا أن عادتهم مخالفة لعادة المؤمنين في جعلهم نعمة النجاة سببا لزيادة طاعاتهم، فعلم أنه ما كان إخلاصهم في البحر إلا صورة لا حقيقة لها: ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ على عظمتنا من هذه النعمة التي يكفي في عظمتها أنه لا يمكن غيرنا أن يفعلها ما أشركوا إلا لأجل هذا الكفر، وإلا لكانوا فاعلين لشيء من غير قصد، فيكون ذلك فعل من لا عقل له أصلا وهم يحاشون عن مثل ذلك ﴿وليتمتعوا﴾ بما يجتمعون." (٢)

"هذا الإحسان من هذا الضر ﴿يشركون*﴾ بدل ما لزمهم من أنهم يشكرون فعلم أن الحق الذي لا معدل عنه الإنابة في كل حال إليه كما أجمعوا في وقت الشدائد عليه، وأن غيره مما فرقهم ضلال، لا يعدله قبالا ولا ما يعدله قبال.

ولما كان هذا الفعل مما لا يفعله إلا شديد الغباوة أو العناد، وكانوا يدعون أنهم أعقل الناس، ربا بهم عن منزلة البله إلى ما الجنون خير منه تهكما بهم فقال: ﴿ليكفروا بما﴾ ولفت الكلام إلى مظهر العظمة فقال: ﴿آتيناهم﴾ أي من الرحمة التي من عظمتها أنه لا يقدر عليها غيرنا أمنا من أن يقعوا في شدة اخرى فنهلكهم بما أغضبونا، أو توسلا بذلك إلى أن نخلصهم متى وقعوا في أمثالها، فلما أضل عقولهم وأسفه آراءهم! .

ولما كان فعلهم هذا سببا لغاية الغضب، دل عليه بتهديده ملتفتا إلى المخاطبة بقوله: ﴿فتمتعوا﴾ أي بما أردتم فيه بالشرك من اجتماعكم عند الأصنام وتواصلكم بها وتعاطفكم، وسبب عن هذا التمتع قوله: ﴿فسوف تعلمون*﴾ أي يكون لكم بوعد لا خلف فيه علم فتعرفون إذا حل بكم البلاء وأحاط بكم جميعا المكروه هل ينفعكم شيء." (٣)

"ولما كان هذا أمرا - مع كونه جليا - خالعا للقلوب، فكان بحيث يشتد تعجب السامع ممن يسمعه ولا يخشى، فقال مزيلا لهذا العجب على سبيل النتيجة: ﴿إنما تنذر﴾ أي إنذارا يفيد الرجوع عن الغي، فلاختصاصهم بالنفع كانوا

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٨٩/١٤

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٤٧٧/١٤

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٩٣/١٥

كأنهم مختصون بالإنذار، وهو كما قال القشيري: الإعلام بموضع المخافة. ﴿الذين يخشون﴾ أي يوقعون هذا الفعل في الحال ويواظبون عليه في الاستقبال. ولما كان أعقل الناس من خاف المحسن لان أقل عقابة قطع إحسانه قال: ﴿ربهم﴾ .
ولما كان أوفى الناس عقلا وأعلاهم همة وأكرمهم عنصرا من كانت غيبته مثل حضوره، وكان لا يحتاج – مع قول الداعي وما يظهر له من سمته وحسن قوله وفعله – إلى آية يظهرها ولا خارقة يبرزها، وإنما إيمانه تصديقا للداعي في إخباره بالأمر المغيب من غير كشف غطاء قال: ﴿بالغيب﴾ أي حال كونهم غائبين عما دعوا إليه وخوفوا به، أو حال كونه غائبا عنهم أو غائبين عمن يمكن مراءاته، فهم مخلصون في خشيتهم سواء بحيث لا يطلع عليهم إلا الله، ولا نعلم أحدا وازى خديجة والصديق رضي الله عنهما في ذلك.
ولما كانت." (١)

"ولما كان ذلك في غاية الضلال، لكونه – مع أنه خطأ – موجبا لقطع الإحسان وعدم الإجابة في كشف الضر مرة أخرى وكانوا يدعون أنهم أعقل الناس، وكان هذا الضلال في غاية الظهور، وكان العاقل لا يفعل شيئا إلا لعلة، عظمهم تهكما بهم عن أن يكونوا ضلوا هذا الضلال الظاهر من غير قصد إليه، فقال مشيرا إلى ذلك كله: ﴿ليضل﴾ أي بنفسه عند فتح الياء، ويضل غيره عند من ضمها ﴿عن سبليه﴾ أي الطريق الموصل إلى رضوانه، الموجب للفوز بإحسانه.
ولما كان من المعلوم المحقق المقطوع به المركوز في الفطر الأولى المستمر فيما بعدها أن الملك لا يدع من يعصيه بغير عقاب، وكان قد ثبت بقضية الإجماع وقت الاضطرار أنه لا يلتفت إلى أحد سوى الله وكان من التفت – بعد أن أنجاه الله من ضرره وأسبغ عليه من نعمه – كافرا من غير شك عند ذي عقل، وكان من كان بهذه المثابة في هذه الدار هم أهل النعم الكبار، والتمتع الصافي عن الأكدار، كان من المعلوم أنه لا بد من عقوبته في دار القرار، فقال تعالى مبينا." (٢)

"سبحانه وتعالى في تعنيفهم وتقريعهم في عبادة ما لا يضر ولا ينفع فقال ﴿أفرأيتم ما تدعون من دون الله﴾ – إلى قوله: ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ ثم ذكر عنادهم عن سماع الآيات فقال: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ الآيات، ثم التحم الكلام وتناسج إلى آخر السورة – انتهى.
ولما قرر سبحانه الأصل الدال على التوحيد وإثبات العدل والحرمة بالبعث للفصل، وكانوا يقولون: إنهم أعقل الناس، وكان العاقل لا يأمن غوائل الإنذار إلا أن أعد لها ما يتحقق دفعه لها وكان لا يقدر على دفع المتوعد إلا من يساويه أو يزيد عليه بشركة أو غيرها، وكانوا يدعون في أصنامهم أنها شركاء، بنى على ذلك الأصل تفاريعه، وبدأ بإبطال متمسكهم فقال سبحانه وتعالى آمرا له صلى الله عليه وسلم بأن ينبههم على سفههم بأنهم أعرضوا عما قد يضرهم من غير احتراز منه دالا على عدم إلهية ما دعوه آلهة بعدم الدليل على إلهيتها من عقل أو نقل، لأن منصب الإلهية لا يمكن أن يثبت وله من الشرف ما هو معلوم." (٣)

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٣٤/١٦
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٤٦٤/١٦
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ١٢٣/١٨

"ما تعتقدون في أقوال الكهان من الإخبار بالمغيبات وإظهار الخبء وفصل الحكم، فأبطلتم ما مضى من قولكم أضغاث أحلام وسحر وشعر، وتارة تقولون، إنه جنون، فقد نقضتم جميع أقوالكم الماضية وناديتم على أنفسكم بالمباهتة، تقولون في الآتي به: إنه شاعر وساحر ومجنون وكاهن وكاذب، وكل قول منها ينقض الآخر، وأنتم تدعون أنكم أصدق الناس وأبعدهم عن عار الكذب، وأنكم أعقل الناس وأنصفهم، فقد تباعد أولا ما بين أقوالكم، ثم ما بينها وبين أفعالكم، فكان اختلاف طرائق النجوم دالا على مانع مختار تام العلم كامل القدرة، وكذا اختلاف قولكم على هذا الوجه مع ما لكم من العقول دال على قاهر لكم على ذلك، فهما آيتان في الآفاق وفي أنفسكم.." (١)

"بالعقل والتمييز – انتهى، والعقل هو المقصود في الحقيقة من الإنسان لأن من أسمائه اللب، ومن المعلوم أن المقصود من كل شيء لبه وهو الشرع كما مضى في آخر النساء، والظاهر أن عقول الناس بحسب الخلق متقاربة وأنها إنما تفاوتت بحسب الجبلة فبعضهم جعل سبحانه وتعالى عنصره وجبلته في غاية الفساد فلا تزال جبلته تردي على عقله فيتناقص إلى أن يصير إلى أسوأ الأحوال، فكل ميسر لما خلق له، وبعضهم يصرف عقله بحسب ما هيأه الله له إلى ما ينجيه، وبعضهم يصرفه لذلك إلى ما يرديه، لأنك تجد أعقل الناس في شيء وأعرفهم به أشدهم بلادة في شيء آخر، وأغباهم في شيء أذكاهم في شيء آخر – فاعتبر ذلك، وبذلك انتظم أمر الخلق في أمر معاشهم بالعلوم والصنائع والأحوال – والله الهادي، وهذه الآية تدل على أن الله سبحانه وتعالى منزه عن التركيب والصورة لأنه لو كان في شيء منهما لكان هو الأحسن لأن كل صفة يشترك فيها الخلق والحق فالمبالغة للحق كالعالم والأعلم والكريم والأكرم – قاله الأستاذ أبو القاسم القشيري في تفسيره، وصيغة «أفعل» لا تدل على ما قاله الزنادقة، وإن عزي ذلك." (٢)

"أتحنث بها في الجاهلية من صدقة وعتاق وصلة رحم، هل لي فيها من أجر؟ قال: أسلمت على ما سلف لك من خير» متفق عليه وقد احتج به على أن الحربي ينفذ عتقه، ومتى نفذ فله ولاؤه بالخير)

ــــــQقوله: (الإيمان بالله والجهاد) قال النووي: ذكر في هذا الحديث الجهاد بعد الإيمان، ولم يذكر الحج وذكر العتق وفي حديث ابن مسعود بالصلاة ثم البر ثم الجهاد وفي حديث آخر ذكر السلامة من اليد واللسان قال العلماء: اختلاف الأجوبة في ذلك باختلاف الأحوال واحتياج المخاطبين وذكر ما لا يعلمه السائل والسامعون وترك ما علموه

قال في الفتح: ويمكن أن يقال: إن لفظة " من " مرادة، كما يقال: فلان أعقل الناس، والمراد من أعقلهم ومنه حديث " خيركم خيركم لأهله " ومن المعلوم أنه لا يصير بذلك خير الناس اهـ قوله: (أنفسها عند أهلها) أي اغتباطهم بها أشد، فإن عتق مثل ذلك ما يقع غالبا إلا خالصا، وهو كقوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [آل عمران: ٩٢] قوله: (وأكثرها ثمنا) في رواية للبخاري " أعلاها ثمنا " بالعين المهملة، وهي رواية النسائي أيضا، وللكشميهني بالغين المعجمة، وكذا النسفي

قال ابن قرقول: معناه متقارب، ورواية مسلم كما هنا قال النووي: محله والله أعلم فيمن أراد أن يعتق رقبة واحدة، أما لو

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٤٥٢/١٨

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ١٤٠/٢٢

كان مع شخص ألف درهم مثلا فأراد أن يشتري بها رقبة يعتقها فوجد رقبة نفيسة ورقبتين مفضولتين، فالرقبتان أفضل قال: وهذا بخلاف الأضحية فإن الواحدة السمينة فيها أفضل، لأن المطلوب هنا فك الرقبة وهناك طيب اللحم قال الحافظ: والذي يظهر أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فرب شخص واحد إذا عتق انتفع بالعتق أضعاف ما يحصل من النفع لعتق أكثر عددا منه ورب محتاج إلى كثرة اللحم لتفرقته على المحاويج الذين ينتفعون به أكثر مما ينتفع به هو بطيب اللحم، فالضابط أن مهما كان أكثر نفعا كان أفضل سواء قل أو كثر واحتج به لمالك في أن عتق الرقبة الكافرة إذا كانت أعلى ثمنا من المسلمة أفضل، وخالفه أصبغ وغيره وقالوا: المراد بقوله: " أعلى ثمنا " من المسلمين وقد تقدم تقييده بذلك

قوله: (أشعرت) بفتح الشين المعجمة والعين المهملة وهو من الشعور قوله: (وفي الثاني دليل على جواز تبرع المرأة. . . إلخ) قد قدمنا الكلام على ذلك في باب ما جاء في تصرف المرأة في مالها ومال زوجها من كتاب الهبة قوله: (أسلمت على ما سلف لك من خير) فيه دليل على أن ما فعله الكافر حال كفره من القرب يكتب له إذا أسلم فيكون هذا الحديث مخصصا لحديث: «الإسلام يجب ما قبله» وقد تقدم في أوائل كتاب الصلاة، وجب ذنوب الكافر بالإسلام أيضا مشروط بأن يحسن في الإسلام لما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود قال: «قلنا يا." (١)

١-"وسألت ذاك السفح عنهم قال لي ... ذهب الذين يعاش في أكنافهم

استغفر الله، وليس هذا من باب التبرم بأهل مصر، على ما قال:

لا ترم في بئر شربت زلالها ... آجرة فيقال أنك غادر

وقال غيره:

وعماتك النخل كن مثلها ... لرامي الحجارة ترمي الرطب

فليت شعري أي فضيلة للنخل الذي لا يرمي حتى يرمى، وهل ذلك إلا من باب المطاوعة رميته فارتمى؟ فالطاعة هنا ضرورية، لا يعلق المدح بها، وربما تعلق بها الذم من وجه، كما قال قائل - وقد قيل له مالك تقع في الأمراء وأنت تستميرهم؟

-: نأخذ بعض مالنا ونطالبهم عند الله في الباقي والحيلة عليهم خير من الحاجة إليهم:

ولكل رأيت منهم مقاما ... شرحه في الكتاب مما يطول

قال أبو عبيدة: وأما أهلها فقيل أعقل الناس صغارا وأحمقهم كبارا، والعجب من نسبة الحمق إليهم، فإنه ينافي ما اشتملوا عليه من المكر والخديعة وأصناف الحيل المنقلب لديها بصر اللياقة خاسئا وهو حسير، وأما أدوات المعروف فيهم فلا يشك في أنها لازمة لا متعدية، وإن كانت آراؤهم على سنن المكارم متعدية، اللهم إلا ما اقتضته الأدوار الفلكية من الأوامر الملكية.

---

(١) نيل الأوطار الشوكاني ٩٦/٦

قال الفاضل العبدري في رحلته: وكان وصولنا إلى هذه المدينة - يعني مصر - في أخريات رمضان المعظم، فأتممناه بها وصلينا معهم العيد، فلم أر يومئذ من أولئك الناس، من صدر منه الإيناس، فقلت:

تذكرت يوم الفطر في مصر إذ أتى ... وقوس النوى ترمي الحشا أسهم الخطب". (١)

٢-"الباب الأول

الكنيسة الكاثوليكية الرومانية

١٣٠٠ - ١٥١٧

الفصل الأول

فضل المسيحية

الدين آخر ما تبدأ الأذهان بفهمه. ولربما كنا في أيام شبابنا قد برمنا في تعال وكبرياء بما فيه من أمور محببة وإن لم تقبلها العقول، وفي السنين التي نكون فيها أقل ثقة بما نتلقاه من تعاليمها يأخذنا العجب من بقاء هذا الدين مزهرا في عصر ينصرف الناس فيه إلى العلم وإلى شؤون الدنيا ويدهشنا بعثه من جديد بعد أن تلقى الضربات القاتلة على أيدي أبيقور أو لوكر بشيوس أو لوشيان أو ماكيافلي أو هيوم أو فولتير. ترى ما هو السر الذي من وراء هذه المرونة التي تبعث فيه الحياة من آن إلى آن؟

إن أعقل الناس ليتطلب أن تمتد حياته مائة مرة لكي يستطيع الإجابة عن هذا السؤال إجابة شافية. ولربما كان أول ما يفعل هو أن يدرك بأن ثمة ظواهر لا يحصيها عدا حتى في الأيام التي يبلغ فيها العلم ذروة مجده يخيل إليه أنها تعز على الفهم ولا يستطيع تعليلها بالعلل الطبيعية أو يقدسها أو يعرف نتائجها المحتومة. فأسرار العقل مثلا لا تزال تخفى على قوانين علم النفس وفي علم الطبيعة نجد أن نظام الكون المدهش لعجيب الذي يجعل العلم ميسرا مستطاعا قد يعمل هو نفسه على توكيد الإيمان الديني القائل بوجود عقل كوني مدبر لهذا العالم. وإن معارفنا لأشبه بسراب بقيعة كلما اقتربنا منه زاد". (٢)

٣-"آراء كثيرة، اعتنق واحدا منها أحد الأمراء، ودمغت

سائر الآراء بأنها هرطقات. ولا يمكن أن يكون رجل

ما أعقل الناس من اجل علمه ومعرفته، فقد يهيئ هذا

---

(١) رحلة الشتاء والصيف ص/٦١

(٢) قصة الحضارة ٢٢/١١

موضوعا للمناقشة ولكن الذكاء والحكمة تولدان مع الإنسان ....

إن العقلاء لا يتفوهون بشيء في أوقات الخطر.

إن الأسد دعا الشاة ليسألها إذا كانت ثمة رائحة تخرج من

فمه، فلما أجابت بالإيجاب عضها فأطاح برأسها لأنها غبية

حمقاء. فدعا الذئب وأعاد عليه نفس السؤال فأجاب بالنفي،

فمزقه الأسد إربا لأنه متملق. وأخيرا نادى على الثعلب

وكرر السؤال، فتعجب إنه مصاب بالبرد ولا يستطيع

أن يشم (٣٣).

وكان توماس براون "ثعلبا". إنه ولد في لندن ١٦٠٥ وتلقى علومه في مدرسة ونشستر، ومونبيلييه وبادوا وليدن، واستزاد من العلوم والفنون والتاريخ كلما وجد إلى ذلك سبيلا، ثم انصرف إلى الاشتغال بالطب في نوروك. وهذب من "تحليلاته للبول" بتدوين ملاحظاته وأفكاره "عن كل هذه الأشياء، وعن قليل غيرها " On All Things and a Few Others وأخفى بلباقة نظريته في الدين في كتابه "الطب الديني" (١٦٤٢)، وهو يمثل مرحلة في تاريخ النثر الإنجليزي. وإنك لتجد في شخصه "مونتاني بريطاني"، فهو مثله في طرافته وخياله، وفي تذبذبه وتعدد جوانبه، وربما اقتبس عنه فيما كتب عن الصداقة (٣٤)، وهبط بتشككه إلى الامتثال للكنيسة الإنجليزية مستسيغا العقل ومعلنا إيمانه. وملأ براون كلامه بالإشارات والإشتقاقات التقليدية ولكنه أحب فن الألفاظ وموسيقاها، مستخدما أسلوبا كأنه دواء "مضاد للبلى والفساد".
وكان بطبيعة دراسته وتعليمه نزاعا إلى الشك. وفي أطول مؤلفاته وعنوانه "الأقوال الزائفة الشائعة" شرح وهذب مئات من "الآراء الفاسدة الشائعة" في". (١)

٤-"فلم يزال الأمر فيها جاريا على ذلك حتى ولي عبد الملك ابن مروان، فقدم في أيامه بطريق من بطارقة الروم ومعه خلق كثير، فسأل أن يعطي الأمان على أن يقيم بها ويؤدي الخراج، فأجيب إلى مسألته، فلم يلبث إلا سنتين أو أكثر

---

(١) قصة الحضارة ٢٩٢/٢٨

منها بأشهر حتى تحقق قفول الجند عن المدينة أغلق بابها، وأسر من معه من الجند وعدة من اليهود، ولحق وأصحابه بأرض الروم. فقدر المسلمون عليه بعد ذلك وهو متوجه إلى ساحل للمسلمين في مراكب كثيرة فقتلوه. ويقال: بل أسروه، وبعثوا به إلى عبد الملك فقتله، وصلبه. ويقال: بل تغلب عليها وقتل من فيها بعد موت عبد الملك، ففتحها الوليد بن عبد الملك " .

ولم تزل أطرابلس يتصرف فيها من يلي دمشق منذ فتحت أيام بني أمية وصدرا من أيام بني العباس إلى أن استولى على دمشق العبيديون لما ملكوا مصر، فأفردوها عن دمشق، وولوا فيها من جهتهم.

وأول من وليها ريان الخادم، ثم سند الدولة، ثم أبو السعادة، ثم علي بن عبد الرحمن بن حيدرة ثم نزل ثم مختار الدولة بن نزال.

وهؤلاء الولاة لم يتصل بي مدد إقامتهم في الولايات. ثم تغلب عليها قاضيها أمين الدولة أبو طالب الحسن ابن عمار. ولم يزل بها إلى أن توفي سنة أربع وستين وأربعمائة.

وكان ابن عمار هذا من أعقل الناس، وأسدهم رأيا، فقيها على مذهب الشيعة. وكانت له دار علم بأطرابلس، فيها ما يزيد على مائة ألف كتاب وقفا. وهو الذي صنف كتاب " ترويح الأرواح، ومفتاح السرور والأفراح " المنعوت " بجراب الدولة " .

ولما مات كان بأطرابلس سديد الملك بن منقذ هاربا من محمود بن صالح، فشد من جلال الملك أبي الحسن بن علي بن محمد بن عمار، وعضده بمماليكه ومن كان معه فأخرجوا أخا أمين الدولة من أطرابلس، وولي جلال الملك.

ولم يزل متوليا عليها إلى أن توفي في سلخ شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة. وملكها بعده أخوه فخر الملك عمار بن محمد.

وبقي مالكها إلى أن نزل عليها صنجيل بجموعه في شهر رجب سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وحاصرها وضايقها، وأناخ عليها بخيله ورجله. فبعث فخر الملك إلى الملوك بالهدايا والتحف يستنجدهم، ويستصرخهم، فلم يعنه أحد منهم.

فلما لم ير منهم معاضدة ولا مساعدة، رغب إلى " صنجيل " في رحيله عنه، وبذل له أموالا وبعث إليه ميرة، وتضرع جهده، فلم ينفعه ذلك عنده. فلما ضاق بالحصار ذرعا وعجز عن دفع العدو عنه، خرج من أطرابلس قاصدا السلطان محمود بن ملكشاه واستناب فيها ابن عمه " أبا المناقب " ورتب معه سعد الدولة فتيان بن الأعسر.

ونفق في الجند ستة أشهر، فجلس أبو المناقب في بعض الأيام في مجلسه وعنده وجوه أهل أطرابلس، فخلط في كلامه فنهاه سعد الدولة، فصاح، وقال: " لا يا سيدي، لا يا سيدي " . ثم جرد سيفه وضرب سعد الدولة فقتله،وانهزم من كان في المجلس، فقطع سعد الدولة إربا إربا.

وقام من المجلس، وصعد إلى السور، وجعل يصفق بإبطيه ويهنبط، فقام أهل البلد وقبضوا عليه، واعتقلوه، ونادوا بشعار الأفضل ابن أمير الجيوش، وذلك في شهر رمضان سنة خمسمائة. وفي ثامن وعشرية هلك صنجيل، وتولى مقدم يسمي السرداني.

ولما بلغ الأفضل ما فعله أهل أطرابلس جهز إليهم جيشا في البحر، وجعل مقدمه تاج العجم، فعمد تاج العجم إلى أخذ

جميع أمواله، وما يحفظ البلدية، فرقي إلى الأفضل أنه يريد العصيان بأطرابلس، فقبض على ما كان حمله في المراكب. وولي بدر الدولة ابن الطيب الدمشقي، فوصل إلى أطرابلس، وكان أهلها قد ضاقت صدورهم من طول الحصار، ثم رأوا من تخلفه ما رغبهم عنه ونفرهم منه فعولوا على طرده، ثم رأوا إبقاءه لأنهم لا ملجأ لهم إلا المصريين.

ووصلت من مصر مراكب بالغلات والرجال، فقرر المذكور مع مقدمي الأسطول البحرية وأعيان البلد وأصحاب فخر الملك وحريمه. فأخذهم وسيرهم في المراكب معهم إلى مصر. وبعث معهم ما كان بأطرابلس من السلاح والذخائر ما لم يكن عند أحد مثله من الملوك، ومائة ألف دينار، فاعتقل أهل بني عمار بمصر.

وكان فخر الملك لما خرج من أطرابلس سار في البحر إلى بيروت، وقصد دمشق فالتقى بأتابك طغتكين، فأكرمه وسير معه ولده تاج الملوك بوري، فوصلا إلى بغداد واجتمعا به فقابلهما بالإكرام ورد تاج الملوك إلى والده.". (١)

٥-" يجب أن يحمد على مالم يفعل ويكره أن يذم بما فيه قال وقال لقمان لابنه يا بني اعقل عن الله فإن أعقل الناس من عقل عن الله وإن الشيطان ليفر من العاقل ما يستطيع أن يكايده وقال لرجل من جلسائه ألا أعلمك طبا لا يتعايا فيه الفقهاء وحلما لا يتعايا فيه الحلماء قال بلى يا أبا عبدالله قال أما الطب فلا تأكل طعاما إلا سميت الله على أوله وحمدته على آخره وأما الفقه فإن سئلت عن شيء عندك فيه علم فأخبر بما تعلم و إلا فقل لا أدري وأما الحلم فأكثر الصمت إلا أن تسأل عن شيء وقال إذا كان في الصبى خلقان الحياء والرهبة طمع في رشده

وقال لما بلغ ذو القرنين مطلع الشمس قال له ملك هناك صف لي الناس فقال محادثتك من لا يعقل كمن يغني الموتى ومحادثتك من لا يعقل كمن يبل الصخر الأصم كي يلين وكمن يطبخ الحديد يلتمس أدمه ومحادثتك من لا يعقل كمن يضع المائدة لأهل القبور ونقل الحجارة من رؤس الجبال أيسر من محادثتك من لا يعقل وقال قرأت في بعض الكتب أن مناديا ينادي من السماء الرابعة كل صباح أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده أبناء الخمسين ما ذا قدمتم أبناء الستين لا عذر لكم ليت الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا قد أتتكم الساعة فخذوا حذركم وقال قال دانيال يا لهفي على زمن يلتمس فيه الصالحون فلا يوجد منهم أحد إلا كالسنبلة في أثر الحاصد أو كالخصلة في أثر القاطف يوشك نوائح أولئك وبواكيهم أن تبكيهم

وروى عبد الرزاق عن عبد الصمد بن معقل قال سمعت وهبا يقول في قوله تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة قال إنما يوزن من الأعمال خواتيمها وإذا أراد الله بعبد خيرا ختم له بخيرعمله وإذا أراد الله بعبد شرا ختم له بشر عمله وقال وهب إن الله تعالى لما فرغ من الخلق نظر إليهم حين مشوا على وجه الأرض فقال أنا الله لا إله إلا أنا الذي خلقتكم وأفنيكم بحكمي حق قضائي ونافذ أمري أنا أعيدكم كما خلقتكم وأفنيكم حتى أبقى وحدي فإن الملك والخلود لا يحق إلا لي أدعو خلقي وأجمعهم بقضائي يوم أحشر أعدائي وتجل القلوب من هيبتي تتبرأ الآلهة ممن عبدها دوني

---

(١) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ص/٨٠

قال وذكر وهب أن الله لما فرغ من خلقه يوم الجمعة أقبل يوم السبت فمدح نفسه بما هو أهله وذكر عصمته وجبروته وكبرياءه وسلطانه وقدرته وملكه وربوبيته فأنصت كل شي وأطرق له فقال أنا الملك لا إله إلا أنا ذو الرحمة الواسعة والأسماء الحسنى أنا الله لا إله إلا أنا ذو العرش المجيد والأمثال العلا أنا الله لا إله إلا أنا ذو الطول والمن والآلاء والكبرياء أنا الله لا إله إلا أنا بديع السموات والأرض ملأت كل شيء عظمتي وقهر كل شيء ملكي وأحاطت بكل شيء قدرتي وأحصى كل شيء علمي ووسعت كل شيء رحمتي وبلغ كل شيء لطفي فأنا الله يا معشر الخلائق ". (١)

٦-"الحسن أبو علي الحجام، والد محمد الآتي: قال ابن صالح: هو الشيخ الصالح، الغريب في أحواله، من الأولياء الكبار ممن يلازم الصف الأول مع الجماعة، على هيئة حسنة وعبادة، وشفقة على الفقراء، يخيط بالإبرة الجباب الصوف للرعية، وللغريب بالأجرة، ويكون الناس في الموسم في بيعهم وشرائهم، وهو في دكانه بإبرته على خياطته وحالته، وكان يسقي الماء احتسابا لمن يمر عليها، ولا يتكلم مع أحد، بل هو مشغول بنفسه، وذكر الله، وفي آخر عمره كان يفصد ويختن لمن يعز عليه ممن يطلبه، ويعتني إلى الصلحاء في بيوتهم أيام الجمع ليقص شاربهم، ويحمل إلى الشيخ أبي عبد الله القصري كوزا من الماء كل ليلة ليفطر عليه في المسجد، ومات على خير، قدس الله روحه، ونور ضريحه، وأعاد علينا من بركته وبركة أمثاله.
الحسن التركماني: نزيل دمشق، شيخ صالح خير دين متعبد، ممن جاور بالمدينة، وكان منها كل سنة، ذكره ابن صالح.
الحسن الحيحائي: مضى في ابن عيسى، لظني أنه هو.
حسن البدر الدرعي المغربي المالكي: قاضي المالكية بدمشق، ممن كان يقرأ في مختصر ابن الحاجب، حتى علق بذهنه بعض مسائله ومسائل من الرسالة، بحيث صار يذاكر بذلك، ويزعم معرفة كبيرة مع طيش، وجرأة ودنيا، وامتحن وضرب وصرف، فناب بالقاهرة، بل رام الاستقلال به فلم يتم له، وكذا رامه بمكة فلم يتيسر، وكأنه وليه بغزة، وجاور بمكة والمدينة، وولد له بهما، ودخل اليمن، مات بمكة في ذي الحجة سنة ثمان وعشرين وثمانمائة، وخلف ابنة بالمدينة النبوية ماتت في التي تليها، ذكره الفاسي بأطول في ذيل النبلاء، قلت: وقد قرأ عليه البخاري بالروضة في سنة سبع عشرة وثمانمائة أبو الفتح إبراهيم.
الحسن العجمي، خادم قبة سيدي حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم: كان رجلا صالحا، ساكنا برباط الأصبهاني عند باب جبريل، يعمل في الفاعل ويأكل، يتعبد بالليل، مجردا على الخير، ذكره ابن صالح، فقال: وهو من خيار العجم الذين رأيتهم مجاورين بالمدينة، ولما مات أخذ أخي على خدمة القبة، وذلك في ولاية الشرف الأميوطي.
الحسن العجمي: آخر، وهو الذي قبله، ذكره ابن صالح أيضا، وقال: قدم المدينة، فسكن في رباط الأصبهاني، وكان يسقي بالحرم على خير، ومات بها عن حسن ومحمد، وهما أيضا على خير، انتهى. وإنما غايرت بينهما تبعا له، سيما وقد وصفه بكونه سقاء مع احتمال كونه أيضا وصفا للأول.
الحسن العجمي المدني: صاهر شيخنا الشهاب الشوايطي على ابنته خديجة، واستولدها أولاده، وماتت سنة تسع وخمسين وثمانمائة، وما علمت متى مات صاحب الترجمة.

---

(١) البداية والنهاية ٢٨٠/٩

الحسن القطان المؤذن: كان هو وأحمد – أخوه – من أعقل الناس وأشغلهم بنفسه، وبتدبير بيته، إلى أن مات، وترك امرأتين له، وهما حاملتان، فولدتا جميعا ذكرين، أحدهما حسين الآتي، قاله ابن فرحون، وقال ابن صالح: إنه كان صيبتا، يقرأ الميعاد في الروضة بعد الظهر، ثم يمدح، وانتفع الناس بقراءته ومدحه، انتهى، واسم أبيه قاسم وسيأتي ولده حسين قريبا.

الحسن المسوفي التكروري: هاجر إلى المدينة، فجاور بها حتى مات، ودفن بالبقيع، وكانت مجاورته في عشر الستين وسبعمائة، وكان متعبدا ذا نعمة، محبا في الصالحين والعلماء، واقتنى شيئا من كتب العلم، ذكره ابن صالح.

الحسن المغربي الخولي: أحد أصحاب عبد الله السكري، له ذكر فيه.

الحسن المغربي، صهر عبد الله ابن القاضي الزين عبد الرحمن بن صالح: ممن سمع معه في سنة سبع وثلاثين وثمانمائة على الجمال الكازروني في البخاري، ووصفه القارئ بالشيخ.

الحسن، شيخ كان في مدرسة السراج مستورا، يتهم بالسعة الجيدة: يقال: إنه ربي عند الموصلي، وبينهما علاقة من جهة معتق شجاع الدين الطواشي، مات ودفن في البقيع، ذكره ابن صالح.

حسيل – آخره لام – بن جابر، العنسي – أو حسل، بالتكبير – كما تقدم، وهو اليمان والد حذيفة: استشهد بأحد على يد المسلمين غلطا، وسيأتي في الياء التحتانية.

الحسين بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله الرسي: نسبة لقرية من قرى المدينة النبوية، استقر بعد أبيه في نقابة الأشراف بمصر.". (١)

٧-"أتينا الحجاز عشية ... وإذ الزخارف التي فيه محرق

شهدت بأن الله لا رب غيره ... وأن الذي قال الرسول مصدق

روينا صحيحا أنه قال بعده ... بزخرف بيت الله ثم يذوق

وأن بيوت الله ترفع أرضها ... إلى جنة المأوى وفيها تخلق

وأن الذي حقا يدوم بقاؤه ... وأنا الذي... بنار يحرق

وكذا منه تخميس: بأخير من دفنت بالقاع أعظمه، فقال: في سنة ثلاث عشرة وهو بمكة.

أخير المزار وهو أعظمه ... وخير من سر عرش الرب مقدمه

ناديته بمقول وهو أقومه ... بأخير من دفنت بالقاع أعظمه

وطاب من طيبهن القاع والأكم

طوبى لجاركم طابت مساكنه ... جار يحار وجار الربع آمنه

قول إذا قلت يشفيني محاسنه ... نفسي... لقبر أنت ساكنه

فيه العفاف وفيه الجود والكرم

---

(١) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ١/١٩٣

وقد ترجم شيخنا في لسانه جبير بن الحرث وقال: قرأت في رحلة أمين الدين محمد بن أحمد بن أمين الأقشهري نزيل المدينة النبوية، وقد أجاز لبعض مشايخي، قال: أخبرني الأديب الفاضل محمد بن علي بن عبد الرزاق بن حمأة الجزولي: أن أباه أخبره وصافحه، وساق بسند فيه لقي لناصر أبي العباس أحمد بن المستضيء في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة لجبير هذا وأنه صحابي، قال شيخنا: وحدث بهذه القصة شيخنا أبو عبد الله السلاوي عن علي بن حسن بن حمزة، بسند له إلى آخره – قلت وهو باطل...، وآخر الصحابة عامر بن واثلة.

٣٦٠١ – محمد بن أحمد بن بالغ: الشمس بن الشهاب المصري الأصل المدني، الماضي أبوه، خلف له أبوه ما لم ينتفع به، وسافر إلى البلاد ففتح الله عليه، وتزوج وولد له الأولاد، وكان من أعقل الناس وأحسنهم خلقا وخلقة وأجملهم صحبة، قارئا، حسن الصوت مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

٣٦٠٢ – محمد بن أحمد بن أبي بكر الحراني: كان شيخا، حسنا، كثير التلاوة والحج، سمع الكثير، وحدث ومات بالمدينة قبل أن يصل إلى الحج في آخر سنة خمس، أو أوائل سنة ست وسبعمائة، قاله شيخنا في درره.

٣٦٠٣ – محمد بن أحمد بن الحسن: أو عبد الله الشجري، المقرئ، ويعرف بجونكار، روى عن أبي موسى المديني وغيره، كأبي الفتح محمد بن الحسن الخوارزمي، وورد بغداد حاجا، فسمع على الحسين الهمداني الصوفي، سمع منه ابن أبي الصيف وأبو المفاخر البيهقي إمام الروضة الشريفة، وتلى عليه سليمان بن خليل العسقلاني لحفص عاصم، وحدث بالحرمين، وجاور حتى مات بمكة، وهو معدود في مشيخة الحرم بها، وفيها مات، قال ابن الدبيني في ذيله لتاريخ بغداد: أظنه جار لنا، وكان حيا في سنة تسعين وخمسمائة، قال الفاسي في مكة: وجدت على حجر بالمعلاة، هذا قبر الشيخ الصالح الإمام فخر الدين محمد بن أحمد بن حسين، ويعرف بجونكار الشجري، فهو هذا، وتسمية جده مخالف لما سبق، والله أعلم، وقد ذكره كل من الدبيني وابن النجار في ذيلهما، وقال ثانيهما: إنه سافر البلاد وحج وأقام بمكة والمدينة، مجاورا إلى حين وفاته، وكان من أعيان مشايخ الصوفية وأحد عباد الله الصالحين، حدث بشيء يسير عن الحافظ أبي موسى المديني، سمع منه جماعة من الأئمة ورووا عنه.". (١)

٨-"٣٦٥٣ – محمد بن أحمد القطان المؤذن: كان من أعقل الناس وأشغلهم بنفسه وتدبير بيته، وكان مؤذنا صبيا مجيدا، مات بالشام زمن الطاعون، وخلف ولدين مباركين صبيين، قال ابن فرحون: وأظنه من أصول بني القطان فهم مؤذنون... فينظر.". (٢)

٩-"@ ٣٥٢ @ # وقال يعقوب بن داود بعث إلي المهدي يوما فدخلت عليه وهو في مجلس مفروش بفرش مورد على بستان فيه شجر ورؤوس الشجر مع صحن المجلس وقد اكتسى ذلك الشجر بالأزهار من الخوخ والتفاح فما

---

(١) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ٩٧/٢

(٢) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ١٢٣/٢

رأيت شيئا أحسن منه وعنده جارية عليها نحو ذلك الفرش ما رأيت أحسن منها فقال لي يا يعقوب كيف ترى مجلسنا هذا قلت على غاية الحسن فمتع الله أمير المؤمنين به قال هو لك بما فيه وهذه الجارية ليتم سرورك به قال فدعوت له ثم قال لي يا يعقوب ولي إليك حاجة أحب أن تضمن لي قضاءها قلت الأمر لأمير المؤمنين وعلي السمع والطاعة فاستحلفني بالله وبرأسه فحلفت لأعملن بما قال فقال هذا فلان بن فلان من ولد علي بن أبي وأحب أن تكفيني مؤنته وتريحني منه وتعجل ذلك قلت أفعل فأخذته وأخذت الجارية وجميع ما في المجلس وأمر لي بمائة ألف درهم فلشدة سروري بالجارية صيرتها في مجلس بيني وبينها ستر وادخلت العلوي إلي وسألته عن حاله فأخبرني وإذا هو أعقل الناس وأحسنهم أبانة عن نفسه ثم قال ويحك يا يعقوب تلقى الله بدمي وأنا رجل من ولد فاطمة بنت محمد قلت لا والله فهل فيك أنت خير قال كذا وكذا فأرسلت إلى من يثق إليه العلوي فأخذه وأعطيته مالأ وأرسلت الجارية إلى المهدي تعلمه الحال فأرسل إلى الطريق فأخذ العلوي وصاحبه والمال # فلما كان الغد استحضرني المهدي وسألني عن العلوي فأخبرته أني قتلته فاستحلفني بالله وبرأسه فحلفت له فقال يا غلام اخرج الينا في هذا البيت فأخرج العلوي وصاحبه والمال فبقيت متحيرا وامتنع مني الكلام فما أدري ما أقول فقال المهدي قد حل لي دمك ولكن احبسوه في المطبق ولا أذكر به فحبست في المطبق واتخذ لي فيه بئر فدليت فيها فبقيت مدة لا أعرف عددها وأصبت ببصري وطال شعري حتى استرسل كهيئة البهائم قال فإني كذللك إذا دعي بي وقيل يلي سلم على أمير المؤمنين فسلمت قال أي أمير المؤمنين أنا قلت المهدي قال رحم الله المهدي قلت فالهادي قال رحم الله الهادي قلت فالرشيد قال نعم سل حاجتك". (١)

١٠-"قال: أحرص الناس على فتنة و أعجزهم عنها. قال: فأخبرني عن أهل مصر. قال: لقمة لأكل. قال: فأخبرني عن أهل الحيرة. قال: كناسة بين حديقتين. قال: فأخبرني عن أهل الموصل. قال: قلادة وليدة فيها من كل خرز. قال: فأخبرني عن أهل الشام. قال: جنة «٢» أمير المؤمنين و لا أقول فيهم شيئا. قال: لتقولن. قال: أطوع الناس لمخلوق و أعصاهم لخالق، لا يحسبون للسماء ساكنا. و روي أن عمرو بن العاص قال: أهل الحجاز أسرع الناس إلى فتنة و أعجزهم عنها، و أهل العراق أطلب الناس لعلم و أعلمهم بخلافه، و أهل مصر أعقل الناس صغارا و أحمقهم كبارا، و أهل الشام أطوع الناس لمخلوق «٣» و أعصاهم لخالق «٤».

و قال سليمان بن موسى: إذا كان الرجل علمه حجازي و سخاؤه عراقي و استقامته شامية فقد كمل.

و قال بعض الحكماء: أهل الحجاز أهل لهو و معازف و مداعبة و تأنيث، و أهل

المسالك و الممالك(البكرى)، ج ١، ص: ٤٩٣

اليمن أهل غفلة و خفة و لين «١»، و أهل العراق أهل فكرة و فطنة و غدر و خبث و حيل و كثرة كلام، و أهل الشام أهل غفلة و سلامة صدور و عون للظلمة، و أهل مصر أهل غفلة و لين و قلب فطن، و أهل خراسان أهل غفلة و حرص و بخل و شجاعة، و أهل الهند أهل حكمة «٢» و شجاعة و حسن سيرة و لين، و أهل الصين أهل طيش و خفة

---

(١) الكامل في التاريخ ٣٥٢/٥

و جبن.

٨٢٨ و قال بكر «٣» بن وائل عن محمد بن مسلم يرفعه: قسم الحفظ عشرة أجزاء فتسعة في الترك و جزء في سائر الناس، و قسم البخل «٤» عشرة أجزاء فتسعة في فارس و جزء في سائر الناس، و قسم الكبر عشرة أجزاء فتسعة في الروم و جزء في سائر الناس، و قسم السخاء عشرة أجزاء فتسعة في السودان و جزء في سائر الناس، و قسم الشبق عشرة أجزاء فتسعة في الهند و جزء في سائر الناس، و قسم الحسد عشرة أجزاء فتسعة في العرب و جزء في سائر الناس.". (١)

١١-"٨٤٧ و ذكر أن مصر مصورة في كتب الأوائل و سائر المدن مادة أيديها إليها تستطعمها. و قال عمرو بن العاص: ولاية مصر تعدل الخلافة، و جعلها الله متوسطة للدنيا، فهي من الإقليم الثالث و الرابع، سالمة «١» من حر الإقليم الأول و الثاني و من برد الإقليم السادس و السابع، فطاب هواؤها و ضعف حرها و خف بردها، فسلم أهلها من مشاتي الجبال و مصائف عمان و حر تهامة و دماميل الجزيرة و جرب اليمن و طواعين الشام و طحال البحرين و حمى خيبر، و آمنوا من غارات الترك و العرب و الديلم و آمنوا قحط الأمطار. ففي «٢» كورها طرائف و عجائب، فصعيدها (أرض حجازية) «٣» تنبت النخل و الآراك و القطر «٤» و العشر، و أسفل أرضها شامي ينبت ثمار الشام من الكرم و التين و اللوز و الجوز و سائر الفواكه «٥» من البقول و الرياحين، و يقع بها الثلج.

٨٤٨ و أمر الرشيد فصورت له مدائن الدنيا، فما استحسن منها غير عمل أسيوط، فإن مساحته ثلاثون ألف فدان في دست واحد، لو قطرت فيه قطرة فاضت على جميع جوانبه يبذر فيه جميع الحبوب. فلا يكون على الأرض بساط أعجب منه، من جانبه الغربي جبل أبيض على صورة الطيلسان، و يحيط به من جانبه الشرقي النيل كأنه جدول فضة، لا يسمع فيه الكلام من شدة أصناف أصوات «٦» الطير. و مما ذمت «٧» به مصر سوى ما ذكره «٨» الجاحظ أن أهل مصر أعقل الناس صغارا و أحمقهم كبارا. و كان أبو دلامة دخل مصر، فلما رجع إلى العراق لقيه الحسن «٩» بن هاني فسأله عن صفة

المسالك و الممالك(البكرى)، ج ١، ص: ٥٠٦

مصر فقال: ثلثها كلاب و ثلثها تراب و ثلثها دواب. قال: و أين الناس؟". (٢)

١٢-"تاريخ الإسلام للذهبي الجزء الحادي عشر الصفحة ٣٢٤

قال نعيم بن حماد: نا ابن المبارك قال: ما رأيت أحدا ارتفع مثل ما ارتفع مالك، من رجل لم يكن له كثير صلاة، إلا أن تكون له سريرة. وقال أشهب: رأيت أبا حنيفة بين يدي مالك كالصبي بين يدي أبيه. وقال أبو مصعب: سمعت مالكا يقول: سألني أبو جعفر عن أشياء ثم قال: أنت والله أعقل الناس، وأنت اعلم الناس. قلت: لا والله يا أمير المؤمنين. قال:

---

(١) المسالك والممالك . البكري ٤٠٦/١

(٢) المسالك والممالك . البكري ٤١٦/١

بلى، ولكنك تكتم. والله ل بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف، ولأبعثن به إلى ألآفاق، فأحملهم عليه. حفص بن عبد الله: سمعت غبراهيم بن طهمان يقول: أتيت المدينة فكتبت بها ثم قدمت الكوفة فأتيت أبا حنيفة، فسلمت عليه، فقال لي: عمن كتبت أكتبت عن مالك شيئا قلت: نعم. قال جئني بما كتبت عنه. فأتيته به فدعا بقرطاس ودواة، فجعلت أمل عليه وهو يكتب. وقال نصر بن علي، نا حسين بن عروة قال: قدم المهدي فبعث إلى مالك بألفي دينار، أو قال بثلاثة آلاف دينار. قال قتيبة: كنا إذا دخلنا على مالك خرج إلينا مكحلا مزينا مطيبا قد لبس من أحسن ثيابه، ثم تصدر فدعا بالمراوح، فأعطى لكل إنسان منا مروحة. ابن سعد: نا محمد بن عمر قال: كان مالك يشهد الصلوات والجمعة والجنائز، ويعود المرضى ويقضي الحقوق، ويجلس في المسجد. ثم ترك الجلوس في المسجد، فكان يصلي ويرجع إلى منزله. وترك شهود الجنائز فكان يأتي أصحابها فيعزيهم، ثم ترك ذلك كله حتى ترك الجمعة. واحتمل الناس ذلك كله وكانوا أرغب ما كانوا فيه وأشده له تعظيما، حتى مات على ذلك. وكان ربما كلم قي ذلك فيقول: ليس كل واحد يقدر أن يتكلم بعذره.". (١)

١٣-"ومن كلامه في العشق، قال العشق استحسان ينضاف إليه طمع، وقال العشق من فعل النفس وهي كامنة في الدماغ والقلب والكبد، وفي الدماغ ثلاث قوى التخيل، وهو في مقدم الرأس والفكر، وهو في وسطه؛ والفكر، وهو في مؤخره، وليس يكمل أحد اسم عاشق حتى يكون إذا فارق من يعشقه لم يخل من تخيله وفكره وذكره، وقلبه وكبده، فيمنع من الطعام والشراب باشتغال الكبد، ومن النوم باشتغال الدماغ بالتخييل، والذكر له والفكر فيه، فيكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به، فمتى لم تشتغل به وقت الفراق لم يكن عاشقا، فإذا لقيه خلت هذه المساكن.
قال حنين بن إسحاق وكان منقوشا على فص خاتم جالينوس من كتم داءه أعياه شفاؤه.
ومن كلام جالينوس، مما ذكره أبو الوفاء المبشر بن فاتك، في كتاب مختار الحكم ومحاسن الكلم قال جالينوس لن تنل، واحلم تنبل، ولا تكن معجبا فتمتهن،وقال العليل الذي يشتهي، أرجى من الصحيح الذي لا يشتهي،وقال لا يمنعك من فعل الخير ميل النفس إلى الشر،وقال رأيت كثيرا من الملوك يزيدون في ثمن الغلام المتأدب باللوم والصناعات، وفي ثمن الدواب الفاضلة في أجناسها، ويغفلون أمر أنفسهم في التأدب، حتى لو عرض على أحدهم غلام مثله ما اشتراه ولا قبله، فكان من أقبح الأشياء عندي أن يكون المملوك يساوي الجملة من المال، والمالك لا يجد من يقبله مجانا، وقال كان الأطباء يقيمون أنفسهم مقام الأمراء، والمرضى مقام المأمورين الذين لا يتعدون ما حد لهم، فكان الطب في أيامهم أنجع، فلما حال الأمر في زماننا فصار العليل بمنزلة الأمير، والطبيب بمنزلة المأمور، وخدم الأطباء رضا الإعلاء، وتركوا خدمة أبدانهم، فقل الانتفاع بهم،وقال أيضا كان الناس قديما يجتمعون على الشراب والغناء، فيتفاضلون في ذكر ما تعمله الأشربة في الأمزجة، والألحان في قوة الغضب، وما يرد كل واحد منها من أنواعه؛ وهم اليوم إذا اجتمعوا فإنما يتفاضلون بعظم الأقداح التي يشربونها،وقال من عود من صباه القصد في التدبير كانت حركات شهواته معتدلة؛ فأما من اعتاد أن لا يمنع شهواته منذ صباه ولا يمنع

(١) تاريخ الإسلام للإمام الذهبي ٣٢٤/١١

نفسه شيئا مما تدعوه إليه، فذلك يبقى شرها، وذلك إن كل شيء يكثر الرياضة في الأعمال التي تخصه يقوى؛ وكل شيء يستعمل السكون يضعف، وقال من كان من الصبيان شرها شديد القحة، فلا ينبغي أن يطمع في صلاحه البتة؛ ومن كان منهم شرها ولم يكن وقحا فلا ينبغي أن يؤيس من صلاحه، ويقدر أنه إن تأدب يكون إنسانا عفيفا، وقال الحياء خوف المستحي من نقص يقع به عند من هو أفضل منه، وقال يتهيأ للإنسان أن يصلح أخلاقه إذا عرف نفسه، فإن معرفة الإنسان نفسه هي الحكمة العظمى، وذلك أن الإنسان لإفراط محبته لنفسه، بالطبع، يظن بها من الجميل ما ليست عليه، حتى أن قوما يظنون بأنفسهم أنهم شجعاء وكرماء وليسوا كذلك، فأما العقل فيكاد أن يكون الناس كلهم يظنون بأنفسهم التقدم فيه، وأقرب الناس إلى أن يظن ذلك بنفسه أقلهم عقلا، وقال العادل من قدر على أن يجور فلم يفعل، والاقل من عرف كل واحد من الأشياء التي في طبيعة الإنسان معرفتها على الحقيقة، وقال العجب ظن الإنسان بنفسه أنه على الحال التي تحب نفسه أن يكون عليها من غير أن يكون عليها، وقال كما أن من ساءت حال بدنه من مرض به وهو ابن خمسين سنة ليس يستسلم ويترك بدنه حتى يفسد ضياعا، بل يلتمس أن يصح بدنه، وإن لم يفد صحة تامة؛ كذلك ينبغي لنا أن لا نمتنع من أن نزيد أنفسنا صحة على صحتها، وفضيلة على فضيلتها، وإن كنا لا نقدر أن نلحقها بفضيلة نفس الحكيم. وقال يتهيأ للإنسان أن يسلم من أن يظن بنفسه أنه أعقل الناس، إذا قلد غيره، امتحان كل ما يفعله في كل يوم، وتعريفه صواب فعله من خطئه، ليستعمل الجميل ويطرح القبيح، ورأى رجلا تعظمه الملوك لشدة جسمه، فسأل عن أعظم ما فعله، فقالوا إنه حمل ثورا من وسط الهيكل حتى أخرجه إلى خارج، فقال لهم فقد كانت نفس الثور تحمله ولم تكن لها في حمله فضيلة، ونقلت من كلام جالينوس أيضا من مواضع أخر، قال جالينوس إن العليل يتروح بنسيم أرضه، كما تروح الأرض الجدية ببل القطر، وسئل عن الشهوة فقال بلية تعير لا بقاء لها، وقيل له لم تحضر مجالس الطرب والملاهي؟ قال لأعرف القوى والطبائع في كل حال من منظر ومسمع". (١)

١٤-" وتوجه كرجي وطغجي إلى منكوتمر بدار النيابة من قلعة الجبل ، ودقا عليه الباب ، وقالا له : السلطان يطلبك ؛ فأنكر مجيئهما ، وقال لهما : قتلتماه ؟ ! . فقال كرجي : نعم يا مأبون ، وجئنا لنقتلك ؛ فاستجار منكوتمر بطغجي ؛ فأجاره . ثم وقع أمور آلت إلى قتله في الليلة المذكورة ؛ لأنهم قالوا : نحن ما قتلنا أستاذه إلا من أجله ؛ فكيف نبقيه ؟ ! . ثم نهبوا دار منكوتمر في الحال . واتفقوا على إعادة الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى ملكه ، وتحالفوا على ذلك ، وأرسلوا لإحضاره سلار الصغير . وعمل طغجي نيابة السلطنة أربعة أيام . فلما حضر الأمير عبد الله أمير سلاح من غزوة الشام قتل كرجي وطغجي وغيرهما – حسبما ذكرناه في [تاريخنا] ((النجوم الزاهرة)) ، وأيضا في ((المنهل الصافي)) – . ثم أرسلوا في مجئ [الملك] الناصر ثانيا ، إلى أن حضر من الكرك ، وتسلطن ثاني مرة – حسبما يأتي ذكره – . وقتل الملك المنصور لاجين وهو في عشر الخمسين أو جاوزها ، وكانت مدة أيامه في السلطنة سنتين وثلاثة أشهر . وكان المنصور من أعقل الناس [وأحسنهم] ، وأحشمهم ، وأشجعهم ، وهو الذي عمر الجامع الطولوني –

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص/٧٥

خارج القاهرة – بعدما كان أشرف على الخراب ، وأوقف عليه هذه الأوقاف الجليلة ، وهو الذي راك الديار المصرية – ((الروك الحسامي)) – وهو الذي أبطل الثلج الذي كان ينقل من الشام إلى مصر في البحر .

". (١)

١٥–"وقال عيسى بن مسكين: سحنون زاهد هذه الأمة ولم يكن بين مالك وسحنون أفقه من سحنون وقال بعضهم: ما رأيت أحدا أهيب من سحنون وقال الشيرازي: إليه انتهت الرئاسة في العلم بالمغرب وعلى قوله المعول بالمغرب وصنف المدونة وعليها يعتمد أهل القيروان وحصل له من الأصحاب ما لم يحصل لأحد من أصحاب مالك وعنه انتشر علم مالك بالمغرب.

قال أبو علي بن البصير: سحنون فقيه أهل زمانه وشيخ عصره وعالم وقته قال بن حارث: كان سحنون أفضل الناس صاحبا وأعقل الناس صاحبا وأفقه الناس صاحبا وكانت هذه الصفات صفات سحنون فخلق بها أصحابه رحمهم الله تعالى.

ذكر ولايته القضاء وسيرته: ولي سحنون قضاء إفريقية سنة أربع وثمانين ومائتين – وسنه إذ ذاك أربع وسبعون سنة فلم يزل قاضيا إلى أن مات ولما ولي القضاء دخل على ابنته خديجة وكانت من خيار النساء فقال لها: اليوم ذبح أبوك بغير سكين فعلم الناس قبوله القضاء.

وقال: حدثني بن وهب ورفع سحنون سنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: " نعم المطية الدنيا فارتحلوها فإنها تبلغكم الآخرة " . وكان سحنون لا يأخذ لنفسه رزقا ولا صلة من السلطان في قضائه كله و يأخذ لأعوانه وكتابه وقضاته من جزية أهل الكتاب وقال للأمير: حبست أرزاق أعواني وهم أجراؤك وقد وفوك عملك ولا يحل ذلك لك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه " .

وكان يضرب الخصوم إذا أذى بعضهم بعضا بكلام أو تعرضوا للشهود ويقول: إذا تعرض للشهود كيف يشهدون؟ ويؤدب الخصم إن طعن على الشاهد بعيب أو تجريح أو يقول: سل لي عن البينة إنهم كذا حتى يسئله عن تجريحه ويقول للخصم: أنا أغنى بذلك منك وهو علي دونك.

وكان إذا دخل عليه الشاهد – ورعب منه – أعرض عنه حتى يستأنس وتذهب روعته فإن طال ذلك به هون عليه وقال له: ليس معي سوط ولا عصا ولا عليك بأس أد ما علمت ودع ما لم تعلم.

وكان يؤدب الناس على الأيمان التي لا تجوز من الطلاق والعتق حتى لا يحلفوا بغير الله عز وجل. وتخاصم إليه رجلان صالحان من أصحابه ممن نظر في العلم فأقامهما وأبى أن يسمع منهما وقال: استرا عني ما ستر الله عليكما. وكان يؤدب على الغش وينفي من الأسواق من يستحق ذلك وكان يجلس في بيت في الجامع بناه لنفسه إذا رأى كثرة الناس وكثرة كلامهم فكان لا يحضر عنده غير الخصمين ومن يشهد بينهما في دعواهما وسائر الناس عنه بمعزل لا يراهم ولا يسمع كلامهم ولا يشغل باله

---

(١) مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة ٥٤/٢

أمرهم.

وكان الناس يكتبون أسماءهم في رقاع تجعل بين يديه ويدعوهم واحدا واحدا إلا أن يأتي مضطر أو ملهوف. وكان كثيرا ما يؤدب بلطم القفا ولم يل قضاء إفريقية مثله. وقال سحنون: ليس من السنة أن أدعوك إلى طعام غيري ولو كان لي لفعلت وقال: قال عليه السلام: " إذا أحب الله عبدا سلط عليه من يؤذيه " .

قال بن عجلان الأندلسي: ما بورك لأحد بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بورك لسحنون في أصحابه إنهم كانوا بكل بلد أئمة.

قال بن حارث: سمعتهم يقولون: كان سحنون من أيمن عالم دخل المغرب كأن أصحابه مصابيح في كل بلد وعد له نحو سبعمائة رجل ظهروا بصحبته وانتفعوا بمجالسته.

حكم من كلامه رحمه الله تعالى: قال سحنون لابنه محمد: يا بني سلم على الناس فإن ذلك يزرع المودة وسلم على عدوك وداره فإن رأس الإيمان بالله مداراة الناس.

وكان يقول: من لم يعمل بعلمه لم ينفعه العلم بل يضره وإنما العلم نور يضعه الله في القلوب فإذا عمل به نور قلبه وإن لم يعمل به وأحب الدنيا أعمى حب الدنيا قلبه ولم ينوره العلم.

وكان يقول: ترك الحلال أفضل من جميع عبادات الله تعالى وترك لحلال الله أفضل من أخذه وإنفاقه في طاعة الله تعالى.

وقال: ترك دانق مما حرم الله أفضل من سبعين ألف حجة تتبعها سبعون ألف عمرة مبرورة متقبلة وأفضل من سبعين ألف فرس في سبيل الله بزادها وسلاحها ومن سبعين ألف بدنة تهديها إلى بيت الله العتيق وأفضل من عتق سبعين ألف رقبة مؤمنة من ولد إسماعيل.

فبلغ كلامه هذا عبد الجبار بن خالد فقال: نعم وأفضل من ملء الأرض إلى عنان السماء ذهبا وفضة كسبت وأنفقت في سبيل الله لا يراد بها إلا وجه الله عز وجل.

وكان يقول: انظر أبدا: الأمرين يكون فيهما الثواب فأثقلهما عليك هو أفضل.". (١)

١٦-"لاجين السلطان الملك المنصور حسام الدين المنصوري مملوك المنصور قلاوون: أمره أستاذه عندما تسلطن، وبعثه نائبا على قلعة دمشق.فلما تسلطن سنقر الأشقر بدمشق ودخل القلعة قبض عليه.

فلما انكسر سنقر الأشقر أخرجه الأمير علم الدين الحلبي.

ثم رتب في نيابة السلطنة بمرسوم السلطان ودخل عفي خدمته إلى دار السعادة، فعمل بالنيابة أحد عشر سنة.

ثم عزله الأشرف بالشجاعي. وكان جيد السيرة محببا إلى الدماشقة، فيه عقل زايد وسكون وشجاعة مشهورة ودين وإسلام.

وكان شابا أشقر في لحيته طول يسير وخفة، وجهه رقيق معرق وعليه هيبة وهيئة تامة في قده رشاقة.

خنق بين يدي الملك الأشرف خليل ثم خلي فإذا فيه روح. ورق له السلطان وأطلقه ورده إلى رتبته.

---

(١) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ص/٩٨

ويقال أنه إنما قام على الأشرف لأنه تعرض لبيته بنت طقصو فعز ذلك عليه.
ولما قتل الأشرف هو وبيدرا اختفى، وتنقل في البيوت وقاسى الأهوال من الجوع والعطش والخوف، ثم أجاره كتبغا وأحسن إليه، ودخل به إلى السلطان الملك الناصر، وقرر معه أن يخلع عليه ويحسن إليه، ففعل به ذلك وأعطاه خبزا.
فلما ملك كتبغا جعله نائب السلطنة، فوثب عليه كما تقدم في ترجمة كتبغا وقتل غلاميه الأزرق وبتخاص، وتغافل عنه لما عليه من الأيادي.
وهرب كتبغا كما تقدم. وساق لاجين الخزائن والعساكر بين يديه من الغور وما دخل غزة إلا وهو سلطان، ولم يختلف عليه اثنان، وتملك أول صفر سنة وجلس على سرير الملك، وبعث قبجق نائبا بدمشق لأنه خوشداشاه، وجعل قراسنقر نائبه بمصر إلى أن تمكن وقبض عليه، وأقام مكانه في النيابة مملوكه منكوتمر، فحسن له القبض على الأمراء، فاسمك البيسري وقارسنقر وايبك الحموي وسقى جماعة، ولذلك هرب قبجق وبكتمر والكي وبزلار إلى التتار، ولم يخرج إلى الشام مدة ملكه.
ولما كان في يوم الخميس عاشر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وستمائة، ركب في موكبه وهو صائم، وعمل عليه جماعة من الأشرفية: دخلوا عليه بعد العشاء الآخرة وهو مكب على اللعب بالشطرنج وما عنده إلا القاضي حسام الدين الحنفي وعبد الله الأمير وبريد البدوي، وإمامه محب الدين ابن العسال.
فأول من ضربه بالسيف كرجي مقدم البرجية. وتوجه طغجي وكرجي إلى دار منكوتمر ودقا عليه الباب وقالا: السلطان يطلبك فنكرهما وقال: قد قتلتماه، فقال كرجي: نعم يا مأبون بيتنا لنقتلك، فاستجار بطغجي فأجاره وحلف له، فخرج إليهما، فذهبا به إلى الجب وأنزلاه، فاغتنم كرجي الغفلة وحضر إلى الجب وأخرج منكوتمر من الجب وذبحه وقال: نحن ما قتلنا أستاذه إلا من أجله فما في بقائه فائدة.
ونهبوا دياره في الحال، واتفقوا على إعادة الملك الناصر محمد من الكرك إلى الملك، وأن يكون طغجي نائبا، وحلفوا له على ذلك.
وارسلوا سلار لإحضاره وهو أمير صغير.
وعمل طغجي النيابة أربعة أيام، فلما حضر أمير سلاح من غزوة الشام وقتل طغجي وكرجي عندما التقياه، وبقي يعلم على الكتب ثمانية أمراء: سلار والجاشنكير وبكتمر أمير جندار وجمال الدين نقوش الفرم والحسام استاد الدار وكزد وأيبك الخزندار والأمير عبد الله.
وقتل لاجين وهو في عشر الخمسين أو جاوزها بقليل وقيل: إن السلطان الملك المنصور قلاوون قال لولده الملك الأشرف خليل: إذا صار الأمر إليهم فلا تعارض طرنطاي ولا تشوش عليه، فما يخونك.
وأما لاجين فلا تكلمه وإن أمسكته فلا تبقه، فخالفه الشرف في أمر المذكورين.
وكان حسام الدين لاجين من أعقل الناس وأنصفهم. وهو الذي خرج الخلفاء من الحبس وابطل الثلج الذي ينقل في البحر من الشام إلى مصر وقال: أنا كنت في الشام وأعلم ما يقاسي الناس في وسقه. وكان ذكيا نبيها.
حكى لي القاضي شهاب الدين أحمد بن فضل الله قال: حكى لي والدي أنه وصل إليه بعض الأيام بريد من مصر، وعلى يبده كتاب من طرنطاي ومما فيه بخطه أن الخروف نطح كبشه اقلبه، فقال لي: ما هذا يا محيي الدين؟ قلت: لا أعلم، فقال:

هذا الكلام معناه أن بيدرا قد وثب على عمه الشجاعي، وكذا كان، فإن الشجاعي كان زوج أم بيدرا، فعمل عليه عند المنصور وأمسكه وعزله وصادره، وهذا في غاية الفهم من مثل هذه الإشارة.

وحكى لي الأمير شرف الدين أمير حسين بن جندر قال، قال لي حسام الدين:". (١)

١٧-"قال محمد بن أحمد بن تميم: كان الذين يحضرون مجلس سحنون من العباد أكثر من يحضره من طلبة العلم، كانوا يأتونه من أقطار الأرض. قال بعض أصحابه: عرست فدعوت ليلة عرسي جماعة من أصحاب أصحابنا وفيهم رجل من أهل المشرق، من أصحاب حنبل، قدم علينا. وكنا نسمع منه. فكان أصحابنا في أول الليلة في قراءة وبكاء، وتعبد وخشوع ثم أخذوا بعد ذلك في مسائل العلم، ثم ابتدروا بعد ذلك إلى زوايا بالدار، يصلون أحزابهم. فقال الشيخ: أصحاب من هؤلاء، ومن معلمهم؟ فوالله ما رأيت قط أقبل منهم، وما صحبوا رجلا إلا نبلوه. فقال: أصحاب سحنون. فقال: والله لقد رأيت العلماء عندنا بالمشرق، فوالله ما رأيت مثل هؤلاء. قال ابن عجلان الأندلسي: ما بورك لأحد بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما بورك لسحنون في أصحابه، إنهم في كل بلد ائمة قال ابن حارث سمعتهم يقولون كان سحنون من أيمن العلماء؟ دخل المغرب، كأن أصحابه مصابيح، في كل بلدة، عد له نحو سبعمائة رجل، ظهروا بصحبته وانتفعوا بمجالسه، وسمعتهم يقولون: كان سحنون أعقل الناس صاحبا وأفضل الناس في باب الدين صاحبا، وأفقه الناس صاحبا. وقام سحنون بقصر زياد مرابطا، خمسة عشر يوما من رمضان. وحكى ابن اللباد، إن سحنون قال لأبنه محمد: يا بني، سلم على الناس، فإن ذلك يزرع المودة. وسلم على عدوك وداره، فإن رأس الإيمان بالله المداراة بالناس. وحكى المالكي أنه نقب بيت سحنون وهو قائم في تهجده، وأخذ ما كان في البيت، وهو لا يشعر، ثم أخذت القلنسوة من رأسه، فلم يلتفت لشغله بما كان فيه، وجيء إليه للصلاة على مقتول، فقال لم تحضرني نية. فأتى آخرون فقالوا له: فلان أصلحك الله، قتل وطرح في بئر، وقد أخرجناه، فصل عليه. فقال: ومن قتله؟ قالوا: هذا المقتول الذي سئلت قبل الصلاة عليه. فصلى سحنون على هذا. وكانت منه فراسة. قال سليمان بن سالم: أتى رجل من صطفورة فسأل سحنون عن مسألة، وتردد عليه. فقال له: أصلحك الله مسألتي في ثلاثة أيام. فقال له: وما أصنع لك؟ ما حيلتي في مسألتك؟ نازلة معضلة، وفيها أقاويل، وأنا أتخير في ذلك. فقال الرجل الصطفوري: وأنت أصحك الله لكل معضلة. فقال: هيهات، ليس يا ابن أخي. فقولك أبذل لك لحمي ودمي إلى النار، ما أكثر ما لا أعرف، إن صبرت رجوت إن تنقلب بمسألتك، وإن أردت غيري فامض، تجاب عن ساعة. فقال: إنما جئت إليك ولا أبتغي غيرك. قال: فاصبر عافاك الله. ثم أجابه بعد ذلك. وأرسل أسد بن الفرات وهو قاض إلى سحنون، وعون وابن رشيد وموسى الصمادحي، فسألهم عن مسألة في الأحكام، فأجاب فيها ابن رشيد وعون، وأبى فيها سحنون عن الجواب. فلما أخرجوا عذلاه في تركه. فقال لهما: منعني إنكما بدرتما بالجواب فأخطأتما، وكرهت إن أخالفكما فندخل عليه إخوانا ونخرج أعداء، وبين لهما وجه خطأهما. فجزياه خيرا، واعترفا. ورجع إلى أسد، فأخبراه برجوعهما. قال القاضي: لعل سحنون عدل على ما عرف من فضلهما، من أنهما إذا بين لهما وجه خطأهما رجعا،

---

(١) الوافي بالوفيات ٢٩٢/٧

فأعلم أسدا برجوعهما كما فعلا. وإن الحكم، كان بعد لم يحن وقت نفوذه. وإلا فهو في فضله وورعه كان لا يسكت على مثل هذا، إلا رجاء أن يستبين الحق بلا تعلة، ولا مخالفة. قال سحنون: أجرا للناس على الفتيا، أقلهم علما. يكون عند الرجل باب واحد من العلم، فيظن أن الحق كله فيه. قال سحنون: إني لأسأل عن المسألة، فأعرف في أي كتاب وورقة وصفحة وسطر، فما يمنعني عن الجواب فيها إلا كراهة الجرأة بعدي على الفتيا. قال سحنون: وأنا أحفظ مسائل ما فيه ثمانية أقاويل من ثمان أئمة. فكيف يسعني أن أعجل بالجواب، حتى أتخير، وهو الأمر في حبس الجواب، أو كما قال، عبد الجبار بن خالد، قال رجل من الطلبة لسحنون: جئت اليوم ولم أسمع منك شيئا. فقال له: إن كنت في وقت خروجك ممن شيعته الملائكة، فقد سمعت، وإن لم تسمع. وإن كنت ممن لم تشيعه، فلم تسمع، وإن كنت سمعت. قال عيسى: قلت لسحنون تأتيك المسائل مشهورة مفهومة، فتأبى الجواب فيها. فقال سحنون: سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من فتنة المال. قال يحي بن عمر: لما قدمت إلى سحنون فسألت عنه، فقيل لي خرج إلى البادية، فجئته، فرأيت رجلا أشعر عليه جبة صوف ومنديل، وهو متول حرثه وشأنه، فاستصغرته وندمت على تركي من تركت بالمشرق، ومجيئي إليه. وقلت ما أراه يحفظ". (١)

١٨-"قال: هذا ابني، وإنما يفزع من هيبتك.

ثم ساءلني عن أشياء، منها حلال ومنها حرام، ثم قال لي: أنت -والله- أعقل الناس، وأعلم الناس.

قلت: لا والله يا أمير المؤمنين!

قال: بلى، ولكنك تكتم.

ثم قال: والله لئن بقيت، لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف، ولأبعثن به إلى الآفاق، فلأحملنهم عليه. (٦٢/٨)

الحسن بن عبد العزيز الجروي: حدثنا عبد الله بن يوسف، عن خلف بن عمر: سمع مالكا يقول:

ما أجبت في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني: هل تراني موضعا لذلك؟ سألت ربيعة، وسألت يحي بن سعيد، فأمراني بذلك.

فقلت: فلو نهوك؟

قال: كنت أنتهي، لا ينبغي للرجل أن يبذل نفسه حتى يسأل من هو أعلم منه.

قال خلف: ودخلت عليه، فقال: ما ترى؟

فإذا رؤيا بعثها بعض إخوانه، يقول: رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- في المنام، في مسجد قد اجتمع الناس عليه، فقال لهم:

إني قد خبأت تحت منبري طيبا أو علما، وأمرت مالكا أن يفرقه على الناس، فانصرف الناس وهم يقولون: إذا ينفذ مالك ما أمره به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم بكى، فقمت عنه.

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك ٢٣١/١

أحمد بن صالح: سمعت ابن وهب يقول:

قال مالك: لقد سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة، ما حدثت بها قط، ولا أحدث بها.". (1)

١٩-"وقال: الخير في خمسة: غنى النفس، وكف الأذى، وكسب الحلال، والتقوى، والثقة بالله. (١٠/٩٨)

وعنه: أنفع الذخائر التقوى، وأضرها العدوان.

وعنه: اجتناب المعاصي، وترك ما لا يعنيك، ينور القلب، عليك بالخلوة، وقلة الأكل، إياك ومخالطة السفهاء، ومن لا ينصفك، إذا تكلمت فيما لا يعنيك، ملكتك الكلمة، ولم تملكها.

وعنه: لو أوصى رجل بشيء لأعقل الناس، صرف إلى الزهاد.

وعنه: سياسة الناس أشد من سياسة الدواب.

وعنه: العاقل من عقله عقله عن كل مذموم.

وعنه: للمروءة أركان أربعة: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنسك.

وعنه: لا يكمل الرجل إلا بأربع: بالديانة، والأمانة، والصيانة، والرزانة.

وعنه: ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته. (١٠/٩٩)

وعنه: علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقا.

وعنه: من نم لك، نم عليك.

وعنه، قال: التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم اللئام، التواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة.

وقال: أرفع الناس قدرا، من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلا، من لا يرى فضله.

وقال: ما ضحك من خطأ رجل، إلا ثبت صوابه في قلبه.

لا نلام والله على حب هذا الإمام، لأنه من رجال الكمال في زمانه -رحمه الله- وإن كنا نحب غيره أكثر. (١٠/١٠٠)". (٢)

٢٠-"قلت: لم أسألك لطف الله، إنما سألتك صدقة.

فغضب، وقال: الصدقة لا تحل لك.

قلت: ولم؟

قال: لأن جريرا حدثنا عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة:

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة سوي).

---

(١) ترجمة الأئمة الأربعة ص/٤٢

(٢) ترجمة الأئمة الأربعة ص/١٩٢

فقلت: ترفق، يرحمك الله، فمعي حديث في كراهية العمل.

قال إسحاق: وما هو؟

قلت: حدثني أبو عبد الله الصادق الناطق، عن أفشين، عن إيتاخ، عن سيماء الصغير، عن عجيف بن عنبسة، عن زغلمج ابن أمير المؤمنين، أنه قال:

العمل شؤم، وتركه خير، تقعد تمنى، خير من أن تعمل تعنى.

فضحك إسحاق، وذهب غضبه.

وقال: زدنا. (١١/٣٦٦)

فقلت: وحدثنا الصادق الناطق بإسناده، عن عجيف، قال:

قعد زغلمج في جلسائه، فقال: أخبروني بأعقل الناس.

فأخبر كل واحد بما عنده، فقال: لم تصيبوا، بل أعقل الناس الذي لا يعمل؛ لأن من العمل يجيء التعب، ومن التعب يجيء المرض، ومن المرض يجيء الموت، ومن عمل، فقد أعان على نفسه، والله يقول: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء: ٢٩].

فقال: زدنا من حديثك.

فقال: وحدثني أبو عبد الله الصادق الناطق بإسناده عن زغلمج، قال:". (١)

٢١-"٧٧٥ - على بن الحسن بن يعقوب، أبو الحسن النهرواني المتعبد: ذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر أنه سكن دمشق، وحدث عن ابى إسحاق ابراهيم بن حاتم بن مهدى البلوطي، روى عنه على بن محمد الحنائي.

٧٧٦ - على بن الحسن، أبو الحسن (١) الكاتب، المعروف بابن الماشي ة (٢): كان من مشايخ الكاتب وأعيانهم، وله صناعة في الخراج وتقدم في الحساب، وصنف في ذاك كتبا، وكان يتصرف في أعمال السلطان، ذكره أبو عبد الله المرزباني وقال: رأيته شيخا كبيرا بعد العشر وثلاثمائة وجاوز التسعين وله شعر، وقد حكى عن الفضل بن مروان وزير المستنصر بن المتوكل، روى عنه على بن هشام الكاتب.

٧٧٧ - على بن الحسن الطيالسي علان: ذكره القاضي أبو الوليد يوسف بن محمد بن الفرضى في كتاب " الالقاب " من جمعه، وذكر أنه بغدادي، يروى عن عباس بن حمد الدوزرى وصالح بن احمد بن حنبل روى عنه محمد بن عبد الملك بن أيمن (٣) والقاسم بن أصبغ.

ثم قال: أنبانا احمد بن عبد الله بن عبد الرحيم، حدثنا محمد بن عبد الملك، حدثنا على بن الحسن الطيالسي علان ببغداد، حدثنا صالح بن احمد بن حنبل، حدثنى ابى قال: سمعت محمد بن ادريس الشافعي يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: سمعت ابن عجلان يقول: إذا أعقل الناس العالم " لا أدرى " أصيب مقاله.

٧٧٨ - على بن الحسن بن الزجاج، أبو الحسن الزاهد: من ساكني باب الطاق، ذكر طلحة الشاهد أنه مات في سنة أربع

---

(١) ترجمة الأئمة الأربعة ص/٤٠٥

وخمسين وثلاثمائة في جمادى الاخرة لعشر بقين منها.

٧٧٩ - على بن الحسن الثقفي: حدث بأصبهان عن ابى جعفر محمد بن الحسن بن بدينا الموصلي، روى عنه أبو

---

(١) في المراجح السابق: أبو الحسين.

(٢) انظر هدية العارقين ١ / ٦٨٠.

(٣) في الاصل بياض مكان " أيمن ".

(*)".(١)

٢٢-"مسلم من طريق إسماعيل بن جعفر، عن عبد الله بن عبدالرحمن وهو أبو طوالة، ولم يخرج البخاري لابي يونس شيئا فيما علمت، والله أعلم.

قال أبو عبد الله الحاكم وذكر سادة من أئمة التابعين بالمدينة، كابن المسيب، ومن بعده قال: فما ضربت أكباد الابل من النواحي إلى أحد منهم دون غيره، حتى انقرضوا وخلا عصرهم، ثم حدث مثل ابن شهاب، وربيعة، ويحيى بن سعيد، وعبد الله بن يزيد بن هرمز، وأبي الزناد، وصفوان بن سليم، وكلهم يفتي بالمدينة، ولم ينفرد واحد منهم بأن ضربت إليه أكباد الابل حتى خلا هذا العصر فلم يقع بهم التأويل في عالم أهل المدينة.

ثم حدث بعدهم مالك، فكان مفتيها، فضربت إليه أكباد الابل

من الآفاق، واعترفوا له، وروت الائمة عنه ممن كان أقدم منه سنا، كالليث عالم أهل مصر والمغرب، وكالاوزاعي عالم أهل الشام ومفتيهم، والثوري، وهو المقدم بالكوفة، وشعبة عالم أهل البصرة.

إلى أن قال: وحمل عنه قبلهم يحيى بن سعيد الانصاري حين ولاه أبو جعفر قضاء القضاة، فسأل مالكا أن يكتب له مئة حديث حين خرج إلى العراق، ومن قبل كان ابن جريج حمل عنه.

أبو مصعب: سمعت مالكا يقول: دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين، وقد نزل على مثال له يعني فرشه وإذا على بساطه دابتان ما تروثان ولا تبولان، وجاء صبي يخرج ثم يرجع، فقال لي: أتدري من هذا ؟ قلت: لا.

قال: هذا ابني، وإنما يفزع من هيبتك، ثم ساءلني عن أشياء منها جلال، ومنها حرام، ثم قال لي: أنت والله أعقل الناس، وأعلم الناس.

قلت: لا والله يا أمير المؤمنين.

قال: بلى.

ولكنك تكتم.

---

(١) ذيل تاريخ بغداد ٢١١/٣

ثم قال: والله لئن بقيت لاكتبن قولك كما تكتب المصاحف، ولابعثن به إلى". [1]

٢٣-"الصادق الناطق بإسناده عن عجيف، قال: قعد زغلمج في جلسائه، فقال: أخبروني بأعقل الناس، فأخبر كل واحد بما عنده، فقال: لم تصيبوا.

بل أعقل الناس الذي لا يعمل، لان من العمل (يجئ) (١) التعب، ومن التعب يجئ المرض، ومن المرض يجئ الموت، ومن عمل، فقد أعان على نفسه.

والله يقول: (ولا تقتلوا أنفسكم) (النساء: ٢٩) فقال: زدنا من حديثك.

فقال: وحدثني (أبو عبد الله) (٢) الصادق الناطق بإسناده عن زغلمج، قال: من أطعم أخاه شواء (٣)، غفر الله له عدد النوى، ومن أطعم أخاه هريسة، غفر له مثل الكنيسة، ومن أطعم أخاه جنب (٤)، غفر الله له كل ذنب.

فضحك إسحاق، وأمر له بدرهمين ورغيفين.

أوردها ابن حبان، ولم يضعفها.

قال أحمد بن سلمة: سمعت إسحاق يقول: قال لي الامير الامير عبد الله بن طاهر: لم قيل لك: ابن راهويه ؟ وما معنى هذا ؟ وهل تكره أن يقال لك ذلك ؟ قال: اعلم أيها الامير أن أبي ولد في طريق مكة، فقالت المراوزة: راهويه، لانه ولد في الطريق، وكان أبي يكره هذا.

وأما أنا، فلا أكرهه.

قال الحاكم: أخبرني الحسن بن خالد بن محمد الصائغ، حدثنا نصر ابن زكريا، سمعت إسحاق بن إبراهيم، يقول: سألني يحيى بن معين، عن حديث الفضل بن موسى...، حديث ابن عباس: "كان النبي، صلى الله عليه وسلم: يلحظ في الصلاة، ولا يلوي عنقه خلف ظهره " (٥).

---

* (الهامش) *

(١) و (٢) الزيادتان من " الضعفاء " لابن حبان ١ / ٨٧.

(٣) في " الضعفاء ": " تمرا ".

(٤) كذا الاصل، والوجه " جنبا " وحذفت الالف لمراعاة " ذنب " والجنب: شق الشاة، وفي " الضعفاء " ١ / ٨٨: جنبا.

(٥) أخرجه أحمد ١ / ٢٧٥ و ٣٠٦، والنسائي ٣ / ٩ في السهو: باب الرخصة في الالتفات =". [2]

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٦١

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/٣٦٦

٢٤-"قال: هذا ابني، وإنما يفزع من هيبتك.

ثم ساءلني عن أشياء، منها حلال ومنها حرام، ثم قال لي: أنت -والله- أعقل الناس، وأعلم الناس.

قلت: لا والله يا أمير المؤمنين!

قال: بلى، ولكنك تكتم.

ثم قال: والله لئن بقيت، لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف، ولأبعثن به إلى الآفاق، فلأحملنهم عليه. (٦٢/٨)

الحسن بن عبد العزيز الجروي: حدثنا عبد الله بن يوسف، عن خلف بن عمر: سمع مالكا يقول:

ما أجبت في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني: هل تراني موضعا لذلك؟ سألت ربيعة، وسألت يحيى بن سعيد، فأمراني بذلك.

فقلت: فلو نهوك؟

قال: كنت أنتهي، لا ينبغي للرجل أن يبذل نفسه حتى يسأل من هو أعلم منه.

قال خلف: ودخلت عليه، فقال: ما ترى؟

فإذا رؤيا بعثها بعض إخوانه، يقول: رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- في المنام، في مسجد قد اجتمع الناس عليه، فقال لهم:

إني قد خبأت تحت منبري طيبا أو علما، وأمرت مالكا أن يفرقه على الناس، فانصرف الناس وهم يقولون: إذا ينفذ مالك ما أمره به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم بكى، فقمت عنه.

أحمد بن صالح: سمعت ابن وهب يقول:

قال مالك: لقد سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة، ما حدثت بها قط، ولا أحدث بها.

" . (١)

٢٥-"وقال: الخير في خمسة: غنى النفس، وكف الأذى، وكسب الحلال، والتقوى، والثقة بالله. (٩٨/١٠)

وعنه: أنفع الذخائر التقوى، وأضرها العدوان.

وعنه: اجتناب المعاصي، وترك ما لا يعنيك، ينور القلب، عليك بالخلوة، وقلة الأكل، إياك ومخالطة السفهاء، ومن لا ينصفك، إذا تكلمت فيما لا يعنيك، ملكتك الكلمة، ولم تملكها.

وعنه: لو أوصى رجل بشيء لأعقل الناس، صرف إلى الزهاد.

وعنه: سياسة الناس أشد من سياسة الدواب.

وعنه: العاقل من عقله عقله عن كل مذموم.

وعنه: للمروءة أركان أربعة: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنسك.

---

(١) سير أعلام النبلاء [مشكول + موافق للمطبوع] ٦١/١٥

وعنه: لا يكمل الرجل إلا بأربع: بالديانة، والأمانة، والصيانة، والرزانة.

وعنه: ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته. (١٠/٩٩)

وعنه: علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقا.

وعنه: من نم لك، نم عليك.

وعنه، قال: التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم اللئام، التواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة.

وقال: أرفع الناس قدرا، من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلا، من لا يرى فضله.

وقال: ما ضحك من خطأ رجل، إلا ثبت صوابه في قلبه.

لا نلام والله على حب هذا الإمام، لأنه من رجال الكمال في زمانه -رحمه الله- وإن كنا نحب غيره أكثر. (١٠/١٠٠)". (١)

٢٦-"قلت: لم أسألك لطف الله، إنما سألتك صدقة.

فغضب، وقال: الصدقة لا تحل لك.

قلت: ولم؟

قال: لأن جريرا حدثنا عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة:

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة سوي).

فقلت: ترفق، يرحمك الله، فمعي حديث في كراهية العمل.

قال إسحاق: وما هو؟

قلت: حدثني أبو عبد الله الصادق الناطق، عن أفشين، عن إيتاخ، عن سيماء الصغير، عن عجيف بن عنبسة، عن زغلمج ابن أمير المؤمنين، أنه قال:

العمل شؤم، وتركه خير، تقعد تمنى، خير من أن تعمل تعنى.

فضحك إسحاق، وذهب غضبه.

وقال: زدنا. (١١/٣٦٦)

فقلت: وحدثنا الصادق الناطق بإسناده، عن عجيف، قال:

قعد زغلمج في جلسائه، فقال: أخبروني بأعقل الناس.

فأخبر كل واحد بما عنده، فقال: لم تصيبوا، بل أعقل الناس الذي لا يعمل؛ لأن من العمل يجيء التعب، ومن التعب يجيء المرض، ومن المرض يجيء الموت، ومن عمل، فقد أعان على نفسه، والله يقول: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء: ٢٩].

فقال: زدنا من حديثك.

---

(١) سير أعلام النبلاء [مشكول + موافق للمطبوع] ١٩/٨٠

فقال: وحدثني أبو عبد الله الصادق الناطق بإسناده عن زغلمج، قال:
". (١)

٢٧-""""" صفحة رقم ٣٢٩ """"

وحيث استطرد القلم ذكر التتار وفعلهم القبيح فلا بأس يشرح حالهم على الاختصار ولنقتصر على الواقعتين العظيمتين واقعة جنكزخان وحفيده هولاكو فنقول

لما كانت سنة ست عشرة وستمائة كان فيها ظهور جنكزخان وجنوده وعبورهم نهر جيحون وهي الواقعة التي ما سطر مثلها المؤرخون والمصيبة التي ما عاينها الأولون والداهية التي ما خطرت ببال والكاينة التي تكاد ترجف عندها الجبال أجمع الناس على أن العالم مذ خلق الله تعالى آدم إلى زمانها لم يبتلوا بمثلها وأن ما فعله بخت نصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب بيت المنقدس يقصر عن فعلها

قال الحافظ عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الثير وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى ما قتلوا فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أضعاف بني إسرائيل ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتنفى الدنيا إلا يأجودج ومأجوج وأما الدجال فإنه يبقى على من ابتعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

قلت وحيث كنا في أول هذا الكتاب ذكرنا أنه كتاب تاريخ وأدب وفقه وحديث لاق بنا أن نشرح هذا الأمر العظيم على وجه الاختصار ونحكى هذا الخطب الجسيم الذي أظلم البصائر وأعمى الأبصار فنقول

كان القان الأعظم جنكزخان طاغية التتار وملكهم الأول الذي خرب البلاد وأباد العباد يسمى تموجين وكانوا ببادية الصين وهم من أصبر الناس على القتال وأشجعهم فملكوا جنكزخان عليهم وأطاعوه طاعة العباد المخلصين لرب العالمين

وكان مبدأ ملكه في سنة سبع وتسعين وخمسمائة بعد وقائع اتفقت له هنالك تقضي المرء عند سماعها العجب العجاب لا نرى التطويل بشرحها

ولا زال أمره يعظم ويكبر وكان من أعقل الناس وأخبرهم بالحروب ووضع له شرعا اخترعه ودينا ابتدعه لعنه الله الياسا لا يحكمون إلا به وكان كافرا يعبد الشمس

وكان السلطان الأعظم للمسلمين هو السلطان علاء الدين خوارز مشاه محمد بن تكش وكان ملكا عظيما اتسعت ممالكه وعظمت هيبته وأذعنت له العباد ودخلت تحت هكمه وخلت تلك الديار من ملك سواه لأنه قهر الناس كلهم وصار الناس كلهم تحت حكمه رجلا فاضلا كريما حليما خيرا وكان له عشرة آلاف مملوك كل منهم يصلح للملك وكانت عساكره عدد الحصا لا يعرف أولها من آخرها فتجبر وطغى وأرسل إلى خليفة الوقت وهو الناصر لدين الله الذي لا يصطلي لمكره

---

(١) سير أعلام النبلاء [مشكول + موافق للمطبوع] ٤٣٤/٢١

بنار ولا يعامل في أحواله بخداع يقول له كن معي كما كانت الخلفاء قبلك مع سلاطين السلجوقية كالب رسلان وملكشاه وأقربهم بنا عهدا السلطان سنجر فيكون أمر بغداد والعراق لي ولا يكون لك إلا الخطبة فيقال والله أعلم إن الخليفة جهز رسله إلى جنكزخان يحركه عليه

وأما جنكزخان فإنه لما علم عظمة خوارزمشاه شرع في عقد التوادد بينه وبينه علما من جنكزخان بأنه لا يقدر على معاداة خوارزمشاه وأرسل إليه الهدايا المفتخرة والتقادم السنية كل ذلك وخوارزمشاه لا يرضى باصطناعه ويدل بعظم ملكه ليقضي الله أمرا كان مفعولا

وجرت في أثناء ذلك فصول يطول شرحها آخرها أن خوارزمشاه منع التجار أن تسير من بلاده إلى بلاد جنكرخان فانقطعت أخبار بلاده عن جنكزخان زمنا". (١)

٢٨-""""" صفحة رقم ٣٣٠ """"

كان القان الأعظم جنكزخان طاغية التتار وملكهم الأول الذي خرب البلاد وأباد العباد يسمى تموجين وكانوا ببادية الصين وهم من أصبر الناس على القتال وأشجعهم فملكوا جنكزخان عليهم وأطاعوه طاعة العباد المخلصين لرب العالمين

وكان مبدأ ملكه في سنة سبع وتسعين وخمسمائة بعد وقائع اتفقت له هنالك تقضي المرء عند سماعها العجب العجاب لا نرى التطويل بشرحها

ولا زال أمره يعظم ويكبر وكان من أعقل الناس وأخبرهم بالحروب ووضع له شرعا اخترعه ودينا ابتدعه لعنه الله سماه الياسا لا يحكمون إلا به وكان كافرا يعبد الشمس

وكان السلطان الأعظم للمسلمين هو السلطان علاء الدين خوارز مشاه محمد بن تكش وكان ملكا عظيما اتسعت ممالكه وعظمت هيبته وأذعنت له العباد ودخلت تحت حكمه وخلت تلك الديار من ملك سواه لأنه قهر الناس كلهم وصار الناس كلهم تحت حكمه وكان رجلا فاضلا كريما حليما خيرا وكان له عشرة آلاف مملوك كل منهم يصلح للملك وكانت عساكره عدد الحصا لا يعرف أولها من آخرها فتجبر وطغى وأرسل إلى خليفة الوقت وهو الناصر لدين الله الذي لا يصطلي لمكره بنار ولا يعامل في أحواله بخداع يقول له كن معي كما كانت الخلفاء قبلك مع سلاطين السلجوقية كألب رسلان وملكشاه وأقربهم بنا عهدا السلطان سنجر فيكون أمر بغداد والعراق لي ولا يكون لك إلا الخطبة فيقال والله أعلم إن الخليفة جهز رسله إلى جنكزخان يحركه عليه

وأما جنكزخان فإنه لما علم عظمة خوارزمشاه شرع في عقد التوادد بينه وبينه علما من جنكزخان بأنه لا يقدر على معاداة خوارزمشاه وأرسل إليه الهدايا المفتخرة والتقادم السنية كل ذلك وخوارزمشاه لا يرضى باصطناعه ويدل بعظم ملكه ليقضي الله أمرا كان مفعولا

وجرت في أثناء ذلك فصول يطول شرحها آخرها أن خوارزمشاه منع التجار أن تسير من بلاده إلى بلاد جنكزخان

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى . موافق للمطبوع ٣٢٩/١

فانقطعت أخبار بلاده عن جنكزخان زمنا". [1]

٢٩-"لمن لقينا قلنا أي جان ... خره بدي كي درويشان همه غريبان سركردان (١)

يدعون لك وقت الإغلاس (٢) ... فهم صحيحين الأنفاس

وننقد العالم جيد ... نقول لذي المال يا سيد نريد كرامه للمسجد

رطيل شيرق (٣) في الجلاس (٤) ... لنشعله بين الجلاس

كأنكم بي يا خلان ... وأنا مجرد كالشيطان فقد قوي عندي ذا الشان

وقد فشر (٥) في أذني الخناس ... حتى ملا صدري وسواس

فلا تقولوا يا فقوس ... نرى جميع أمرك معكوس المغربي خلف منحوس

ما خلف إلا اغلب دعاس ... والشبل من نسل الهرماس

لكنني (٦) أصلي سمقون ... كشيح (٧) كالدر المكنون وقد صرت في عشقه مجنون

وهل على مثلي من باس ... إن هام بالقد المياس

مثل القمر أبيض أزهر ... بعارض كالآس أخضر من تاه في عشقه يعذر

لو باس قارون ذاك الآس ... هون على قلبو الإفلاس

دعنا نلذ العيش دعنا ... مع رفقة جازوا المعنى فأعقل الناس من غنى

كش البهار (٨) واصمي (٩) بالطاس ... ولا تقف مع قول الناس

---

(١) المعنى: نقول لمن لقينا: يا سيدي أعط الدراويش من نورك فإنهم غرباء هائمون على وجوههم. (سر كردان مستذلون، أفاقون، هائمون).

(٢) ر: الاعلاس، والمعنى وقت الغلس.

(٣) الشيرق: زيت الشيرج (السيرج).

(٤) ر: الحلاس؛ والجلاس: القنديل (دوزي أخذ سيرج للجلاس وزيت للسراج).

(٥) كذا في ر؛ وفي المطبوعة: فسا، وهو أنسب للمعنى.

(٦) كذا في ر؛ وفي المطبوعة: اسمي.

(٧) كشيح: لعله يعني أهيف الكشح.

(٨) في المطبوعة: النهار.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى. موافق للمطبوع ١/ ٣٣٠

(٩) الصمي: الشرب؛ وفي القصيدة الساسانية (اليتيمة ٣: ٣٥٩) وما ننفك من صمي.". (١)

٣٠-"مالك بن أنس

بشر أنس بن مالك بن أبي عامر ذات يوم ببشرى سعيدة، فقد رزقه الله بمولود أسماه (مالكا) كان ذلك الحدث السعيد سنة ثلاث وتسعين من الهجرة على بقعة من أطهر بقاع الأرض وهي المدينة المنورة، البلد الذي هاجر إليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، فاستنارت بهم وازدانت.

فتح مالك عينيه على الحياة، فوجد التقدير والمهابة يعم المدينة وأهلها، وكيف لا وقد حوى ترابها جثمان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ودفن فيها، وضمت أرجاؤها حلقات العلم التي تنتشر في كل مكان.

نشأ الطفل في أسرة تشتغل بالعلم، فجده (مالك بن أبي عامر) من كبار التابعين فشجعه ذلك على حفظ القرآن الكريم، فأتم حفظه وأتقن تلاوته، لكنه لم يكتف بذلك بل إنه أراد حفظ أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فذهب إلى أمه وقال لها: يا أماه إني أحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأريد أن أحفظ أحاديثه، فكيف لي بذلك؟! ابتسمت أمه ابتسامة صافية، وضمته إليها، ثم ألبسته ثيابا جميلة وعممته وقالت له: اذهب إلى (ربيعة الرأي) -وكان فقيها كبيرا- وتعلم من أدبه قبل علمه.

فجلس الطفل الصغير -مالك بن أنس- يستمع إلى شيخه وينهل من علمه، وبعد انتهاء الدرس يسرع بالجلوس تحت ظلال الأشجار ليحفظ ما سمعه من معلمه؛ حتى لا ينساه، وقد رأته أخته ذات مرة وهو على هذه الحال؛ فذهبت إلى أبيها وقصت عليه ما شاهدته، فقال لها: يا بنيتي إنه يحفظ أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكان مالك بن أنس كغيره من الأطفال الصغار يحب اللعب؛ فشغله ذلك عن الدرس والعلم قليلا إلى أن حدث له موقف كان له أثر كبير في حياته، فقد سأله أبوه يوما في مسألة هو وأخوه النضر، فأصاب النضر، وأخطأ مالك في الرد على السؤال؛ فغضب منه والده، فكانت هذه الحادثة سببا في عزمه على الجد والاجتهاد في العلم، فذهب من فوره إلى (ابن هرمز) وهو عالم كبير، فأخذ يتلقى العلم عليه سبع سنوات، وكان شديد الحرص على الاستفادة منه خلالها.

قال (ابن هرمز) لجاريته في يوم من الأيام: انظري من بالباب، فلم تر إلا (مالكا) فرجعت إلى الشيخ وقالت له: لا يوجد إلا ذلك الغلام الأشقر (تعني مالكا) فقال لها: دعيه يدخل فذلك عالم الناس!! وتعلم منه مالك كيف يرد على أصحاب البدع والضلالات، وأراد مالك المزيد، فذهب إلى نافع (مولى عبد الله بن عمر) أحد الرواة العظام الذين رووا عن ابن عمر أحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- وكان ينتظره في شدة الحر يترقب خروجه من منزله، ثم يصطحبه إلى المسجد، حتى إذا ما انتهى (نافع) من أداء الصلاة ومكث برهة؛ انتهز الصبي الصغير الفرصة وسأله في الحديث والفقه، فنهل من علمه وأخذ عنه ما في رأسه من نور رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) فوات الوفيات ٣٧/٣

ثم لازم مالك بن أنس المحدث الكبير (ابن شهاب الزهري) ليتعلم على يديه، وحرص على ألا يفوته درس من دروس هذا الشيخ، حتى يوم العيد نفسه وهو اليوم الذي يلهو فيه الصبيان ويمرحون، روي عن مالك أنه قال: شهدت العيد، فقلت: هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه، فسمعته يقول لجاريته: انظري من بالباب، فنظرت، فسمعتها تقول: مولاك الأشقر مالك.. قال: أدخليه، فدخلت، فقال: ما أراك انصرفت بعد إلى منزلك؟ قلت: لا، قال: هل أكلت شيئا ؟ قلت: لا، قال: اطعم، قلت: لا حاجة لي فيه، قال: فما تريد؟ قلت: تحدثني.. قال لي: هات، فأخرجت ألواحي، فحدثني بأربعين حديثا فقلت: زدني، قال: حسبك، إن كنت رويت هذه الأحاديث (أي يكفيك هذه الأحاديث إن كنت حفظتها) فأنت من الحفاظ، قلت: قد رويتها، فجذب الألواح من يدي، ثم قال حدث، فحدثته بها، فردها إلي.. أي الألواح.

ولم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكا في العلم والفقه، والحفظ، والعزة ولم يجلس للفتوى حتى شهد له سبعون من جلة العلماء أنه أهل لذلك، يقول الإمام مالك: (ما أجبت في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني: هل تراني موضعا لذلك؟ سألت ربيعة، وسألت يحيى بن سعيد، فأمراني بذلك، فقال له رجل: فلو أنهم نهوك؟ قال مالك: كنت أنتهي، لا ينبغي للرجل أن يبذل نفسه حتى يسأل من هو أعلم منه).

اشتهر الإمام مالك بكتابه (الموطأ) وهو كتاب حديث وفقه معا، جمع فيه ما قوي عنده من حديث أهل الحجاز وأضاف إليه أقوال الصحابة وفتاوى التابعين، ثم رتبه على أبواب الفقه كالطهارة والصلاة والزكاة، وقد عمل في هذا الكتاب نحو أربعين عاما، وقد تلقاه الناس بالقبول، وسمى مالك كتابه بهذا الاسم لأنه مهد به للناس ما اشتمل عليه من الحديث والفقه، أو لأن العلماء المعاصرين له بالمدينة واطئوه ووافقوه عليه، وقد طبع الكتاب كثيرا في مصر والهند.

والإمام مالك هو مؤسس المذهب المالكي الذي انتشر في المغرب العربي وبلاد الأندلس وصعيد مصر، فهذا هو مالك بن أنس شيخ الأئمة، وإمام دار الهجرة، مات بالمدينة سنة ١٧٩هـ وهو ابن تسعين سنة

الإمام مالك إمام دار الهجرة

إمام دار الهجرة

يروى في فضله ومناقبه الكثير ولكن أهمها ما روي [عن أبي هريرة يبلغ به النبي (صلى الله عليه وسلم) قال ليضربن الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة]

إنه الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وصاحب أحد المذاهب الفقهية الأربعة في الإسلام وهو المذهب المالكي، وصاحب كتب الصحاح في السنة النبوية وهو كتاب الموطأ. يقول الإمام الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

نسبه ومولده

هو شيخ الإسلام حجة الأمة إمام دار الهجرة أبو عبد الله مالك ابن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث وهو ذو أصبح بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعة وهو حمير الأصغر

الحميري ثم الأصبحي المدني حليف بني تيم من قريش فهم حلفاء عثمان أخي طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة.

وأمه هي عالية بنت شريك الأزدية وأعمامه هم أبو سهل نافع وأويس والربيع والنضر أولاد أبي عامر.

ولد مالك على الأصح في سنة ٩٣هـ عام موت أنس خادم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ونشأ في صون ورفاهية وتجمل

طلبه للعلم

طلب الإمام مالك العلم وهو حدث لم يتجاوز بضع عشرة سنة من عمره وتأهل للفتيا وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة وقصده طلبة العلم وحدث عنه جماعة وهو بعد شاب طري.

ثناء العلماء عليه

عن ابن عيينة قال مالك عالم أهل الحجاز وهو حجة زمانه.

وقال الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

وعن ابن عيينة أيضا قال كان مالك لا يبلغ من الحديث إلا صحيحا ولا يحدث إلا عن ثقة ما أرى المدينة إلا ستخرب بعد موته يعني من العلم.

. روي عن وهيب وكان من أبصر الناس بالحديث والرجال أنه قدم المدينة قال فلم أرى أحدا إلا تعرف وتنكر إلا مالكا ويحيى بن سعيد الأنصاري.

إمام دار الهجرة

روي عن أبي موسى الأشعري قال [قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة] ويروى عن ابن عيينة قال كنت أقول هو سعيد بن المسيب حتى قلت كان في زمانه سليمان بن يسار وسالم بن عبد الله وغيرهما ثم أصبحت اليوم أقول إنه مالك لم يبق له نظير بالمدينة.

قال القاضي عياض هذا هو الصحيح عن سفيان رواه عنه ابن مهدي وابن معين وذؤيب بن عمامه وابن المديني والزبير بن بكار وإسحاق بن أبي إسرائيل كلهم سمع سفيان يفسره بمالك أو يقول وأظنه أو أحسبه أو أراه أو كانوا يرونه.

وذكر أبو المغيرة المخزومي أن معناه ما دام المسلمون يطلبون العلم لا يجدون أعلم من عالم بالمدينة فيكون على هذا سعيد بن المسيب ثم بعده من هو من شيوخ مالك ثم مالك ثم من قام بعده بعلمه وكان أعلم أصحابه.

ولم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكا في العلم والفقه والجلالة والحفظ فقد كان بها بعد الصحابة مثل سعيد بن المسيب والفقهاء السبعة والقاسم وسالم وعكرمة ونافع وطبقتهم ثم زيد بن أسلم وابن شهاب وأبي الزناد ويحيى بن سعيد وصفوان بن سليم وربيعة بن أبي عبد الرحمن وطبقتهم فلما تفانوا اشتهر ذكر مالك بها وابن أبي ذئب وعبد العزيز بن الماجشون وسليمان بن بلال وفليح بن سليمان وأقرانهم فكان مالك هو المقدم فيهم على الإطلاق والذي تضرب إليه آباط الإبل من الآفاق رحمه الله تعالى.

قال أبو عبد الله الحاكم ما ضربت أكباد الإبل من النواحي إلى أحد من علماء المدينة دون مالك واعترفوا له وروت الأئمة عنه ممن كان أقدم منه سنا كالليث عالم أهل مصر والمغرب والأوزاعي عالم أهل الشام ومفتيهم والثوري وهو المقدم بالكوفة

وشعبة عالم أهل البصرة إلى أن قال وحمل عنه قبلهم يحيى بن سعيد الأنصاري حين ولاه أبو جعفر قضاء القضاة فسأل مالكا أن يكتب له مائة حديث حين خرج إلى العراق ومن قبل كان ابن جريج حمل عنه.

قصة الموطأ

يروي أبو مصعب فيقول: سمعت مالكا يقول دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين وقد نزل على فرش له وإذا على بساطه دابتان ما تروثان ولا تبولان وجاء صبي يخرج ثم يرجع فقال لي أتدري من هذا قلت لا قال هذا ابني وإنما يفزع من هيبتك ثم ساءلني عن أشياء منها حلال ومنها حرام ثم قال لي أنت والله أعقل الناس وأعلم الناس قلت لا والله يا أمير المؤمنين قال بلى ولكنك تكتم ثم قال والله لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف ولأبعثن به إلى الآفاق فلأحملهنم عليه.فقال مالك: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإن أصحاب رسول تفرقوا في الأمصار وإن تفعل تكن فتنة!!

مواقف من حياته

روي أن مالكا كان يقول ما أجبت في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني هل تراني موضعا لذلك سألت ربيعة وسألت يحيى بن سعيد فأمراني بذلك فقلت فلو نهوك قال كنت أنتهي لا ينبغي للرجل أن يبذل نفسه حتى يسأل من هو أعلم منه وقال خلف: دخلت عليه فقلت ما ترى فإذا رؤيا بعثها بعض إخوانه يقول: رأيت النبي (صلى الله عليه وسلم) في المنام في مسجد قد اجتمع الناس عليه فقال لهم إني قد خبأت تحت منبري طيبا أو علما وأمرت مالكا أن يفرقه على الناس فانصرف الناس وهم يقولون إذا ينفذ مالك ما أمره به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم بكى فقمت عنه.

وروي أن المهدي قدم المدينة فبعث إلى مالك بألفي دينار أو قال بثلاثة آلاف دينار ثم أتاه الربيع بعد ذلك فقال إن أمير المؤمنين يحب أن تعادله إلى مدينة السلام فقال قال النبي (صلى الله عليه وسلم) المدينة خير لهم ولو كانوا يعلمون والمال عندي على حاله.

وقدم المهدي المدينة مرة أخرى فبعث إلى مالك فأتاه فقال لهارون وموسى اسمعا منه فبعث إليه فلم يجبهما فأعلما المهدي فكلمة فقال يا أمير المؤمنين العلم يؤتى أهله فقال صدق مالك صيرا إليه فلما صارا إليه قال له مؤدبهما اقرأ علينا فقال إن أهل المدينة يقرؤون على العالم كما يقرأ الصبيان على المعلم فإذا أخطئوا أفتاهم فرجعوا إلى المهدي فبعث إلى مالك فكلمه فقال سمعت ابن شهاب يقول جمعنا هذا العلم في الروضة من رجال وهم يا أمير المؤمنين سعيد بن المسيب وأبو سلمة وعروة والقاسم وسالم وخارجه بن زيد وسليمان بن يسار ونافع وعبد الرحمن بن هرمز ومن بعدهم أبو الزناد وربيعه ويحيى بن سعيد وابن شهاب كل هؤلاء يقرأ عليهم ولا يقرؤون فقال في هؤلاء قدوة صيروا إليه فاقرؤوا عليه ففعلوا.

يروي يحيى ابن خلف الطرسوسي وكان من ثقات المسلمين قال كنت عند مالك فدخل عليه رجل فقال يا أبا عبد الله ما تقول فيمن يقول القرآن مخلوق فقال مالك زنديق اقتلوه فقال يا أبا عبد الله إنما أحكي كلاما سمعته قال إنما سمعته منك وعظم هذا القول.

وعن قتيبه قال كنا إذا دخلنا على مالك خرج إلينا مزينا مكحلا مطيبا قد لبس من أحسن ثيابه وتصدر الحلقة ودعا بالمراوح فأعطى لكل منا مروحة.

وعن محمد بن عمر قال كان مالك يأتي المسجد فيشهد الصلوات والجمعة والجنائز ويعود المرضى ويجلس في المسجد فيجتمع

إليه أصحابه ثم ترك الجلوس فكان يصلي وينصرف وترك شهود الجنائز ثم ترك ذلك كله والجمعة واحتمل الناس ذلك كله وكانوا أرغب ما كانوا فيه وربما كلم في ذلك فيقول ليس كل أحد يقدر أن يتكلم بعذره.

وكان يجلس في منزله على ضجاع له ونمارق مطروحة في منزله يمنة ويسرة لمن يأتيه من قريش والأنصار والناس، وكان مجلسه مجلس وقار وحلم قال وكان رجلا مهيبا نبيلا ليس في مجلسه شيء من المراء واللغط ولا رفع صوت وكان الغرباء يسألونه عن الحديث فلا يجيب إلا في الحديث بعد الحديث وربما أذن لبعضهم يقرأ عليه وكان له كاتب قد نسخ كتبه يقال له حبيب يقرأ للجماعة ولا ينظر أحد في كتابه ولا يستفهم هيبة لمالك وإجلالا له وكان حبيب إذا قرأ فأخطأ فتح عليه مالك وكان ذلك قليلا قال ابن وهب سمعت مالكا يقول ما أكثر أحد قط فأفلح.

وقيل لمالك لم لا تأخذ عن عمرو بن دينار قال: أتيته فوجدته يأخذون عنه قياما فأجللت حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن آخذه قائما.

ويروى عن ابن وهب قال: سمعت مالكا يقول لرجل سأله عن القدر نعم قال الله تعالى ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾(السجدة:١٢)

وقال جعفر بن عبد الله قال كنا عند مالك فجاءه رجل فقال يا أبا عبد الله [الرحمن على العرش استوى "كيف استوى فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرضاء ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال الكيف منه غير معقول والاستواء منه غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وأظنك صاحب بدعة وأمر به فأخرج]

وفي رواية أخرى قال: الرحمن على العرش استوى، كما وصف نفسه ولا يقال له كيف وكيف عنه مرفوع وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه.

من كلماته

العلم ينقص ولا يزيد ولم يزل العلم ينقص بعد الأنبياء والكتب.

والله ما دخلت على ملك من هؤلاء الملوك حتى أصل إليه إلا نزع الله هيبته من صدري.

أعلم أنه فساد عظيم أن يتكلم الإنسان بكل ما يسمع.

ما تعلمت العلم إلا لنفسي وما تعلمت ليحتاج الناس إلي وكذلك كان الناس.

ليس هذا الجدل من الدين بشيء.

لا يؤخذ العلم عن أربعة سفيه يعلن السفه وإن كان أروى الناس وصاحب بدعة يدعو إلى هواه ومن يكذب في حديث الناس وإن كنت لا أتهمه في الحديث وصالح عابد فاضل إذا كان لا يحفظ ما يحدث به.

صفة الإمام مالك

عن عيسى بن عمر قال ما رأيت قط بياضا ولا حمرة أحسن من وجه مالك ولا أشد بياض ثوب من مالك، ونقل غير واحد أنه كان طوالا جسيما عظيم الهامة أشقر أبيض الرأس واللحية عظيم اللحية أصلع وكان لا يحفي شاربه ويراه مثله.

وقيل كان أزرق العين، محمد بن الضحاك الحزامي كان مالك نقي الثوب رقيقه يكثر اختلاف اللبوس، و قال أشهب كان

مالك إذا اعتم جعل منها تحت ذقنه ويسدل طرفها بين كتفيه.

ـــ". (١)

٣١-"وكان رحمه الله ساكنا وقورا ذا سمت وعقل وكان رفاء يعمل بيده ويقصده رؤساء الكتاب والشعراء يأخذون عنه ويسمعون منه. وحدثني الفقيه أبو عمرو بن سالم رحمه الله ومن خطه نقلت قال حدثني الوزير الحسيب أبو الحسين شاكر ابن الفقيه الأديب أبي عبد الله بن الفخار المالقي رحمه الله قال: ما رأيت في عمري رجلا أحسن سمتا وأطول صمتا من أبي عبد الله الرصافي

وحدثني صاحبنا الفقيه أبو عبد الله بن عمار الكاتب بمحضر الأديب أبي علي بن كسرى قال كان الفقيه أبو عبد الله الرصافي من أعقل الناس وكان رفاء فما سمع له أحد من جيرانه كلمة في أحد وكان بإزائه أبو جعفر البلنسي وكان رحمه الله متوقد الخاطر فربما تكلم مع أحد التجار منه هفوة فيقول له: شتان بينك وبين أبي عبد الله في العقل والصمت وربما طالبه بأشياء ليجاوبه عليها فما يزيد على الضحك فلما كان في أحد الأيام جاء ليفتح دكانه فتعمد أن ألقى الغلق من يده فوقعت على رأس أبي عبد الله وهو مقبل على شغله فسال دمه فما زاد على أن قام ومسح الدم ثم ربط رأسه وعاد إلى شغله فلما رأى ذلك منه أبو جعفر المذكور ترامى عليه وجعل يقبل يديه ويقول ولله ما سمعت برجل أصبر ولا أعقل منك والله لقد تعمدت ذلك وهو يضحك ويقول بارك الله فيك وغفر لك.". (٢)

٣٢-"قال أبو عمرو رحمه الله: لقيت الفقيه أبا عبد الله الرصافي رحمه الله غير مرة وكان صاحبا لأبي وكان له موضع يخرج إليه في فصل العصير فكنت أجتاز عليه في أكثر الأيام مع أبي رضي الله عنه فألثم يده فربما قبل رأسي ودعا لي. وكان أبي يسأله الدعاء فيخجل ويقول: أنا والله أحقر من ذلك وكان من أعقل الناس وأحسنهم خلقا وخلقا وكان رحمه الله أديبا بليغا متصرفا وشعره مجموع بأيدي الناس حدثني به الفقيه الأديب أبو عمرو عن الأديب أبي علي بن كسرى سماعا من لفظه وقراءة عليه عن أبي عبدا لله بن الرصافي وعن الأستاذ أبي عبد الله بن الحجاري عن أبي عبد الله بن الرصافي وأقيد منه إن شاء الله جملة يتذكر بها إن شاء الله من ذلك قصيدته المشهورة في الخليفة عبد المؤمن بن علي أنشده إياه بجبل الفتح عند إجازته إلى الأندلس وهي مما سمعه أبو علي بن كسرى من لفظه رحمه الله تعالى وهي:

لو جئت نار الهدى من جانب الطور ... قبست ما شئت من علم ومن نور

من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها ... ليلا لسار ولم تشبب لمقرور

فضية القدح من نور النبوة أو ... نور الكرامة تجلو ظلمة الزور

ما زال يقضمها التقوى بموقدها ... صوام هاجرة قوام ديجور

---

(١) مشاهير أعلام المسلمين ص/٢٢

(٢) مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار ص/١٧

حتى أضاءت من الإيمان عن قبس ... قد كان تحت رماد الكفر مكفور

نور طوى الله زند الكون منه على ... سقط إلى زمن المهدي مذخور

وآية كإياة الشمس بين يدي ... غزو على الملك القيسي منذور

يا دار دار أمير المؤمنين بسف ... ح الطود طود العلى بوركت في الدور

ذات العمادين من عز ومملكة ... على الأساسين من قدس وتطهير

ما كان بانيك بالواني الكرامة عن ... قصر على مجمع البحرين مقصور

مواطئ من نبي طال ما وصلت ... فيها الخطى بين تسبيح وتكبير

حيث استقلت به نعلاه بوركتا ... فطيبت كل موطوء ومعبور

وحيث قامت قناة الدين ترفل في ... لواء نصر على البرين منشور

في كف منشمر البردين ذي ورع ... على التقى وصفاء النفس مفطور". (١)

٣٣-"إليه، فإذا في الرقعة خمسمائة ألف درهم، فقال: والله ما أردت إلا خمسين ألف درهم، ولكن جرت بخمسمائة ألف درهم، لا أنقص والله منها درهما واحدا، ولو لم يكن في بيت المال غيرها؛ احملوها معه، فما كان إلا قليل حتى كثرت إبله وشاؤه، وصار منزلا من المنازل ينزله الناس ممن اراد الحج، وسمي منزل مضيف أمير المؤمنين المهدي] (١) .

[وقال أبان بن صدقة: كنت أخلف الربيع على كتبه للمنصور، فدخلت يوما وعلي خز أسود جديد والمنصور في قباء خز خلق، فجعل ينظر إلي فضاقت علي الدنيا، وخرج الربيع فقلت إني أخطأت خطأ عظيما، وعرفته الخبر فقال: ما ذاك إلا لخير فلا يحزنك، فلما كان من غد دخلت في قباء خز خلق فقال لي المنصور: أما عندك أحسن من هذا تلبسه أمام المنصور قلت: بلى، ولكن رأيت أمير المؤمنين لبس قباء خلقا وكان علي قباء جديد فضاقت علي الرض إذ لبست أفضل من لباسه، فقال: لا تفعل، ألبس خير ما عندك في خدمتي ليتبين الناس إحساني إليك ولا تلبس مثل هذا فيظن بي إساءة إليك، فإن الناس يعلمون أني أقدر على أشرف اللباس وإن لم ألبس وأنت فلا يظن ذلك بك، قال: فعلمت أن الربيع أعقل الناس وأعلمهم بأخبار أمير المؤمنين] (٢) .

وكانت وفاة الربيع في أول سنة سبعين ومائة. وقال الطبري: مات الربيع في سنة تسع وستين ومائة. وقيل إن الهادي سمه، وقيل مرض ثمانية أيام ومات، والله أعلم، رحمه الله تعالى.

وإنما قيل لجده " أبو فروة لأنه أدخل المدينة وعليه فروة، فاشتراه عثمان رضي الله عنه وأعتقه، وجعل يحفر القبور، وكان من سبي جبل الخليل صلى الله عليه وسلم - وسيأتي ذكر ولده الفضل إن شاء الله تعالى - .

وقطيعة الربيع منسوبة إليه، وهي محلة كبيرة مشهورة ببغداد، وإنما قيل لها قطيعة الربيع لأن المنصور أقطعه إياها.

---

(١) مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار ص/١٨

(١) ما بين معقفين زيادة من ر وحدها.

(٢) زيادة من د وحدها.". (١)

٣٤-"خالفك يحيى بن يحيى، فقال: كيف قال يحيى؟ فأخبرته، فقال لإنسان، فكمل، فأجاز على الحديث، فقلت: يا أبا عبد الله، لعله يكون كما قلت، فقال: لا خير فيما يخالف فيه يحيى.

أخبرني أبو محمد بن زياد، ثنا عبد الله بن محمد بن سلم قال: كنت مع أبي عبد الله المروزي بمصر، فلما أراد الخروج من عند يونس بن عبد الأعلى قلت له: من أدركت من [ق٢٥٦/ب] المشايخ على سنة محمد - صلى الله عليه وسلم -؟ فقال: ما أدركت أحدا إلا أن يكون يحيى بن يحيى، فقلت: هو كما قلت يا أبا عبد الله، إن يحيى بن يحيى كان يقال له: الشكاك. قال: ذاك من تثبته.

وقال إسحاق بن إبراهيم: ما رأيت بخراسان أفقه منه، وحدث بحديث عن أبي نعيم وزهير بن حرب، ثم قال: قدموا يحيى بن يحيى عليهما، فإن يحيى مقدم عليهما، وكتبت عمن كتبت، فما كتبت عن أحد أوثق في نفسي من يحيى بن يحيى والفضل بن موسى، ويحيى مقدم على الفضل؛ لأن ما ظهر للفضل من الحديث ما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف، وظهر ليحيى نيف وعشرون ألف حديث.

قال الحاكم: جرى بحضرة الشيخ أبي بكر بن إسحاق ذكر عقل الثقفي وشمائله، فبلغني أنه قال: تلك شمائل الصحابة والتابعين، وذلك أن مالك بن أنس كان من أعقل أهل زمانه وأحسنهم سمتا، فلما خرج إليه يحيى بن يحيى وسمع ما أراد من حديثه، جالسه بعد ذلك سنة يأخذ من شمائله، فقيل له في ذلك، فقال: هذه شمائل الصحابة والتابعين، فلما انصرف إلى خراسان كان من أعقل الناس وأحسنهم سمتا، فرحل إليه أبو عبد الله محمد بن نصر ولازمه، ثم جالسه سنتين، فقيل له في ذلك، فقال: هذه شمائل الصحابة والتابعين أريد أن أقتبسها من يحيى بن يحيى، ثم انصرف إلى سمرقند، فخرج إليه أبو علي الثقفي، واقتبس من شمائله.

وقال يحيى: لم أخلع قميصي منذ ثلاثين سنة، وقال: لأن ألقى الله تعالى". (٢)

٣٥-"٢٤٣ - ع: مالك بن أنس، هو الإمام العلم، شيخ الإسلام أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث، [الوفاة: ١٧١ - ١٨٠ هـ]

والحارث هو ذو أصبح بن عوف بن مالك بن زيد بن عامر بن ربيعة بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وإلى قحطان جماع اليمن، وقيل: ذو أصبح من حمير؛ المدني الأصبحي، حليف عثمان بن -[٧٢٠]- عبيد الله التيمي أخي طلحة رضي الله عنهما.

---

(١) وفيات الأعيان ٢/٢٩٩

(٢) إكمال تهذيب الكمال ١٢/٣٨٢

مولد مالك سنة ثلاث وتسعين، سمعه منه يحيى بن بكير، وهي السنة التي مات فيها أنس بن مالك الأنصاري خادم النبي - صلى الله عليه وسلم -.

وقال أبو داود: ولد سنة اثنتين وتسعين.

قلت: الأول هو الصحيح.

وقيل: ولد في خلافة سليمان بن عبد الملك، وليس بشيء.

وأول طلبه للعلم في حدود سنة عشر ومائة، وفيها توفي الحسن البصري، وأخذ عن نافع ولازمه، وعن: سعيد المقبري، ونعيم المجمر، ووهب بن كيسان، والزهري، وابن المنكدر، وعامر بن عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن دينار، وزيد بن أسلم، وصفوان بن سليم، وإسحاق بن أبي طلحة، ومحمد بن يحيى بن حبان، ويحيى بن سعيد، وأيوب السختياني، وأبي الزناد، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وخلق سواهم من علماء المدينة، فقل ما روى عن غير أهل بلده.

روى عنه من شيوخه: الزهري، وربيعة، ويحيى بن سعيد، وغيرهم.

ومن أقرانه: الأوزاعي، والثوري، والليث، وخلق، وابن المبارك، ويحيى بن سعيد القطان، ومحمد بن الحسن، وابن وهب، ومعن بن عيسى، والشافعي، وعبد الرحمن بن مهدي، وأبو مسهر، وأبو عاصم، وعبد الله بن يوسف التنيسي، والقعنبي، وسعيد بن منصور، ويحيى بن يحيى، ويحيى بن يحيى القرطبي، ويحيى بن بكير، والنفيلي، ومصعب الزبيري، وأبو مصعب الزهري، وقتيبة بن سعيد، وهشام بن عمار، وسويد بن سعيد، وعتبة بن عبد الله المروزي، وإسماعيل بن موسى السدي، وخلائق آخرهم وفاة أحمد بن إسماعيل السهمي.

قال مصعب الزبيري: سمعت ابن أبي الزبير يقول: حدثنا مالك قال: رأيت عطاء بن أبي رباح دخل المسجد، وأخذ برمانة المنبر، ثم استقبل القبلة يدعو.

قال علي ابن المديني: لمالك نحو ألف حديث.

وكان عبد الرحمن بن مهدي لا يقدم على مالك أحدا. -[٧٢١]-

قال معن بن عيسى، والواقدي، ومحمد بن الضحاك: حملت بمالك أمه ثلاث سنين.

وعن عيسى بن عمر المدني قال: ما رأيت بياضا قط، ولا حمرة أحسن من وجه مالك، ولا أشد بياض ثوب من مالك.

وقال غير واحد: كان مالك رجلا طوالا جسيما، عظيم الهامة، أبيض الرأس واللحية، أشقر، أصلع، عظيم اللحية، عريضها، وكان لا يحفي شاربه، ويراه مثلة، وقيل: كان أزرق العينين.

وقال مطرف بن عبد الله: كان طويلا عظيم الهامة أبيض الرأس واللحية، شديد البياض بشقرة.

وقال محمد بن الضحاك الحزامي: كان مالك نقي الثوب رقيقه، يكره اختلاف اللبوس.

قال الوليد بن مسلم: كان مالك يلبس البياض، ورأيته والأوزاعي يلبسان السيجان ولا يريان بلبسها بأسا.

قال أشهب: كان مالك إذا اعتم جعل منها تحت ذقنه ويسدل طرفها بين كتفيه.

وقال خالد بن خداش: رأيت على مالك طيلسانا، وثيابا مروية جيادا.

قال أشهب: كان مالك إذا اكتحل للضرورة جلس في بيته.

وقال مصعب: كان يلبس الثياب العدنية الجياد ويتطيب.

قلت: قد كان هذا الإمام عظيم الجلالة كثير الوقار.

قال عبد الله بن أحمد: قلت لأبي: من أثبت أصحاب الزهري؟ قال: مالك أثبت في كل شيء.

وقال الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

وقال ابن سعد في " الطبقات ": كان مالك رحمه الله ثقة، ثبتا، حجة، فقيها، عالما، ورعا. -[٧٢٢]-

وقال ابن مهدي: مالك أفقه من الحكم، وحماد.

وقال الشافعي: لولا مالك، وابن عيينة لذهب علم الحجاز، وما في الأرض كتاب في العلم أكثر صوابا من " الموطأ ".

أخبرنا أحمد بن إسحاق، قال: أخبرنا محمد بن أبي القاسم الخطيب، وأخبرنا علي بن تيمية بمصر، قال: أخبرنا عبد اللطيف بن يوسف قالا: أخبرنا محمد بن عبد الباقي، قال: أخبرنا علي بن محمد الأنباري، قال: أخبرنا عبد الواحد بن محمد، قال: حدثنا محمد بن مخلد، قال: حدثنا أبو يحيى محمد بن سعيد بن غالب العطار، قال: حدثنا ابن عيينة، عن ابن جريج، عن أبي الزبير، عن أبي صالح، عن أبي هريرة يبلغ به النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " ليضربن الناس أكباد الإبل في طلب العلم، فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة ".

وبه قال ابن مخلد: حدثنا ليث بن الفرج بالعسكر، قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن ابن جريج، فذكر الحديث مرفوعا.

وبه قال ابن مخلد: حدثني إسحاق بن يعقوب العطار، قال: حدثنا أبو موسى الأنصاري قال: سألت ابن عيينة: أكان ابن جريج يقول: نرى أنه مالك بن أنس؟ فقال: إنما العالم من يخشى الله، ولا نعلم أحدا كان أخشى لله من العمري، يعني عبد الله بن عبد العزيز.

وقال محمد بن حماد الطهراني: قال عبد الرزاق عقيبه: كنا نرى أنه مالك.

قلت: وكذا قال غير واحد إنه مالك. وقيل: هو سعيد بن المسيب.

قال خالد بن نزار الأيلي: بعث أبو جعفر المنصور إلى مالك حين قدم المدينة فقال: إن الناس قد اختلفوا بالعراق، فضع للناس كتابا نجمعهم عليه، فوضع الموطأ.

قال ابن وهب، عن مالك قال: دخلت على أبي جعفر مرارا، وكان لا يدخل عليه أحد من الهاشميين وغيرهم إلا قبل يده، فلم أقبل يده قط. -[٧٢٣]-

وقال يحيى القطان: كان مالك إماما في الحديث، وهو أحب إلي من معمر.

وقال الشافعي: كان مالك إذا شك في حديث طرحه كله.

قال شعبة: قدمت المدينة بعد وفاة نافع بسنة، وإذا لمالك حلقة.

قلت: تصدر للعلم، وقد نيف على العشرين.

قال عبد السلام بن عاصم: قلت لأحمد بن حنبل: رجل يحب أن يحفظ حديث رجل بعينه؟ قال: يحفظ حديث مالك.
قلت: فرأى؟ قال: رأي مالك.

وقال ابن وهب: قيل لأخت مالك: ما كان شغل مالك في بيته؟ قالت: المصحف والتلاوة.

وقال أبو مصعب: كانوا يزدحمون على باب مالك حتى يقتتلوا من الزحام، وكنا نكون عنده فلا يكلم ذا ذا، ولا يلتفت ذا إلى ذا، والناس قائلون برؤوسهم هكذا، وكانت السلاطين تهابه، وهم قابلون منه ومستمعون.

وكان يقول: لا ونعم، ولا يقال له: من أين قلت هذا؟ قال مطرف بن عبد الله، وغيره: كان خاتم مالك فصه أسود حجر، ونقشه: حسبي الله ونعم الوكيل، كان يلبسه في يساره، وربما لبسه في يمينه.

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: ما رأيت أهيب من مالك، ولا أتم عقلا، ولا أشد تقوى.

قال ابن وهب: الذي نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلمنا من علمه.

وعن مالك قال: ما جالست سفيها قط.

قال ابن عبد الحكم: أفتى مالك مع نافع، وربيعة، ويحيى بن سعيد.

وعن مالك قال: قدم الزهري، وحدثنا فقال له ربيعة: ها هنا من يسرد عليك ما حدثت به أمس، قال: ومن؟ قال: ابن أبي عامر، قال: هات، فحدثه بأربعين حديثا من نيف وأربعين، فقال الزهري: ما كنت أرى من يحفظ هذا الحفظ غيري.

وقال الواقدي: حسدوا مالكا وسعوا به إلى جعفر بن سليمان وهو على المدينة، وقال: إنه لا يرى بيعتكم هذه شيئا، ويأخذ بحديث في طلاق المكره -[٧٢٤]- أنه لا يجوز، فغضب، ودعا به، وجرد ومدت يده حتى انخلع كتفه، وفي رواية: يداه، حتى انخلعت كتفاه.

قال الواقدي: فوالله ما زال بعد ذلك الضرب في علو ورفعة.

وروى الحافظ أبو الوليد الباجي قال: حج المنصور فأقاد مالكا من جعفر بن سليمان، فامتنع مالك وقال: معاذ الله.

قال نعيم بن حماد: حدثنا ابن المبارك قال: ما رأيت أحدا ارتفع مثل ما ارتفع مالك، من رجل لم تكن له كثير صلاة، إلا أن تكون له سريرة.

وقال أشهب: رأيت أبا حنيفة بين يدي مالك كالصبي بين يدي أبيه.

وقال أبو مصعب: سمعت مالكا يقول: سألني أبو جعفر عن أشياء ثم قال: أنت، والله أعقل الناس، وأنت أعلم الناس، قلت: لا، والله يا أمير المؤمنين، قال: بلى، ولكنك تكتم، والله لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف، ولأبعثن به إلى الآفاق فأحملهم عليه.

حفص بن عبد الله: سمعت إبراهيم بن طهمان يقول: أتيت المدينة فكتبت بها ثم قدمت الكوفة فأتيت أبا حنيفة، فسلمت عليه، فقال لي: عمن كتبت؟ أكتبت عن مالك شيئا؟ قلت: نعم، قال: جئني بما كتبت عنه، فأتيته به فدعا بقرطاس ودواة، فجعلت أملي عليه، وهو يكتب.

وقال نصر بن علي: حدثنا حسين بن عروة قال: قدم المهدي فبعث إلى مالك بألفي دينار، أو قال: بثلاثة آلاف دينار.

قال قتيبة: كنا إذا دخلنا على مالك خرج إلينا مكحلا مزينا مطيبا قد لبس من أحسن ثيابه، ثم تصدر فدعا بالمراوح فأعطى كل إنسان منا مروحة.

ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر قال: كان مالك يشهد الصلوات، والجمعة، والجنائز، ويعود المرضى، ويقضي الحقوق،

ويجلس في المسجد، ثم ترك الجلوس في المسجد، فكان يصلي ويرجع إلى منزله، وترك شهود الجنائز فكان يأتي أصحابها فيعزيهم، ثم ترك ذلك كله حتى ترك الجمعة، واحتمل الناس ذلك كله، وكانوا أرغب ما كانوا فيه، وأشد له تعظيما، حتى مات على ذلك، وكان ربما كلم قي ذلك فيقول: ليس كل واحد يقدر أن يتكلم بعذره. -[٧٢٥]-

وكان يجلس في منزله على ضجاع ونمارق يمنة ويسرة في سائر البيت لمن يأتيه من قريش والأنصار والناس، وكان مجلسه مجلس وقار وحلم وعلم، وكان مهيبا نبيلا ما في مجلسه شيء من المراء واللغط، ولا رفع صوت، وكان الغرباء يسألونه عن الحديث فلا يجيب إلا في الحديث بعد الحديث، وربما أذن لبعضهم أن يقرأ عليه، وكان له كاتب قد نسخ كتبه يقال له: حبيب، يقرأ للجماعة، فليس أحد من يحضره يدنو، ولا ينظر في كتابه، ولا يستفهم هيبة له وإجلالا، وكان حبيب إذا قرأ فأخطأ فتح عليه مالك، وكان ذلك قليلا.

قال هلال بن العلاء، وأبو حاتم: أخبرنا أبو يوسف محمد بن أحمد، قال: حدثنا عتبة بن حماد الدمشقي، عن مالك قال: قال لي المنصور: ما على ظهرها أعلم منك، قلت: بلى، قال: فسمهم لي، قلت: لا أحفظ أسماءهم، قال: قد طلبت هذا الشأن في زمان بني أمية فقد عرفته، فأما أهل العراق فأهل إفك وباطل، وأما أهل الشام فأهل جهاد، وليس فيهم كثير علم، وأما أهل الحجاز ففيهم بقية العلم فأنت عالم الحجاز، زاد أبو حاتم: فلا تردن على أمير المؤمنين قوله، ثم قال: اكتب هذا العلم لمحمد.

حماد بن غسان واه، قال: حدثنا ابن وهب، سمعت مالكا يقول: لقد حدثت بأحاديث وددت أني ضربت بكل حديث منها سوطين ولم أحدث بها.

قال مصعب الزبيري: سأل الرشيد مالكا، وهو في منزل مالك، ومعه بنوه أن يقرأ عليهم فقال: ما قرأت على أحد منذ زمان، وإنما يقرأ علي، فقال: أخرج الناس حتى أقرأ أنا، فقال: إذا منع العام لبعض الخاص لم ينتفع الخاص، وأمر معنا، فقرأ عليه.

قال إسماعيل بن أبي أويس: كان مالك لا يفتي حتى يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال أبو مصعب: لم يشهد مالك الجماعة خمسا وعشرين سنة، فقيل له: ما يمنعك؟ قال: مخافة أن أرى منكرا فأحتاج أن أغيره، رواها إسماعيل القاضي عنه.

وقال الحسين بن الحسن بن مهاجر الحافظ: سمعت أبا مصعب يقول: كان مالك بعد تخلفه عن المسجد يصلي في منزله في جماعة يصلون بصلاته. -[٧٢٦]- وكان يصلي صلاة الجمعة في منزله وحده.

وقال أحمد بن سعيد الرباطي: سمعت عبد الرزاق قال: سأل سندي مالكا عن مسألة فأجابه، فقال: أنت من الناس أحيانا تخطئ وأحيانا لا تصيب، قال: صدقت، هكذا الناس، ففطنوا مالكا فقال: عهدت العلماء لا يتكلمون بمثل هذا.

وقال يحيى بن بكير: قلت لمالك: إني سمعت الليث يقول: إن رأيت صاحب كلام يمشي على الماء فلا تثقن به، فقال مالك: إن رأيته يمشي على الهواء فلا تأمنن ناحيته، ولا تثقن به.

النجاد: حدثنا هلال بن العلاء: قال: حدثني أبو يوسف الصيدلاني قال: سمعت محمد بن الحسن الشيباني قال: كنت عن مالك فقال لأصحابه: انظروا أهل المشرق فنزلوهم بمنزلة أهل الكتاب، إذا حدثوكم فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، ثم رآني

فكأنه استحيى فقال: يا أبا عبد الله أكره أن تكون غيبة، كذا أدركت أصحابنا يقولون.

فهذه الحكاية عن مالك يريد بها من لم تثبت عدالته منهم، فإنه بلا ريب مجهول الحال فلا يعتمد عليه، ومن علم كذبه رد خبره، أما من ثبت صدقه، وإتقانه فهم كعلماء المدينة، فلمالك نظراء في أهل المشرق مثل: شعبة، وحماد بن زيد، ويزيد بن زريع، ولشيوخ مالك نظراء كمنصور، والأعمش، وقتادة، وللقاسم، وسالم، وعروة نظراء في الجلالة كالشعبي، والنخعي، ومحمد بن سيرين، نعم، الكذابون يندرون بالحجاز ويكثرون بالعراق.

قال البوسنجي: سمعت عبد الله بن عمر بن الرماح قال: دخلت على مالك فقلت: يا أبا عبد الله ما في الصلاة من فريضة، وما فيها من سنة؟ فقال مالك: هذا كلام الزنادقة أخرجوه.

وقال أشهب: كنت عند مالك فسئل عن البتة فقال: هي ثلاث، فأخذت ألواحي لأكتب فقال: لا تكتب فعسى في العشي أن أقول إنها واحدة.

وقال معن بن عيسى: سمعت مالكا يقول: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما خالف فاتركوه.

إسماعيل بن أبي أويس: حدثني مالك قال: لما أراد يحيى بن سعيد أن -[٧٢٧]- يخرج إلى العراق قال لي: اكتب لي مائة حديث من حديث ابن شهاب، فكتبتها له، فأخذها، قلت لمالك: فما قرأها عليك، ولا قرأتها عليه؟ قال: لا، هو كان أفقه من ذلك.

منصور بن سلمة الخزاعي: كنت عند مالك فقال له رجل: يا أبا عبد الله أقمت على بابك سبعين يوما وقد كتبت ستين حديثا، فقال: ستون حديثا وجعل يستكثرها، فقال له الرجل: إنا ربما كتبنا بالكوفة في المجلس ستين حديثا، قال: وكيف بالعراق دار الضرب، يضرب بالليل وينفق بالنهار.

أحمد بن حنبل: حدثنا إسحاق ابن الطباع: سألت مالكا عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء، فقال: إنما يفعله عندنا الفساق.

ابن وهب، عن مالك قال: سمعت من الزهري أحاديث كثيرة لا أحدث بها أبدا.

وقال معن: كان مالك يتحفظ من الباء، والتاء.

وسمع ابن وهب مالكا يقول: إن الرجل إذا ذهب يمدح نفسه ذهب بهاؤه.

وقال أبو الربيع ابن أخي رشدين: حدثنا ابن وهب قال: كنا عند مالك فقال رجل: يا أبا عبد الله " الرحمن على العرش استوى " كيف استواؤه؟ فأطرق مالك وأخذته الرحضاء، ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال له: كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه، فأخرج الرجل.

وقال محمد بن عمرو بن النضر النيسابوري: سمعت يحيى بن يحيى يقول: كنا عند مالك فجاءه رجل فقال: " الرحمن على العرش استوى " كيف استوى؟، وذكر نحوه ولفظه، فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول.

وقال عبد الله بن نافع: قال مالك: الله في السماء، وعلمه في كل مكان، رواه أحمد بن حنبل، عن سريج بن النعمان، عن ابن نافع.

قال عبد الرحمن بن مهدي: سمعت مالكا يقول: التوقيت في المسح على الخفين بدعة.
قلت: قد صح التوقيت، ولكن لم يبلغ مالكا ذلك. -[٧٢٨]-
قال البخاري: أصح الأسانيد مالك، عن نافع، عن ابن عمر.
قال ابن عبد البر في " تمهيده ": هذا كتبته من حفظي أن عبد الله بن عبد العزيز العمري كتب إلى مالك يحضه على الانفراد، والعمل، فكتب إليه مالك: إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له في الصلاة، ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة، ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، ونشر العلم من أفضل الأعمال، وقد رضيت ما فتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر.
قلت: ما أحسن ما جاوب العمري واحتج عليه بسابق مشيئة الله في عباده، ولم يفضل طريقته في العلم على طريقة العمري في التأله والزهد.
قال أبو حاتم الرازي: حدثنا عبد المتعالي بن صالح صاحب مالك قال: قيل لمالك: إنك تدخل على السلطان وهم يظلمون، ويجورون، قال: يرحمك الله، فأين المكلم بالحق؟.
قال موسى بن داود: سمعت مالكا يقول: قدم علينا أبو جعفر سنة خمسين ومائة، فدخلت عليه، فقال لي: يا مالك كثر شيبك، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، من أتت عليه السنون كثر شيبه، قال: ما لي أراك تعتمد على قول ابن عمر من بين الصحابة؟، قلت: كان آخر من بقي عندنا من الصحابة، فاحتاج إليه الناس فسألوه، فتمسكوا بقوله.
قال ابن المديني في مراتب أصحاب نافع: أيوب وفضله، ومالك وإتقانه، وعبيد الله بن عمر وحفظه.
محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: قال لي محمد بن الحسن: أيما أعلم، صاحبنا أو صاحبكم؟ قلت: على الإنصاف، قال: نعم، قلت: أنشدك بالله من أعلم بالقرآن؟ قال: صاحبكم، قلت: فمن أعلم بالسنة؟ قال: اللهم صاحبكم، قلت: فمن أعلم بأقاويل الصحابة، والمتقدمين؟ قال: صاحبكم، يعني مالكا، قلت: لم يبق إلا القياس، والقياس لا يكون إلا على هذه الأشياء، فمن لم يعرف الأصول على أي شيء يقيس؟.
أحمد بن سنان: سمعت عبد الرحمن بن مهدي قال: كنا عند مالك، فجاءه -[٧٢٩]- رجل فقال: جئتك من مسيرة ستة أشهر، حملني أهل بلادي مسألة، قال: سل. فسأله عنها، فقال: لا أحسن، قال: فأي شيء أقول لأهل بلادي؟ قال: تقول: قال مالك لا أحسن.
قال الفضل بن زياد: سألت أحمد: من الذي ضرب مالكا؟ قال: ضربه بعض الولاة في طلاق المكره. كان لا يجيزه، فضربه لذلك.
وقال أبو داود السجزي: ضرب جعفر بن سليمان العباسي مالكا في طلاق المكره، فحدثني بعض أصحاب ابن وهب، عن ابن وهب أن مالكا ضرب وحلق، وحمل على بعير، فقيل له: ناد على نفسك، فنادى: ألا من عرفني فقد عرفني، أنا مالك بن أنس، أقول: طلاق المكره ليس بشيء، فقال جعفر: أدركوه أنزلوه.
وعن إسحاق الفروي، وغيره قال: ضرب مالك ونيل منه، وحمل مغشيا عليه.
فعن مالك قال: ضربت فيما ضرب فيه سعيد بن المسيب، ومحمد بن المنكدر، وربيعة، ولا خير فيمن لا يؤذى في هذا

الأمر.

وعن الليث بن سعد قال: إني لأرجو أن يرفعه الله بكل سوط درجة في الجنة.

قال مصعب بن عبد الله: ضربوه ثلاثين سوطا ويقال: ستين سوطا وذلك في سنة ست وأربعين ومائة.

قال الأصمعي: ضربه جعفر، ثم بعد مشيت بينهما حتى جعله في حل.

سليمان بن معبد: حدثنا الأصمعي قال: قال عمر بن قيس سندل لمالك: يا أبا عبد الله، أنت مرة تخطئ، ومرة لا تصيب، قال: كذاك الناس، ثم فطن فقال: من هذا؟ قيل: أخو حميد بن قيس، فقال: لو علمت أن لحميد أخا مثل هذا ما رويت عن حميد.

عن ابن وهب: أن مناديا نادى بالمدينة: ألا لا يفتي الناس إلا مالك، وابن أبي ذئب.

حرملة: حدثنا ابن وهب: سمعت مالكا، وقال له رجل: طلب العلم فريضة؟ قال: طلب العلم حسن لمن رزق خيره، وهو قسم من الله.

وقال: لا يكون إماما من حدث بكل ما سمع. -[٧٣٠]-

وقال: إن حقا على من طلب العلم أن يكون له وقار، وسكينة، وخشية، وأن يكون متبعا لأثر من مضى قبله.

قال الرمادي: حدثنا القعنبي، وسئل: كم أتى على مالك، قال: سمعتهم يقولون: تسع وثمانون سنة، قال: ومات سنة تسع وسبعين ومائة، وعرضت عليه سنة إحدى وستين.

قال إسماعيل بن أبي أويس: اشتكى مالك، فسألت بعض أهلنا عما قال عند الموت، قالوا: تشهد ثم قال: لله الأمر من قبل ومن بعد.

وتوفي في صبيحة أربع عشرة من ربيع الأول فصلى عليه أمير المدينة عبد الله بن محمد بن إبراهيم الملقب بالإمام ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس العباسي -، وأمه زينب بنت سليمان العباسية، وكان الأمير عبد الله يعرف بأمه، يقال له: ابن زينب، رواها محمد بن سعد، عن إسماعيل: ثم قال: وسألت مصعبا الزبيري فقال: بل توفي في صفر، فأخبرني معن بن عيسى بمثل ذلك.

وقال أبو مصعب الزهري: مات لعشر مضت من ربيع الأول.

وقال ابن سحنون: مات في حادي عشر ربيع الأول.

وقال ابن وهب: مات لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول.

واتفقوا على سنة تسع.

ومناقب مالك وسيرته يطول شرحها، وقد أفردت له ترجمة في جزء ضخم، وكذا أفردت ما وقع لي عاليا من حديثه في جزء، وقد سمعنا " موطأ أبي مصعب " عنه بالإجازة العالية، و " موطأ القعنبي "، و " موطأ يحيى بن بكير "، و " موطأ سويد بن

سعيد " الثلاثة بالاتصال، والله أعلم.". (١)

٣٦-"الترهيب من الغيبة، والترغيب في حفظ اللسان، قال تعالى: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ [ق: ٤٥] وقال تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ [الذاريات: ٥٥].

الخامس: استحضار حال المغتاب يوم القيامة:

وكيف تحبط الغيبة حسناته، وتذهبها أحوج ما يكون إليها، حيث تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه، فإن لم تكن له حسنات؛ نقل إليه من سيئات خصمه، فأدنى عواقب الغيبة أن تنقص من ثواب أعماله، وذلك بعد المخاصمة، والمطالبة، والسؤال والجواب، والحساب.

قال الشاعر:

وأعقل الناس من لم يرتكب سببا ... حتى يفكر ما تجني عواقبه

آخر:

وأحزم الناس من لو مات من ظمإ ... لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا

قال رجل للحسن: " بلغني أنك تغتابني "، فقال: " لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي " (١).

وقال رجل للفضيل بن عياض: " إن فلانا يغتابني "، فقال: " قد جلب لك الخير جلبا " (٢).

وقال عبد الرحمن بن مهدي: " لولا أني أكره أن يعصى الله، لتمنيت أن لا يبقى أحد في المصر إلا اغتابني، أي شيء أهنأ من حسنة يجدها الرجل في

---

(١) " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (١٦/ ٣٣٦).

(٢) " حلية الأولياء " (٨/ ١٠٨).". (٢)

٣٧-"مقدمة المؤلف الإمام النووي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد القهار، العزيز الغفار، مكور (١) الليل على النهار، تذكرة لأولي القلوب والأبصار، وتبصرة لذوي الألباب والاعتبار، الذي أيقظ من خلقه من اصطفاه فزهدهم في هذه الدار، وشغلهم بمراقبته وإدامة الأفكار، وملازمة الاتعاظ والادكار، ووفقهم للدأب في طاعته، والتأهب لدار القرار، والحذر مما يسخطه ويوجب دار البوار، والمحافظة على ذلك مع

---

(١) تاريخ الإسلام ت بشار ٧١٩/٤

(٢) الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام ص/١٢١

تغاير الأحوال والأطوار، أحمده أبلغ حمد وأزكاه، وأشمله وأنماه، وأشهد أن لا إله إلا الله البر الكريم، الرؤوف الرحيم، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، وحبيبه وخليله، الهادي إلى صراط مستقيم، والداعي إلى دين قويم، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر النبيين، وآل كل، وسائر الصالحين.

أما بعد، فقد قال الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٧] وهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة، فإنها دار نفاد لا محل إخلاد، ومركب عبور لا منزل حبور، ومشرع انفصام لا موطن دوام، فلهذا كان الأيقاظ من أهلها هم العباد، وأعقل الناس فيها هم الزهاد. قال الله تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ [يونس: ٢٤]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

---

(١) أي ملحق ومدخل وفي التنزيل العزيز: ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ [الزمر: ٣٩]." (١)

٣٨-"فضحك إسحاق بن راهويه؛ رحمة الله عليه، وذهب غضبه وقال: زدنا؛

فقلت: وحدثنا الصادق الناطق بإسناده عن عجيف قال:

قعد زغلمج في جلسائه فقال: أخبروني بأعقل الناس ..؟

فأخبر كل واحد بما عنده؛ فقال: لم تصيبوا، بل أعقل الناس الذي لا يعمل؛ لأن من العمل يجيء التعب، ومن التعب يجيء المرض، ومن المرض يجيء الموت، ومن عمل فقد أعان على نفسه؛ والله يقول: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء: ٢٩]". (٢)

٣٩-"قال أبو مصعب: «سمعت مالكا رحمه الله يقول: دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين، وقد نزل على مثال له [أي فراش] وإذا على بساطه دابتان، ما تروثان ولا تبولان، وجاء صبي يخرج ثم يرجع، فقال لي: أتدري من هذا ..؟ قلت: لا؛ قال: هذا ابني، وإنما يفزع من هيبتك، ثم ساءلني عن أشياء منها حلال ومنها حرام، ثم قال لي: أنت والله أعقل الناس وأعلم الناس؛ قلت: لا والله يا أمير". (٣)

---

(١) رياض الصالحين ت الفحل ص/٥

(٢) حياة التابعين ص/٥٢٠

(٣) حياة التابعين ص/١٤٩٧

٤٠-"﴿إيليا أبو ماضي أو محمد الأسمر﴾

o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o*o

أيهذا الشاكي وما بك داء *كن جميلا ترى الوجود جميلا

إن شر الجناة في الأرض نفس * تتمنى قبل الرحيل الرحيلا

فترى الشوك في الغصون وتعمى * أن ترى الزهر فوقه إكليلا

هو عبء على الحياة ثقيل * من يظن الحياة عبئا ثقيلا

أعقل الناس في الحياة أناس * عللوها فأحسنوا التعليلا

قل لقوم يستنرفون المآقى * هل شفيتم مع البكاء غليلا

كل من يجمع الهموم عليه * أخذته الهموم أخذا وبيلا

كن مع الفجر نسمة توسع الأز * هار شما وتارة تقبيلا". (١)

٤١-"إن الله قسم المواهب كما قسم الأرزاق

إن الله جل جلاله أيها الرفاق؛ قسم المواهب كما قسم الأرزاق، وفي بعض صحف أهل الكتاب: إن الله سبحانه وتعالى قسم أرزاق العباد نهارا؛ لذا فكل واحد ينظر إلى نصيب غيره، وقسم عقول العباد ليلا فلم ير كل واحد نصيب غيره من العقل؛ لذا فكل واحد معجب بعقله ويظن أنه أعقل الناس!!

فلا تحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، واعلم أن غثك خير من سمين غيرك ..!!

بسم الله الرحمن الرحيم:". (٢)

٤٢-"فلم يخطئ الإمام المصلح محمد عبده عندما قال فيهم:

" وجدت هناك إسلاما بلا مسلمين، وهنا وجدت مسلمين بلا إسلام " .

وصدق عمرو بن العاص رضي الله عنه عندما وصفهم فقال:" إن فيهم لخصالا أربعا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة . أي أعقل الناس . وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك " [رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم: ٢٨٩٨ / عبد الباقي]

وفي رواية: " وأجبر الناس عند مصيبة " .

(١) موسوعة الرقائق والأدب - ياسر الحمداني ص/٦٢٤

(٢) موسوعة الرقائق والأدب - ياسر الحمداني ص/٢٩٨٥

[رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم: ٢٨٩٨ / عبد الباقي]". (١)

٤٣-"القصائد الوردية

ويواصل الملاك قوله فيقول:

أيهذا الشاكي وما بك داء *كن جميلا ترى الوجود جميلا

إن شر الجناة في الأرض نفس * تتمنى قبل الرحيل الرحيلا

فترى الشوك في الغصون وتعمى * أن ترى الزهر فوقه إكليلا

هو عبء على الحياة ثقيل * من يظن الحياة عبئا ثقيلا

أعقل الناس في الحياة أناس * عللوها فأحسنوا التعليلا

قل لقوم يستنرفون المآقى * هل شفيتم مع البكاء غليلا". (٢)

٤٤-"٦٨- وعن يحي بن نصر(١)بن حاجب وغيره قالوا: كان أبو حنيفة - رضي الله عنه - منصفا من نفسه، وكان طويل الصمت، وكان لا يتكلم إلا أن يسأل، وكان لا يغضب في المناظرة في العلم، وكان من أعظم الناس أمانة، وكان يمحض النصيحة لمن أتاه، محبا كان أو مبغضا، وكان من أعقل الناس وأفضلهم في زمانه، وكان من أعبد الناس وأشدهم اجتهادا في وقته، وكان يحسن القول في السلف من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وكان يقول: أهل القبلة كلهم مؤمنون، لا يخرجهم من الإيمان بتضييعهم شيئا(٢) من الفرائض، وكان لا يكفرهم بذنب، وكان يرى الصلاة خلف الجبابرة من المسلمين الذين يرتكبون مالا يحل لهم(٣)، ولا يستثني في [٥٣ب] إيمانه، وكان يقول: الإيمان لايزيد ولا ينقص، وكان من آدب الناس عن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأحسنهم قولا فيهم، وفي أهل القبلة، وكان يفضل أبا بكر وعمر رضي الله عنهما(٤).

---

(١) في الأصل: نصير. وهو يحي بن نصر بن حاجب القرشي المروزي، أحد أئمة مرو في الحديث والفقه، صحب الإمام أبا حنيفة، وروى عنه. قال أبو زرعة: "ليس بشيء". وأما ابن عدي، فروى له أحاديث حسنة، وقال: "أرجو أنه لا بأس به". توفي ببغداد سنة ٢١٥هـ (مناقب المكي ٢٢٣، ٤٣٣؛ ميزان الاعتدال ٤: ٤١١-٤١٢؛ مناقب الكردري ٥١٢؛ عقود الجمان ١٤٩، ١٥٦؛ اللسان ٦: ٢٧٨-٢٧٩).

(٢) في الأصل: شيء.

(٣) في الأصل: له.

---

(١) موسوعة الرقائق والأدب - ياسر الحمداني ص/٥٧٦٥

(٢) موسوعة الرقائق والأدب - ياسر الحمداني ص/٦٠٩٣

(٤) انظر هذه المعاني الواردة في هذه الرواية: الانتقاء لابن عبد البر ص ٣١٤.٣١٥.". [١]

٤٥-" ٧٤ - أخبرنا أبو طاهر السلفي أنبأ محمد بن عبد الله السوذرجاني وأخوه أحمد أنبأ علي بن ميلة ثنا أبو علي أحمد بن محمد بن إبراهيم الصحاف ثنا جعفر بن محمد بن شاكر ثنا خنيس بن بكر بن خنيس ثنا يونس بن أبي إسحاق عن المغيرة بن عبد الله اليشكري عن أبيه قال غدوت لحاجة فإذا أنا بجماعة في السوق فملت إليهم فإذا رجل يحدثهم فسمعته يقول وصف لي رسول الله ووصفت لي صفته فعرضت له على قارعة الطريق بين عرفات ومنى فرفع لي ركب فعرفته بالصفة فهتف بي رجل من الراكب أيها الراكب خل عن وجوه الركاب فقال رسول الله

(ذروا الرجل فأرب ماله) فدنوت وأخذت بزمام الناقة أو خطامها فقلت نبئني بعمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار قال

(وذلك أعملك أو أنصبك) قال قلت نعم قال (فأفهم أو أعقل الناس)

(تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت وتأتي إلى الناس ما تحب أن يؤتى إليك ". [٢]

٤٦-"وأقبلوا جميعا تحت أثقالها الجديدة رزحا حسرى، ولها حيرى وقد ملؤوا السهل والحزن ضجة وأنينا. ورنة وحنينا. ثم أدركتهم رحمة الله، فأمرهم بطرح أثقالهم كرة أخرى، فألقوها فرحين بإلقائها مسرورين. وأمر الوهم تلك الشيطانة التي غررت بهم وضللتهم، أن تنصرف، فانصرفت، وأرسل الإله بدلها ملكا كريما، جد مخالف لها هيئة وشكلا. مباينا لها خلقا وخلقا، رزين الحركة ثابت الجنان، قد جمع في هيئته بين الطلاقة والجد والوقار والبشر، لا ينفك من حين إلى آخر يرفع نحو السماء طرفه، ويسمو إلى عرش الله بأمله، واسم هذا الملك. الصبر. وأعجب ما رأيت أن هذا الملك ما قام بجانب جبل الآلام إلا وأخذ الجبل يهبط

ويضؤل حتى لم يبق منه أكثر من ربعه، ثم أعاد ملك الصبر إلى كل حظه الأول، وألهمه الصبر الجميل، وأشعر قلبه قوة الجلد ونور اليقين، فراح مغتبطا سعيدا يحمد الله على كل ما أعطاه، تائبا مما اقترفه من الجهل وجناه.

فمما أفدت من هذه العظات والعبر أني لست حقيقا أن أتبرم بشيء مما يصيبني به الله أو أنفس على امرئ هبة أو نعمة، إذ كان مستحيلا على امرئ أن يعلم حقيقة جاره ويعرف سر صاحبه ويقف على مبالغ أحزانه وأشجانه وكربه، ونوبه، وبلاياه، ورزاياه، فكل لكل سر غامض وخزانة مقفلة وسفر مطبق. ولكني آليت على نفسي أن آخذ نفسي بثلاث: كتمان العلة، وكتمان الفاقة، وكتمان المصيبة، مع الصبر عليها جميعا، وأن لا أحسد امرأ على شيء، وأن أكون أبدا حاضر الصفح

---

(١) الاعتقاد - صاعد النيسابوري ص/١٥٧

(٢) التوحيد لله عزوجل ص/٩٠

للناس، واسع العفو، إذ كان أعقل الناس أعذرهم للناس. . .". (١)

٤٧-"تنازعني النفس أعلى الأمور ... وليس من العجز لا أنشط

ولكن بمقدار قرب المكان ... تكون سلامة من يسقط

وعلى الجملة فالزهد أمر تمسك العقلاء بعروته الوثقى، ولهذا أفتى الفقهاء بأنه لو أوصى لأعقل الناس صرف إلى الزهاد، وكل ما تراه عينك رهن الزوال، ومقدمات نتيجتها العدم، ولله در ابن الشبل البغدادي (١)

إذ يقول: (من الخفيف)

صحة المرء للسقام طريق ... وطريق الفناء هذا البقاء

بالذي نغتذي نموت ونحيا ... أقتل الداء للنفوس الدواء

ما لقينا من غدر دنيا فلا كا ... نت ولا كان أخذها والعطاء

صلف / تحت راعد وسراب ... كرعت منه مومس خرقاء [٥٢ أ]

راجع جودها عليها فمهما ... يهب الصبح يسترد المساء

ليت شعري حلما تمر به الأيا ... م أم ليس تعقل الأشياء

من فساد يكون في عالم الكو ... ن فما للنفوس منه اتقاء

وقليلا ما تصحب المهجة الجسـ ... م ففيم الشقاء وفيم العناء

قبح الله لذة لشقانا ... نالها الأمهات والآباء

نحن لولا الوجود لم نألم الفقـ ... ـر فإيجادنا علينا بلاء

وهي طويلة، وقال آخر (٢): (من الرمل)

هذه الدنيا وهذا شأنها أتعب الناس بها أعوانها

وذوو الأحلام قالوا إنها ... حلم يقضي بها يقظانها

يقال إن بعض الخلفاء أرسل إلى الخليل بن أحمد رسوله، فوجده يبل كسرة في ماء، ويأكل منها، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لي إليه حاجة، فقال: إنه يغنيك، فقال: ما دمت أجد هذين فإني لا أحتاج إليه، وقال تلميذه النضر بن شميل: أقام الخليل في خص من أخصاص البصرة، لا يقدر على فلس، وأصحابه يكسبون الأموال بعلمه، وأخبار الزهاد في إعراضهم كثيرة، وهذا الذي تقدم ذكره كله مخالف مراد الطغرائي في البيت، فإن رأيه السعي والجد والكد والكدح والانتصاب لتلقي لتلقي الأهوال في تحصيل المعالي، والترقي إلى

---

(١) الحسين بن عبد اله بن يوسف بن أحمد بن شبل أبو علي البغدادي. ولد في بغداد وبها نشأ، وبها توفي سنة أربع

---

(١) الذخائر والعبقريات ٢٤٤/١

وسبعين وأربعمائة. كان متميزا بالحكمة والفلسفة، خبيرا بصناعة الطب، أديبا فاضلا وشاعرا مجيدا، أخذ عن أبي نصر يحيى بن جرير التكريتي وغيره. وهو صاحب القصيدة الرائية التي نسبت للشيخ الرئيس ابن سينا وليست له، وقد دلت هذه القصيدة على علو كعبه في الحكمة والاطلاع على مكنوناتها، وقد سارت بها الركبان وتداولها الرواة، وهي:
بربك أيها الفلك المدار ... أقص ذا المسير أم اضطرار؟؟

معجم الأدباء ١٠/ ٢٣ . ٢٤
(٢) البيتان في الغيث المسجم ٢/ [٤٩ ب] لا عزو.". (١)

٤٨-"فقال الشاعر: أيها الرئيس! هذه نفاثة صدر قد جوي منذ سنة، وفضلة لسان قد فدم منذ زمان؛ وقد تقدم العمل، والجزاء موقوف، والرجاء عليل، والأمل غادر، والحال بعرض سوء، والشامت قد شمر للتأنيب، ولا صبر لمقل على مدل إلا على وجه يحتمل؛ فإن رأيت قدمت المتأخر، وقربت المتأخر، وقربت الشاسع، وجعلت إجزال العطية في تعجيلها، وإكرام طالبها في تسهيلها، فلا مانع إن لم يكن ذلك من سدة جد، أو تقاعس جد.
فقال: يا هذا قد كررت العتب، واجتررت الملام، وما أستوجب هذا من أحد من خلق الله؛ ولقد نافرت العميد بدون هذا حتى ثار من ذلك عجاج قاتم، وانتهينا منه إلى قري عاتم؛ ولست ولي نعمتي فأحتملك، ولا صنيعتي فأغضي عليك؛ وإن بعض ما قررته في أذني لمما ينقض مرة الحلم، ويبدد شمل الصبر؛ ولست ممن يطيش لأدنى سانح، ويتطير لأول بارح؛ والله ما دعوتك إلي، ولا أغريتك بي، ولا سألتك تقريظي، ولا أتعبتك في قصدي؛ وإن الظلم منك، وكذاك العتب منك؛ وأنا على كل حال مالي؟ فلا تجمع بين الظلم والتظلم، والجناية والتجني، وخذ نفسك بالنزاهة والعفاف فإنهما لا يقفانك هذا الموقف، ولا يعرضانك على هذا المجلس، ورزق الله منتاب وغاد، واطلب الغنى منك فإنه عندك أكثر منه عند من تظلمه وهو لم يظلم، وتعاقبه وهو لم يجرم.
فقال الرجل: ما كررت العتب حتى أكلت النوى المحرق في انتظار صلتك، ولا اجتررت الملام حتى خانني صبري في توقع جائزتك؛ والغضني إذا مطل ظلم، والواجد إذا لوى أثم، والجواد إذا منع ليم.
ولعمري ما دعوتني إليك، ولا أغريتني بك بكتاب خصصتني ورتبتني فيه، ولا سألتني تقريظك، ولا أبغيتني في قصدك برسول أرسلته إلي؛ ولكن لما جلست في صدر هذا الإيوان بأبهتك وعظمتك وكبريائك وجبروتك؛ وقلت: لا يخاطبني أحد إلا بالرياسة، ولا ينازعني أحد في حقوق السياسة؛ فإني كاتب ركن الدولة، وزعيم الأولياء بالحضرة، والقيم بمصالح المملكة - فقد أهبت الناس إلى بابك، وأغريتهم بخدمتك، وأطعمتهم في مالك، وكأنك قد خاطبتهم بلسان الحال، وإن لم تكن خاطبتهم بلسان المقال. فأنا ذلك السامع برياستك، والشاهد بفضلك، والراغب في خدمتك، والراجي لخيرك؛ سمعت فأجبت، وحضرت فمدحت، ووقفت أثنيت؛ وأصغيت فقبلت؛ وأديت فاستحسنت؛ ولم يبق بعد هذا كله إلا أن لا يكون

---

(١) شرح لامية العجم للدميري ص/٩٠

عطاؤك حرمانا، ولا جودك انتحالا، ولا فتوتك اقتيالا، ولا ماؤك سرابا، ولا جودك ضبابا؛ ولا خدمتك مندمة، ولا الحاصل من معاملتك مظلمة.

وإن الرجل الحر متى علم أن صاحبه لئيم الطباع، خسيس الخلق، مرقع المنصب، ملبوس المحتد، وأن الله تعالى لم يجعله من معادن الرزق، ولا من أبواب النجاح، فإنه لا يطمع فيه، ولا يتواضع له، ولا يعده فيمن يعد، ولا يشغل لسانه بمدحه، ولا يعق أمله بقصده، ولا يضيع قوله في وصفه؛ بل يرى أن اقتحام الجمر، وسف التراب، ونزع الروح أهون من ذاك وأعز.

ولعن الله الأدب إذا كان بائعه مذيلا له، ومشتريه مهينا لقدره، ومماكسا فيه.

وتقوض المجلس، وقام الناس، ونصرف الشاعر.

فحدثني شمسويه أنه طلبه بعد ذلك ليصله، فرجع إليه أنه ذهب بين سمع الأرض وبصرها.

وسألت الجرجاني عن ابن عباد وابن العميد.

فقال: ما يبينان بكرم كبير، وفعال مشهور؛ ولا فائدة في نشر لؤمهما وخساسة طباعهما؛ بلغ من فلسفة هذا أنه أمر بقطع لسان رجل شتم بلد قم غضبا لبله، وتيها بوطنه، وشد آخر في داره إلى شجرة وما زال يضرب إلى أن مات، وطرحه في جوبة حتى أكلته الكلاب؛ فقال صاحبه: انظروا إلى هذا الذي قلنا إنه أعقل الناس.

حدثني بهذا الهروي.". (١)

٤٩-"""""""" صفحة رقم ١٠٥ """""""

للقابلة : أخرجيه ذكر ولك دينار ولك ما شئت ، بالله لا أحتاج أن أوصيك . وقدم إلى بنت الصلت جام فالوذج ، فلما ذاقته قالت : المساكين أرادوا أن يسووا عصيدة فأفسدوها . قرأ ابن الجصاص : ولا ينبئك مثل حنين ؛ ويقال : إنه قرأ : ذرهم يأكلون ويتمتعون فقال : هذا والله رخيص . وسمعت مشايخ كثيرين يقولون : كان ابن الجصاص أعقل الناس وأحزم الناس ، وأنه هو الذي ألحم الحال بني المعتضد وبين بنت خمارويه ، وسفر بينهما سفارة عجيبة وبلغ من الجنبتين أحسن مبلغ ، وخطب بنت خمارويه بن ا ؛ مد للمعتضد ، وجهزها من مصر على أجمل وجه ، وأعلى". (٢)

٥٠-" ومايدريك انت انه قائم قال الطحان ومن لي بحمار بعقل مثل عقل الامير

ومعاوية بن مروان هذا هو الذي قال لأبي امرأته ملأتنا ابنتك البارحة بالدم قال انها من نسوة يخبئن ذلك لأزواجهن

وصعد يوسف بن عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال قد قتل الله زيدا ونصر بن سيار يريد نصر بن خزيمة

وقال علي الاسواري عمر بن الخطاب معلق بشعرة قلت وما صيره الى ذلك قال لما صنع بنصر بن سيار يريد نصر بن الحجاج بن علاط

---

(١) أخلاق الوزيرين ص/٦٧

(٢) البصائر والذخائر . موافقا للمطبوع ٤/١٠٥

وقالوا أحب الرشيد ان ينظر الى أبي شعيب القلال كيف يعمل القلال فادخلوه القصر وأتوه بكل ما يحتاج اليه من آلة العمل فبينا هو يعمل اذا هو بالرشيد قائم فوق رأسه فلما رآه نهض قائما فقال له الرشيد دونك ما دعيت له فاني لم اتك لتقوم إلي وانما أتيتك لتعمل بين يدي قال وأنا لم آتك ليسوء أدبي وإنما أتيتك لازداد بك في كثرة صوابي فقال له الرشيد إنما تعرضت لي حين كسدت سوقك قال ابو شعيب يا سيد الناس وما كساد عملي في جلال وجهك فضحك الرشيد حتى غطى وجهه ثم قال والله ما رأيت أنطق منه اولا ولا أعيا منه آخرا ينبغي لهذا ان يكون أعقل الناس أو أجن الناس

قال عبد الله بن شداد أرى داعي الموت لا يقلع وأرى من مضى لا يرجع ومن بقي فاليه ينزغ ولا نزهدن في معروف فان الدهر ذو صروف فكم من راغب قد كان مرغوبا اليه وطالب قد كان مطلوبا اليه والزمان ذو ألوان ومن يصحب الزمان ير الهوان

وقال الفرج بن فضاله عن يحيى بن سعيد عن محمد بن علي عن أبيه عن جده عن النبي (اذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء اذا أكلوا الاموال دولا واتخذوا الامانة مغنما والزكاة مغرما وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبر صديقه وجفا أباه وارتفعت الاصوات في المساجد وأكرم الرجل مخافة شره وكان زعيم القوم أرذلهم واذا لبس الحرير وشربت الخمور واتخذت القيان والمعازف ولعن اخر هذه الامه أولها فليرتقبوا بعد ذلك ثلاث خصال ريحا حمراء ومسخا وخسفا) ". (١)

٥١-"وقال آخر: العقل صديق مقطوع، والهوى عدو متبوع.

قالت الحماء: العلم قائد، والعقل سائق، والنفس ذود، فإذا كان قائد بلا سائق هلكت، وإن كان سائق بلا قائد أخذت يمينا وشمالا، فإذا اجتمعا أجابت طوعا وكرها.

دخل رجل على سليمان بن عبد الملك فتكلم عنده بكلام أعجب سليمان، وأراد أن يختبره وينظر: أعقله على قدر كلامه أم لا؛ فوجده مضعوفا فقال: فضل العقل على المنطق حكمة، وفضل المنطق على العقل هجنة، وخير الأمور ما صدق بعضها بعضا، وأنشد: من الطويل

ما المرء إلا الأصغران لسانه ... ومعقوله والجسم خلق مصور

فإن تر منه ما يروق فربما ... أمر مذاق العود والعود أخضر

وقال الحسن البصري: لو كان الناس كلهم عقول خربت الدنيا.

وقال زياد: ليس العاقل الذي إذا وقع في الأمر احتال له، ولكن العاقل يحتال للأمر حتى لا يقع فيه.

وقيل لعمرو بن عبيد: ما البلاغة؟ قال: ما بلغك الجنة وعدل بك عن النار. قال لسائل: ليس هذا أريد، قال: من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يسمع، ومن لم يحسن أن يسمع، لم يحسن أن يسأل، ومن لم يحسن أن يسأل لم يحسن أن يقول. قال: ليس هذا أريد؛ قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: إنا معشر الأنبياء بكاء، أي قليلو الكلام، وهو جمع بكيء،

---

(١) البيان والتبيين ص/٣٤٣

وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله. قال السائل ليس هذا أريد. قال: فكأنك تريد تحبير اللفظ في حسن إفهام، قال: نعم، قال: إنك إن أردت تقرير حجة الله في عقول المتكلمين، وتخفيف المؤونة عن المستمعين، وتزيين المعاني في قلوب المستفهمين، بالألفاظ الحسنة، رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم، بالموعظة الناطقة عن الكتاب والسنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب.

سأل الحسن بن سهل علي بن عبيدة فقال له: من الحاكم على الملوك؟ قال: أهل الآراء والعقول وتمام الكلام من غير هذا الباب.

قيل: نفور العالم من الجاهل أشد من نفور العالم من الجهل.

أعرابي: لولا ظلمة الخطأ ما أشرق نور الصواب.

قيل لبزرجمهر: لم لا تعاتبون الجهلة؟ قال: لأنا لا نريد من العميان أن يبصروا.

عمرو بن أعبل التميمي: من الطويل

وإن عناء أن تفهم جاهلا ... فيحسب جهلا أنه منك أفهم

متى يبلغ البنيان يوما تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

حدث شريك فقال عافية القاضي: ما سمعنا بهذا الحديث، فقال شريك: وما يضر عالما أن جهل جاهل؟! قال عيسى عليه السلام: عالجت الأكمة والأبرص فأبرأتهما، وعالجت الأحمق فأعياني.

كان شريح يقول: لأن أزاول أحمق أحب إلي من أن أزاول نصف الأحمق قيل: يا أبا أمية، ومن نصف الأحمق؟ قال: الأحمق المتعاقل.

شاعر من البسيط

لكل داء دواء يستطب به ... إلا الحماقة أعيت من يداويها

آخر: من الطويل

أبا جعفر إن الجهالة أمها ... ولود وأم العقل جداء حائل

الأدب صورة العقل فحسن صورة عقلك كيف شئت.

ابن السماك: أعقل الناس محسن خائف، وأجهلهم مسيء آمن.

قال حكيم: من أعجب الأشياء جاهل يسلم بالتهور، وعاقل يهلك بالتوقي.

وقيل: العقل بلا أدب فقر، والأدب بغير عقل حتف. العقل يحتاج إلى مادة الحكمة كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الأطعمة.

قال الحسن: ثلاثة أشياء تذهب ضياعا: دين بلا عقل، ومال بلا بذل، وعشق بلا وصل.

قال زياد: الحديث أسمعه من عاقل أحب إلي من سلافة فتقت بماء ثغب في يوم ذي وديقة.

أبو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم: يوشك أن يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع.

فيلسوف: إفراط العقل مضر بالجد.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن في كل أمة محدثين أو مروعين، فإن يكن في هذه الأمة أحد فإن عمر منهم. المحدث المصيب في حديثه كأنهما حدث بالأمر، والمروع الذي يلقى الأمر في روعه.

محمد بن علي الصيني في طاهر بن الحسين: من المتقارب

كأنك مطلع في القلوب ... إذا ما تناجت بأسرارها

فكرات طرفك ممتدة ... إليك بغامض أخبارها

ابن المعتز: من المتقارب

تفقد مساقط لحظ المريب ... فإن العيون وجوه القلوب

وطالع بوادره في الكلام ... فإنك تجني ثمار الغيوب

قال فيلسوف عقل الغريزة سلم إلى عقل التجربة.". (١)

٥٢-"قال أعرابي: لو صور العقل لأظلمت معه الشمس، ولو صور الحمق لأضاء معه الليل.

الهيثم بن القاسم الخثعمي: من البسيط

قد يرزق الأحمق المرزوق في دعة ... ويحرم الأحوذي الأرحب الباع

كذا السوام تصيب الأرض ممرعة ... والأسد منزلها في غير إمراع

والناس من كان ذا مال وسائمة ... مدوا إليه بأبصار وأسماع

قيل لحكيم: متى عقلت؟ قال: حين، ولدت. فلما رأى إنكارهم قال: أما أنا فقد بكيت حين جعت، وطلبت الثدي حين احتجت، وسكت حين أعطيت؛ يعني من عرف مقادير حاجاته فهو عاقل. وهذا كلام فاسد لأن ضرورات البدن والجوع والعطش يدركها العاقل والجاهل والبهائم وكل ذي وح، والطفل لا يعقل مقادير حاجاته.

قال الحجاج لابن القرية: من أعقل الناس؟ قال: الذي يحسن المداراة مع أهل زمانه.

حكيم: العقل والتجربة في التعاون بمنزلة الماء والأرض، لا يطيق أحدهما دون الآخر إنباتا.

إذا غلب العقل الهوى صرف المساوئ إلى المحاسن، فجعل البلادة حلما، والحدة ذكاء، والمكر فطنة، والهذر بلاغة، والعي صمتا، والعقوبة أدبا، والجبن حذرا، والإسراف جودا.

قال أردشير بن بابك: أربعة تحتاج إلى أربعة: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة.

قال ابن الأعرابي: قلت لشيخ من قريش: من علمك كذا؟ قال: علمني الذي علم الحمامة على بلهها تقليب بيضها كي تعطي الوجهين جميعا نصيبهما من الحضن.

قال النظام: ثلاثة تخلق العقل: طول النظر في المرآة، والاستغراب في الضحك، ودوام النظر في البحر.

المتنبي: من الكامل

---

(١) التذكرة الحمدونية ٣٦٣/١

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

نوادر من هذا الباب كان يعقوب بن المهدي محمقا، وكان يخطر بباله الشيء فيكتبه، ثم يثبت تحته: إنه ليس عندنا، وإنما أثبته ليكون ذكره عندنا إلى أن نملكه. فوجد له في دفتر: ثبت ما في الخزانة من الثياب المثقلة السكندرية الهاشمية: لا شيء، أستغفر الله، بلى عندنا زر من جبة كانت للمهدي. الفصوص الياقوت الحمر التي من حالها وقصتها كذا وكذا: لا شيء، أستغفر الله، بلى عندنا درج كان فيه خاتم للمهدي هذه صفته. فحمل ذلك الدفتر إلى المأمون فضحك حتى فحص برجله وقال: ما سمعت مثل هذا قط.

كان معاوية بن مروان أخو عبد الملك ضعيفا، فقال له خالد بن يزيد بن معاوية: يا أبا المغيرة ما أهونك على أخيك، لا يوليك ولاية. قال: لو أردت لفعل، قال: كلا، قال: بلى والله، قال: فسله أن يوليك بيت لهيا، قال: نعم. فغدا على عبد الملك فقال له: يا أمير المؤمنين: ألست أخاك؟ قال: بلى والله إنك لأخي وشقيقي، قال: فولني بيت لهيا قال: متى كان عهدك بخالد؟ قال: عشية أمس قال: إياك أن تكلمه. ودخل خالد فقال له: كيف أصبحت يا أبا المغيرة؟ فقال: قد نهانا هذا عن كلامك، فغلب عبد الملك الضحك، فقام وتفرق الناس.

وأفلت لمعاوية هذا باز فصاح: أغلقوا أبواب المدينة لا يخرج. وقال له رجل: أنت الشريف ابن أمير المؤمنين، وأخو أمير المؤمنين، وابن عم أمير المؤمنين عثمان، وأمك عائشة بنت معاوية، قال: فأنا إذن مردد في بني اللخناء تردادا. وصودر على ثمانية آلاف ألف دينار، وبقيت له بقية صالحة بعدها.

وكان ابن الجصاص من يساره وسعة حاله، وتمكنه من دولة المقتدر وغيرها، موصوفا بالجهل. قال لابن الفرات يوما: أعز الله الوزير، امنع هؤلاء الزنادقة من الاجتماع فقد بلغني أنهم يتكلمون بالكبائر، قال: وما الذي يقولون؟ قال: بلغني أنهم يقولون إن الصور ليس هو من قرن.

وسمع آية من القرآن في بعض المجالس فقال: حسن والله، هاتوا دواة وقرطاسا أكتب هذا، فقالوا له: هذا من القرآن، وفي دارك خمسون مصحفا، فكتبها وقال: لكل جديد لذة. وبعث بها إلى معلم ولده وأمره أن يحفظهم ذلك.

وكتب إلى وكيل له بأن يحمل مائة من قطنا، فحملها فلما حلجت استقل الحليج، وكتب إلى وكيله: إنه لم يحصل من هذا القطن إلا ريعه، فلا تزرع بعدها قطنا بحبه وازرع الحليج، ويكون معه أيضا شيء من الصوف.

وعرض على بعض الخلفاء عقدا مثمنا فقال: هي رأيت في عرس أمك مثله؟". (١)

٥٣-"" الأعمال بالنيات، ولكل امرىء ما نوى " . " نية المؤمن خير من عمله " . " آفة العلم النسيان " . " إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرا " . " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " . " إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه " . " أنزلوا الناس منازلهم " . " ما قل وكفى خير مما كثر وألهى " . " من ضمن لي ما بين فكيه، ضمنت له الجنة " . " اليد العليا خير من اليد السفلى " . " ما عال من اقتصد " . " ما أملق تاجر صدوق " . " من مات غريبا مات شهيدا " . "

---

(١) التذكرة الحمدونية ٣٦٤/١

المؤمنون عند شروطهم " . " مطل الغني ظلم " . " يد الله مع الجماعة " . " الشيطان مع الواحد، وهو من الإثنين أبعد " . " الرغب شؤم " . " لا جباية إلا بحماية " . " تهادوا تحابوا " . " الهدية مشتركة " . " الهدية تسل السخيمة " . " القلوب تتشاهد " . " خير الصحابة أربعة: الجار، ثم الدار، والرفيق، ثم الطريق " . " من غشنا فليس منا " . " ترك الشر صدقة " . " سيد القوم خادمهم " . " الحياء شعبة من الإيمان " . " لا تطرقوا الطير في أوكارها، فإن الليل أمان " . " من بدا جفا " . " من اتبع الصيد غفل " . ؟تخيروا لنطفكم " . " حدث عن البحر ولا حرج " . " ابدأ بنفسك ثم بمن تعول " . " المجالس بالأمانة " . " خير الأمور أوساطها " . " من أتى السلطان فتن " . "كل ميسر لما خلق له " . " لا تمسح يدك بثوب من لم تكسه " . " اطلبوا الخير عند حسان الوجوه " . " إياك وما يعتذر منه " . " حسن العهد من الإيمان " . " الوحدة خير من جليس السوء " . " السعيد من اتعظ بغيره " . " استعينوا على الحوائج بالكتمان " . " الخير عادة والشر لجاجة " . " البركة في البكور " . " بلوا أرحامكم ولو بسلام " . " اليمين حنث أو مندمة " . " الندم توبة " . " لا يكون المؤمن طعانا ولا لعانا " . " الندم توبة " . " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " . " ما هلك امرؤ عرف قدره " . " من كثر سواد قوم فهو منهم " . " إليك انتهت الأماني يا صاحب العافية " . " انصر أخاك ظالما أو مظلوما " . " انتظار الفرج بالصبر عبادة " . " لا تطرحوا الدر في أفواه الكلاب " . " الأعمال بخواتيمها " . " ساقي القوم آخرهم شربا " . " احترسوا من الناس بسوء الظن " . " المرء على دين خليله، فلينظر امرؤ من يخال " . "كاد الفقر أن يكون كفرا " . " لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف " . " نعم صومعة الرجل بيته " . " المستشير معان، والمستشار مؤتمن " . " ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن " . " المرء كثير بأخيه " . " لا خير لك في صحبة من لا يرى لك مثل الذي ترى له " .

أنموذج ينخرط في سلك الأمثال من كلام الصحابة

والتابعين رضي الله تعالى عنهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه: صنائع المعروف تقي مصارع السوء. الموت أهون مما بعده، وأشد مما قبله. ليست مع العزاء مصيبة. ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي، والنكث، والمكر. ولما بلغه أن الفرس ملكت عليها بنت أبرويز قال : ذل قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة. إن الله قرن وعده بوعيده، ليكون العبد راغبا راهبا.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من كتم سره كان الخيار في يده. اتقوا من تبغضه قلوبكم. أشقى الولاة من شقيت به رعيته. أعقل الناس أعذرهم للناس. لا تؤخر عمل يومك لغدك. اجعلوا الرأس رأسين، وأخيفوا الهوام قبل أن تخيفكم. أبت هذه الدراهم إلا أن تخرج أعناقها. لي على كل خائن أمينان لا يخونان: الماء والطين. تكثروا من العيال، فإنكم لا تدرون بمن ترزقون. لو كان الشكر والصبر بعيرين، ما باليت أيهما أركب. من لم يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه. ما الخمر صرفا بأذهب لعقول الرجال من الطمع. لا يكن حبك كلفا، ولا بغضك تلفا. مر ذوي القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا. قلما أدبر شيء فأقبل. إلى الله أشكو ضعف الأمين وخيانة القوى.

عثمان ذو النورين رضي الله عنه: ما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن. أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال.

قاله يوم صعد المنبر فأرتج عليه. يكفيك من الحاسد أنه يغتم يوم سرورك.". (١)

٥٤-"قد قلت إذ مدحوا الحياة فأسرفوا ... في الموت ألف فضيلة لا تعرف

منها أمان لقائه بلقائه ... وفراق كل معاشر لا ينصف

مثله لأبي أحمد الكاتب: "

من كان يرجو أن يعيش فإنني ... أصبحت أرجو أن أموت فأعتقا

في الموت ألف فضيلة لو أنها ... عرفت لكان سبيله أن يعشقا

ابن المعتز:

رأيت حياة المرء ترخص قدره ... وإن مات أغلته المنايا الطوائح

كما يخلق الثوب الجديد ابتذاله ... كذا تخلق المرء العيون اللوامح

ابن لنكك:

نحن والله في زمان غشوم ... لو رأيناه في المنام فزعنا

أصبح الناس فيه من سوء حال ... حق من مات منهم أن يهنا

آخر:

تبكي أناس على الحياة وقد ... أفني دموعي شوقا إلى الأجل

أموت من قبل أن يعمرنيالد ... هر فإني منه على وجل

الفصل الثاني من الفصل الرابع

المحاسن ومكارم الأخلاق

العقل والعاقل

العقل عقال النفس. عقول كل قوم على قدر زمانهم. العقل أشرف الأحساب. العقل جنة واقية. العقل الإصابة بالظن، ومعرفة ما لم يكن بما كان. ابن المقفع: أشد الفاقة عدم العقل. لو صور العقل لأضاء معه الليل، ولو صور الجهل لأظلمت معه الشمس. كل عمل يأذن فيه العقل فهو صواب، وما لم يأذن خطأ محض. أعرابي: كل شيء إذا كثر رخص إلا العقل؛فإنه إذا كثر غلا. ابن المعتز: العقل غريزة تربيها التجارب. إذا تم العقل نقص الكلام. حسن الصورة الجمال الظاهر، وحسن العقل الجمال الباطن. ليس الإنسان الصورة ، إنما الإنسان العقل. ما أبين وجوه الخير والشر في مرآة العقل إن لم يصدئها الهوى. من غلبه الهوى فليس لعقله سلطان. ينبغي للعاقل ان يكسب ببعض ما له المحمدة، ويصون نفسه ببعضه عن المسألة. من لم يتأمل الأمر بعين عقله لم يقع سيف حيلته إلا على مقاتله. العاقل من عقل لسانه، والجاهل من جهل قدره. العقل صفاء النفس، والجهل كدرها. العاقل لا يستقبل النعمة ببطر، ولا يودعها بجزع. العاقل لا يدعه ما ستر الله من عيوبه

---

(١) التمثيل والمحاضرة ص/٨

أن يفرح بما أظهره من محاسنه. لا ينبغي للعاقل أن يطلب طاعة غيره، وطاعة نفسه عليه ممتنعة. أيدي العقول تمسك أعنة النفوس عن الهوى. أقصر عن شهوة خالفت عقلك. أعقل الناس أعذرهم للناس. جهل العاقل أعقل من عقل الجاهل.

وفي كتاب المبهج

العقل أحصن معقل. أحر بمن كان عاقلا أن يكون عما لا يعنيه غافلا.

الجود

إن الله جواد يحب كل جواد. الجود غاية الزهد، والزهد غاية الجود. الجود أن تكون بما لك متبرعا، وعن مال غيرك متورعا. ابن المعتز: الجود حارس العرض من الذم. إن الله يمتحن بالإنعام عليك الإنعام منك، فأفد من فائدته، واستفد بفضلك من فضله. أكثر الواجدين من لا يجود، وأكثر الأجاود من لا يجد. الأسخياء يقيدون من المال، والبخلاء يقيدهم المال. أفضل الجود أن تبذل من غير مسألة، ثم تقدم العطية قبل الموعد.

التواضع

من تواضع لله رفعه الله. تواضعك في شرفك أحسن من شرفك. التواضع من مصائد الشرف. كل ذي نعمة محسود عليها، إلا التواضع. من لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره.

الكبر

في الخبر: من لبس الصوف وانتعل المخصوف، وركب حماره، وحلب شاته، وأكل مع عياله، وجالس المساكين فقد نحي عنه الكبر. يحيى بن خالد: الشريف إذا تقوى تواضع، والوضيع إذا تقوى تكبر. غيره: التواضع أوله تودد، وآخره سؤدد. يحيى بن معاذ: التكبر على المتكبر تواضع.

القناعة

الحر عبد إذا طمع، والعبد حر إذا قنع. أنت العزيز ما التحفت بالقناعة. من لم يقنع باليسير لم يكتف بالكثير. ذو النون: من كانت قناعته سمنته طابت له كل مرقة. غيره: القانع بما قسم الله تعالى له في حدائق النعم. أخفض العيش رضا المرء بحظه. أعرف الناس بالله أرضاهم بما قسم الله له. من تماسكت حاله عند أهل طبقته وجبت القناعة على عقله. من تجاوز الكفاف لم يغنه إكثار. من رضي بحاله استراح وأراح.

العفو". (١)

٥٥-"فالوجه النافع: أن يدور في مسامعه، ويغب في قلبه، ويختمر في صدره، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت فكانت نتيجتها أكرم نتيجة، وثمرتها أطيب ثمرة؛ لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلسة ولا مغتصبة، ولا دالة على فقر؛ إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه، والاعتماد عليه دون غيره. وبين الشيء إذا عشش في الصدر ثم باض، ثم فرخ ثم نهض، وبين أن يكون الخاطر مختارا، واللفظ اعتسافا واغتصابا، فرق بين.

---

(١) التمثيل والمحاضرة ص/٨٥

ومتى اتكل صاحب البلاغة على الهويني والوكال، وعلى السرقة والاحتيال، لم ينل طائلا، وشق عليه النزوع، واستولى عليه الهوان، واستهلكه سوء العادة.

والوجه الضار: أن يتحفظ ألفاظا بعينها من كتاب بعينه، أو من لفظ رجل، ثم يريد أن يعد لتلك الألفاظ قسمها من المعاني، فهذا لا يكون إلا بخيلا فقيرا، وحائفا سروقا، ولا يكون إلا مستكرها لألفاظه، متكلفا لمعانيه، مضطرب التأليف منقطع النظام. فإذا مر كلامه بنقاد الألفاظ وجهابذة المعاني استخفوا عقله، وبهرجوا علمه.

.ثم اعلم أن الاستكراه في كل شيء سمج، وحيث ما وقع فهو مذموم، وهو في الطرف أسمج، وفي البلاغة أقبح. وما أحسن حاله ما دامت الألفاظ مسموعة من فمه، مسرودة في نفسه، ولم تكن مخلدة في كتبه.

وخير الكتب ما إذا أعدت النظر فيه زادك في حسنه، وأوقفك على حده.

فصل في ذم اللواط

والذي يدل على أن هذه الشهوة معيبة في نفسها، قبيحة في عينها، أن الله تعالى وعز لم يعوض في الآخرة بشهوة الولدان من ترك لوجهه في الدنيا شهوة الغلمان، كما سقى في الآخرة الخمر من تركها له في الدنيا، ثم مدح خمر الجنة بأقصر الكلام، فنظم به جميع المعاني المكروهة في خمر الدنيا فقال: " لا يصدعون عنها ولا ينزفون " . كأنه تبارك وتعالى قال: " لا سكر فيها ولا خمار " .

وفي اكتفاء الرجال بالرجال والنساء بالنساء انقطاع النسل، وفي انقطاع النسل بطلان جميع الدين والدنيا. وغشيان الرجل الرجل والمرأة المرأة من المنكوس المعكوس، ومن المبدل المقلوب؛ لأن الله جل ذكره إنما خلق الذكر للأنثى، وجعل بينهما أسباب التحاب وعلائق الشركة، وعلل المشاكلة وجعل الذكر طبقا للأنثى، وجعل الأنثى سكنا للرجل. فقلب هؤلاء الأمر وعكسوه، واستقبلوا من اختار الله لهم بالرد والزهد فيه.

فصل

ومن المعلمين ثم من البلغاء المتأدبين: عبد الله بن المقفع، ويكنى أبا عمرو، وكان يتولى لآل الأهتم، وكان مقدما في بلاغة اللسان والقلم والترجمة، واختراع المعاني وابتداع السير. وكان جوادا فارسا جميلا، وكان إذا شاء أن يقول الشعر قاله، وكان يتعاطى الكلام. ولم يكن يحسن منه لا قليلا ولا كثيرا. وكان ضابطا لحكايات المقالات، ولا يعرف من أين غر المغتر ووثق الواثق. وإذا أردت أن تعتبر ذلك، إن كنت من خلص المتكلمين ومن النظارين، فاعتبر ذلك بأن تنظر في آخر رسالته الهاشمية، فإنك تجده جيد الحكاية لدعوى القوم، ردي المدخل في مواضع الطعن عليهم.

وقد يكون الرجل يحسن الصنف والصنفين من العلم، فيظن بنفسه عند ذلك أنه لا يحمل عقله على شيء إلا نفذ به فيه، كالذي اعترى الخليل بن أحمد بعد إحسانه في النحو والعروض، أن ادعى العلم بالكلام وبأوزان الأغاني، فخرج من الجهل إلى مقدار لا يبلغه أحد إلا بخذلان الله تعالى. فلا حرمنا الله تعالى عصمته، ولا ابتلانا بخذلانه.

فصل

وهذان الشاعران جاهليان، بعيدان من التوليد، وبنجوة من التكليف.

فصل

ومن خصال العبادة وإن كانت كلها راجحة فليس فيها شيء أرد في عاجل، ولا أفضل في آجل من حسن الظن بالله تعالى وعز وجل.

ثم اعلم أن أعقل الناس السلطان ومن احتاج إلى معاملته، وعلى قدر الحاجة إليه ينفتح له باب الحيلة، والاهتداء إلى مواضع الحجة. وما أقرب فضل الراعي على الرعية من فضل السائس على الدابة. ولولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضا، كما أنه لولا المسيم لوثب السباع على السوام.

ودعني من تدريسه كتب أبي حنيفة، ودعني من قولهم: اصرفه إلى الصيارفة؛ فإن صناعة الصرف تجمع مع الكتاب والحساب المعرفة بأصناف الأموال، ولا تجد بدا من حلة السلطان.". (١)

٥٦-"ومما ينخرط في هذا السلك أن بعض الملوك عزل وزيرا له اسمه الياقوت فحلف الملك ليستوزن أول من يلقى فخرج فلقي رجلا أعرابيا فاستوزره فإذا هو من أعقل الناس وأنجبهم فلما رأى الوزير الأول ذلك كتب إلى الملك:

أحكم النسج كل من حاك لكن ... نسج داود ليس كالعنكبوت

ألقني في لظى فإن غيرتني ... فتيقن أن لست بالياقوت

يشير إلى أن الياقوت المعروف لا يفسد بالنار.

فأجاب الآخر:

نسج داود ما حمى صاحب الغا ... ر وكان الفخار للعنكبوت

وفراخ السمند في لهب النا ... ر أزالت فضيلة الياقوت

أشار إلى السمندل وهو دويبة في ناحية الهند تتخذ من جلودها المناديل وتلقى في النار فلا تزداد إلا نضارة وحسنا ولا تحترق، والله على كل شيء قدير، إلى غير هذا مما لا ينحصر ولو تتبعناه لطال. وأما الكنية واللقب فيعتبران بوجهين: الأول نفس إطلاق الكنية واللقب وهما في هذا مختلفان، فإن الكنية الكثير فيها إذا لم تكن اسما أن يراد بها التعظيم وينبغي أن يعلم أن الناس باعتبارها ثلاثة أصناف: صنف لا يكنى لحقارته، وهو معلوم من أن الحقارة أمر إضافي، فرب حقير يكون له من يراه بعين التعظيم فيكنيه، والمقصود أن التحقير من حيث هو حقير لا يكنى إلا هزءا أو تلميحا، وصنف لا ينبغي أن يكنى لاستغنائه عنها وترفعه عن مقتضاها، ومن ثم لا يكنى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنهم أرفع من ذلك حتى إنهم أشرفت رفعتهم على أسمائهم فشرفت، فإذا ذكروا بها كانت أرفع من الكنى في حق غيرهم، وللملوك وسائر أكابر الناس نصيب من هذا المعنى، وصنف متوسط بين هذين، وهو الذي يكنى تعظيما، ثم إن كان التعظيم مطلوبا ككنية أهل العلم والدين ومن يحسن شرعا تعظيمه فحسن، وكذا اكتناء المرء بنفسه إن كان تحدثا بالنعمة أو تبركا بالكنية باعتبار من صدرت عنه أو نحو ذلك من المقاصد الجميلة فحسن، وإلا فمن الشهوات النفسانية، فما كان تكبرا أو تعظيما لمن لا يجوز تعظيمه بغير ضرورة ونحو ذلك فحرام، وإلا فمباح، وليس من هذا الباب ما يقصده به مجرد الإخبار فقط كقولك جاء أبي أو أبو فلان هذا أي

---

(١) الرسائل للجاحظ ص/١٧٢

والده، ولا يقصد به معناه على وجه التفاؤل مثلا نحو أبي الخير وأم السعد.
وأما اللقب فيقصد به كل من المدح والذم وغير ذلك، والحكم كالذي قبله.
الوجه الثاني النظر إلى مدلولهما الأصلي، وهما في ذلك كما مر في الاسم بل ذلك هنا أولى، لأن الأصل فيه أوضح، ولبعضهم في ذلك:
أتيت أبا المحاسن كي أراه ... بشوق كاد يجذبني إليه
فلما أن أتيت رأيت فسردا ... ولم أر من بنيه ابنا لديه
يريد أن لفظه ينبئ عن كون المحاسن لازمة له لزوم الأولاد لأبيهم، ثم إنها لم يجدها عنده، وكذا يقال في أبي المكارم وأبي الفضل وأبي البخت وجمال الدين وشمس الأئمة، والأصل في جميع هذا أن المستحسن في العقول وإن لم يكن لازما خلافا لمن زعم ذلك أن يطابق الاسم أي مدلوله الأصلي حتى يصير الاسم كأنه وصف مشتق لموصوف بمعناه، فإن لم يكن كذلك فإن التسمية خطأ، وكأن الاسم لا مسمى له، ومن هذا جاءت العادة بتخير الاسم عند التسمية وكذا عند الملاقاة كقصة البريد السابقة، أما التخير عند التسمية فلفائدتين: إحداهما التلذذ بسماعه وتجمل المسمى بذلك، الثانية التفاؤل بأن يصدق معناه، وذلك على حساب ما يريده، وللناس أغراض تختلف، وقد قيل لبعض العرب: لم تسمون عبيدكم نافعا ومرزوقا وأولادكم حربا ومرة فقال: إنا نسمي أولادنا لأعدائنا ونسمي عبيدنا لأنفسنا أي فلا فرق بين فائدة النفع وفائدة الدفع وحلاوتهما، بل الدفع أهم.
وكان وادي السباع في بلاد العرب وفيه قال قائلهم:
مررت على وادي السباع ولا أرى ... كوادي السباع حين تبصر واديا
أشد به ركبا أتوه تئية ... وأخوف إلا وما وقى الله ساريا
قيل: سبب تسميته أن امرأة من العرب كانت نزلته ولها عدة أولاد فوجدها رجل يوما وحدها فهم بها فقامت تصيح بأولادها وتقول: يل ليث، يا نمر، يا أسد، يا كذا، وهي أسماؤهم، فأقبلوا إليها يشتدون، فانطلق الرجل وهو يقول: هذا وادي السباع.". (١)

٥٧-" وقالوا العاقل لا تبطره المنزلة السنية كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الريح والجاهل تبطره أدنى منزلة كالحشيش يحركه أدنى ريح وقيل لعلي رضي الله عنه صف لنا العاقل قال هو الذي يضع الشيء مواضعه قيل فصف لنا الجاهل قال قد فعلت يعني الذي لا يضع الشيء مواضعه وقال المنصور لولده خذ عني ثنتين لا تقل من غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير وقال أدرشير أربعة تحتاج إلى أربعة الحسب إلى الأدب والسرور إلى الأمن والقرابة إلى المودة والعقل إلى التجربة وقال كسرى أنو شروان أربعة تؤدي إلى أربعة العقل إلى الرياسة والرأي إلى السياسة والعلم إلى التصدير والحلم إلى التوقير وقال القاسم بن محمد من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه كان حتفه من أغلب الخصال عليه وقيل أفضل العقل

---

(١) المحاضرات في اللغة والأدب ص/٤

معرفة العاقل بنفسه وقيل ثلاثة هن رأس العقل مداراة الناس والاقتصاد في المعيشة والتحبب إلى الناس وقيل من أعجب برأي نفسه بطل رأيه ومن ترك الاستماع من ذوي العقول مات عقله وعن عمرو ابن العاص رضي الله تعالى عنه أنه قال أهل مصر أعقل الناس صغارا وارحمهم كبارا وقيل العاقل المحروم خير من الأحمق المرزوق وقيل لا ينبغي للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت ولا طعاما حتى يستمرئه ولا يثق بخليل حتى يستقرضه وقيل طول اللحية أمان من العقل وسئل بعضهم أيما أحمد في الصبا الحياء أم الخوف قال الحياء لأن الحياء يدل على العقل والخوف يدل على الخبن وقيل غضب العاقل على فعله وغضب الجاهل على قوله وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه قال لي رسول الله يا عويمر ازدد عقلا تزدد من الله تعالى قربا قلت بأبي وأمي ومن لي بالعقل قال اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله تعالى تكن عاقلا ثم تنقل إلى صالح الأعمال تزدد في الدنيا عقلا وتزدد من الله قربا وعزا وحكى بعض أهل المعرفة قال حياة النفس بالروح وحياة الروح بالذكر وحياة القلب ". (١)

٥٨-"فوثب إليه الخدم يضربونه، فمنعتهم، و قالت: أراد خيرا فأخطأه، و من أراد خيرا فأخطأ أحب إلينا ممن أراد شرا فأصاب؛ سمع قولهم: شمالك أندى من يمين غيرك،

---

[١] سبق مثل هذا العنوان، و هنا الجماعة من الشعراء المحدثين.

الموشح، ص: ٤٣٦

و قفاك أحسن من وجه غيرك؛ و ظن أنه إذا قال هذا «١٩» كان أبلغ فى المديح. أعطوه ما أمل، و عرفوه ما جهل.

قال: فقلت له: و الله لو ورد هذا على العباس جدها رضى الله تعالى عنه- فإنه النهاية فى العقل [٢١٦]- ما كان عنده من الحلم و الاحتمال أكثر من هذا! قال: و قال الجاحظ بعقب هذا الحديث: كانت زبيدة أعقل الناس، و أفصح الناس.

أخبرنى عبد الله بن سليمان أن أحمد بن سليمان بن وهب كتب إلى أبى أحمد عبيد الله بن طاهر كتابا ضمنه هذين البيتين لبعض الأعراب:

و عهدى بليلى و هى ذات ذؤابة ترد علينا بالعشى المراميا

فشب بنو ليلى و شب بنوابنها و هذى بقايا حب ليلى كماهيا

فأجابه أبو أحمد جوابا يقول فيه: و أما البيتان اللذان ذكرتهما و حثثت بهما على الوفاء فقد استحسنتهما و احتجت إلى الاستثبات فى قوله:

ترد علينا بالعشى المراميا

و أى شى ء أراد بالمرامى؟ فإن الذى يعرف أن المرامى جمع مرمى، و المرمى المقذف، و هو مصدر رمى رميا كما ترى، فإن

---

(١) المستطرف ١/٣٧

كان أراد بالمرامى النبل فهو موجود فى كلام العرب، و له شاهد. و كأن قوله:
شب بنو ليلى و شب بنو ابنها

يقتضى أن يكون قال: «شب بنو ابنها منه، أو من غيره! فإنه لم يقدم ذكرا لملكه إياها، و أنها أم ولده؛ و إن كانوا يتكلمون على علم المخاطب- و يروى أن البلاغة لمحة دالة، و كأن من سمع البيتين مع استحساننا جميعا إياهما وقف على قوله: «بقايا حب.
ليلى» و أراد منه ألا يكون ذكر البقايا، و أن يكون احتال حتى جعل مكانها أول الافتتاح،
الموشح، ص: ٤٣٧". (١)

٥٩-"لرأيت الأنف في السر ... ج وعيسى مثل ردفه
وقال ابن السلماني :
أتيه على جن البلاد وإنسها ... ولو لم أجد خلقا لتهت على نفسى
أتيه فلا أدرى من التيه من أنا ... سوى ما يقول الناس في وفى جنسى
فإن زعموا أنى من الإنس مثلهم ... فما لي عيب غير أنى من الإنس
وقال خلف الحمر :
لنا صاحب مولع بالخلاف ... كثير الخطاء قليل الصواب
ألج لجاجا من الخنفساء ... وأزهى إذا ما مشى من غراب
ولأبى العتاهية ، ويروى لمنصور الفقيه :
حذتك الكبر لا يعلقك ميسمه ... فإنه ملبس نازعته الله
يا بوس حامل رجس ليس يغسله ... بالماء عنه إذا كلمته تاها
يرى عليك له فضلا ومنزلة ... إن نال في العاجل السلطان والجاها
مثن على نفسه راض بسيرته ... كذبت يا صاحب الدنيا ومولاها
وقال منصور الفقيه :
قلت للمعجب لما ... قال مثلى لا يراجع
يا قريب العهد بالمخ ... رج لم لا تتواضع
قال على بن محمد : إنما أهلك الناس العجلة والعجب ، ولو ثبتوا ولم يعجلوا لم يهلك منهم أحد.
قال ابن أبى ليلى : ما رأيت ذا عجب قط إلا اعتراني بعض دائه. يريد أنه يبعثه على مكافأته بالتكبر عليه.

---

(١) الموشح ص/٢٩٠

قال بعض الحكماء : من استطاع أن يمنع نفسه أربعا كان جديرا ألا ينزل به مكروه : العجلة ، واللجاجة ، والتواني ، والعجب. ولإبراهيم بن العباس الصولى في محمد بن عبد الملك الزيات :

أبا جعفر عرج على خلطائكا ... وأقصر قليلا عن مدى غلوائكا

فإن كنت قد أوتيت بالأمس رفعة ... فإن رجائي في غد كرجائكا

ولمنصور الفقيه :

قد كنت أيام كنت مثلكم ... أرى الهلال الخفي بالعجله

لو مر بي تائه على جمل ... لم أره الآن قلة ولا جمله

باب التواضع والإنصاف

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تواضع عبد لله إلا رفعه الله.

وقال صلى الله عليه وسلم : تواضعوا يرفعكم الله ، واعفوا يعزكم الله.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : طوبى لمن تواضع من غير منقصة ، وذل نفسه من غير مسكنة ، وأنفق مالا جمعه من غير معصية ، طوبى لمن طاب كسبه ، وصلحت سريرته ، وكرمت علانيته.

انتسب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى بلغ عشر آباء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاحسب إلا في التواضع ، ولا نسب إلا بالتقوى ، ولا عمل إلا بالنية ، ولا عبادة إلا باليقين.وعنه عليه السلام أنه قال : من عظمت نعمة الله عليه فليطلب بالتواضع شكرها ، فإنه لا يكون شكورا حتى يكون متواضعا.

قال بعض الحكماء : رأس الحكمة طاعة الله ، وتقديم حسن النية ، وعراها التواضع في الحق ، والإنصاف في المناظرة ، والإقرار بما يلزم من الحجة ، وثمرتها حفظ الثواب ، في العاجلة ، والنجاة في العاقبة ، وحقها العمل بها ، وألا تمنع من من مستحقها ، وأن توقر أوعيتها لوقارها.

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما من أحد إلا وفي عنقه حكمة موكل بها ملك ، يقول الله به : إن تواضع عبدى فارفعه ، وإن ارتفع فضعه.

قال بكر بن عبد الله المزنى : ما أرى امرءا إلا رأيت له الفضل على ، لأني من نفسى على يقيين ، وأنا من الناس على شك.

قال عبد الله بن مسعود : إن من التواضع الرضا بالدون من شرف المجلس ، وأن تسلم على من لقيت.

قال عبد الله بن المبارك : التعزز على الأغنياء تواضع.

كان يقال : بالتواضع تتم النعمة ، وبالتكبر تحق النقمة.

كان سليمان عليه السلام يجئ إلى أوضع المجالس بنى إسرائيل فيجلس معهم فيقول : مسكين بين ظهرانى مساكين.

كان يقال : ثمرة القناعة الراحة ، وثمرة التواضع المحبة.

قال لقمان لابنه : يا بنى تواضع للحق ، تكن أعقل الناس قال أبو الدرداء : ليس الذي يقول الحق ويفعله بأفضل من الذي يسمعه فيقبله.

قال بعض الحكماء : إذا نسك الشريف تواضع ، وإذا نسك الوضيع تكبر.ولذى الرمة الأسدى :". (١)

٦٠-"إن الذين ترونهم إخوانكم ... يشفش صداع رءوسهم أن تصرعوا

فضلت عداوتهم على أحلامهم ... وأبت ضباب صدورهم ما تنزع

لا تأمنوا قوما يشب صبيهم ... بين الوابل بالعداوة يرضع

قال لقمان لابنه :يا بني!إياك وصاحب السوء ،فإنه كالسيف المسلول ،يعجبك منظره ،ويقبح أثره.

قال المثقب العبدي :

وصاحب السوء كالداء العياء إذا ... ما ارفض في الجوف يجري هاهنا وهنا

ينبي ويخبر عن عورات صاحبه ... وما رأى عنده من صالح دفنا

كمهر سوء إذا رفعت سيرته ... رام الجماح وان أخفضته حرنا

إن يحي ذاك فكن منه بمعزلة ... أو مات ذاك فلا تقرب له جننا

ولقعنب بن أم صاحب ،وهو قعنب بن حمزه ،أحد بني عبد الله بن غطفان ، يهجو بني ضبة حي من غطفان :

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

فطانة فطنوها لو تكون لهم ... مروءة أو تقى لله ما فطنوا

إن يسمعوا سيئا طاروا به فرحا ... مني ،وما سمعوا من صالح دفنوا

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن

فلن يراجع ودى ودهم أبنا ... وكنت من بغضهم مثل الذي زكنوا

روى عن معاذ بن جبل ، وقد رفعه بعضهم ، قال : إذا أحببت أخا في الله فلا تماره ولا تساره عنه أحدا ، فربما صادفت له عدوا فأخبرك بما ليس فيه ، فحال بينك وبينه.

قال أبو الأسود الدؤلى :

وصله ما استقام الوصل منه ... ولا تسمع به قيلا وقالا

قال محمود الوراق :

لست ممن يماذق الصاحب ال ... ود إذا أظهر الجفاء الصريحا

أنا أنهاه ما استطعت فإن لج ... أعرت الفؤاد يأسا مريحا

غير أني على القطيعة لا أظ ... هر هجرا ولا أقول قبيحا

باب العتاب

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أعقل الناس أعذرهم لهم.

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ص/٩٦

قال الأحنف : العتاب مفتاح التقالى ، والعتاب قرين الحقد.
وعن الأصمعي قال : قال أعرابي : عاتب من ترجو رجوعه.
قال بعض الحكماء : العتاب علامة الوفاء ، وسلاح الأكفاء ، وحاصد الجفاء.
قال العتابي : ظاهر العتاب خير من مكنون الحق ، وضربة الناصح خير من محبة الشاني.
قال بعض الحكماء : من كثر حقده قل عتابه.
قال محمد بن داود : من لم يعاتب على الزلة ، فليس بحافظ للخله.
قال أسماء بن خارجة الإكثار من العتاب ، داعية إلى الملال.
قيل لبعض الأعراب : من الأديب العاقل ؟ قال : الفطن المتغافل.
قال بعض الأدباء : من أحب أن يسلم له صديقه ، فليقبل عذره ، وليقل عتابه ، فإن العتاب يجر الملال.
قال غيره : العتاب مفتاح القطيعة.
قال عمرو بن بحر العتاب رائد الإنصاف وشفيع المودة ، ويد للمحافظة.
أنشدنا الرياشي ،وهي لهشام الرقاشي : ؟أبلغ أبا مسمع عني مغلغلة وفي العتاب حياة بين أقوام
قدمت قبلي رجالا لم يكن لهم ... في الحق أن يلجوا الأبواب قدامي
لو عد قبر كنت أمرمهم ... قبرا وأبعدهم من منزل الذام
وقال عبيد الله بن طاهر : ؟أعاتب من يحلو بقلبي عتابه وأترك من لا أشتهينلا أعاتبه وقال آخر : ؟وليس عتاب المرء للمرء نافعا إذا لم يكن للمرء لب يعاتبه وقال آخر : ؟أعلتب من أحببت في كل زلة ليحتمى الأمر الذي معه العتب
فإني أرى التأديب عند وجوبه ... بمنزلة الغيث الذي قبله الجدب
وقال على بن الجهم : ؟أعاتب ذا المودة من صديق إذا ما رابني منه اجتناب
إذا ذهب العتاب فليس ود ... ويبقى الود ما بقي العتاب
وقال آخر :
لولا محبتكم لما عاتبتكم ... ولكنم عندي كبعض الناس
وقال نصر بن أحمد : ؟وتعاتب الإخوان فيما بينهم بعث على الإجلال والإكرام
لولا اعترافي باعترافك في الذي ... تأتي وتترك ما أتاك ملاميوهذا يشبه قول البحتري :
؟أبا حسن ما كان عتبيك دونهم لواحدة إلا لأنك تفهم وقال نصر بن أحمد :". (١)

٦١-"شربت لكن دخانا من سكاراتي
وأخترت أهون شر بالدخان وإن

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ص/١٥٥

احرقت ثوبي منه بالشرارات

وقلت يا قوم تكفيكم مشاركتي

إياكم في التذاذ بالمضرات

إني لأمتص جمرا لف في ورق

إذ تشربون لهيبا ملء كاسات

كلاهما حمق يفتر عن ضرر

يسم من دمنا تلك الكريات

حسبي من الحمق المعتاد أهونه

إن كان لابد من هذي الحماقات

يا من يدخن مثلي كل آونة

لمني ألمك ولا ترض اعتذاراتي

إن العوائد كالأغلال تجمعنا

على قلوب لنا منهن أشتات

مقيدين بها نمشي على حذر

من العيون فنأتي بالمداجاة

قد ننكر الفعل لم تألفه عادتنا

وان علمناه من بعض المباحات

ورب شنعاء من عاداتنا حسنت

في زعمنا وهي من أجل الشناعات

عناكب الجهل كم ألقت بأدمغة

من الأنام نسيجا من خرافات

فحرموا وأحلوا حسب عادتهم

وشوهوا وجه أحكام الديانات

حتى تراهم يرون العلم منقصة

عند النساء وان كن العفيفات

وحجوبهن خوف العار ليتهم

لم تحص سيئة العادات مقدرتي

مهما تفننت منها في عباراتي

فكم لها بدع سود قد اصطدمت

في الناس منهن آفات بآفات

لو لم يك الدهر سوقا راج بأطلها

ما راجت الخمر في سوق التجارات

ولااستمر دخان التبغ منتشرا

بين الورى وهو مطلوب كاقوات

لو استطعت جعلت التبغ محتكرا

فوق احتكار له أضعاف مرات

وزدت أضعاف أضعاف ضريبته

حتى يبيعوه قيراطا ببدرات

فيستريح فقير القوم منه ولا

يبلى به غير مثر ذي سفاهات

الحر من خرق العادات منتهجا

نهج الصواب ولو ضد الجماعات

ومن إذا خذل الناس الحقيقة عن

جهل أقام لها في الناس رايات

ولم يخف في اتباع الحق لائمة

وعامل الناس بالإنصاف مدرعا

ثوب الاخوة من نسج المساواة

فاغبى البرية أرفاهم لعادته

وأعقل الناس خراق لعادات

شعراء العراق والشام >> معروف الرصافي >> وظلت لها أبكي بعين قريحة رمت مسمعي ليلا بأنه مؤلم

وظلت لها أبكي بعين قريحة رمت مسمعي ليلا بأنه مؤلم

رقم القصيدة : ١٩٥١٧

-----------------------------------". (١)

٦٢-"٣(لو لم يك الدهر سوقا راج بأطلها ** ما راجت الخمر في سوق التجارات)(ولااستمر دخان التبغ منتشرا ** بين الورى وهو مطلوب كاقوات)(لو استطعت جعلت التبغ محتكرا ** فوق احتكار له أضعاف مرات)٤ (وزدت

---

(١) جميع دواوين الشعر العربي على مر العصور ٦٩/١٨

أضعاف أضعاف ضريبته ** حتى يبيعوه قيراطا ببدرات)٥ (فيستريح فقير القوم منه ولا ** يبلى به غير مثر ذي سفاهات)٦ (الحر من خرق العادات منتهجا ** نهج الصواب ولو ضد الجماعات)٧ (ومن إذا خذل الناس الحقيقة عن ** جهل أقام لها في الناس رايات)٨ (ولم يخف في اتباع الحق لائمة **)٩ (وعامل الناس بالإنصاف مدرعا ** ثوب الاخوة من نسج المساواة) ٤٠ (فاغبى البرية أرفاهم لعادته ** وأعقل الناس خراق لعادات)

". (١)

٦٣-"""""""" صفحة رقم ٤٥ """""""

جزاه ؛ فاجعل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصرك ، فإنه لا عمل لمن لا نية له ، ولا أجر لمن لا خشية له ، ولا جديد لمن لا خلق له .

ودخل عدي بن حاتم على عمر ، فسلم وعمر مشغول ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا عدي بن حاتم ؛ فقال : ما أعرفني بك آمنت إذ كفروا ، ووفيت إذ غدروا ، وعرفت إذ أنكروا ، وأقبلت إذ أدبروا وقال رجل لعمر : من السيد ؟ قال : الجواد حين يسأل ، الحليم حين يستجهل ، الكريم المجالسة لمن جالسه ، الحسن الخلق لمن جاوره .

وقال رضي الله عنه : ما كانت الدنيا هم رجل قط إلا لزم قلبه أربع خصال : فقر لا يدرك غناه ، وهم لا ينقضي مداه ، وشغل لا ينفد أولاه ، وأمل لا يبلغ منتهاه .

فصول قصار من كلامه رضي الله عنه

من كتم سره كان الخيار في يده ، أشقى الولاة من شقيت به رعيته .

أعقل الناس أعذرهم للناس . ما الخمر صرفا بأذهب لعقول الرجال من الطمع .

لا يكن حبك كلفا ، ولا بغضك تلفا ، مر ذوي القرابات أن يتزاوروا ، ولا يتجاوروا . قلما أدبر شيء فأقبل ، أشكو إلى الله ضعف الأمين ، وخيانة القوي ، تكثروا من العيال فإنكم لا تدرون بمن ترزقون . لو أن الشكر والصبر بعيران ما باليت أيهما أركب . من لا يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه . وقال معاوية بن أبي سفيان لصعصعة بن صوحان : صف لي عمر بن الخطاب ، فقال : كان عالما برعيته ، عادلا في قضيته ، عاريا من الكبر ، قبولا للعذر ، سهل الحجاب ، مصون الباب ، متحريا للصواب ، رفيقا بالضعيف ، غير محاب للقريب ، ولا جاف للغريب .

وروى أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، حج فلما كان بضجنان قال : لا إله إلا الله العلي العظيم ، المعطي من شاء ما شاء ، كنت في هذا الوادي في مدرعة صوف أرعى إبل الخطاب ، وكان فظا يتعبني إذا عملت ، ويضربني إذا قصرت ، وقد أمسيت الليلة ليس بيني وبين الله أحد ، ثم تمثل : البسيط

---

(١) ديوان معروف الرصافي ص/١١٨

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته . . . يبقى الإله ويودي المال والولد". (١)

٦٤-"""""""" صفحة رقم ١٩٢ """"""

وكان ظريفا في دينه ، وذكر أنه مر ببيت النار فقال : الكامل :

يا بيت عاتكة الذي أتعزل . . . حذر العدا وبه الفؤاد موكل

أصبحت أمنحك الصدود ، وإنني . . . قسما إليك مع الصدود لأميل البيتان للأحوص بن محمد بن عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الأنصاري ، أخي بني عمرو بن عوف . وعاصم بن ثابت حمي الدبر ، قتله بنو لحيان من هذيل يوم الرجيع ، فأرادوا أن يبعثوا برأسه إلى مكة ، وكانت سلافة بنت سعد نذرت لتشربن في رأسه الخمر ، وكان قتل بعض ولدها من طلحة بن أبي طلحة أحد بني عبد الدار يوم أحد ، فلما أرادوا أخذ رأسه حمته الدبر - وهي النحل - فلم يجدوا إليه سبيلا ، وجعلوا يقولون : إن الدبر لو قد أمسى صرنا إلى حشو استه ، فلما أمسوا بعث الله أتيا فواراه منهم . وعاتكة التي ذكر هي عاتكة بنت يزيد بن معاوية .

ولما دخل أبو جعفر المنصور المدينة قال للربيع : ابغني رجلا عاقلا عالما بالمدينة ليقفني على دورها ؛ فقد بعد عهدي بديار قومي ؛ فالتمس له الربيع فتى من أعقل الناس وأعلمهم ، فكان لا يبتدئ بإخبار حتى يسأله المنصور فيجيبه بأحسن عبارة ، وأجود بيان ، وأوفى معنى ، فأعجب المنصور به ، وأمر له بمال ، فتأخر عنه ، ودعته الضرورة إلى استنجازه ، فاجتاز ببيت عاتكة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص : يا بيت عاتكة الذي أتعزل . . . البيت ، ففكر المنصور في قوله ، وقال : لم يخالف عادته بابتداء الإخبار دون الاستخبار إلا لأمر ، وأقبل يردد القصيدة ويتصفحها بيتا". (٢)

٦٥-"أخاف أن يجني علي حمقي جناية تذهب بمالي ويبقى علي حمقي؛ استخرج هذا الصبي بفرط ذكائه ما يدق على من هو أكبر منه سنا. وقيل لبعض الصبيان: ألك أب؟ قال: فكأني عيسى بن مريم! وقد قالت الحكماء: آية العقل سرعة الفهم وغايته إصابة الوهم، وليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية. ألا ترى أن أياس بن معاوية الذي يضرب المثل بذكائه قال لأبيه وهو طفل، وكان أبوه يؤثر أخاه عليه: يا أبت، تعلم ما مثلي ومثل أخي معك إلا أنا كفرخ الحمام، أقبح ما يكون أصغر ما يكون، وكلما كبر ازداد ملاحة وحسنا، فتبنى له العلالي وتتخذ له المربعات وتستحسنه الملوك، ومثل أخي مثل الجحش أملح ما يكون أصغر ما يكون وكلما كبر قبح وصار إلى القهقرى، إنما يصلح لحمل الزبل والتراب.

والوجه الثاني ما يصلح لذوي الحنكة وصحة الروية لطول ممارسة والأمور كثيرة التجارب، ومرور العبر على أسماعهم وتقلب الأيام وتصرف الحوادث وتناسخ الدول، قد مرت على عيونهم وجوه الغير وتصدت لأسماعهم أنواع الأخبار وآثار العبر. قال

---

(١) زهر الأداب وثمر الألباب ١/٤٥

(٢) زهر الأداب وثمر الألباب ١/١٩٢

بعض الحكماء: كفى بالتجارب تأديبا وبتقلب الأيام عظة. وقالوا: التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل. ولذلك حمدت آراء الشيوخ حتى قالوا: المشايخ أشجار الوقار وينابيع الأنوار، لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم، فعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الأيام حنكة وتجربة. وقال الشاعر:

ألم تر أن العقل زين لأهله ... ولكن تمام العقل طول التجارب

وقال الآخر:

إذا طال عمر المرء في غير آفة ... أفادت له الأيام في كرها عقلا

غير أن للعقل آفات، كما قال بعض الحكماء: كيف يرجو العاقل النجاة، والهوى والشهوة قد اكتنفاه، والهوى أبعد من أن تنفذ فيه حيلة الحازم المحتال، وهو أغمض مسلكا في الجنان من الروح في الجثمان، وأملك في النفس من النفس والمالك للشيء. ولهذا قيل: كم من عاقل أسير عند هوى أمير؟ فمن أحب أن يكون حرا فلا يهوى وإلا صار عبدا كما قال علي بن الجهم:

أنفس حرة ونحن عبيد ... إن رق الهوى لرق شديد

واختلف الناس في العقل المكتسب إذا تناهى وزاد في الإنسان، هل يكون فضيلة أم لا؟ فقال معظم العقلاء: إنه فضيلة لأنه أذن كان مجموع آحاد وللآحاد فضائل، ولا شك أن كثرة الفضائل فضيلة. وأما الشيء المحدود فتكون الزيادة فيه نقصا من المحدود كالتهور في الشجاعة، والتبذير في الكرم. وأما الزيادة في العقل المكتسب فزيادة علم بالأمور وحسن إصابة بالظنون، ومعرفة ما لم يكن بما قد كان. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أفضل الناس أعقل الناس. وقال عليه السلام: العقل حيث كان إلف مألوف. وقال القاسم بن محمد: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه، كان حتفه في أغلب الخصال عليه.

ولما مات بعض الخلفاء تخشخشت الروم واحتشدت واجتمعت ملوكها وقالوا: الآن يستقل المسلمون بعضهم ببعض فتمكننا الغرة فيهم والوثبة عليهم، وضربوا في ذلك مشاورات وتراجعوا فيه بالمناظرات، واجتمعوا على أنه فرصة الدهر وثغرة النحر. وكان رجل منهم من ذوي الرأي والمعرفة غائبا عنهم فقالوا: من الحزم عرض الرأي عليه. فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال: لا أرى ذلك صوابا. فسألوه عن علة ذلك فقال: غدا أخبركم إن شاء الله. فلما أصبحوا غدوا عليه للوعد وقالوا: لقد وعدتنا. قال: نعم. فأمر بإحضار كلبين عظيمين قد أعدهما، ثم حرش بينهما وألب كل واحد منهما على الآخر فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما، فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل منه على الكلبين ذئبا عنده قد أعده،فلما أبصراه تركا ما كانا عليه وتألفت قلوبهما ووثبا جميعا على الذئب، فنالا منه ما أرادا. ثم أقبل الرجل على أهل الجمع فقال لهم: مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب، لا يزال الهرج والقتال بينهم ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم، فإذا ظهر لهم عدو من غيرهم تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو. فاستحسنوا قوله وتفرقوا عن رأيهم.

وأما المذموم في هذا الباب فصرف العقل إلى الدهاء والمكر. قال الشعبي:". [1]

٦٦-"وقال بعض الصالحين الهوى مركب ذميم يسير بك في مضلات الفتن ومرتع وخيم يقعدك في مواطن المحن ويعلقك في حبائل الأحن ويقال من كان لعنان هواه أملك كان لطرق الرشاد أسلك ويقال بغلبة سلطان العقل على الهوى ينال السودد وقال شاعر

واعلم بأنك لن تسود ولن ترى ... طرق الرشاد إذا اتبعت هواكا

آخر

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى ... إلى كل ما فيه عليك مقال

ويقال عبد الهوى أذل من عبد الرق وقالوا أعقل الناس من عصى مراده ولم يعط الهوى قياده شاعر

إن الردى تبع الهوى ... ومن الهوى حلو ومر

اقنع بعيشك ترضه ... واملك هواك وأنت حر

وقال علي بن الحسين المغربي

ما للمطيع هواه ... من الملام ملاذ

فاختر لنفسك إما ... عرض وإما التذاذ

وقال حكيم لولده اعص هواك وأطع من شئت قال بعضهم

إذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى ... فقد ثكلته عند ذاك ثواكله

وقد أشمت الأعداء حقا بنفسه ... وقد وجدت فيه مقالا عواذله

آخر وأجاد

إذا ما دعتك النفس يوما لشهوة ... وكان عليها للحرام طريق

فخالف هواها ما استطعت فإنما ... هواها عدو والخلاف صديق

وقالوا كم من عقل أسير عند هوى أمير شاعر

وعاص الهوى المردى فكم من محلق ... إلى النجم لما أن أطاع الهوى هوى

ولبعضهم

وما يزع النفس اللجوج عن الهوى ... من الناس الأحازم الرأي كامله

وقالوا أعدل الناس من أنصف عقله من هواه ومنع نفسه مما يكون سببا لبلواه ولحظ الأشياء بعين فكره واضماره فعلم من ورود الأمور عاقبة إيراده وإصداره فيحسن بأفعاله حمد الأوداء ويأمن في ماله كيد الأعداء كما حكى أن نصيبا دخل على عبد الملك بن مروان فتغدى معه فلما رأى عبد الملك ظرفه وأدبه قال له هل لك فيما نتنادم عليه قال يا أمير المؤمنين لوني

---

(١) سراج الملوك ص/٥٤

حائل وشعري مغلغل وخلقي مشوه ووجهي قبيح ولم أبلغ ما بلغت من اكرامك إياي لا لشرب أب ولا كرم أم وإنما بلغته بعقلي ولساني فأنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تحول بيني وبين ما بلغت به هذه المنزلة عندك فأعفاه وما أحسن قوتد الحيرارزي مشيرا إلى قول نصيب

أرى الكأس تذهب عقل الفتى ... فيذهل عن كل مستمتع

ولولا ابتهاجي بكم لم أكن ... لأشرب أكثر من أربع

وقالوا سرور فقلت السرور ... بأن تتركوني وعقلي معي

وقال آخر

رطلان لا أزداد فوقهما ... في الشرب إن حضروا وإن وحدي

فليغتفر لي من ينادمني ... إني أحث عواقب الرشد

وأريد ما يقوى به بدني ... وأجانب الأمر الذي يردي

وعلى ذكر ما ينتج من شرب الخمر من زوال الذهن وذهاب العقل فحسن قول من قال الخمر مصباح السرور ولكنها مفتاح الشرور وقول أبي الفضل المنكالي

عيرتني ترك المدام وقالت ... هل جفاها من الرجال لبيب

هي تحت الظلام نور وفي الأك ... باد برد وفي الخدود لهيب

قلت يا هذه عدلت عن النص ... ح وما للرشاد فيك نصيب

إنها للستور هتك وفي الأل ... باب فتك وفي المعاد ذنوب

وقال رجل لابنه وهو يتعاطى الشراب احذره فإنه قئ في شدقك أو سلح على عقبك أو حد في ظهرك وقال الحصنكي ذاكرا لهذه العيوب

ونديم بت أعذله ... ويرى عذلي من العبث

قلت إن الخمر مخبثة ... قال حاشاها من الخبث

قلت منها القئ قال نعم ... شرفت عن مخرج الخبث

قلت للأزمات تشربها ... قال طيب العيش في الرفث". (١)

٦٧-"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق الفضل من ماله ورحم أهل الذلة والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة وقال عليه الصلاة والسلام لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يوشك أن يفضحه ولو في رحله وقال أكثم بن صيفي استر عيب أخيك لما تعلم من نفسك وقالوا أحمق الناس من أنكر من غيره ما هو مقيم عليه قيل للربيع بن خيثم مالك لا تعيب أحدا قال لست عن

---

(١) غرر الخصائص الواضحة ص/٤٧

نفسي راضيا فاتفرغ لعيوب الناس ومذامهم وقالوا من أسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون ومن تتبع مساوئ العباد فقد نحلهم عرضه قال الشاعر

لا تكشفن من مساوئ الناس ما ستروا ... فيكشف الله سترا من مساويكا

واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ... ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

وما أحسن قول القائل

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى ... ودينك موفور وعرضك صين

فلا ينتطق منك اللسان بسوأة ... فللناس سوآت وللناس ألسن

وعينك إن أبدت إليك مساويا ... لقوم فقل يا عين للناس أعين

فعاشر بانصاف وكن متوددا ... ولا تلق إلا بالتي هي أحسن

وقالوا فلان يصم أذنه عن الفحشاء ويخرس لسانه عن التكلم بها وقال الشاعر يمدح

غني عن الفحشاء أما لسانه ... فعف وأما طرفه فكليل

آخر

كريم له عينان عين عن الخنا ... تنام وأخرى في المكارم تسهر

آخر

وإذا تواخاك امرؤ بقبيحه ... فأجبه بالاحسان والاجمال

حكى أن رجلا عاب رجلا عند المأمون فقال له المأمون قد استدللنا على كثرة عيوبك بما تذكر من عيوب الناس لأن طالب العيوب إنما يطلبها بقدر ما هي فيه لا بقدر ما فيه منها وقال الشاعر

أرى كل إنسان يرى عيب غيره ... ويعمى عن العيب الذي هو فيه

وما خير من تخفى عليه عيوبه ... ويبدله بالعيب عيب أخيه

وقالت رابعة العدوية الانسان إذا نصح لله في نفسه أطلعه الجبار على مساوئ عمله فيتشاغل بها عن خلقه

والعاقل من جعل اغضاءه عن المساوئ ... حصنا إليه من ذم اللئام يأوي

يقال ربما سخط العاقل فيبدي الرضا ويغضي مثل جمر الغضا وقيل لبزرجمهر من أعقل الناس قال من لم يجعل سمعه غرضا لسماع الفحشاء وكان الغالب عليه التغافل وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من امتطى زمام التغافل ملك زمام المروأة وقالوا أشرف الكرم تغافلك عما تعلم ويقال التغافل من الكرام يمنحهم الاجلال والاكرام أنشد الباخرزي في الدمية لأبي الفضل عبد الله بن محمد الحيري رحمه الله تعالى

يا من يعرض بالخنا متوهما ... جهلي به مهلا فإنك جاهل

كم مرة أغضيت منك على قذى ... لولا النهى لرأيت ما أنا فاعل

آخر

ويشتمني النذل اللئيم فلا أرى ... كفؤا لعرضي عرضه فأجامله

أجر له ذيلي كأني غافل ... أضاحكه طورا وطورا أخاتله

وقيل لبعضهم من العاقل قال الفطن المتغافل قال الشاعر

أعرض عن العوراء إن أسمعتها ... وأسكت كأنك غافل لم تسمع

ولبعضهم معربا بكرمه ومعرفا بشيمه

وإني لأغضى عن أمور كثيره ... ومن دونها قطع الحبيب المواصل

وأعرض حتى يحسب الناس أنني ... جهلت الذي آتى ولست بجاهل

آخر

وأغضى عن العوراء حتى يقال لي ... بأذنيه وقر عندها حين ينطق

حياء وإكراما لعرض أصونه ... ولا خير في عرض يظل يمزق

آخر

دعى ملاحاة من هجاني ... يا نفس إن تغفلي تصاني

إذا حكيت البذا عليه ... فما هجاني سوى لساني

وأما ما قبل في التغاضي والاحتمال ... والكف عن جواب قبيح المقال

قالوا أعقل الناس من لم يتجاوز الصمت في عقوبة السفيه وقال بعض الحكماء السكوت عن السفيه جواب والاعراض عنه عقاب قال الشاعر

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من اجابته السكوت". (١)

٦٨-" من كتم سره كان الخيار في يده

أشقى الولاة من شقيت به رعيته

اتقوا من تبغضه قلوبكم

أعقل الناس أعذرهم للناس

لا تؤخر عمل يومك لغدك

اجعلوا الرأس رأسين

أخيفوا الهوام قبل أن تخيفكم

لي على كل خائن أمينان الماء والطين . [ص ٤٥٢]

أكثروا من العيال فإنكم لا تدرون بمن ترزقون

لو أن الشكر والصبر بعيران لما باليت بأيهما ركبت

---

(١) غرر الخصائص الواضحة ص/٥٤

من لم يعرف الشركان جديرا أن يقع فيه

ما الخمر صرفا بأذهب للعقول من الطمع

قلما أدبر شيء فأقبل

إلى الله أشكو ضعف الأمين وخيانة القوى

مر ذوى القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا

غمض عن الدنيا عينك وول عنها قلبك وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعها وعانيت سوء آثارها على أهلها وكيف عرى من كست وجاع من أطعمت ومات من أحيت

إياكم والقحم التي من هوى فيها أتت على نفسه أو ألمت به

احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية فوا لله لهى أخوفهما عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك

وكتب إلى ابنه عبد الله : أما بعد فإنه من اتقى الله وقاه ومن توكل عليه كفاه ومن أقرضه جزاه ومن شكره زاده فلتكن التقوى عماد بصرك وجلاء قلبك واعلم أنه لاعمل لمن لا نية له ولا أجر لمن لا حسنة له ولا مال لمن لا رفق له ولا جديد لمن لا خلق له والسلام

ليس لأحد عذر في تعمد ضلالة حسبها هدى ولا ترك حق حسبه ضلالة

شرار الأمور محدثاتها واقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة

لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له

لا تسكنوا نساءكم الغرف ولا تعلموهن الكتابة واستعينوا عليهن بالعرى وعودوهن " لا " فإن " نعم " تجرؤهن

وسأل رجلا عن شيء فقال : الله أعلم فقال رضى الله عنه : لقد شقينا إن كنا لا نعلم أن الله أعلم إذا سئل أحدكم عن شيء لا يعلمه فليقل لا أدري . وكان يقول : إذا لم أعلم أنا فلا علمت ما رأيت

الدنيا أمل محتوم وأجل منتقص (لعل أصله " وأجل منقض ") وبلاغ إلى دار غيرها وسير إلى الموت ليس فيه تصريح فرحم الله امرأ فكر في أمره ونصح لنفسه وراقب ربه واستقال ذنبه

إذا تناجى القوم في دينهم دون العامة فإنهم في تأسيس ضلالة . [ص ٤٥٣]

إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة مفسدة للجوف مؤدية إلى السقم

من يئس من شيء استغنى عنه

الدين ميسم الكرام

رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبي

السيد هو الجواد حين يسأل الحليم حين يستجهل البار بمن يعاشره

أفلح من حفظ من الطمع والغضب والهوى نفسه ". (١)

٦٩-"""""""" صفحة رقم ١٧٣ """""""

لا أحب أن تقبل رأسي ، ولكن لي إليك حاجة . قال : وما هي ؟ قال : انظر في هذه المرآة ، كيف تبصر وجهك من الفرح ناضرا مشرقا ؟ فأحب أن يكون وجهك إذا سألتك رد ما قبضت مثلما هو الساعة . أحب الرشيد أن ينظر إلى أبي شعيب القلال كيف يعمل القلال ، فأدخلوه القصر وأتوه بجمع ما يحتاج إليه من آلة العمل ، فبينا هو يعمل إذ هو بالرشيد قائما فوق رأسه ، فلما رآه نهض قائما . فقال له الرشيد : دونك ما دعيت له ، فإني لم آت بك لتقوم لي ، وإنما أتيت بك لتعمل بين يدي . قال : وأنا لم آتك ليسوء أدبي ، وإنما أتيتك لأزداد بك في كثرة صوابي . قال له الرشيد : بلغني أنك إنما تعوضت بي حين كسدت صنعتك . فقال أبو شعيب : يا سيد الناس ، ما كساد عملي في جلال وجهك ؟ فضحك الرشيد حتى غطى وجهه . ثم قال : ما رأيت - والله - أنطق منه أولا ، ولا أعيا آخرا . ينبغي أن يكونر هذا أعقل الناس أو أجن الناس . هاج بأبي علقمة الدم ، فأتوه بحجام يحجمه ، فقال له : أنق غسل المحاجم ، واشدد قصب الملازم ، وأرهف ظبات المشارط ، وأسرع الوضع ، وعجل النزع ، وليكن شرطك وخزا ، ومصك نهزا ، ولا تكرهن أبيا ، ولا تردن أتيا . فوضع الحجام محاجمه في جونته وقال : اسقوا هذا شربة ، فإنه إلى الدواء أحوج منه إلى الحجامة . قال بعضهم : رأيت بمكة زنجيا قد خرج من كنيف يكنسه ، وعلى عنقه حرة ، وفي رجله لبنة ، وهو يقول : جنباني ديار هند وسعدى . . . لم أكن راضيا بدار هوان قال : فقلت : ويحك وأي هوان أعظم مما أنت فيه ؟ فقال : تنح عني ، ولا تقذرني . قال بعضهم : رأيت سماكا بين يديه حرى منتن ، وهو يقول : من يشتري الشنة جزافا ؟ .". (٢)

٧٠-"عبد الرحمن بمن نصب له الحرب في ذلك، وقتل منهم آلافا، وذلك في مدة المنصور كما سيأتي إن شاء الله تعالى عند ذكر عبد الرحمن الداخل في موضع آخر، وسنذكر قريبا ولاة الأندلس من حين الفتح إلى إمارة الداخل، وإن سبق في كلام ابن خلدون.

[مزيد بيان في نهاية موسى وشيء من شخصيته]

وقال بعضهم: كانت ولادة موسى بن نصير في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة تسع عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأجل السلام، وعلى آله وصحبه أجمعين، انتهى.

وقال الحجاري في المسهب: يحكى أن موسى بن نصير ألقى بنفسه على يزيد بن المهلب لمكانه من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك، وطلب منه أن يكلمه في أن يخفف عنه؛ فقال له يزيد: أريد أن أسألك فأصغ إلي؛ قال: سل عما بدا لك، فقال له: لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس، وأعرفهم بمكايد الحروب ومداراة الدنيا، فقل لي: كيف حصلت في يد

---

(١) مجمع الأمثال ٢/٤٥١

(٢) نثر الدر - موافق للمطبوع ١٧٣/٧

هذا الرجل بعدما ملكت الأندلس، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار، وتيقنت بعد المرام واستصعابه، واستخلصت بلادا أنت افترعتها (١) ، واستملكت رجالا لا يعرفون غير خيرك وشرك، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعقل والرجال ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك، ثم إنك علمت أن سليمان ولي عهد، وأنه المولى بعد أخيه، وقد أشرف أخوه على الهلاك لا محالة، وبعد ذلك خالفته، وألقيت بيدك إلى التهلكة، وأحقدت مالكك ومملوكك - قال: يعني سليمان وطارقا - وما رضى هذا الرجل عنك إلا بعيد، ولكن لا آلو جهدا، فقال موسى: يا ابن الكرام، ليس هذا وقت

---

(١) ك: اخترعتها.". (١)

٧١-"""""""" صفحة رقم ٧ """"""

من كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

من كتم سره كان الخيار في يده .

أشقى الولاة من شقيت به رعيته .

اتقوا من تبغضه قلوبكم .

أعقل الناس أعذرهم للناس .

اجعلوا الرأس رأسين .

أخيفوا الهوام قبل أن تخيفكم .

لو أن الشكر والصبر بعيران لما باليت أيهما ركبت .

من لم يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه .

ما الخمر صرفا بأذهب للعقول من الطبع .

إلى الله أشكو ضعف الأمين وخيانة القوى .

اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة .

لا يكن حبك كلفا ، ولا بغضك تلفا .

ومن كلام عثمان بن عفان رضي الله عنه

ما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن .

الهدية من العامل إذا عزل ، مثلها منه إذا عمل .

أنتم إلى إمام فعال ، أحوج منكم إلى إمام قوال ، قاله يوم صعد المنبر فأرتج عليه .

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٢٨٣/١

وقال يوم قتل : لأن أقتل قبل الدماء ، أحب إلى من أن أقتل بعد الدماء .

ومن كلام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه ، ومن ضيعه الأقرب أتيح له الأبعد ، ومن بالغ في الخصومة أثم ، ومن قصر فيها ظلم .". (١)

٧٢-"وتبينت فإذا رجل مسترخ، متفتر البدن، حائر النفس، كأنه قائم لتوه من النوم فلا تزال في عينه سنة، وكأنه يتكلم من بقايا حلم كان يراه.

وخيل إلي من هذا الخمول في هذا الشاب، أن عليه جوا من تثاؤبه، وأن المكان كله يتثاءب، فتثاءبت...

فلما رأى ذلك مني ضحك وقال: إن "نابغة القرن العشرين" رجل مغناطسي عظيم؛ فها هو ذا قد ألقى عليك النوم... وحسبك فخرا أن تكون أستاذه وأخاه وثقته، "فليس على ظهرها اليوم أديب غيري وغيرك...".

قلت في نفسي: إنا لله، ما يعتقد الرجل أن على ظهرها مجنونا غيره وغيري، وكأنما ألم بذلك فقال: لست مجنونا؛ ولكني كنت في البيمارستان...

قلت: أهو البيمارستان الذي يسمى مستشفى المجاذيب؟

قال: لا؛ إن هذا الذي تسميه أنت، هو هو مستشفى المجاذيب؛ أما الذي سميته أنا فهو مستشفى فقط...

وذكرت عندئذ أن من المجانين قوما ظرفاء يدخلهم الفساد في عقولهم من ناحية فكرة ملازمة لا تبرح، فلا يكون جنونهم جنونا إلا من هذا الوجه، وسائر أحوالهم كأحوال العقلاء، غير أنهم بذلك طياشون متقلبون، إذا ازدهي لم يطقه الناس من زهوه وكبريائه وتنطعه، كأنه واحد الدنيا في هذ الفكرة، وكأن بينه وبين الله أسرارا، ويظن عند نفسه أنه أعقل الناس في أرقى طبقات عقله، وما جنونه إلا في هذه الطبقة وحدها.

ومثل هذا لا بد له ممن يستجيب لهذيانه كيما يحرك فيه خفته وطيشه وزهوه، وليكون عنده الشاهد على هذا الوجود الخيالي المبدع الذي لا يوجد إلا في عقله المختل، فإذا هو ظفر بمن يحاسنه، أو يصانعه، أو يجاريه، حسبه مذعنا مؤمنا مصدقا، فلا يدعه من بعدها ويتعلق به أشد التعلق، ويراه كأنه في ملكه... فيتخذه صفيا وهو يعتقد أنه رقيق، وقد يزعمه أستاذه ليفهمه من ذلك بحساب عقله... أنه تلميذه.". (٢)

"أحس به وشكره وعده نعمة ولما كانت رحمة الله واسعة عمم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم يعده الجاهل نعمة وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائما حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة وينسون

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب . موافق للمطبوع ٣/٧

(٢) وحي القلم ص/٣٠٣

جميع نعم الله تعالى عليهم كما شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به فقال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال أيسرك أن أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا فقال لا فقال أيسرك أنك مجنون ولك عشر آلاف درهم فقال لا فقال أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا

وحكي أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى في المنام كأن قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار قال لا قال فسورة هود قال لا قال فسورة يوسف قال لا فعدد عليه سورا ثم قال فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو فأصبح وقد سري عنه

ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء وبيده كوز ماء يشربه فقال له عظني فقال لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه قال نعم فقال لو لم تعط إلا بملكك كله فهل كنت تتركه قال نعم قال فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء

فهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة دون العامة وقد ذكرنا النعم العامة فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول ما من عبد إلا ولو أمعن النظر في أحواله رأى من الله نعمة أو نعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور في العقل والخلق والعلم

أما العقل فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله يعتقد أنه أعقل الناس وقل من يسأل الله العقل وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتصف به فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه فمن وضع كنزا تحت الأرض فهو يفرح به ويشكره عليه فإن أخذ الكنز من حيث لا يدري فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لأنه في حقه كالباقي

وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبا يكرهها وأخلاقا يذمها وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئا عنها فإذا لم يشتغل بذم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيء

وأما العلم فما من أحد إلا ويعرف بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره وما هو منفرد به ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح فكيف لو اطلع الناس كافة فإذن لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي أرسله على وجه مساويه فأظهر الجميل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إما مطلقا وإما في بعض الأمور فلننزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلا فنقول ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو في سائر محابه أمورا." (١)

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ١٢٤/٤

"قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه، وإن ضحك نهق، وإن بكى خار.

وقال بعض الحكماء: يعرف الأحمق بست خصال: الغضب من غير شيء، والإعطاء في غير حق، والكلام من غير منفعة، والثقة بكل أحد، وإفشاء السر، وأن لا يفرق بين عدوه وصديقه، ويتكلم ما يخطر على قلبه، ويتوهم أنه أعقل الناس.

علامات الحمق

وقال أبو حاتم بن حيان الحافظ: علامة الحمق سرعة الجواب، وترك التثبت، والإفراط في الضحك، وكثرة الإلتفات، والوقيعة في الأخيار، والإختلاط بالأشرار، والإحمق إن أعرضت عنه أعتم، وإن أقبلت عليه اغتر، وإن حلمت عنه جهل عليك، وإن جهلت عليه حلم عليك، وإن أحسنت إليه أساء إليك، وإن أسأت إليه أحسن إليك، وإذا ظلمته أنصفت منه، ويظلمك إذا أنصفته، فمن ابتلى بصحبة الأحمق فليكثر من حمد الله على ما وهب له مما حرمه ذاك.

قال محمد الشامي: السريع:

لنا جليس تارك للأدب ... جليسه من قوله في تعب

يغضب جهلا عند حال الرضى ... ومنه يرضى عند حال الغضب." (١)

"فقال: ما يبينان بكرم كبير، وفعال مشهور؛ ولا فائدة في نشر لؤمهما وخساسة طباعهما؛ بلغ من فلسفة هذا أنه أمر بقطع لسان رجل شتم بلد قم غضبا لبله، وتيها بوطنه، وشد آخر في داره إلى شجرة وما زال يضرب إلى أن مات، وطرحه في جوبة حتى أكلته الكلاب؛ فقال صاحبه: انظروا إلى هذا الذي قلنا إنه أعقل الناس.

حدثني بهذا الهروي.

ثم قال: وكان ابن عباد – كما قال أصحابنا – هو ابن سجب ليس عنده إلا القال والقيل، والكبر والتخييل؛ يحب العامة ويرفع نفسه عنها، ويحسد الخاصة ويجعل نفسه منها، ويستطيل بالعلم وهو قريب القعر فيه، ويدعي الرد على الأوائل وهو لا يعرف حرفا من نمطهم، ويتحلى بالعدل والتوحيد، قولا ويتحلى بالجور فعلا، ويتشبع." (٢)

"ويروى أن الرشيد سأله هل لك دار؟ فقال: لا. فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال: اشتر بها دارا، فأخذها ولم ينفقها، فلما أراد الرشيد الشخوص إلى العراق قال لمالك: ينبغي لك أن تخرج معنا فإني عزمت أن أحمل الناس على الموطأ، كما حمل عثمان الناس على القرآن، فقال له: أما حما، الناس على الموطأ فليس إلى ذلك سبيل، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم افترقوا بعده في الأمصار، فحدثوا فعند أهل كل مصر علم. وقد قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: اختلاف أمتي رحمة، وأما الخروج معك فلا سبيل إليه، قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد، وهذه دنانيركم كما هي أن شئتم فخذوها، وإن شئتم فدعوها، يعني أنك إنما حملتني على مفارقة المدينة بما اصطنعت لدي فلا أوثر الدنيا على

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين ابن الجوزي ص/٣٧

(٢) أخلاق الوزيرين = مثالب الوزيرين أبو حيّان التوحيدي ص/٣٤٢

الأخرى، وأخرج الخطيب البغدادي في الجامع عن مقاتل بن صالح الحميدي قال: دخلت على حماد بن سلمة فبينما أنا عنده إذ دق رسول محمد بن سليمان فدخل فسلم وناوله كتابه فقال: أقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن سليمان إلى حماد بن سلمة.

أما بعد فصبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها، فقال لي: اقلب الكتاب واكتب: أما بعد وأنت صبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته، إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحدا، فإن وقعت مسألة فأتنا فاسألنا عما بدا لك، وإن أتيتني فلا تأتني إلا وحدك، ولا تأتني بخيلك ورجالك فلا أنصحك ولا أنصح نفسي، والسلام.

فبينما أنا عنده جالس إذ دق داق الباب فقال: يا صبية اخرجي فانظري من هذا؟ قالت: هذا محمد بن سليمان، قال: قولي له يدخل وحده، فدخل فسلم ثم جلس بين يديه، ثم ابتدأ فقال: مالي إذا نظرت إليك امتلأت رعبا، فقال حماد سمعت ثابتا البناني يقول: سمعت انس بن مالك يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: أن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء، وإذا أراد أن يكنز به الكنوز هاب من كل شيء. فقال: ما تقول يرحمك الله؟ وذكر مسألته وجوابها، ثم قال وحاجة إليك قال: ما لم تكن رزية في دين، قال: أربعون ألف درهم تأخذها تستعين بها على ما أنت عليه، قال: أرددها على من ظلمته بها قال: والله ما أعطيتك إلا ما ورثته قال: لا حاجة لي فيها، ازوها عني زوى الله عنك أوزارك، قال فغير هذا، قال: هات ما لم يكن رزية في دين، قال: تأخذها فتقسمها، قال: فلعلي أن عدلت في قسمتها أن يقول بعض من لم يرزق منها أنه لم يعدل في قسمتها فيأثم، إزوها عني، زوى الله عنك أوزارك.

وسيأتي في الفصل الخامس ما اتفق لبعض أولاد المهدي العباسي مع شريك.

وأخبار السلف في هذا الباب كثيرة شهيرة. فإن دعت حاجة أو ضرورة إلى شيء من ذلك، واقتضته مصلحة دينية راجحة على مفسدة بذله وحسنت فيه نية صالحة فلا بأس به، وعلى هذا يحمل ما جاء عن بعض السلف من المشي إلى الملوك وولاة الأمر، كالشافعي وغيره، لا على أنهم قصدوا بذلك فضول الأغراض الدنيوية، وكذلك إذا كان المأتي إليه من العلم والزهد في المنزلة العلية والمحل الرفيع، فلا بأس بالتردد إليه لإفادته، فقد كان سفيان الثوري يمشي إلى إبراهيم بن أدهم ويفيده، وكان أبو عبيد يمشي إلى علي بن المديني يسمعه غريب الحديث.

الرابع:

أن يتخلق بما حث الشرع عليه من الزهد في الدنيا والتقلل منها بقدر الإمكان، فإن ما يحتاج إليه منها على الوجه المعتدل من القناعة لا يعد من الدنيا، وأقل درجات العالم أن يستقذر المعلق بالدنيا ولا يبالي بفواتها، لأنه أعلم الناس بخستها، وفتنتها، وسرعة زوالها، وكثرة عنائها، وقلة غنائها.

وعن الشافعي رحمه الله: لو أوصى لأعقل الناس صرف إلى الزهاد، فمن أحق من العلماء بزيادة العقل وكماله. وقال يحي بن معاذ: لو كانت الدنيا تبرا يفنى والآخرة خزفا يبقى، لكان ينبغي للعاقل إيثار الخزف الباقي على التبر الفاني، فكيف والدنيا خزف فان والآخرة تبر باق. وعليه بالسخاء والجود على حسب الوجود.

الخامس:." (١)

"العقل مضر بالجسد. وقال بعض الحكماء: كفاك من عقلك ما دلك على سبيل رشدك. وقال بعض البلغاء: قليل يكفي خير من كثير يطغي. وقال آخرون، وهو أصح القولين: زيادة العقل فضيلة؛ لأن المكتسب غير محدود، وإنما تكون زيادة الفضائل المحمودة نقصا مذموما؛ لأن ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة كالشجاع إذا زاد على حد الشجاعة نسب إلى التهور، والسخي إذا زاد على حد السخاء نسب إلى التبذير.

وليس كذلك حال العقل المكتسب؛ لأن الزيادة فيه زيادة علم بالأمور وحسن إصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن إلى ما يكون، وذلك فضيلة لا نقص. وقد روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: «أفضل الناس أعقل الناس» . وروي عنه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: «العقل حيث كان مألوف» .

وقد قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ [الإسراء: ٨٤] أي بحسب عقله. وقال القاسم بن محمد كانت العرب تقول: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه، كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه. وقيل في منثور الحكم: كل شيء إذا كثر رخص إلا العقل فإنه إذا كثر غلا.

وقال بعض البلغاء: إن العاقل من عقله في إرشاد، ومن رأيه في إمداد، فقوله سديد، وفعله حميد، والجاهل من جهله في إغواء، ومن هواه في إغراء، فقوله سقيم، وفعله ذميم، وأنشدني ابن لنكك لأبيه.

من لم يكن أكثر عقله ... أهلكه أكثر ما فيه

فأما الدهاء والمكر فهو مذموم؛ لأن صاحبه صرف فضل عقله إلى الشر ولو صرفه إلى الخير لكان محمودا.

وقد ذكر المغيرة بن شعبة عمر بن الخطاب فقال: كان والله أفضل من أن يخدع، وأعقل من أن يخدع. وقال عمر: لست بالخب ولا يخدعني." (٢)

"الخب. واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله إلى الشر كزياد، وأشباهه من الدهاة، هل يسمى الداهية منهم عاقلا أم لا.

فقال بعضهم: أسميه عاقلا؛ لوجود العقل منه. وقال آخرون: لا أسميه عاقلا حتى يكون خيرا دينا؛ لأن الخير والدين من موجبات العقل. فأما الشرير فلا أسميه عاقلا وإنما أسميه صاحب روية وفكر.

وقد قيل: العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه حتى قال أصحاب الشافعي – رضي الله عنه – فيمن أوصى بثلث ماله لأعقل الناس أنه يكون مصروفا في الزهاد؛ لأنهم انقادوا للعقل ولم يغتروا بالأمل.

---

(١) آداب العلماء والمتعلمين الحسين بن المنصور اليمني ص/٢

(٢) أدب الدنيا والدين الماوردي ص/٢٥

وروى لقمان بن أبي عامر عن أبي الدرداء أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: «يا عويمر ازدد عقلا تزدد من ربك قربا. قلت: بأبي أنت وأمي، ومن لي بالعقل؟ قال: اجتنب محارم الله، وأد فرائض الله تكن عاقلا ثم تنفل بصالحات الأعمال تزدد في الدنيا عقلا وتزدد من ربك قربا وبه عزا» .

وأنشدني بعض أهل الأدب هذه الأبيات، وذكر أنها لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه –:

إن المكارم أخلاق مطهرة ... فالعقل أولها والدين ثانيها

والعلم ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والعرف ساديها

والبر سابعها والصبر ثامنها ... والشكر تاسعها واللين عاشيها

والنفس تعلم أني لا أصدقها ... ولست أرشد إلا حين أعصيها

والعين تعلم في عيني محدثها ... من كان من حزبها أو من أعاديها

عيناك قد دلتا عيني منك على ... أشياء لولاهما ما كنت تبديها

واعلم أن العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزي؛ لأنه نتيجة منه. وقد ينفك العقل الغريزي عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل، موفور الرذائل، كالأنوك الذي لا يجد له فضيلة، والأحمق الذي قل ما يخلو من رذيلة.

وقد روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: «الأحمق كالفخار لا يرقع ولا يشعب» . وروي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: «الأحمق أبغض خلق الله إليه، إذ حرمه أعز الأشياء عليه» . وقال بعض الحكماء: الحاجة إلى العقل أقبح من الحاجة إلى المال، وقال بعض البلغاء: دولة الجاهل عبرة العاقل، وقال أنوشروان لبزرجمهر: أي الأشياء خير للمرء؟ قال: عقل يعيش به. قال: فإن لم يكن؟ قال:." (١)

"الأدباء: ما أفحش حليم ولا أوحش كريم.

وقال لقيط بن زرارة:

وقل لبني سعد فما لي وما لكم ... ترقون مني ما استطعتم وأعتق

أغركم أني بأحسن شيمة ... بصير وأني بالفواحش أخرق

وإن تك قد فاحشتني فقهرتني ... هنيئا مريئا أنت بالفحش أحذق

والسادس من أسبابه: التفضل على السباب. فهذا يكون من الكرم وحب التألف، كما قيل للإسكندر: إن فلانا وفلانا ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهما. فقال: هما بعد العقوبة أعذر في تنقصي وثلبي. فكان هذا تفضلا منه وتألفا.

وقد حكي عن الأحنف بن قيس أنه قال: ما عاداني أحد قط إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال: إن كان أعلى مني عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان نظيري تفضلت عليه. فأخذه الخليل، فنظمه شعرا فقال:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه إلي الجرائم

فما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم

---

(١) أدب الدنيا والدين الماوردي ص/٢٦

فأما الذي فوقي فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازم

وأما الذي دوني فأحلم دائبا ... أصون به عرضي وإن لام لائم

وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا ... تفضلت إن الفضل بالفخر حاكم

والسابع من أسبابه: استنكاف السباب وقطع السباب. وهذا يكون من الحزم، كما حكي أن رجلا قال لضرار بن القعقاع: والله لو قلت واحدة لسمعت عشرا. فقال له ضرار: والله لو قلت عشرا لم تسمع واحدة.

وحكي أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال لعامر بن مرة الزهري: من أحمق الناس؟ قال: من ظن أنه أعقل الناس. قال: صدقت، فمن أعقل الناس؟ قال من لم يتجاوز الصمت في عقوبة الجهال. وقال الشعبي: ما أدركت أمي فأبرها، ولكن لا أسب أحدا فيسبها. وقال بعض الحكماء: في إعراضك صون أعراضك.

وقال بعض الشعراء:

وفي الحلم ردع للسفيه عن الأذى ... وفي الخرق إغراء فلا تك أخرقا." (١)

"يقول الإمام النووى – رحمه الله تعالى – فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس " [صححه الألباني]:

" الزهد ترك ما لا يحتاج إليه من الدنيا وإن كان حلالا ، والاقتصار على الكفاية " ، والورع: ترك الشبهات ، قالوا: وأعقل الناس الزهاد ، لأنهم أحبوا ما أحب الله ، وكرهوا ما كره الله من جميع الدنيا ، واستعملوا الراحة لأنفسهم .. وللشافعى رحمه الله فى ذم الدنيا:

ومن يذق الدنيا فإنى طعمتها ... وسبق إلينا عذبها وعذابها

فلم أرها إلا غرورا وباطلا ... كما لاح فى ظهر الفلاة سرابها

وما هى إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همهن اجتذابها

فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها ... وإن تجتذبها نازعتك كلابها

فدع فضلات الأمور فإنا ... حرام على نفس التقى ارتكابها

قوله: " حرام على نفس التقى ارتكابها " يدل على تحريم الفرح بالدنيا ، وقد صرح بذلك البغوى فى تفسير قوله – تعالى – : " وفرحوا بالحياة الدنيا " (الرعد: ٢٦) ، ثم المقصود بالدنيا المذمومة: طلب الزائد على الكفاية ، أما طلب الكفاية فواجب.

قال الشافعى رحمه الله: " طلب الزائد من الحلال عقوبة ابتلى الله بها أهل التوحيد ".

وقد مدح الله المقتصدين فى العيش فقال: " والذين إذا أنفقوا لم." (٢)

---

(١) أدب الدنيا والدين الماوردي ص/٢٥٤

(٢) أصول الوصول إلى الله تعالى محمد حسين يعقوب ص/٣١٢

"وأعجب من هذا كريم أصابه ... قضاء فأضحى تحت حكم لئيم

وذكر ابن عبد البر أن من كلام أبي الدرداء: معاتبة الأخ أهون من فقده، ومن لك بأخيك كله، فأعط أخاك وهب له، ولا تطع فيه كاشحا فتكون مثله.

وقال موسى بن جعفر: من لك بأخيك كله؟ لا تستقص عليه فتبقى بلا أخ، وقال عمرو: – رضي الله عنه – أعقل الناس أعذرهم لهم. قال الأصمعي: قال أعرابي: عاتب من ترجو رجوعه.

وقال بعض الحكماء: العتاب الوفاء، وسلاح الأكفاء، وحاصل الجفاء، وقال (العتابي) : ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد، وصرفة الناصح خير من تحية الشاني، وقال بعض الحكماء: من كثر حقده قل عتابه، وقال محمد بن داود: من لم يعاتب على الزلة، فليس بحافظ للخلة وقال أسماء بن خارجة: الإكثار من العتاب داعية إلى الملال، وسبق قريبا قول الشافعي " الكيس العاقل، هو الفطن المتغافل " وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

أعاتب من يحلو بقلبي عتابه ... وأترك من لا أشتهي أن أعاتبه

وليس عتاب المرء للمرء نافعا ... إذا لم يكن للمرء لب يعاتبه

وقال نصر بن أحمد:

إن كان لفظي كريها فاصبرا فعلى ... كره العلاج يصح الله أبدانا

لولا العوارض ما طاب الشباب كذا ... لولا قصارتنا للثوب ما لانا

إني أعاتب إخواني وهم ثقتي ... طورا وقد يصقل السيف أحيانا

هي الذنوب إذا ما كشفت درست ... من القلوب وإلا صرن أضغانا

وقال آخر:." (١)

"تواضع للحق تكن أعقل الناس وقال أبو الدرداء ليس الذي يقول الحق ويفعله بأفضل من الذي يسمعه فيقبله.

وقال بعض الفلاسفة إذا نسك الشريف تواضع، وإذا نسك الوضيع تكبر وقال بعض الفلاسفة أظلم الناس لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه، ورغب فيمن يبعده.

وقال بزرجمهر: وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد من الكبر مع الأدب والسخاء وقال ابن السماك للرشيد تواضعك في شرفك أشرف من شرفك.

قال ابن عبد البر: روي من حديث ابن عمر عن النبي – صلى الله عليه وسلم –: «لا يعجبنكم إيمان الرجل حتى تعلموا ما عقدة عقله» وهذا الخبر من رواية إسحاق بن أبي فروة مذكور في ترجمته وهو متروك قال ابن عبد البر: وقد روي «عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: في صحف موسى وحكمة داود حق على العاقل أن يكون له أربع ساعات، ساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يناجي فيها ربه، وساعة يقضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقون عن نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه ولذاتها فيما يحل ويجمل، فإن هذه الساعة عون له قال وعلى العاقل أن يكون عارفا بزمانه

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية ابن مفلح، شمس الدين ١/٣٠٤

مالكا للسانه، مقبلا على شأنه» .

وقال بعضهم أوحى الله إلى موسى أتدري لم رزقت الأحمق قال: لا قال: ليعلم العاقل أن الرزق ليس باحتيال وقال – صلى الله عليه وسلم –: «ثلاث من حرمهن فقد حرم خير الدنيا والآخرة عقل يداري به الناس، وحلم يداري به السفيه، وورع يحجزه عن المحارم» .

افتخر رجلان عند علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – فقال: أتفتخران بأجساد بالية، وأرواح في النار؟ إن يكن لكما عمل فلكما أصل، وإن يكن لكما خلق فلكما شرف، وإن يكن لكما تقوى فلكما كرم وإلا فالحمار خير منكما ولستما خيرا من أحد. وقال أيضا – رضي الله عنه –: العاقل الذي لم يحرمه نصيبه من الدنيا حظه من الآخرة. وقال أيضا في وصيته لابنه: لا مال أعود من." (١)

"وهب بن منبه قال إني وجدت فيما انزل الله على أنبيائه أن الشيطان لم يكابد شيئا أشد عليه من مؤمن عاقل وأنه يكابد مائة جاهل فيستجرهم حتى يركب رقابهم فينقادون له حيث شاء ويكابد المؤمن العاقل فيتصعب عليه حتى لا ينال منه شيئا من حاجته وقال وهب لإزالة الجبل صخرة صخرة وحجرا حجرا أيسر على الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل لأنه إذا كان مؤمنا عاقلا ذا بصيرة فهو أثقل على الشيطان من الجبال وأصعب من الحديد وأنه ليزاوله بكل حيلة فإذا لم يقدر أن يستزله قال يا ويله ما له ولهذا لا طاقة لي بهذا ويرفضه ويتحول إلى الجاهل فيستأسره ويتمكن من قياده حتى يسلمه إلى الفضائح التي يتعجلها في عاجل الدنيا كالجلد والرجم والحلق وتسخيم الوجوه والقطع والصلب وإن الرجلين ليستويان في أعمال البر ويكون بينهما كما بين المشرق والمغرب أو أبعد إذا كان أحدهما أعقل من الآخر

أنبأنا يحيى بن ثابت عن بندار قال أخبرنا أبي قال أخبرنا أبي على بن دوما قال أخبرنا محمد بن جعفر قال أخبرنا الحسن بن علي القطان قال أخبرنا إسماعيل بن عيسى العطار قال أنبأنا إسحاق بن بشر القرشي قال أخبرنا إدريس عن جده وهب بن منبه أن لقمان عليه السلام قال لابنه يا بني اعقل عن الله عز وجل فإن أعقل الناس عن الله عز وجل أحسنهم عملا وإن الشيطان ليفر من العاقل وما يستطيع أن يكابده يا بني ما عبد الله بشيء أفضل من العقل

أخبرنا محمد بن أبي القاسم قال أخبرنا أحمد بن أحمد قال أخبرنا أحمد بن عبد الله الحافظ قال حدثنا عبيد الله بن محمد العيشي قال حدثنا وهيب قال أخبرنا الجريري عن أبي العلاء عن مطرف أنه قال ما أوتي عبد بعد الإيمان أفضل من العقل أخبرنا محمد قال أخبرنا أحمد قال أخبرنا أحمد بن عبد." (٢)

"الباب الثالث فيما صدر منها عن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين

(١) أبو بكر الصديق رضي الله عنه

١- صنائع المعروف تقي مصارع السوء. «١» .

٢- الموت أهون ما قبله، وأشد ما بعده.

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية ابن مفلح، شمس الدين ٢/٢١٠

(٢) الأذكياء ابن الجوزي ص/٩

ولما بلغه أن الفرس ملكت عليها بنت «ابرويز» قال:

٣- ذل قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة!

(٢) عمر بن الخطاب رضي الله عنه

١- من كتم سره، كان الخيار في يده. «٢»

٢- اتقوا من تبغضه قلوبكم.

٣- أعقل الناس أعذرهم للناس.

٤- لا تؤخر عمل يومك إلى غدك.

٥- أشقى الولاة من شقيت به رعيته.

٦- أخيفوا الهوام «٣» قبل أن تخيفكم.

٧- أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها! ٨- قلما أدبر شيء فأقبل! ٩- من لم يعرف الشر يقع فيه.

١٠- المروءة الظاهرة في الثياب الطاهرة!." (١)

"فلم يزال الأمر فيها جاريا على ذلك حتى ولي عبد الملك ابن مروان، فقدم في أيامه بطريق من بطارقة الروم ومعه خلق كثير، فسأل أن يعطي الأمان على أن يقيم بها ويؤدي الخراج، فأجيب إلى مسألته، فلم يلبث إلا سنتين أو أكثر منها بأشهر حتى تحقق قفول الجند عن المدينة أغلق بابها، وأسر من معه من الجند وعدة من اليهود، ولحق وأصحابه بأرض الروم. فقدر المسلمون عليه بعد ذلك وهو متوجه إلى ساحل للمسلمين في مراكب كثيرة فقتلوه. ويقال: بل أسروه، وبعثوا به إلى عبد الملك فقتله، وصلبه. ويقال: بل تغلب عليها وقتل من فيها بعد موت عبد الملك، ففتحها الوليد بن عبد الملك ".

ولم تزال أطرابلس يتصرف فيها من يلي دمشق منذ فتحت أيام بني أمية وصدرا من أيام بني العباس إلى أن استولى على دمشق العبيديون لما ملكوا مصر، فأفردوها عن دمشق، وولوا فيها من جهتهم.

وأول من وليها ريان الخادم، ثم سند الدولة، ثم أبو السعادة، ثم علي بن عبد الرحمن بن حيدرة ثم نزل ثم مختار الدولة بن نزال.

وهؤلاء الولاة لم يتصل بي مدد إقامتهم في الولايات. ثم تغلب عليها قاضيها أمين الدولة أبو طالب الحسن ابن عمار. ولم يزل بها إلى أن توفي سنة أربع وستين وأربعمائة.

وكان ابن عمار هذا من أعقل الناس، وأسدهم رأيا، فقيها على مذهب الشيعة. وكانت له دار علم بأطرابلس، فيها ما يزيد على مائة ألف كتاب وقفا. وهو الذي صنف كتاب " ترويح الأرواح، ومفتاح السرور والأفراح " المنعوت " بجراب الدولة ".

ولما مات كان بأطرابلس سديد الملك بن منقذ هاربا من محمود بن صالح، فشد من جلال الملك أبي الحسن بن علي بن محمد بن عمار، وعضده بمماليكه ومن كان معه فأخرجوا أخا أمين الدولة من أطرابلس، وولي جلال الملك.

---

(١) الإعجاز والإيجاز الثعالبي، أبو منصور ص/٣٣

ولم يزل متوليا عليها إلى أن توفي في سلخ شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة. وملكها بعده أخوه فخر الملك عمار بن محمد.

وبقي مالكها إلى أن نزل عليها صنجيل بجموعه في شهر رجب سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وحاصرها وضايقها، وأناخ عليها بخيله ورجله. فبعث فخر الملك إلى الملوك بالهدايا والتحف يستنجدهم، ويستصرخهم، فلم يعنه أحد منهم.

فلما لم ير منهم معاضدة ولا مساعدة، رغب إلى " صنجيل " في رحيله عنه، وبذل له أموالا وبعث إليه ميرة، وتضرع جهده، فلم ينفعه ذلك عنده. فلما ضاق بالحصار ذرعا وعجز عن دفع العدو عنه، خرج من أطرابلس قاصدا السلطان محمود بن ملكشاه واستناب فيها ابن عمه " أبا المناقب " ورتب معه سعد الدولة فتيان بن الأعسر.

ونفق في الجند ستة أشهر، فجلس أبو المناقب في بعض الأيام في مجلسه وعنده وجوه أهل أطرابلس، فخلط في كلامه فنهاه سعد الدولة، فصاح، وقال: " لا يا سيدي، لا يا سيدي ". ثم جرد سيفه وضرب سعد الدولة فقتله، وانهزم من كان في المجلس، فقطع سعد الدولة إربا إربا.

وقام من المجلس، وصعد إلى السور، وجعل يصفق بإبطيه ويهنبط، فقام أهل البلد وقبضوا عليه، واعتقلوه، ونادوا بشعار الأفضل ابن أمير الجيوش، وذلك في شهر رمضان سنة خمسمائة. وفي ثامن وعشرية هلك صنجيل، وتولى مقدم يسمي السرداني.

ولما بلغ الأفضل ما فعله أهل أطرابلس جهز إليهم جيشا في البحر، وجعل مقدمه تاج العجم، فعمد تاج العجم إلى أخذ جميع أمواله، وما يحفظ البلدية، فرقي إلى الأفضل أنه يريد العصيان بأطرابلس، فقبض على ما كان حمله في المراكب. وولي بدر الدولة ابن الطيب الدمشقي، فوصل إلى أطرابلس، وكان أهلها قد ضاقت صدورهم من طول الحصار، ثم رأوا من تخلفه ما رغبهم عنه ونفرهم منه فعولوا على طرده، ثم رأوا إبقاءه لأنهم لا ملجأ لهم إلا المصريين.

ووصلت من مصر مراكب بالغلات والرجال، فقرر المذكور مع مقدمي الأسطول البحرية وأعيان البلد وأصحاب فخر الملك وحريمه. فأخذهم وسيرهم في المراكب معهم إلى مصر. وبعث معهم ما كان بأطرابلس من السلاح والذخائر ما لم يكن عند أحد مثله من الملوك، ومائة ألف دينار، فاعتقل أهل بني عمار بمصر.

وكان فخر الملك لما خرج من أطرابلس سار في البحر إلى بيروت، وقصد دمشق فالتقى بأتابك طغتكين، فأكرمه وسير معه ولده تاج الملوك بوري، فوصلا إلى بغداد واجتمعا به فقابلهما بالإكرام ورد تاج الملوك إلى والده.." (١)

"كثيرا (١) .

يحيى البرمكي

(١٢٠ - ١٩٠ هـ = ٧٣٨ - ٨٠٥ م)

يحيى بن خالد بن برمك، أبو الفضل: الوزير السري الجواد، سيد بني برمك وأفضلهم.

---

(١) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة عز الدين ابن شداد ص/٨٠

وهو مؤدب الرشيد العباسي ومعلمه ومربيه. رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل، فكان يدعوه: يا أبي! وأمره المهدي (سنة ١٦٣) وقد بلغ الرشيد الرابعة عشرة من عمره، أن يلازمه، ويكون كاتبا له، وأكرمه بمئة ألف درهم، وقال: هي معونة لك على السفر مع هارون.

ولما ولي هارون الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى، وقلده أمره، فبدأ يعلو شأنه. واشتهر يحيى بجوده وحسن سياسته. واستمر إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه في " الرقة " إلى أن مات، فقال الرشيد: مات أعقل الناس وأكملهم. أخباره كثيرة جدا. قال المسعودي: كانت مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم النضرة الحسنة، من استخلاف هارون الرشيد إلى أن قتل جعفر بن يحيى، سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما. ويستفاد من كشف الظنون إن أول من عني بتعريب المجسطي يحيى بن خالد، فسره له جماعة ولم يتقنوه فأتقنه بعدهم بعض أصحاب بيت الحكمة. ومن كلام يحيى لبنيه: اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون (٢) .

---

(١) إعلام النبلاء ٤: ٣٧٨ والإعلام، لابن قاضي شهبة – خ. ولسان الميزان ٦: ٢٦٣ وفي مجلة الكتاب ٦: ٤٧٧ مقال عنه لمصطفى جواد جاء فيه: " وقيل في سيرته إنه كان يغير على تآليف غيره فيقدم فيها ويؤخر ويبدل ويحول ثم يدعيها لنفسه ". وكشف الظنون ٢٧ والذريعة ١: ٣٣٦ و ٣: ٢١٩، ٢٨٧ واقرأ هامش الصفحة ٢٩٩ من كتاب " الفاطميون في مصر ".

(٢) إرشاد الأريب ٧: ٢٧٢ ووفيات الأعيان ٢: ٢٤٣ والبداية والنهاية ١٠: ٢٠٤ والأغاني، طبعة الساسي: انظر فهرسته. والبيان المغرب ١: ٨٠ والجهشياري:." (١)

"أمير المؤمنين المتقى لله

هو أبو إسحاق، إبراهيم بن المقتدر بالله، بويع له يوم الأربعاء العشرين «٤٧٧» من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاث مائة. وأمه أم ولد اسمها «خلوب» [٨١ أ] .

وحين مات الراضي انحدر المتقى لله من داره بدار ابن طاهر من الجانب الغربي إلى دار السلطان والناس على شاطئ دجلة يدعون له والمقرءون يقرءون بين يديه.

ولما صعد من الزبزب جلس لحظة على رواق الخورنق وقام وصلى ركعتين على الأرض ثم ارتقى السرير وبايعه الناس. وعرضت الوزارة على علي بن عيسى فأباها واعتذر بضعفه وكبر سنه «٤٧٨» .

ونفذ الخليفة بجكم إلى قتال الأكراد والديلم بنواحي واسط فمضى وهزمهم وفي عوده كان يتصيد وعليه غلالة كتان فبادره كردى ورماه بحربة فوقعت في ظهره وخرجت من صدره «٤٧٩» . ووجد المتقى في دار بجكم أموالا لا تحصى «٤٨٠» . فيقال:

إن الآلات والفرش نقل إلى دار الخلافة في السفن والزواريق في مدة أربعين يوما.

---

(١) الأعلام للزركلي خير الدين الزركلي ١٤٤/٨

والمال كان ألف ألف وست ومائة ألف دينار هذا سوى ذخائر بجكم التي ضاعت فإنه كان يحمل الصناديق وفيها الدنانير على البغال ويخرج معها وحده وعلى كل بغل رجل مسدود العين فإذا بلغ إلى المكان الذي يريده من الصحراء فتح أعينهم وأمرهم بدفن الصناديق، ثم عاد وشدها بيده وأركبهم على البغال وأعادهم إلى البلد فإذا حصلوا في داره عاد وفتح أعينهم حتى لا يعلموا أي مكان دفنوا تلك الأموال. وكان هذا دأبه مدة ولايته. وضاعت تلك الأموال كلها ولم يعرف لها خبر «٤٨١» .

وكان بجكم من أعقل الناس وأحسنهم تدبيرا ولذلك بلغ إلى ما بلغ. وكان الخلفاء يعتمدون عليه ويفوضون أمر دولهم إليه ويقدمونه على الوزراء. وكان لا يتكلم [٨١ ب] إلا بالفارسية وله ترجمان يعرف بمحمد بن ينال «٤٨٢» .

واستوزر المتقى أبا عبد الله ابن البريدي عامل واسط «٤٨٣» ، وتزوج ابن الخليفة المتقى، أبو منصور بابنة أبي عبد الله «٤٨٤» ، ثم استشعر منه المتقى لأنه كان قد جاء معه." (١)

"اذا بصروا نارا يقولون ليتها ... وقد خصرت أيديهم نار غالب

فغضب سليمان، وقال لنصيب: أنشد مولاك فانشد

أقول لركب قافلين تيمموا ... قفاذات أوشال ومولاك قارب

قفوا خبرونا عن سليمان إننى ... لمعروفه من أهل ودان طالب

فعاجوا فاثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

فأعطاه وحرم الفرزدق، قلنا: وشعر الفرزدق أحسن وأجود، وأكثر طلاوة، وأبين بلاغة وفصاحة، ولكنه مفارق لحسن الأدب، ولما يوجبه العقل، لأن العاقل لا يفتخر بحضرة السلطان، ولا يمدح نفسه عند الملوك، وأعقل الناس أخضعهم للسلطان، والكبر عليهم هلكة.

أول لواء عقد

أخبرنا أبو القاسم عن العقدى عن ابى جعفر عن المدائنى عن رجاله قال:

أول لواء عقده رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لواء أبيض لحمزة، حمله مرثد حليف حمزة فى السنة التى هاجر فيها فى شهر رمضان، بعثه فى ثلاثين رجلا من المهاجرين يعترض عير قريش مقبلة من الشام، فلقى أبا جهل وأبا سفيان فى ثلاثمائة، فحجز مجدى بن عمرو الجهنى بينهم، فانصرفوا من غير قتال.

وكانت رايته يوم حنين سوداء من برد لعائشة، وأول ما عقدت الرايات يومئذ، وكانت قبل ذلك الألوية. وكانت راية على يوم صفين سوداء، يحملها الحضين بن المنذر، أبو ساسان، وحضين بالضاد المعجمة، وليس فى العرب." (٢)

"منه «١» . والجانب الغربى من هذه المدينة جبل أبيض كأنه طيلسان «ا» ، ويحيط بها من الجانب الشرقى النيل كأنه جدول فضة، قد تشبكت عليه فى الأرض الأشجار والكروم، فلا تسمع فيه الكلام من شدة أصوات الطيور «٢» .

---

(١) الإنباء في تاريخ الخلفاء ابن العمراني ص/١٦٨

(٢) الأوائل للعسكري العسكري، أبو هلال ص/١٢٠

ولنيل مصر فى زيادته ونقصانه عجائب كثيرة، عرضنا عن ذكرها لكثرة معرفة الناس بها. وليلة الغطاس بمصر من أعجب شيء؛ وتسمى فى هذا الزمان كسر الخليج، وهى لعشر تمضى من كانون الآخر «ب» وهو بلغة الروم ينير؛ وذلك الوقت يستوى مد النيل ويأخذ فى الانحطاط. وأصفى ما يكون ما النيل فى ذلك الوقت. ولهذه الليلة بمصر شأن عظيم، وذلك أنه يخرج تلك الليلة جميع البشر ممن يقدر على الخروج تلك الليلة وقد أعدوا ما أمكنهم من الأطعمة والأشربة، ولبسوا أحسن ما عندهم من الملابس، وأظهروا ما أمكنهم من الجواهر وأوانى الذهب والفضة، وأحضروا جميع الملاهى. ويدخل الناس فى الزوارق، ومنهم من يدخل فى الدور المشرفة على النيل، ويشعلون المشاعل «ج» والشمع الكثير. ويشعل صاحب مصر الشمع على جانب النيل «ج» ، فيحرق فى تلك الليلة بمصر من الشمع ما لا يحصى عدده؛ فترى الناس على شطوط النيل فى الزوارق، ومنهم فى الدور المشرفة على النيل بالطبول والأبواق وجميع الملاهى.

وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأكملها سرورا؛ ويغطس أكثر الناس فى النيل، ومن لم يغطس يرش عليه من الماء، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض «٣» .

قال عمرو بن العاص: «ولاية مصر تعدل الخلافة» «٤» ، لأنها جعلها الله متوسطة بين الإقليم الثالث والرابع؛ سلمت من حر الإقليم الأول والثانى، ومن برد الإقليم الخامس والسادس. وقال الجاحظ: «أهل مصر أعقل الناس صغارا." (١)

"وفي إسناده غرابة وفي متنه نكارة شديدة.

وروى ابن إدريس عن أبيه عن وهب قال: قال موسى: يا رب احبس عني كلام الناس، فقال الله له: يا موسى ما فعلت هذا بنفس: وقال لما دعي يوسف إلى الملك وقف بالباب وقال: حسبي ديني من دنياي، حسبي ربي من خلقه، عز جارك وجل ثناؤك، ولا إله غيرك ثم دخل على الملك، فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره وخر له ساجدا ثم أقعده الملك معه على السرير، وقال: (إنك اليوم لدينا مكين أمين) [يوسف: ٥٤] فقال: (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) [يوسف: ٥٥] حفيظ بهذه السنين وما استودعتني فيها، عليم بلغة من يأتيني.

وقال الإمام أحمد: حدثنا منذر بن النعمان الأفطس أنه سمع وهبا يقول: لما أمر الله الحوت أن لا يضره ولا يكلمه – يعني يونس – قال: (فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) [الصافات: ١٤٣ – ١٤٥] قال: من العابدين قبل ذلك، فذكره الله بعبادته المتقدمة، فلما خرج من البحر نام فأنبت الله شجرة من يقطين – وهو الدباء – فلما رآها قد أظلته ورأى خضرتها فأعجبته، ثم نام فاستيقظ فإذا هي قد يبست، فجعل يتحزن عليها، فقيل له: أنت لم تخلق ولم تسق ولم تنبت وتحزن عليها، وأنا الذي خلقت مائة ألف من النار أو يزيدون ثم رحمتهم فشق ذلك عليك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد الغساني، حدثنا رباح، حدثني عبد الملك بن عبد المجيد بن خشك، عن وهب قال: لما أمر نوح أن يحمل من كل زوجين اثنين، قال: يا رب

كيف أصنع بالأسد والبقر؟ وكيف أصنع بالعناق والذئب؟ وكيف أصنع بالحمام والهر؟ قال: من ألقى بينهم العداوة؟ قال: أنت يا رب، قال: فإني أؤلف بينهم حتى لا يتضرون.

---

(١) الاستبصار فى عجائب الامصار مؤلف: الاستبصار في عجائب الأمصار ص/٤٩

وقال وهب لعطاء الخراساني: ويحك يا عطاء، ألم أخبر أنك تحمل علمك إلى أبواب الملوك وأبناء الدنيا، وأبواب الأمراء؟ ويحك يا عطاء، أتأتي من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويواري عنك غناه، وتترك باب من يقول: (ادعوني أستجب لكم) ؟ [غافر: ٦٠] ويحك يا عطاء، إن كان يغنيك ما يكفيك فأوهى ما في الدنيا يكفيك، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس في الدنيا شئ يكفيك، ويحك يا عطاء، إنما بطنك بحر من البحور، وواد من الاودية، لا يملاه شئ إلا التراب.

وسئل وهب عن رجلين يصليان، أحدهما أطول قنوتا وصمتا، والآخر أطول سجودا، فأيهما أفضل؟ فقال: أنصحهما لله عزوجل.

وقال: من خصال المنافق أن يحب الحمد ويكره الذم، أي يحب أن يحمد على ما لم يفعل، ويكره أن يذم بما فيه.

قال: وقال لقمان لابنه: يا بني اعقل عن الله فإن أعقل الناس من عقل عن الله، وإن الشيطان ليفر من العاقل ما يستطيع أن يكايده.

وقال لرجل من جلسائه: ألا أعلمك طبا لا يتعايا (١) فيه الأطباء، وفقها لا يتعايا فيه

---

(١) يتعايا: من أعيا عليه الامر أي صعب.

(*)".(١)

"يحب أن يحمد على ما لم يفعل، ويكره أن يذم بما فيه. قال: وقال لقمان لابنه: يا بنى اعقل عن الله فان أعقل الناس من عقل عن الله، وإن الشيطان ليفر من العاقل ما يستطيع أن يكايده. وقال لرجل من جلسائه: ألا أعلمك طبا لا يتعايا فيه الأطباء، وفقها لا يتعايا فيه الفقهاء، وحلما لا يتعايا فيه الحلماء، قال: بلى يا أبا عبد الله، قال: أما الطب فلا تأكل طعاما إلا سميت الله على أوله وحمدته على آخره، وأما الفقه فان سئلت عن شيء عندك فيه علم فأخبر بما تعلم وإلا فقل: لا أدرى، وأما الحلم فأكثر الصمت إلا أن تسأل عن شيء. وقال: إذا كان في الصبى خلقان، الحياء والرهبة، طمع في رشده.

وقال: لما بلغ ذو القرنين مطلع الشمس قال له ملك هناك: صف لي الناس، فقال محادثتك من لا يعقل كمن يغنى الموتى، ومحادثتك من لا يعقل كمن يبل الصخر الأصم كي يلين، وكمن يطبخ الحديد يلتمس أدمه، ومحادثتك من لا يعقل كمن يضع المائدة لأهل القبور، ونقل الحجارة من رءوس الجبال أيسر من محادثة من لا يعقل. وقال: قرأت في بعض الكتب أن مناديا ينادى من السماء الرابعة كل صباح: أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده، أبناء الخمسين ماذا قدمتم؟ أبناء الستين لا عذر لكم، ليت الخلق لم يخلقوا، وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا، قد أتتكم الساعة فخذوا حذركم. وقال: قال دانيال: يا لهفي على زمن يلتمس فيه الصالحون فلا يوجد منهم أحد، إلا كالسنبلة في أثر الحاصد، أو كالخصلة في أثر القاطف، يوشك نوائح أولئك وبواكيهم أن تبكيهم.

وروى عبد الرزاق عن عبد الصمد بن معقل. قال: سمعت وهبا يقول في قوله تعالى: ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ٢١:

---

(١) البداية والنهاية ط إحياء التراث ابن كثير ٩/٣٠٨

٤٧ قال: إنما يوزن من الأعمال خواتيمها، وإذا أراد الله بعبد خيرا ختم له بخير عمله، وإذا أراد الله بعبد شرا ختم له بشر عمله. وقال وهب: إن الله تعالى لما فرغ من الخلق نظر إليهم حين مشوا على وجه الأرض فقال: أنا الله لا إله إلا أنا الذي خلقتكم وأفنيكم بحكمي حق قضائي ونافذ أمرى، أنا أعيدكم كما خلقتكم، وأفنيكم حتى أبقى وحدي، فان الملك والخلود لا يحق إلا لي، أدعو خلقي وأجمعهم بقضائي، يوم أحشر أعدائى، وتجل القلوب من هيبتي، وتتبرأ الآلهة ممن عبدها دوني.
قال: وذكر وهب أن الله لما فرغ من خلقه يوم الجمعة أقبل يوم السبت فمدح نفسه بما هو أهله وذكر عصمته وجبروته وكبرياءه، وسلطانه وقدرته وملكه وربوبيته، فأنصت كل شيء وأطرق له.
فقال: أنا الملك لا إله إلا أنا ذو الرحمة الواسعة والأسماء الحسنى، أنا الله لا إله إلا أنا ذو العرش المجيد والأمثال العلا، أنا الله لا إله إلا أنا ذو الطول والمن والآلاء والكبرياء، أنا الله لا إله إلا أنا بديع السموات والأرض، ملأت كل شيء عظمتي، وقهر كل شيء ملكي، وأحاطت بكل شيء قدرتي، وأحصى كل شيء علمي، ووسعت كل شيء رحمتي، وبلغ كل شيء لطفي، فأنا الله يا معشر الخلائق." (١)

"للقابلة: أخرجيه ذكر ولك دينار ولك ما شئت، بالله لا أحتاج أن أوصيك.
وقدم إلى بنت الصلت جام فالوذج، فلما ذاقته قالت: المساكين أرادوا أن يسووا عصيدة فأفسدوها.
قرأ ابن الجصاص: ولا ينبئك مثل حنين؛ ويقال: إنه قرأ: ذرهم يأكلون ويتمتعون فقال: هذا والله رخيص.
وسمعت مشايخ كثيرين يقولون: كان ابن الجصاص أعقل الناس وأحزم الناس، وأنه هو الذي ألحم الحال بني المعتضد وبين بنت خمارويه، وسفر بينهما سفارة عجيبة وبلغ من الجنبتين أحسن مبلغ، وخطب بنت خمارويه بن ا؛ مد للمعتصد، وجهزها من مصر على أجمل وجه، وأعلى." (٢)

"وصعد يوسف بن عمر المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد قتل الله زيدا ونصر بن سيار- يريد نصر بن خزيمة.
وقال علي الأسواري: عمر بن الخطاب معلق بشعرة! قلت: وما صيره إلى ذلك؟ قال: لما صنع بنصر بن سيار. يريد نصر بن الحجاج بن علاط.
وقالوا: أحب الرشيد أن ينظر إلى أبي شعيب القلال كيف يعمل القلال، فأدخلوه القصر وأتوه بكل ما يحتاج إليه من آلة العمل، فبينا هو يعمل إذا هو بالرشيد قائم فوق رأسه، فلما رآه نهض قائما، فقال له الرشيد: دونك ما دعيت له، فإني لم آتك لتقوم إلي، وإنما أتيتك لتعمل بين يدي. قال: وأنا لم آتك ليسوء أدبي، وإنما أتيتك لأزداد بك في كثرة صوابي.
قال له الرشيد: إنما تعرضت لي حين كسدت صنعتك. فقال أبو شعيب: يا سيد الناس، وما كساد عملي في جلال وجهك؟ فضحك الرشيد حتى غطى وجهه ثم قال: والله ما رأيت أنطق منه أولا، ولا أعيا منه آخرا، ينبغي لهذا أن يكون أعقل الناس أو أجن الناس.
عبد الله بن شداد قال: أرى داعي الموت لا يقلع، وأرى من مضى لا يرجع، ومن بقي فإليه ينزع. لا تزهدن في معروف،

---

(١) البداية والنهاية ط الفكر ابن كثير ٩/٢٨٠

(٢) البصائر والذخائر أبو حيّان التوحيدي ٤/١٠٥

فإن الدهر ذو صروف فكم من راغب قد كان مرغوبا إليه، وطالب قد كان مطلوبا ما لديه. والزمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان ير الهوان.

الفرج بن فضالة، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن علي، عن ابيه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصله حل بها البلاء: إذا أكلوا الأموال دولا، واتخذوا الأمانة مغنما، والزكاة مغرما، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه، وبر صديقه وجفا أخاه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وأكرم الرجل مخافة شره، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأذا لبس الحرير وشربت الخمور، وأتخذت القيان والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليترقبوا بعد ذلك ثلاث خصال: ريحا حمراء، ومسخا، وخسفا.." (١)

"(قد أوبقتني ذنوب لست أحصرها ... فاجعل تغمدها من بعض إحسانك)

(وارفق بنفسي يا ذا الجود إن جهلت ... مقدار زلتها مقدار غفرانك)

أعقل الناس محسن خائف ، وأحمق الناس مسيء آمن.

كان بشر الحافي لا ينام الليل ويقول: أخاف أن يأتي أمر الله وأنا نائم.

(وكلما هم بذوق الكرى ... صاح به الهجران قم لا تنم)

ذكرت نفوس القوم العذاب فأنت ، وتفكرت في شدة العتاب فأرنت ، تذكرت ما جنت مما تجنت فجنت ، أزعجها الحذر ولولا الرجاء ما اطمأنت. آه لنفس ضنت بما بذلوه ، ثم رجت ما نالوه ، بئس ما ظنت ، ما نفس سابقت كنفس تأنت.

(طربت لذكرى منك هزت جوانحي ... كما يطرب النشوان كأس مدام)

(وما ذكرتك النفس إلا أصابها ... كلذع ضرام أو كوخز سهام)

(وإن حديثا منك أحلى مذاقه ... من الشهد ممزوجا بماء غمام)

كيف لا يخاف من قلبه بيد المقلب من ظن أن عمي يسلم ، من ظن أن برصيصا يكفر ، رب غرس من المنى أثمر ، وكم من مستحصد تلف ، كرة القلب بحكم صولجان التقليب ، إن وقفت الكرة طردت وإن بعدت طلبت ، ليبين سر ، لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا ، نادى نادي البعد ألا ﴿تقنطوا﴾ ويقال للمذنبين ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ لما قرب جبريل وميكائيل اهتزت الملائكة فخرا بقرب جنسها من جناب العزة ، فقطع من أغصانها شجرة هاروت ، وكسر غصن ماروت ، وأخذ من لبها كرة ﴿وإن عليك لعنتي﴾ فتزودت في سفر العبودية زاد الحذر ، وقادت في سبيل معروفها نجب التطوع للمنقطعين ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾ .

نودي من نادي الإفضال: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ فسارت." (٢)

"ذيل النبلاء قلت وقد قرأ عليه البخاري بالروضة في سنة سبع عشرة وثمانمائة أبو الفتح إبراهيم.

٩٦٢ - الحسن العجمي خادم قبة سيدي حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم كان رجلا صالحا ساكنا برباط الأصبهاني

(١) البيان والتبيين الجاحظ ١٨٠/٢

(٢) التبصرة لابن الجوزي ابن الجوزي ٤٠٠/١

عند باب جبريل يعمل في الفاعل ويأكل يتعبد بالليل مجردا على الخير ذكره ابن صالح فقال وهو من خيار العجم الذين رأيتهم مجاورين بالمدينة ولما مات أخذ أخي على خدمة القبة وذلك في ولاية الشرف الأميوطي.

٩٦٣ – الحسن العجمي آخر وهو الذي قبله ذكره ابن صالح أيضا وقال قدم المدينة فسكن في رباط الأصبهاني وكان يسقي بالحرم على خير ومات بها عن حسن ومحمد وهما أيضا على خير انتهى وإنما غايرت بينهما تبعا له سيما وقد وصفه بكونه سقاء مع احتمال كونه أيضا وصفا للأول.

٩٦٤ – الحسن العجمي المدني صاهر شيخنا الشهاب الشوايطي على ابنته خديجة واستولدها أولادها وماتت سنة تسع وخمسين وثمانمائة وما علمت متى مات صاحب الترجمة.

٩٦٥ – الحسن القطان المؤذن كان هو وأحمد أخوه من أعقل الناس وأشغلهم بنفسه وبتدبير بيته إلى أن مات وترك امرأتين له وهما حاملتان فولدتا جميعا ذكرين أحدهما حسين الآتي قاله ابن فرحون وقال ابن صالح إنه كان صبيتا يقرأ الميعاد في الروضة بعد الظهر ثم يمدح وانتفع الناس بقراءته ومدحه انتهى واسم أبيه قاسم وسيأتي ولده حسين قريبا.

٩٦٦ – الحسن المسوفي التكروري هاجر إلى المدينة فجاور بها حتى مات ودفن بالبقيع وكانت مجاورته في عشر الستين وسبعمائة وكان متعبدا ذا نعمة محبا في الصالحين والعلماء واقتنى شيئا من كتب العلم ذكره ابن صالح.

٩٦٧ – الحسن المغربي الخولي أحد أصحاب عبد الله السكري له ذكر في.

٩٨٦ – الحسن المغربي صهر عبد الله ابن القاضي الزين عبد الرحمن بن صالح من سمع معه في سنة سبع وثلاثين وثمانمائة على الجمال الكازروني في البخاري ووصفه القارىء بالشيخ.

٩٦٩ – الحسن شيخ كان في مدرسة السراج مستورا يتهم بالسعة الجيدة يقال إنه ربي عند الموصلي وبينهما علاقة من جهة معتق شجاع الدين الطواشي مات ودفن في البقيع ذكره ابن صالح.." (١)

"شهدت بأن الله لا رب غيره ... وأن الذي قال الرسول مصدق

روينا صحيحا أنه قال بعده ... بزخرف بيت الله ثم يذوق

وأن بيوت الله ترفع أرضها ... إلى جنة المأوى وفيها تخلق

وأن الذي حقا يدوم بقاؤه ... وأن الذي بنار يحرق

وكذا منه تخميس: بأخير من دفنت بالقاع أعظمه فقال: في سنة ثلاث عشرة وهو بمكة:

أخير المزار وهو أعظمه ... وخير من سر عرش الرب مقدمه

ناديته بمقول وهو أقومه ... بأخير من دفنت بالقاع أعظمه

وطاب من طيبهن القاع والأكم

طوبى لجاركم طابت مساكنه

... جار يحار وجار الربع آمنه

---

(١) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة السخاوي، شمس الدين ٢٨٩/١

قول إذا قلت يشفيني محاسنه ... نفسي لقبر أنت ساكنه

فيه العفاف وفيه الجود والكرم

وقد ترجم شيخنا في لسانه جبير بن الحرث وقال: قرأت في رحلة أمين الدين محمد بن أحمد بن أمين الأقشهري نزيل المدينة النبوية وقد أجاز لبعض مشايخي قال: أخبرني الأديب الفاضل محمد بن علي بن عبد الرزاق بن حمأة الجزولي: أن أباه أخبره وصافحه وساق بسند فيه لقي الناصر أبي العباس أحمد بن المستضيء في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة لجبير هذا وأنه صحابي قال شيخنا: وحدث بهذه القصة شيخنا أبو عبد الله السلاوي عن علي بن حسن بن حمزة بسند له إلى آخره – قلت وهو باطل وآخر الصحابة أبو الطفيل عامر بن واثلة.

٣٦٠١ – محمد بن أحمد بن بالغ: الشمس بن الشهاب المصري الأصل المدني الماضي أبوه خلف له أبوه ما لم ينتفع به وسافر إلى البلاد ففتح الله عليه وتزوج وولد له الأولاد وكان من أعقل الناس وأحسنهم خلقا وخلقة وأجملهم صحبة قارئا حسن الصوت مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

٣٦٠٢ – محمد بن أحمد بن أبي بكر الحراني: كان شيخا حسنا كثير التلاوة والحج سمع الكثير وحدث ومات بالمدينة قبل أن يصل إلى الحج في آخر سنة خمس أو أوائل سنة ست وسبعمائة قاله شيخنا في درره.

٣٦٠٣ – محمد بن أحمد بن الحسن: أبو عبد الله الشجري المقرىء ويعرف بجونكار روى عن أبي موسى المديني وغيره كأبي الفتح محمد بن الحسن الخوارزمي وورد بغداد حاجا فسمع على الحسين الهمداني الصوفي سمع منه ابن." (١)

"٣٦٥١ – محمد بن أحمد القرشي: عن أبي بكر الحميدي وعنه أبو داود يحتمل أن يكون الماضي فيمن جده يزيد بن عبد الله.

٣٦٥٢ – محمد بن أحمد القرشي: الصحيناتي الماضي أبوه له ذكر في أبي الحسن الخراز.

٣٦٥٣ – محمد بن أحمد القطان المؤذن: كان من أعقل الناس وأشغلهم بنفسه وتدبير بيته وكان مؤذنا صبيا مجيدا مات بالشام زمن الطاعون وخلف ولدين مباركين صبيين قال ابن فرحون: وأظنه من أصول بني القطان فهم مؤذنون فينظر.

٣٦٥٤ محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب: الإمام البحر المجتهد ناصر السنة أبو عبد الله القرشي المطلبي المكي الشافعي نزيل مصر وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتقي معه في عبد مناف ممن ارتحل إلىالمدينة النبوية ولازم فيها إمامها الإمام مالك بن أنس مدة ياخذ عنه العلم وكان ابن ثلاث عشرة وفي رواية تسع عشرة سنة وكتب إليه معه مسلم بن خالد الزنجي قصة زمانه وأخذ مالك كتابه إليه وقرأه وفي رواية أنه أخذ معه كتاب والي مكة وإلى المدينة وإليه فلما جاءه ورفع إليه كتاب الوالي قرأه ثم رمى به وقال يا سبحان الله وصار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ بالرسائل فتقدمت إليه فقلت: أصلحك الله إن من قصتي كذا قال: فنظر إلي ساعة وكانت له فراسة فقال: ما اسمك قلت: محمد قال: يا محمد اتق الله فسيكون لك شأن فقلت: نعم وكرامة تذكر قصة قراءته عليه وعن الشافعي قال: قدمت على مالك وقد حفظت الموطأ فقلت: أريد

---

(١) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة السخاوي، شمس الدين ٢/٤١٢

أن أسمع منك الموطأ فقال: اطلب من يقرأ لك فقلت: لا عليك أن تسمع قراءتي فإن سهل عليك قرأت لنفسي قال: فأعاد فأعدت فقال: أقرأ فلما سمع قراءتي قال: أقرأ فقرأت حتى فرغت منه وإمام الشافعي بالمدينة إلى أن توفي مالك كما رواه البيهقي في مناقبه فإقامته بها طويلة على كل من القولين في سن الشافعي حين ارتحل إليه فوفاة مالك سنة تسع وسبعين وسمع بالمدينة ايضا من إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف وإبراهيم بن محمد بن يحيي الأسلمي وإسماعيل بن جعفر وأبي ضمرة أنيس بن عياض بن عبد الرحمن الليثي وحاتم بن إسماعيل أبي إسماعيل المدني وسليمان بن عمرو وعبد الله بن نافع الصانع وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وعبد العزي محمد الدراوردي وعطاء بن خالد المخزومي والقاسم بن عبد الله بن عمر العمري ومحمد بن إسماعيل "ابن أبي فديك" ومحمد بن عبد الله بن دينار ومحمد بن عمر بن واقد الأسلمي الواقدي ومولده باتفاق سنة خمسين ومائة إما بعده وباليمن أو بعسقلان." (١)

"«٧٨٩» -كان شريح يقول: لأن أزاول أحمق أحب إلي من أن أزاول نصف الأحمق قيل: يا أبا أمية، ومن نصف الأحمق؟ قال: الأحمق المتعاقل.

«٧٩٠» - شاعر [من البسيط]

لكل داء دواء يستطب به ... إلا الحماقة أعيت من يداويها

«٧٩١» - آخر: [من الطويل]

أبا جعفر إن الجهالة أمها ... ولود وأم العقل جداء حائل

٧٩٢- الأدب صورة العقل فحسن صورة عقلك كيف شئت.

٧٩٣- ابن السماك: أعقل الناس محسن خائف، وأجهلهم مسيء آمن.

٧٩٤- قال حكيم: من أعجب الأشياء جاهل يسلم بالتهور، وعاقل يهلك بالتوقي.

٧٩٥- وقيل: العقل بلا أدب فقر، والأدب بغير عقل حتف. العقل يحتاج إلى مادة الحكمة كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الأطعمة.

«٧٩٦» - قال الحسن: ثلاثة أشياء تذهب ضياعا: دين بلا عقل، ومال بلا بذل، وعشق بلا وصل.

٧٩٧- قال زياد: الحديث أسمعه من عاقل أحب إلي من سلافة فتقت [١] بماء ثغب في يوم ذي وديقة.

---

[١] ح: فنيت (اقرأ: فتئت) .." (٢)

"الحمق لأضاء معه الليل.

٨٠٥- الهيثم بن القاسم الختعمي: [من البسيط]

قد يرزق الأحمق المرزوق في دعة ... ويحرم الأحوذي الأرحب الباع

---

(١) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة السخاوي، شمس الدين ٢/٤٤٤

(٢) التذكرة الحمدونية ابن حمدون ٣/٢٦٨

كذا السوام تصيب الأرض ممرعة ... والأسد منزلها في غير إمراع

والناس من كان ذا مال وسائمة ... مدوا إليه بأبصار وأسماع

«٨٠٦» – قيل لحكيم: متى عقلت؟ قال: حين، ولدت. فلما رأى إنكارهم قال: أما أنا فقد بكيت حين جعت، وطلبت الثدي حين احتجت، وسكت حين أعطيت؛ يعني من عرف مقادير حاجاته فهو عاقل. وهذا كلام فاسد لأن ضرورات البدن والجوع والعطش يدركها العاقل والجاهل والبهائم وكل ذي روح، والطفل لا يعقل مقادير حاجاته.

«٨٠٧» – قال الحجاج لابن القرية: من أعقل الناس؟ قال: الذي يحسن المداراة مع أهل زمانه.

«٨٠٨» – حكيم: العقل والتجربة في التعاون بمنزلة الماء والأرض، لا يطيق أحدهما دون الآخر إنباتا.

«٨٠٩» – إذا غلب العقل الهوى صرف المساوىء إلى المحاسن، فجعل البلادة حلما، والحدة ذكاء، والمكر فطنة، والهذر بلاغة، والعي صمتا، والعقوبة أدبا، والجبن حذرا، والإسراف جودا.." (١)

"العقل أس الفضائل:

يعتبر الماوردي العقل أصل الفضائل وأساسها. وهو ينبوع الآداب. جعله الله تعالى للدين أصلا وللدنيا عمادا فأوجب التكليف بكماله وجعل الدنيا تدبر بأحكامه. وألف به بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم. ويورد حديث النبي صلى الله عليه وسلم "ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردي"، وقوله صلى الله عليه وسلم: "أفضل الناس أعقل الناس". وهو يقسم العقل إلى قسمين غريزي ومكتسب. والعقل الغريزي هو الفطري الذي يولد به ويميزه عن سائر الحيوان. أما العقل المكتسب فهو الذي يتكون لدى الإنسان من الخبرة والتجارب التي يمر بها في الحياة "المرجع السابق: ٢٠". والماوردي بهذا سابق –بهذا القول– لعلماء النفس المحدثين لا سيما عالم النفس الأمريكي كاتل CATTELL الذي خرج علينا بفكرته عن الذكاء الفطري أو الطبيعي والذكاء المكتسب FLUID AND CRYSTALLIZED INTELLIGENCE في الأربعينيات من القرن العشرين وبدأت في الذيوع عام ١٩٦٥ عندما جاء جون هورن JOHN HORN أحد تلاميذ كاتل في الدكتوراه وعمل على نشرها من خلال بحوثه. وهو يقول إن العقل سمي بذلك تشبيها بعقل الناقة لأن العقل يمنع الإنسان من الإقدام على شهواته إذا جبحت كما يمنع العقال الناقة من الشرود إذا نفرت. ويؤيد قوله بما ورد في السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "العقل نور في القلب يفرق بين الحق والباطل".." (٢)

"ولما بلغه أن الفرس ملكت عليها بنت أبرويز قال: ذل قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة. إن الله قرن وعده بوعيده، ليكون العبد راغبا راهبا.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من كتم سره كان الخيار في يده. اتقوا من تبغضه قلوبكم. أشقى الولاة من شقيت به رعيته. أعقل الناس أعذرهم للناس. لا تؤخر عمل يومك لغدك. اجعلوا الرأس رأسين، وأخيفوا الهوام قبل أن تخيفكم. أبت

---

(١) التذكرة الحمدونية ابن حمدون ٣/٢٧٠

(٢) التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية محمد منير مرسي ص/٢٤١

هذه الدراهم إلا أن تخرج أعناقها. لي على كل خائن أمينان لا يخونان: الماء والطين. تكثروا من العيال، فإنكم لا تدرون بمن ترزقون. لو كان الشكر والصبر بعيرين، ما باليت أيهما أركب. من لم يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه. ما الخمر صرفا بأذهب لعقول الرجال من الطمع. لا يكن حبك كلفا، ولا بغضك تلفا. مر ذوي القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا. قلما أدبر شيء فأقبل. إلى الله أشكو ضعف الأمين وخيانة القوى.

عثمان ذو النورين رضي الله عنه: ما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن. أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال. قاله يوم صعد المنبر فأرتج عليه. يكفيك من الحاسد أنه يغتم يوم سرورك.

علي بن أبي طالب كرم الله وجهه العزيز: قيمة كل امرىء ما يحسنه. الناس أعداء ما جهلوا. رأي الشيخ خير من مشهد." (١)

"ابن المعتز: العقل غريزة تربيها التجارب. إذا تم العقل نقص الكلام. حسن الصورة الجمال الظاهر، وحسن العقل الجمال الباطن. ليس الإنسان الصورة، إنما الإنسان العقل. ما أبين وجوه الخير والشر في مرآة العقل إن لم يصدئها الهوى. من غلبه الهوى فليس لعقله سلطان. ينبغي للعاقل ان يكسب ببعض ما له المحمدة، ويصون نفسه ببعضه عن المسألة. من لم يتأمل الأمر بعين عقله لم يقع سيف حيلته إلا على مقاتله. العاقل من عقل لسانه، والجاهل من جهل قدره. العقل صفاء النفس، والجهل كدرها. العاقل لا يستقبل النعمة ببطر، ولا يودعها بجزع. العاقل لا يدعه ما ستر الله من عيوبه أن يفرح بما أظهره من محاسنه. لا ينبغي للعاقل أن يطلب طاعة غيره، وطاعة نفسه عليه ممتنعة. أيدي العقول تمسك أعنة النفوس عن الهوى. أقصر عن شهوة خالفت عقلك. أعقل الناس أعذرهم للناس. جهل العاقل أعقل من عقل الجاهل.." (٢)

"وقد انتدب غير واحد لمعارضته، لكن جاء بكلام فضح به نفسه، وظهر به تحقيق ما أخبر به القرآن من عجز الخلق عن الإتيان بمثله، مثل قرآن مسيلمة الكذاب، كقوله: (يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي كم تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين، رأسك في الماء، وذنبك في الطين) .

وكذلك - أيضا - يعرفون أنه لم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه وبعد سماعه، فلا يجدون أنفسهم عاجزين عما كانوا قادرين عليه كما وجد زكريا عجزه عن الكلام بعد قدرته عليه.

وأيضا فلا نزاع بين العقلاء المؤمنين بمحمد والمكذبين له، إنه كان قصده أن يصدقه الناس ولا يكذبوه، وكان - مع ذلك - من أعقل الناس وأخبرهم وأعرفهم بما جاء به، ينال مقصوده، سواء قيل: إنه صادق أو كاذب. فإن من دعا الناس إلى مثل هذا الأمر العظيم، ولم يزل حتى استجابوا له طوعا وكرها، وظهرت دعوته وانتشرت ملته هذا الانتشار، هو من عظماء الرجال على أي حال كان. فإقدامه - مع هذا القصد - في أول الأمر وهو بمكة، وأتباعه قليل، على أن يقول خبرا، يقطع

---

(١) التمثيل والمحاضرة الثعالبي، أبو منصور ص/٢٩

(٢) التمثيل والمحاضرة الثعالبي، أبو منصور ص/٤٠٨

به أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، لا في ذلك العصر، ولا في سائر الأعصار." (١)

"وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق فكانت عارفة بأحواله التي تستلزم نفي كذبه وفجوره وتلاعب الشيطان به.

وأبو بكر كان من أعقل الناس، وأخيرهم، وكان معظما في قريش لعلمه، وإحسانه، وعقله، فلما تبين له حاله علم علما ضروريا أنه نبي صادق، وكان أكمل أهل الأرض يقينا وعلما، وحالا

وكذلك هرقل ملك النصارى لما أرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام سأل عن عشرة خصال كما في الصحيحين عن ابن عباس قال: حدثني أبو سفيان بن حرب من فيه إلى في، قال: انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل قال: وكان دحية الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل فقال هرقل:

هل هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم." (٢)

"التي يلتذ بحصولها، أو زوال الألم الذي يحصل له الشفاء بزواله، ولهذا يقال: شفى صدره، وشفى قلبه، وقال:

هي الشفاء لدائي لو ظفرت بها ... وليس منها شفاء الداء مبذول

وهذا مطلوب يؤثره العاقل بل الحيوان البهيم، ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطا قبيحا، فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الألم، فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها، ويشفي قلبه بما يعقب عليه غاية المرض، وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب، وخاصة العقل الناظر في العواقب، فأعقل الناس من آثر لذته وراحته في الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة، وأسفه الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التي لا تنغيص فيها ولا نقص بوجه ما، بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف، وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء.

قال بعض العلماء: " فكرت فيما يسعى فيه العقلاء، فرأيت سعيهم كلهم في مطلوب واحد وإن اختلفت طرقهم في تحصيله، رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم، فهذا بالأكل والشرب، وهذا بالتجارة والكسب، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا باللهو واللعب، فقلت: هذا المطلوب مطلوب العقلاء، ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه، بل لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده، ولم أر في جميع هذه الطرق طريقا موصلة إليه إلا الإقبال على الله وحده، ومعاملته وحده، وإيثار مرضاته على كل شيء ".

فإن سالك هذا الطريق إن فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالي الذي لا فوت معه، وإن حصل للعبد حصل له كل شيء، وإن فاته فاته كل شيء، وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنأ الوجوه، فليس للعبد أنفع من هذه الطرق، ولا أوصل منها إلى لذته وبهجته وسعادته، وبالله التوفيق.

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ابن تيمية ٤٣٢/٥

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ابن تيمية ٥١٢/٦

[فصل أقسام المحبوب]

فصل

أقسام المحبوب

والمحبوب قسمان: محبوب لنفسه، ومحبوب لغيره، والمحبوب لغيره، لا بد أن ينتهي إلى المحبوب لنفسه، دفعا للتسلسل المحال، وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره، وليس شيء يحب لذاته إلا الله وحده، وكل ما سواه مما يحب فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه، فإنها تبع لمحبته سبحانه، وهي من لوازم محبته." (١)

"وهذا القول الذي تؤمنون به في الهدهد، من هذا النوع.

قلنا: إن الله تعالى لم يقل: وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى هدهدا من عرض الهداهد، فلم يوقع قوله على الهداهد جملة، ولا على واحد منها غير مقصود إليه، ولم يذهب إلى الجنس عامة، ولكنه قال: وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد [١] فأدخل في الاسم الألف واللام، فجعله معرفة فدل بذلك القصد على أنه ذلك الهدهد بعينه. وكذلك غراب نوح، وكذلك حمار عزير، وكذلك ذئب أهبان ابن أوس؛ فقد كان لله فيه وفيها تدبير، وليجعل ذلك آية لأنبيائه، وبرهانا لرسله. ولا يستطيع أعقل الناس أن يعمل عمل أجرإ الناس، كما لا يستطيع أجرأ الناس أن يعمل أعمال أعقل الناس. فبأعمال المجانين والعقلاء عرفنا مقدارهما من صحة أذهانهما وفسادها، وباختلاف أعمال الأطفال والكهول عرفنا مقدارهما في الضعف والقوة، وفي الجهل والمعرفة. وبمثل ذلك فصلنا بين الجماد والحيوان، والعالم وأعلم منه، والجاهل وأجهل منه. ولو كان عند السباع والبهائم ما عند الحكماء والأدباء، والوزراء والخلفاء والأمم والأنبياء، لأثمرت تلك العقول، باضطرار، إثمار تلك العقول. وهذا باب لا يخطئ فيه إلا المانية [٢] وأصحاب الجهالات فقط. فأما عوام الأمم، فضلا عن خواصهم، فهم يعلمون من ذلك مثل ما نعلم. وإنما يتفاضل بالبيان والحفظ، وبنسق المحفوظ. فأما المعرفة فنحن فيها سواء. ولم نعرف العقل وعدمه ونقصانه، وإفادته، وأقدار معارف الحيوان إلا بما يظهر منها. وبتلك الأدلة عرفنا فرق ما بين الحي والميت، وبين الجماد والحيوان.

فإن قال الخصم: ما نعرف كلام الذئب، ولا معرفة الغراب، ولا علم الهدهد.

قلنا: نحن ناس نؤمن بأن عيسى عليه السلام خلق من غير ذكر وإنما خلق من أنثى؛ وأن آدم وحواء خلقا من غير ذكر وأنثى، وأن عيسى تكلم في المهد، وأن يحيى بن زكريا نطق بالحكمة في الصبا، وأن عقيما ألقح، وأن عاقرا ولدت [٣] ؛ و بأشياء كثيرة

---

[١] ٢٠/النمل: ٢٧.

[٢] المانية: ويقال: المنانية؛ والمنائية؛ والمانوية، هم الزنادقة أصحاب ماني بن فاتك الذي كان يقول:

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/١٩٣

إن مبدأ العالم من كونين أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنهما في صراع مستمر لا ينتهي إلا بانتهاء الدنيا. انظر فهرست ابن النديم ٤٥٦ وما يليها، ومروج الذهب ٦٢٩/٧.

[٣] إشارة إلى قوله تعالى: قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر

[آل عمران: ٤٠] ، وقوله تعالى: قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا

[مريم: ٨] ، وقوله تعالى: قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا

[هود: ٧٢] .." (١)

"الألم، فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها، ويشفي (١) قلبه بما يعقب عليه غاية المرض.

وهذا شأن من قصر نظره على العاجل، ولم يلاحظ العواقب.

وخاصة العقل: النظر في العواقب (٢)، فأعقل الناس من آثر لذته وراحته الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة، وأسفه الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التي لا تنغيص (٣) فيها ولا نقص (٤) بوجه ما، بلذة منغصة مشوبة بالآلام والمخاوف، وهي سريعة الزوال (٥) وشيكة الانقضاء.

قال بعض العلماء (٦): فكرت فيما يسعى فيه العقلاء، فرأيت سعيهم كله في مطلوب واحد، وإن اختلفت طرقهم في تحصيله، رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم. فهذا بالأكل

والشرب (٧)، وهذا بالتجارة والكسب، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا باللهو واللعب. فقلت: هذا المطلوب مطلوب العقلاء، ولكن الطرق كلها غير [٩٧/ ب] موصلة إليه، بل لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده. ولم أر في جميع هذه الطرق طريقا موصلة

---

(١) ل، ز: "يشقي"، تصحيف.

(٢) "وخاصة ... العواقب" ساقط من ل.

(٣) ف: "تنغص".

(٤) "نقص" ساقط من ل.

(٥) "الزوال" ساقط من ز.

(٦) هو ابن حزم، وقد لخص المؤلف كلامه. انظر: الأخلاق والسير (١٣ - ١٦).

(٧) "والشرب" ساقط من ف.." (٢)

"المروج المختلفة الألوان، والنيل ينساب في وسط انسياب الأفعوان، وهي تؤدي إلى قصر فخيم بناه إسماعيل باشا الخديوي السابق في وسط حديقة غناء كثيرة الأشجار لطيفة الأزهار، واسعة الطرق، عديدة التماثيل وجلب إليها الأنواع

---

(١) الحيوان الجاحظ ٣٠١/٤

(٢) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٥٠

العديدة من الوحش والطير حتى أشبهت معارض الحيوانات في أوروبا، ولم يبق بها إلا القليل في هذه الأيام والمنتزه العمومي قرب هذا القصر مركزه يعرف بالجبلايه ولعل المراد بها تصغير الجبل وهي تقليد الجبل الطبيعي، قد صنعت حجارتها من الحصى والرمل يمر الصاعد إلى قمتها في مغارة واسعة كثيفة الظل رطبة الهواء يتسلسل الماء من نواحيها، ويتدفق من بعض الثقوب التي فيها، ويقطر من سقفها خيوط مدلاة قد رسب الكلس عليها وكستها الطبيعة فأشبهت الرواسب الكلسية التي تتدلى من سقوف بعض الكهوف السورية، وفي جوانبها حياض كالنقر من الصخور قد سدت بالزجاج السميك كأنه ماء قد جمد فكون جدارا من الجليد، وفي أرضها الحجارة كأنها أنفذت من سقف المغارة وجوانبها وتدحرجت في أرضها على ممر السنين وتوالي الحوادث والأيام، ثم يرقى على درج ملتف وكأنه طبيعي لم تمسه يد البشر حتى يصل إلى قمتها فيجد هناك في طريقه بقعة كانت مزروعة بالأعشاب والأزهار والأشجار ويرى حوله منظرا فسيحا من غياض الصنوبر (من شجر الفتنة ولعلها كتبت الصنوبر سهوا) والسنط وسهول القمح، والحبوب والنيل ينسحب بينها كأسلاك الفضة وصحارى الرمال إلى غير ذلك مما يشرح الصدر ويطيل العمر.

وأخبت أنه يوجد ما هو أجمل من هذه الجبلاية في قصر يسمى قصر الجيزة، ولكني لم أره –ويوجد جبلاية أصغر منها في المنتزه الكبير في وسط المدينة المعروفة بجنينة الأزبكية– وهي جنينة مساحتها لا تقل عن مساحة إحدى قرى لبنان المتوسطة في الاتساع في وسطها بحيرة متسعة تسير فيها القوارب الصغار والكبار ودائر البحيرة الأشجار الكبيرة والأزهار النضيرة، والأراضي الخضراء، والحدائق الغناء، وفيها مرسح للتمثيل ومبان للطعام وقباب تضرب الموسيقى العسكرية فيها يوميا وأبوابها مفتوحة لعموم الناس، ومخازن القاهرة الكبرى بيد الإفرنج من الأجانب، وأكثر جهاتها المطروقة من الخاصة والعامة مزدحمة بالقهاوي والحانات والخمارات ولم يترك الأوروبيون المتعاطون الأسباب في القاهرة واسطة إلا أجروها لاجتذاب الأهالي إلى الإسارف واللهو والطرب، ولذلك ترى العامة من الأهلية يتهافتون على ما به خرابهم وبوارهم تهافت الفراش على لهب النار، ولم نسمع حتى الآن بجمعية علمية أو أدبية للأهالي تذكرنا جمعيات بيروت أو اجتمعات مفيدة للشبان والشابات كالاجتماعات التي عندنا إلا أننا منذ مدة حضرنا افتتاح جمعية علمية أدبية في دار المرسلين الأمريكيين كان فيها نحو مائة وخمسين نفسا حاضرين واجتماعاتها أسبوعية وقد تزايد عدد الحضور جلسة فجلسة حتى صار يبلغ خمسمائة في هذه الأيام، وقد ضاقت القاعة دونهم فالأمل أن هذه الجمعية تثبت وتنمو وتكون سببا لقيام غيرها من الجمعيات العلمية الأدبية حتى ينتشر التهذيب الصحيح بين الشبان والأهالي الذين أوتوا حظا وافرا من اللطف الطبيعي ولين العريكة وسهولة الانقياد. والله أسأل أن يقدرنا على قضاء خدمة نافعة لبنات هذه البلاد. انتهى.

ومن كلامها مقالة أدرجت في السنة الأولى من جرنال اللطائف تحت عنوان تربية الأولاد وهي خطبة الأخلاق من أدب ولده صغيرا سر به كبيرا وهما قولان جديران بالمراعاة، وحريان بكل اعتبار لأنهما صادران من أعقل الناس وأحكمهم متعلقان بأهم ما في العالم من الأعطية والكنوز فإن الأولاد هم عماد الهيئة." (١)

(١) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور زينب فواز ص/٥٠٤

"قال بن حارث: كان سحنون أفضل الناس صاحبا وأعقل الناس صاحبا وأفقه الناس صاحبا وكانت هذه الصفات صفات سحنون فخلق بها أصحابه رحمهم الله تعالى.

ذكر ولايته القضاء وسيرته: ولي سحنون قضاء إفريقية سنة أربع وثمانين ومائتين – وسنه إذ ذاك أربع وسبعون سنة فلم يزل قاضيا إلى أن مات ولما ولي القضاء دخل على ابنته خديجة وكانت من خيار النساء فقال لها: اليوم ذبح أبوك بغير سكين فعلم الناس قبوله القضاء.

وقال: حدثني بن وهب ورفع سحنون سنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: " نعم المطية الدنيا فارتحلوها فإنها تبلغكم الآخرة ". وكان سحنون لا يأخذ لنفسه رزقا ولا صلة من السلطان في قضائه كله ويأخذ لأعوانه وكتابه وقضاته من جزية أهل الكتاب وقال للأمير: حبست أرزاق أعواني وهم أجراؤك وقد وفوك عملك ولا يحل ذلك لك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه ".." (١)

"عليهم.

وقد يكون الرجل يحسن الصنف والصنفين من العلم، فيظن بنفسه عند ذلك أنه لا يحمل عقله على شيء إلا نفذ به فيه، كالذي اعترى الخليل بن أحمد بعد إحسانه في النحو والعروض، أن ادعى العلم بالكلام وبأوزان الأغاني، فخرج من الجهل إلى مقدار لا يبلغه أحد إلا بخذلان الله تعالى.

فلا حرمنا الله تعالى عصمته، ولا ابتلانا بخذلانه.

فصل منه: وهذان الشاعران جاهليان، بعيدان من التوليد، وبنجوة من التكليف.

[١٣- تعلم التجارة والصيرفة افضل من عمل السلطان]

فصل منه: ومن خصال العبادة وإن كانت كلها راجحة فليس فيها شيء أرد في عاجل، ولا أفضل في آجل من حسن الظن بالله تعالى وعز.

ثم اعلم أن أعقل الناس السلطان ومن احتاج إلى معاملته، وعلى قدر الحاجة إليه ينفتح له باب الحيلة، والاهتداء إلى مواضع الحجة. وما أقرب فضل الراعي على الرعية من فضل السائس على الدابة. ولولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضا، كما أنه لولا المسيم لوثب السباع على السوام.

ودعني من تدريسه كتب أبي حنيفة، ودعني من قولهم: اصرفه إلى الصيارفة؛ فإن صناعة الصرف تجمع مع الكتاب والحساب المعرفة بأصناف الأموال، ولا تجد بدا من حلة السلطان.

ودعني من قول من يقول: قد كانت قريش تجارا؛ فإن هذا باب لا ينقاس ولا يطرد. ومن قاس تجار الكرخ وباعته، وتجار الأهواز والبصرة، على تجار قريش، فقد أخطأ مواضع القياس، وجهل أقدار العلل.." (٢)

---

(١) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ابن فرحون ٢/٣٥

(٢) الرسائل الأدبية الجاحظ ص/٢٠٩

"فصل

ومن خصال العبادة وإن كانت كلها راجحة فليس فيها شيء أرد في عاجل، ولا أفضل في آجل من حسن الظن بالله تعالى وعز وجل.

ثم اعلم أن أعقل الناس السلطان ومن احتاج إلى معاملته، وعلى قدر الحاجة إليه ينفتح له باب الحيلة، والاهتداء إلى مواضع الحجة. وما أقرب فضل الراعي على الرعية من فضل السائس على الدابة. ولولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضا، كما أنه لولا المسيم لوثب السباع على السوام.

ودعني من تدريسه كتب أبي حنيفة، ودعني من قولهم: اصرفه إلى الصيارفة؛ فإن صناعة الصرف تجمع مع الكتاب والحساب المعرفة بأصناف الأموال، ولا تجد بدا من حلة السلطان.

ودعني من قول من يقول: قد كانت قريش تجارا؛ فإن هذا باب لا ينقاس ولا يطرد. ومن قاس تجار الكرخ وباعته، وتجار الأهواز والبصرة، على تجار قريش، فقد أخطأ مواضع القياس، وجهل أقدار العلل.." (١)

"٥٥٩-"و [ذو] العقل لا تبطره المنزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الريح، والسخيف يبطره أدنى منزلة كالحشيش تحركه أدنى ريح".

٥٦٠-وقال الحجاج لابن القرية: "من أعقل الناس؟ قال: الذي يحسن المداراة مع أهل زمانه".

٥٦١-وقال حكيم: "العقل والتجربة في التعاون بمنزلة الماء والأرض، لا يطيق أحدهما دون الآخر ثباتا".

٥٦٢-وقال العتبي: "العقل عقلان: عقل تفرد الله بخلقه وعقل يستفيده الرجل بأدبه وتجربته، ولا سبيل إلى العقل المستفاد إلا بصحة العقل المركب في الجسد فإذا اجتمعا قوى كل واحد منهما صاحبه تقوية النار في الظلمة نور البصر".." (٢)

"غاية الحسن، فمتع الله أمير المؤمنين به قال: هو لك بما فيه وهذه الجارية ليتم سرورك به، قال: فدعوت له.

ثم قال لي: يا يعقوب، ولي إليك حاجة أحب أن تضمن لي قضاءها، قلت: الأمر لأمير المؤمنين، وعلي السمع والطاعة، فاستحلفني بالله وبرأسه، فحلفت لأعملن بما قال، فقال: هذا فلان بن فلان من ولد علي بن أبي طالب، وأحب أن تكفيني مئونته وتريحني منه وتعجل ذلك، قلت: أفعل.

فأخذته وأخذت الجارية وجميع ما في المجلس، وأمر لي بمائة ألف درهم، فلشدة سروري بالجارية صيرتها في مجلس بيني وبينها ستر، وأدخلت العلوي إلي وسألته عن حاله، فأخبرني وإذا هو أعقل الناس، وأحسنهم إبانة عن نفسه، ثم قال: ويحك يا يعقوب، تلقى الله بدمي، وأنا رجل من ولد فاطمة بنت محمد - صلى الله عليه وسلم -!

قلت: لا والله، فهل فيك أنت خير؟ قال: إن فعلت خيرا شكرت، ولك عندي دعاء واستغفار.

فقلت: أي الطرق أحب إليك؟ قال: كذا وكذا، فأرسلت إلى من يثق إليه العلوي، فأخذه وأعطيته مالا، وأرسلت الجارية إلى المهدي تعلمه الحال فأرسل إلى الطريق، فأخذ العلوي وصاحبه والمال.

---

(١) الرسائل للجاحظ الجاحظ ٤٥/٣

(٢) الشكوى والعتاب الثعالبي، أبو منصور ص/١٩٨

فلما كان الغد استحضرني المهدي وسألني عن العلوي، فأخبرته أني قتلته، فاستحلفني بالله وبرأسه، فحلفت له، فقال: يا غلام أخرج إلينا ما في هذا البيت، فأخرج العلوي وصاحبه والمال، فبقيت متحيرا، وامتنع مني الكلام فما أدري ما أقول، فقال المهدي: قد حل لي دمك، ولكن احبسوه في المطبق ولا أذكر به.

فحبست في المطبق، واتخذ لي فيه بئر، فدليت فيها، فبقيت مدة لا أعرف عددها، وأصبت ببصري.

قال: فإني لكذلك إذ دعي بي، وقيل لي: سلم على أمير المؤمنين! فسلمت، قال: أي أمير المؤمنين أنا؟ قلت: المهدي، قال رحم الله المهدي قلت: فالهادي، قال: رحم الله الهادي. قلت: فالرشيد، قال: نعم! سل حاجتك. قلت: المقام بمكة، فما بقي في مستمتع لشيء ولا بلاغ، فأذن لي، فسرت إلى مكة، قال: فلم تطل أيامه بها حتى مات.

وكان يعقوب قد ضجر بموضعه قبل حبسه، وكان أصحاب المهدي يشربون عنده، فكان يعقوب ينهاه عن ذلك، ويعظه، ويقول: ليس على هذا استوزرتني، ولا عليه." (١)

"فأمر له بعشرة آلاف دينار وولاه شرطة شطر بغداد.

المعتضد قال لأحمد بن الطيب: يا سرخسي، إني أرى في لسانك طولا وفي عقلك قصرا.

معقل بن عيسى كتب إلى أخيه أبي دلف في شأن أبي تمام: يا أخي إن لم تغلب عليه بفضلك غلب عليه فضل غيرك. فقال أبو دلف: ما أظرف ما أوصاني به أخي. وأفضل على أبي تمام غاية الإفضال لأجل كلامه.

إسماعيل بن أحمد عرض عليه غلام فقال: يصلح هذا للفراش والهراش.

وكان يقول: ما أشبه بخارى في حسن ظاهرها وقبح باطنها بالإنسان الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم، وباطنه كله قبح ونجاسة.

عبد الله بن المعتز قال: الخطاب من شهود الزور.

وأظرف ما قيل: النساء مهر الجنة. ومن بخل بالدنيا جادت به.

المقتدر بالله كان يقول: لم يملكنا الله تعالى الدنيا لننسى نصيبنا منها. وما وسع علينا لنضيق على من في ظلالنا.

ومن مداعباته قوله: من لذات الدنيا النظر إلى الوجوه المليحة، ونتف اللحى العريضة الطويلة، وصفق الأقفية اللحيمة الشحيمة، وغيبة الأرواح الثقيلة البغيضة.

ناصر الأطروش صاحب طبرستان، كان إذا كلمه الإنسان ولم يرفع صوته قال: يا هذا زد في صوتك فإن في أذني بعض ما بروحك.

وكان يقول: أشغل الناس من شغل مشغولا.

نصر بن أحمد صاحب طبرستان لما ولي وهو ابن تسع سنين خرج أعقل الناس وأظرف أقرانه، فجعل يقول سدادا ويفعل صوابا فقيل له: من علم الأمير هذه المحاسن؟ فقال: من علم ولد البط السباحة عند خروجه من البيضة؟ يعني أن له أصلا في الملك ينزع إلى محاسنه بعرق، فيستوفي شرائطه بأدب وخلق.

---

(١) الكامل في التاريخ ابن الأثير، أبو الحسن ٥/٢٤٣

وكان أبو الطيب الطاهري يهجو بني سامان ويمزق أعراضهم، ودخل إلى نصر مسلما فقال له نصر: يا أبا الطيب حتى متى تأكل خبزك بلحوم الناس؟ فسقط في يديه وأمسك بلسانه ونصر يضحك في وجهه، فقبل الأرض وقام يجر ذيله خجلا، وحين وصل إلى منزله تصدق بمال وتاب من الهجاء توبة نصوحا ولم يعد إلى عادته. فتعجب الناس من كرم نصر وظرفه وتصوبه من استعصار مثله وكف عادية لسانه بتلك اللفظة.

وكان أبو غسان التميمي من المغتبطين بحضرته، وكان من الأدباء الذين يسيئون آدابهم، فدخل يوما على نصر وفي يده دفتر فقال: ما هذا يا أبا غسان؟ قال: كتاب أدب النفس. قال: فلم لا تقول به؟ الراضي بالله كان يقول: الإنسان خادم الإحسان، والحر عبد البر.

وكان يقول: كل طعام أعيد عليه التسخين فهو لا شيء، وكل شراب لم يستكمل أربعة أشهر فهو لا شيء. وكل غناء يخرج من تحت السبال فهو لا شيء.

ابن أبي علي أحمد بن محمد كان يقول: أبغض الأشياء إلي صبي يتشايخ وامرأة تتآمر، وكتاب ينفذ إلي بالفارسية، وامتناع من أدعوه إلى مداخلتي.

ودعا يوما أبا منصور إلى مائدته فقال: أنا إنسان سوقي لا أحسن مؤاكلة الملوك. فقال: يا أبا منصور، ليكن طرف كمك نظيفا وأظفارك مقلمة، وصغر اللقمة، ولا تدسم الخل والملح، وكل مع من شئت.

يوسف بن أبي الساج الدويداري كان يقول: الدنيا كلها مخاريق وإلا فلم يطول القاضي قلنسوته.؟ وكان يقول: الكيما حفظ ما ينفق عليه.

عبد الله بن نوح كان يقول: لا يحسن بالملوك والسادة الأحرار لبس المصبغات والملونات، فإنها من لباس الغلمان والصبيان، وليس لهم غير الخفي النيسابوري والملحم المروزي.

سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان كان يقول: الصاحي بين السكارى كالحي بين الأموات، يضحك من فعلهم ويأكل من نقلهم.

وكان يقول: إعطاء الشعراء من فروض الأمراء.

وكان يخاطب بسيدنا، فخاطبه جعفر بن ورقاء بسيدي. قال: إن سمحت أن أكون سيدك فلا تبخل أن أكون سيد غيرك.

ركن الدولة أبو علي بن بويه كان يقول: مثل خراسان في صعوبة فتحها ونزارة دخلها كابن آوى صعب صيده ولا يحصل خيره. وهي في معنى قول الشاعر رجز:

إن ابن آوى لشديد المقتنص ... وهو إذا ما صيد ريح في قفص

ابن عضد الدولة أبو فناخسرو كان يقول: الدنيا أضيق من أن تسع ملكين اثنين.

أبو منصور محمد بن عبد الرزاق كان يقول: قد ألان الله تعالى لأهل طوس الحجر كما ألان لداود عليه السلام الحديد.

وركب يوما إلى الصيد فرأى قوما يصلون صلاة الفجر وكادت الشمس تطلع، فقال: ما رأيت صلاة الضحى في جماعة إلا هذه.." (١)

"١٣٧٣- (٤) ومقاتل بن صالح بن مازنة أبو عمرو المروزي

حدث ببغداد عن محمد بن نصر بن العباس المروزي روى عنه عيسى بن حامد القنبيطي.

(١٥٧٩) أخبرني عمر بن إبراهيم بن سعيد الفقيه أخبرنا أبو الحسين عيسى بن حامد بن بشر القاضي حدثنا أبو عمرو مقاتل بن صالح ابن مازنة المروزي حدثنا أبو العباس محمد بن نصر بن العباس حدثنا محمود بن غيلان حدثنا يحيى بن آدم حدثنا المفضل بن مهلهل عن محمد بن سليمان عن مكحول عن البراء بن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لله تعالى خواص يسكنهم رفيع الدرجات لأنهم كانوا في الدنيا أعقل الناس قيل وكيف كانوا أعقل الناس يا رسول الله قا كانت هممهم المسابقة إلى الطاعة وهانت عليهم فضول الدنيا وزينتها.." (٢)

"ومما ينخرط في هذا السلك أن بعض الملوك عزل وزيرا له اسمه الياقوت فحلف الملك ليستوزن أول من يلقى فخرج فلقي رجلا أعرابيا فاستوزره فإذا هو من أعقل الناس وأنجبهم فلما رأى الوزير الأول ذلك كتب إلى الملك:

أحكم النسج كل من حاك لكن ... نسج داود ليس كالعنكبوت

ألقني في لظى فإن غيرتني ... فتيقن أن لست بالياقوت

يشير إلى أن الياقوت المعروف لا يفسد بالنار.

فأجاب الآخر:

نسج داود ما حمى صاحب الغا ... ر وكان الفخار للعنكبوت

وفراخ السمند في لهب النا ... ر أزالت فضيلة الياقوت

أشار إلى السمندل وهو دويبة في ناحية الهند تتخذ من جلودها المناديل وتلقى في النار فلا تزداد إلا نضارة وحسنا ولا تحترق، والله على كل شيء قدير، إلى غير هذا مما لا ينحصر ولو تتبعناه لطال. وأما الكنية واللقب فيعتبران بوجهين: الأول نفس إطلاق الكنية واللقب وهما في هذا مختلفان، فإن الكنية الكثير فيها إذا لم تكن اسما أن يراد بها التعظيم وينبغي أن يعلم أن الناس باعتبارها ثلاثة أصناف: صنف لا يكنى لحقارته، وهو معلوم من أن الحقارة أمر إضافي، فرب حقير يكون له من يراه بعين التعظيم فيكنيه، والمقصود أن التحقير من حيث هو حقير لا يكنى إلا هزءا أو تلميحا، وصنف لا ينبغي أن يكنى لاستغنائه عنها وترفعه عن مقتضاها، ومن ثم لا يكنى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنهم أرفع من ذلك حتى إنهم أشرفت رفعتهم على أسمائهم فشرفت، فإذا ذكروا بها كانت أرفع من الكنى في حق غيرهم، وللملوك وسائر أكابر الناس نصيب من هذا المعنى، وصنف متوسط بين هذين، وهو الذي يكنى تعظيما، ثم إن كان التعظيم مطلوبا ككنية أهل العلم والدين ومن يحسن شرعا تعظيمه فحسن، وكذا اكتناء المرء بنفسه إن كان تحدثا بالنعمة أو تبركا بالكنية باعتبار من صدرت عنه أو نحو

---

(١) اللطف واللطائف الثعالبي، أبو منصور ص/٥

(٢) المتفق والمفترق الخطيب البغدادي ٣/١٩٥٥

ذلك من المقاصد الجميلة فحسن، وإلا فمن الشهوات النفسانية، فما كان تكبرا أو تعظيما لمن لا يجوز تعظيمه بغير ضرورة ونحو ذلك فحرام، وإلا فمباح، وليس من هذا الباب ما يقصده به مجرد الإخبار فقط كقولك جاء أبي أو أبو فلان هذا أي والده، ولا يقصد به معناه على وجه التفاؤل مثلا نحو أبي الخير وأم السعد.

وأما اللقب فيقصد به كل من المدح والذم وغير ذلك، والحكم كالذي قبله.

الوجه الثاني النظر إلى مدلولهما الأصلي، وهما في ذلك كما مر في الاسم بل ذلك هنا أولى، لأن الأصل فيه أوضح، ولبعضهم في ذلك:

أتيت أبا المحاسن كي أراه ... بشوق كاد يجذبني إليه

فلما أن أتيت رأيت فسردا ... ولم أر من بنيه ابنا لديه

يريد أن لفظه ينبئ عن كون المحاسن لازمة له لزوم الأولاد لأبيهم، ثم إنها لم يجدها عنده، وكذا يقال في أبي المكارم وأبي الفضل وأبي البخت وجمال الدين وشمس الأئمة، والأصل في جميع هذا أن المستحسن في العقول وإن لم يكن لازما خلافا لمن زعم ذلك أن يطابق الاسم أي مدلوله الأصلي حتى يصير الاسم كأنه وصف مشتق لموصوف بمعناه، فإن لم يكن كذلك فإن التسمية خطأ، وكأن الاسم لا مسمى له، ومن هذا جاءت العادة بتخير الاسم عند التسمية وكذا عند الملاقاة كقصة البريد السابقة، أما التخير عند التسمية فلفائدتين: إحداهما التلذذ بسماعه وتجمل المسمى بذلك، الثانية التفاؤل بأن يصدق معناه، وذلك على حساب ما يريده، وللناس أغراض تختلف، وقد قيل لبعض العرب: لم تسمون عبيدكم نافعا ومرزوقا وأولادكم حربا ومرة فقال: إنا نسمي أولادنا لأعدائنا ونسمي عبيدنا لأنفسنا أي فلا فرق بين فائدة النفع وفائدة الدفع وحلاوتهما، بل الدفع أهم.

وكان وادي السباع في بلاد العرب وفيه قال قائلهم:

مررت على وادي السباع ولا أرى ... كوادي السباع حين تبصر واديا

أشد به ركبا أتوه تئية ... وأخوف إلا وما وقى الله ساريا

قيل: سبب تسميته أن امرأة من العرب كانت نزلته ولها عدة أولاد فوجدها رجل يوما وحدها فهم بها فقامت تصيح بأولادها وتقول: يل ليث، يا نمر، يا أسد، يا كذا، وهي أسماؤهم، فأقبلوا إليها يشتدون، فانطلق الرجل وهو يقول: هذا وادي السباع.." (١)

"مقدمات:

تقديم:

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ:

لعلك قد سمعت من جيلنا من يقول: "نحن جيل بلا أساتذة". فهل يستطيع الأديب أو الإعلامي أن ينمو دون أن يكون له أستاذ من التراث في القديم، وفي الإبداع المعاصر والحديث؟

---

(١) المحاضرات في اللغة والأدب الحسن اليوسي ص/٤

قال الأستاذ لتلميذه الفتى:

"ليس هذا الذي نلاحظه في جيلك شيئا جديدا، إنه قديم قدم الإنسان، بل إن من الجيل الأكبر من يظن أن ذكاء الناس يتضاءل أمام ذكائه، فيتعامل في عالم الأدب والفكر بناء على تصوره هو، ضاربا بذكاء الآخرين عرض الحائط.. أذكر لك هنا يا بني قول علي بن أبي طالب –كرم الله وجهه– لعامر بن مرو الزهري: "من أحمق الناس؟

فأجابه: "من ظن أنه أعقل الناس"!

فقال الإمام علي: "صدقت، فمن أعقل الناس؟ "

فأجابه: "من لم يتجاوز الصمت في عقوبة الجهل".

ومع ذلك يا بني، فالأدباء الإعلاميون الشيوخ، هم أسعد الناس حين ينبغ من الشباب أديب أو إعلامي، ألا ترى أنهم كالآباء يفرحون لنبوغ الأبناء؟

لقد مر البحتري الشاعر بجماعة من الشعراء، فرأى بينهم صبيا، فقال له: أشاعر أنت؟ فقال الصبي: نعم. وإني لأشعر منك!." (١)

"وينحف الجسوم وفي أهله غدر ولهم خب ومكر، ولديارهم في آخر الزمان نبأ عظيم وخطب جسيم من أمور» تظهر وأحوال تبهر. وأما العراق فقلب الأرض ومسلك النور وقرار النظارة ولأهله أعدل الألوان وأصفى الأذهان.

وأما الجبال فتخشن الأجسام وتبلد الأفهام وتميت الهمم وتفسد الشيم. وأما خراسان فتعظم الأبدان وتكبر الهام وتلطف الأفهام ولأهلها غوص وتفكير ورأي وتدبير.

٨٢٧ وذكر أن معاوية سأل عبد الله بن الكواء فقال: أخبرني عن أهل البصرة.

فقال: يقاتلون معا ويدبرون شتى. قال: فأخبرني عن أهل الكوفة. فقال:

أنظر الناس في صغيرة وأوقعهم في كبيرة. قال: أخبرني عن أهل المدينة.

قال: أحرص الناس على فتنة وأعجزهم عنها. قال: فأخبرني عن أهل مصر. قال: لقمة لأكل. قال: فأخبرني عن أهل الحيرة. قال: كناسة بين حديقتين. قال: فأخبرني عن أهل الموصل. قال: قلادة وليدة فيها من كل خرز. قال: فأخبرني عن أهل الشام. قال: جنة «٢» أمير المؤمنين ولا أقول فيهم شيئا. قال: لتقولن. قال: أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم لخالق، لا يحسبون للسماء ساكنا. وروي أن عمرو بن العاص قال: أهل الحجاز أسرع الناس إلى فتنة وأعجزهم عنها، وأهل العراق أطلب الناس لعلم وأعلمهم بخلافه، وأهل مصر أعقل الناس صغارا وأحمقهم كبارا، وأهل الشام أطوع الناس لمخلوق «٣» وأعصاهم لخالق «٤» .

وقال سليمان بن موسى: إذا كان الرجل علمه حجازي وسخاؤه عراقي واستقامته شامية فقد كمل.

وقال بعض الحكماء: أهل الحجاز أهل لهو ومعازف ومداعبة وتأنيث، وأهل." (٢)

---

(١) المدخل في فن التحرير الصحفي عبد اللطيف محمود حمزة ص/٧

(٢) المسالك والممالك للبكري أبو عبيد البكري ٤٩٢/١

"٨٤٧ وذكر أن مصر مصورة في كتب الأوائل وسائر المدن مادة أيديها إليها تستطعمها. وقال عمرو بن العاص: ولاية مصر تعدل الخلافة، وجعلها الله متوسطة للدنيا، فهي من الإقليم الثالث والرابع، سالمة «١» من حر الإقليم الأول والثاني ومن برد الإقليم السادس والسابع، فطاب هواؤها وضعف حرها وخف بردها، فسلم أهلها من مشاتي الجبال ومصائف عمان وحر تهامة ودماميل الجزيرة وجرب اليمن وطواعين الشام وطحال البحرين وحمى خيبر، وآمنوا من غارات الترك والعرب والديلم وآمنوا قحط الأمطار. ففي «٢» كورها طرائف وعجائب، فصعيدها (أرض حجازية) «٣» تنبت النخل والآراك والقطر «٤» والعشر، وأسفل أرضها شامي ينبت ثمار الشام من الكرم والتين واللوز والجوز وسائر الفواكه «٥» من البقول والرياحين، ويقع بها الثلج.

٨٤٨ وأمر الرشيد فصورت له مدائن الدنيا، فما استحسن منها غير عمل أسيوط، فإن مساحته ثلاثون ألف فدان في دست واحد، لو قطرت فيه قطرة فاضت على جميع جوانبه يبذر فيه جميع الحبوب. فلا يكون على الأرض بساط أعجب منه، من جانبه الغربي جبل أبيض على صورة الطيلسان، ويحيط به من جانبه الشرقي النيل كأنه جدول فضة، لا يسمع فيه الكلام من شدة أصناف أصوات «٦» الطير. ومما ذمت «٧» به مصر سوى ما ذكره «٨» الجاحظ أن أهل مصر أعقل الناس صغارا وأحمقهم كبارا. وكان أبو دلامة دخل مصر، فلما رجع إلى العراق لقيه الحسن «٩» بن هاني فسأله عن صفة." (١)

"مداراته للناس، ويكفي أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إياه؛ فإنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«من حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق» فمقتضاه أن من رزق المداراة لم يحرم التوفيق.

وقالوا: العاقل الذي يحسن المداراة مع أهل زمانه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الجنة مائة درجة تسعة وتسعون منها لأهل العقل وواحدة لسائر الناس» وقال علي بن عبيدة، العقل ملك والخصال رعية، فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها. فسمعه أعرابي فقال: هذا كلام يقطر عسله.

وقيل: بأيدي العقول تمسك أعنة النفوس «١» ، وكل شيء إذا كثر رخص إلا العقل فإنه كلما كثر غلا. وقيل: لكل شيء غاية وحد، والعقل لا غاية له ولا حد، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار في المروج «٢» .

واختلف الحكماء في ماهيته فقال قوم: هو نور وضعه الله طبعا وغريزة في القلب كالنور في العين. وهو يزيد وينقص ويذهب ويعود وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور، وعمى القلب كعمى البصر. قال الله تعالى: فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور

«٣» . وقيل محل العقل الدماغ وهو قول أبو حنيفة رحمه الله تعالى.

وذهب جماعة إلى أنه في القلب كما روي عن الشافعي رحمه الله تعالى واستدلوا بقوله تعالى: فتكون لهم قلوب يعقلون بها

---

(١) المسالك والممالك للبكري أبو عبيد البكري ١/٥٠٥

«٤» . وبقوله تعالى: إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب

«٥» . أي عقل، وقالوا: التجربة مرآة العقل، ولذلك حمدت آراء المشايخ حتى قالوا: المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم فهم وعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة.

قال الشاعر:

ألم تر أن العقل زين لأهله ... ولكن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر:

إذا طال عمر المرء في غير آفة ... أفادت له الأيام في كرها عقلا

وقال عامر بن عبد قيس: إذا عقلك عقلك «٦» عما لا يعنيك فأنت عاقل. ويقال: لا شرف إلا شرف العقل ولا غنى إلا غنى النفس. وقيل: يعيش العاقل بعقله حيث كان كما يعيش الأسد بقوته حيث كان. قال الشاعر:

إذا لم يكن للمرء عقل فإنه ... وإن كان ذا بيت على الناس هين

ومن كان ذا عقل أجل لعقله ... وأفضل عقل عقل من يتدين

وقالوا العاقل لا تبطره المنزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الريح، والجاهل تبطره»

أدنى منزلة كالحشيش يحركه أدنى ريح.

وقيل لعلي رضي الله عنه: صف لنا العاقل؟ قال: هو الذي يضع الشيء مواضعه. قيل: فصف لنا الجاهل؟

قال: قد فعلت. يعني الذي لا يضع الشيء مواضعه.

وقال المنصور لولده: خذ عني ثنتين: لا تقل من غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير. وقال أزدشير: أربعة تحتاج إلى أربعة: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة.

وقال كسرى أنوشروان: أربعة تؤدي إلى أربعة: العقل إلى الرياسة، والرأي إلى السياسة، والعلم إلى التصدير، والحلم إلى التوقير.

وقال القاسم بن محمد: من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه كان حتفه من أغلب الخصال عليه.

وقيل: أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه. وقيل: ثلاثة هن رأس العقل: مداراة الناس، والاقتصاد في المعيشة، والتحبب إلى الناس. وقيل: من أعجب برأي نفسه بطل رأيه، ومن ترك الاستماع من ذوي العقول مات عقله.

وعن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه أنه قال: أهل مصر أعقل الناس صغارا، وأرحمهم كبارا.." (١)

"ومال يعقوب إلى إسحاق بن الفضل فقيل للمهدي لو أراد أخذ له الدنيا في يوم.

فملأ ذلك قلب المهدي عليه. ودخل عليه يوما فقال: يا أمير المؤمنين، قد عرفت اضطراب مصر فأمرتني أن ألتمس لها رجلا يجمع أمرها وقد أصبته. قال: من هو؟ قال:

ابن عمك إسحاق بن الفضل، فرأى في وجه المهدي التغير، فنهض وأتبعه المهدي طرفه، وقال: قتلتني والله إن لم أقتلك.

---

(١) المستطرف في كل فن مستطرف شهاب الدين الأبشيهي ص/٢١

ولم يزل موالي المهدي يحرضونه عليه، ودخل عليه يوما وهو في مجلس متناهي الحسن، وعنده جارية في غاية الكمال، فقال له: يا يعقوب كيف ترى مجلسنا؟ قال: على غاية الحسن فمتع الله أمير المؤمنين به، فقال:

هو لك احمله بما فيه، وهذه الجارية ليتم سرورك به، فدعا له فقال: ولي إليك حاجة فأحب أن تضمن لي قضاءها، فقال: الأمر لأمير المؤمنين وعلي السمع والطاعة، فقال:

والله، ثلاث مرات، فقال: وحياة رأسي، فقال: فحياة رأسك قال: فضع يدك عليه فاحلف، ففعل لتقضين حاجته فقال: هذا فلان بن فلان من ولد علي، أحب أن تكفيني مئونته وتريحني منه، وتعجل ذلك، فقال: أفعل، قال: فخذه إليك فحوله وحول الجارية وجميع ما كان في البيت، وأمر له بمائة ألف درهم، فلما مضى إلى منزله لم يصبر عن الجارية فضرب بينه وبينها سترا، ودعا بالعلوي، فإذا أعقل الناس، فسأله عن حاله فأخبره، فقال: يا يعقوب تلقى الله بدمي، وأنا من ولد فاطمة [١] / بنت رسول ١٢٨/ ألله صلى الله عليه وسلم؟ فقال له: لا والله، فهل فيك أنت خير؟ قال: إن فعلت خيرا شكرت [٢] ، فقال له: أي الطريق أحب إليك؟ فقال: طريق كذا وكذا. قال: فمن هاهنا تأنس به وتثق بموضعه؟ قال: فلان وفلان، فقال: فابعث إليهما وخذ هذا المال وامض معهما مصاحبا في ستر الله، موعدك في خروجك من داري وقت كذا وكذا من الليل، فسمعت الجارية ذلك، فبعثت به مع خادم لها إلى المهدي وقالت: هذا جزاؤك من الذي آثرته على نفسك، فبعث المهدي من وقته فشحن تلك الطرق [٣] والمواضع برجال، فلم يلبث أن جاءوه بالعلوي وصاحبيه والمال، وأصبح يعقوب من غد ذلك اليوم، فإذا رسول المهدي يستحضره، فدخل عليه، فقال: يا يعقوب ما فعل الرجل؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد أراحك الله منه، قال: مات؟ قال: نعم، قال: والله، قال: والله، قال: فقم فضع يدك

---

[١] إلى هنا ينتهي مقدار الورقة رقم ١٢٧ المفقودة.

[٢] في ت: «شكرتك» .

[٣] في ت: «الطريق» .." (١)

"وقفاك أحسن من وجه غيرك؛ وظن أنه إذا قال هذا «١٩» كان أبلغ فى المديح. أعطوه ما أمل، وعرفوه ما جهل. قال: فقلت له: والله لو ورد هذا على العباس جدها رضى الله تعالى عنه- فإنه النهاية فى العقل [٢١٦]- ما كان عنده من الحلم والاحتمال أكثر من هذا! قال: وقال الجاحظ بعقب هذا الحديث: كانت زبيدة أعقل الناس، وأفصح الناس. أخبرني عبد الله بن سليمان أن أحمد بن سليمان بن وهب كتب إلى أبي أحمد عبيد الله بن طاهر كتابا ضمنه هذين البيتين لبعض الأعراب:

وعهدى بليلى وهى ذات ذؤابة ... ترد علينا بالعشى المراميا

فشب بنو ليلى وشب بنوابنها ... وهذى بقايا حب ليلى كماهيا

فأجابه أبو أحمد جوابا يقول فيه: وأما البيتان اللذان ذكرتهما وحثثت بهما على الوفاء فقد استحسنتهما واحتجت إلى

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ابن الجوزي ٢٨٣/٨

الاستثبات فى قوله:

ترد علينا بالعشى المراميا

وأى شيء أراد بالمرامى؟ فإن الذى يعرف أن المرامى جمع مرمى، والمرمى المقذف، وهو مصدر رمى رميا كما ترى، فإن كان أراد بالمرامى النبل فهو موجود فى كلام العرب، وله شاهد. وكأن قوله:

شب بنو ليلى وشب بنو ابنها

يقتضى أن يكون قال: «شب بنو ابنها منه، أو من غيره! فإنه لم يقدم ذكرا لملكه إياها، وأنها أم ولده؛ وإن كانوا يتكلمون على علم المخاطب- ويروى أن البلاغة لمحة دالة، وكأن من سمع البيتين مع استحساننا جميعا إياهما وقف على قوله: «بقايا حب.

ليلى» وأراد منه ألا يكون ذكر البقايا، وأن يكون احتال حتى جعل مكانها أول الافتتاح." (١)

"والتحقيق: أن كلا القولين حق؛ فإنه يحصل بها علم ضروري، والأدلة النظرية توافق ذلك.

وكذلك كثير من الأدلة - والعلامات، والآيات:

من الناس من يعرف استلزامها للوازمها بالضرورة، ويكون اللزوم عنده بينا، لا يحتاج فيه إلى وسط ودليل.

ومنهم من يفتقر إلى دليل، ووسط يبين له أن هذا الدليل مستلزم لهذا الحكم، وهذا الحكم لازم له.

ومن تأمل معارف الناس وجد أكثرها من هذا الضرب؛ فقد يجيء المخبر إليهم بخبر، فيعرف كثير منهم صدقه أو كذبه بالضرورة، لأمور تقترن بخبره. وآخرون يشكون في هذا. ثم قد [يتبين] ١ لبعضهم بأدلة، وقد لا يتبين.

كثير من الناس يعلم صدق النبي بلا آية

وكثير من الناس يعلم صدق المخبر بلا آية البتة٢، بل إذا أخبره، وهو

---

١ في ((خ)) : تبين. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

٢ مثل خديجة رضي الله عنها، وأبي بكر رضي الله عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "قلت: وإيمان خديجة وأبي بكر وغيرهما من السابقين الأولين، كان قبل انشقاق القمر، وقبل إخباره بالغيوب، وقبل تحديه بالقرآن، لكن كان بعد سماعهم القرآن الذي هو نفسه آية مستلزمة لصدقه. ونفس كلامه وإخباره بأني رسول الله، مع ما يعرف من أحواله، مستلزم لصدقه، إلى غير ذلك من آيات الصدق وبراهينه. بل خديجة قالت له: كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق. فكانت عارفة بأحواله التي تستلزم نفي كذبه وفجوره وتلاعب الشيطان به. وأبو بكر كان من أعقل الناس وأخيرهم، وكان معظما في قريش لعلمه وإحسانه وعقله، فلما تبين له حاله، علم علما ضروريا

---

(١) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء المرزباني ص/٤٣٦

أنه نبي صادق، وكان أكمل أهل الأرض يقينا علما وحالا.." الجواب الصحيح ٦٥١١-٥١٢. وانظر: شرح الأصفهانية ٢٤٧٩-٤٨٦. وكتاب الصفدية ١٢٢٥. والحديث سبق تخريجه ص ٢٣٤.." (١)

"بخلاف اسم الساحر؛ فإنه اسم معروف في جميع الأمم. وقد يدخل في ذلك عندهم المخدوم الذي تخبره الشياطين ببعض الأمور الغائبة.

ولكون الساحر يأتي بالخوارق شبهوا النبي [به] ١، وقالوا: ساحر. فدل ذلك على قدر مشترك.

من الفروق بين النبي والساحر

لكن الفرقان بينهما أعظم، كالفرق بين الملائكة والشياطين، وأهل الجنة وأهل [النار] ٢، وخيار الناس وشرارهم. وهذا أعظم الفروق بين الحق والباطل٣.

والكفار قالوا عن الأنبياء: إنهم مجانين وسحرة٤.

[فكما] ٥ يعلم بضرورة العقل من وجود أعظم الفرق بينهم وبين المجانين، وأنهم أعقل الناس وأبعدهم عن الجنون، فكذلك يعلم بضرورة العقل أعظم الفرق بينهم وبين السحرة، وأنهم أفضل الناس وأبعدهم عن السحر.

فالساحر يفسد الإدراك، حتى يسمع الإنسان الشيء، ويراه، ويتصور خلاف ما هو عليه٦.

---

١ ما بين المعقوفتين ساقط من ((م)) ، و ((ط)) .

٢ ما بين المعقوفتين ملحق في ((خ)) بين السطرين.

٣ سبق أن ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فروقا كثيرة في هذا الكتاب، انظر ص: ٤٧٨، ٥٠٧-٥١٣، ٥٨٩-٦٣٣، ٦٧١-٦٧٤، ٧٦٦-٧٧٩، ٧٩٧-٧٩٩، ٨٤٤، ٩٥٥، ٩٨٧، ١٠٠٣، ١٠٢٠.

٤ وقد حكى الله تعالى عن الكفار قولهم عن الأنبياء أنهم سحرة أو مجانين، قال تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ . سورة الذاريات، الآيتان ٥٢-٥٣.

٥ في ((خ)) : فكلما. وما أثبت من ((م)) ، و ((ط)) .

٦ وقد سحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله؛ سحره اليهودي ابن أعصم. قالت عائشة رضي الله عنها: "سحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله..".

رواه البخاري في صحيحه٣١١٩٢، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده. ومسلم في صحيحه٤١٧١٩-١٧٢١، كتاب السلام، باب السحر. ومسند الإمام أحمد ٦٥٠، ٥٧، ٦٣، ٦٤.." (٢)

"بها على أوتار القلوب، وكأنما كان بينه وبينها سلك كهربائي، فهي تتحرك بحركته وتسكن بسكونه.

ما كان مصطفى كامل أذكى الناس ولا أعلم الناس ولا أعقل الناس، ولكنه كان أشجع الناس.

---

(١) النبوات لابن تيمية ابن تيمية ٨٨٥/٢

(٢) النبوات لابن تيمية ابن تيمية ١٠٤٩/٢

كان يفكر فيقتنع فيصمم فيمضي، فلا ينثني حتى الموت.

كان يخطئ أحيانا في اتخاذ الوسائل إلى آماله، ولكنه ما كان يتمهل كثيرا ليتبين أي طريق يأخذ، ولا أي مسلك يسلك مخافة أن تفتر همته بين الأخذ والرد، فيكون خطؤه في قعوده أكثر من خطئه في جهاده.

كان له منافسون يرمونه بالخفة والطيش، ويقولون له: إنك مخطئ أو مضر أو غير محسن أو غير عظيم، فما كان يصدق من ذلك شيئا، كأنما كان ينظر بعين الغيب إلى هذا اليوم الذي اتفق فيه أصدقاؤه وأعداؤه، وخصومه وأولياؤه أنه رجل عظيم.

ما كان مصطفى كامل من الأغنياء ولا من بيت الملك، وما كان آمرا ولا ناهيا، ولا رافعا ولا خافضا، ولكنه لقي من إجلال الناس لموته وإعظامهم لمصيبته ما لم يلق واحد من هؤلاء، ولا فضل لهم في ذلك عليه، فهو الذي علمهم كيف يحترمون العقول ويجلون المناقب والمزايا.." (١)

"وعبد الله الأمير وبريد البدوي وإمامه محب الدين ابن العسال

فأول من ضربه بالسيف كرجي مقدم البرجية وتوجه طغجي وكرجي إلى دار منكوتمر ودقا عليه الباب وقالا السلطان يطلبك فنكرهما وقال قد قتلتماه فقال كرجي نعم يا مأبون بيتنا لنقتلك فاستجار بطغجي فأجاره وحلف له فخرج إليهما فذهبا به إلى الجب وأنزلاه فاغتنم كرجي الغفلة وحضر إلى الجب وأخرج منكوتمر من الجب وذبحه وقال نحن ما قتلنا أستاذه إلا من أجله فما في بقائه فائدة

ونهبوا دياره في الحال واتفقوا على إعادة الملك الناصر محمد من الكرك إلى الملك وأن يكون طغجي نائبا وحلفوا له على ذلك

وارسلوا سلار لإحضاره وهو أمير صغير

وعمل طغجي النيابة أربعة أيام فلما حضر أمير سلاح من غزوة الشام وقتل طغجي وكرجي عندما التقياه وبقي يعلم على الكتب ثمانية أمراء سلار والجاشنكير وبكتمر أمير جندار وجمال الدين ى قوش الفرم والحسام استاد الدار وكزد وأيبك الخزندار والأمير عبد الله

وقتل لاجين وهو في عشر الخمسين أو جاوزها بقليل وقيل إن السلطان الملك المنصور قلاوون قال لولده الملك الأشرف خليل إذا صار الأمر إليهم فلا تعارض طرنطاي ولا تشوش عليه فما يخونك

وأما لاجين فلا تكلمه وإن أمسكته فلا تبقه فخالفه الشرف في أمر المذكورين

وكان حسام الدين لاجين من أعقل الناس وأنصفهم وهو الذي خرج الخلفاء من الحبس وابطل الثلج الذي ينقل في البحر من الشام إلى مصر وقال أنا كنت في الشام وأعلم ما يقاسي الناس في وسقه وكان ذكيا نبيها)

حكى لي القاضي شهاب الدين أحمد بن فضل الله قال حكى لي والدي أنه وصل إليه بعض الأيام بريد من مصر وعلى يبده كتاب من طرنطاي ومما فيه بخطه أن الخروف نطح كبشه اقلبه فقال لي ما هذا يا محيي الدين قلت لا أعلم فقال هذا

---

(١) النظرات المنفلوطي ١٢/٢

الكلام معناه أن بيدرا قد وثب على عمه الشجاعي وكذا كان فإن الشجاعي كان زوج أم بيدرا فعمل عليه عند المنصور وأمسكه وعزله وصادره وهذا في غاية الفهم من مثل هذه الإشارة

وحكى لي الأمير شرف الدين أمير حسين بن جندر قال قال لي حسام الدين يا حسين رأيت البارحة في النوم أخاك مظفر الدين وهو يقول لي وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبونفما كان بعد ذلك ثلاث ليال حتى قتل

ولما قتل الشرف هرب هو وقراسنقر وجاءا إلى جامع ابن طولون وطلعا في المئذنة واستترا فيها وقال لاجين إن نجانا الله من هذه الشدة وصرت شيئا عمرت هذا الجامع وكذا جرى فإنه عمره وأوقف عليه." (١)

"الله وسلامه عليه وعلى النبيين وآل كل وصحابتهم أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

أما بعد، فإن الدنيا دار نفاذ لا دار إخلاد، ودار عبور لا دار حبور، ودار فناء لا دار بقاء، ودار انصرام لا دار دوام، وقد تطابق على ما ذكرته دلالات قواطع النقول وصحائح العقول، وهذا مما استوى في العلم به الخواص والعوام، والأغنياء والطغام، وقضى به الحس والعيان حتى لم يقبل الوضوحة إلى زيادة في العرفان:

وليس يصح في الأسماع شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

ولما كانت الدنيا بالحال التي ذكرتها، والعظة التي قدمتها جاء في القرآن العزيز من التحذير من الركون إليها والاغترار بها والاعتماد عليها ما هو أعرف من أن يذكر وأشهر من أن يشهر، وكذلك جاءت الأحاديث النبوية والآثار الحكمية، فلهذا كان الايقاظ من أهلها العباد، وأعقل الناس فيها الزهاد ولقد أحسن القائل في وصفها:." (٢)

"يغضب عليه مولاه ويقول له عبدي حقر ذنبه واستخف بحقي وعزتي وجلالي لأعذبنه عليه بالنار ومن تاب تاب الله عليه وغفر له بالتوبة

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إياكم ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبا) قال الله سبحانه ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت﴾ آل عمران ٣٠ الآية

وأنشدوا

(قد ذهب الحي إلى عرسه ... وعذب الميت في رمسه)

(مرتهن النفس بأعمالها ... لا يأمن الإطلاق من حبسه)

(لنفسه صالح أعمالها ... وما سوى هذا على نفسه) ١٦٥

حكاية عن أحد الصالحين

حكي أن المنصور بن عمار رحمه الله دخل على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك يا منصور مسألة

---

(١) الوافي بالوفيات الصفدي ٢٩١/٢٤

(٢) بستان العارفين للنووي النووي ص/٦

وقد أمهلتك سنة كاملة من أعقل الناس ومن أجهل الناس قال فخرج منصور إلى بعض الفضاء من القصر ليخرج فإذا الجواب قد حضره فرجع إلى عبد الملك فقال له عبد الملك يا منصور ما الذي ردك إلينا قال يا أمير المؤمنين أعقل الناس محسن خائف وأجهل الناس مسيء آمن

فبكي أمير المؤمنين حتى بل ثيابه بدموعه ثم قال أحسنت والله يا منصور ثم قال له إقرأ علي شيئا من كتاب الله فهو الشفاء لما في الصدور وهو الدواء والنور

فقرأ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا﴾ آل عمران ٣٠ الآية

فقال عبد الملك قتلتني يا منصور ثم غشي عليه فلما أفاق قال له يا منصور ما معنى ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ آل عمران ٣٠ قال منصور عقوبته يا أمير المؤمنين فبكى عبد الملك ثم أفاق فبكى مرة أخرى ثم قال يا منصور وما معنى ﴿رؤوف بالعباد﴾ آل عمران ٣٠ قال رحيم غفار لمن تاب وأناب قال وما ومعنى ﴿ما عملت من خير محضرا﴾ آل عمران ٣٠ قال كل صغيرة وكبيرة يجدها العبد يوم القيامة لم يغفر الله منها شيئا

فبكى عبد الملك حتى غشي عليه فلما أفاق قال

١٦٦ – رقة عبد الملك بن مروان

إن والله من فكر في هذه الآية وعصى مولاه بعد ذلك لقد ضل ضلالا بعيدا وأنشدوا." (١)

"لرأيت الأنف في السر ... ج وعيسى مثل ردفه

وقال ابن السلمانى:

أتيه على جن البلاد وإنسها ... ولو لم أجد خلقا لتهت على نفسى

أتيه فلا أدرى من التيه من أنا ... سوى ما يقول الناس في وفى جنسى

فإن زعموا أنى من الإنس مثلهم ... فما لي عيب غير أنى من الإنس

وقال خلف الحمر:

لنا صاحب مولع بالخلاف ... كثير الخطاء قليل الصواب

ألج لجاجا من الخنفساء ... وأزهى إذا ما مشى من غراب

ولأبى العتاهية، ويروى لمنصور الفقيه:

حذتك الكبر لا يعلقك ميسمه ... فإنه ملبس نازعته الله

يا بوس حامل رجس ليس يغسله ... بالماء عنه إذا كلمته تاها

يرى عليك له فضلا ومنزلة ... إن نال في العاجل السلطان والجاها

مثن على نفسه راض بسيرته ... كذبت يا صاحب الدنيا ومولاها

---

(١) بستان الواعظين ورياض السامعين ابن الجوزي ص/٩٦

وقال منصور الفقيه:

قلت للمعجب لما ... قال مثلى لا يراجع

يا قريب العهد بالمخ ... رج لم لا تتواضع

قال على بن محمد: إنما أهلك الناس العجلة والعجب، ولو ثبتوا ولم يعجلوا لم يهلك منهم أحد.

قال ابن أبي ليلى: ما رأيت ذا عجب قط إلا اعتراني بعض دائه. يريد أنه يبعثه على مكافأته بالتكبر عليه.

قال بعض الحكماء: من استطاع أن يمنع نفسه أربعا كان جديرا ألا ينزل به مكروه: العجلة، واللجاجة، والتواني، والعجب.

ولإبراهيم بن العباس الصولى في محمد بن عبد الملك الزيات:

أبا جعفر عرج على خلطائكا ... وأقصر قليلا عن مدى غلوائكا

فإن كنت قد أوتيت بالأمس رفعة ... فإن رجائي في غد كرجائكا

ولمنصور الفقيه:

قد كنت أيام كنت مثلكم ... أرى الهلال الخفي بالعجله

لو مر بي تائه على جمل ... لم أره الآن قلة ولا جمله

باب التواضع والإنصاف

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تواضع عبد لله إلا رفعه الله.

وقال صلى الله عليه وسلم: تواضعوا يرفعكم الله، واعفوا يعزكم الله.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: طوبى لمن تواضع من غير منقصة، وذل نفسه من غير مسكنة، وأنفق مالا جمعه من غير معصية، طوبى لمن طاب كسبه، وصلحت سريرته، وكرمت علانيته.

انتسب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى بلغ عشر آباء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لاحسب إلا في التواضع، ولا نسب إلا بالتقوى، ولا عمل إلا بالنية، ولا عبادة إلا باليقين. وعنه عليه السلام أنه قال: من عظمت نعمة الله عليه فليطلب بالتواضع شكرها، فإنه لا يكون شكورا حتى يكون متواضعا.

قال بعض الحكماء: رأس الحكمة طاعة الله، وتقديم حسن النية، وعراها التواضع في الحق، والإنصاف في المناظرة، والإقرار بما يلزم من الحجة، وثمرتها حفظ الثواب، في العاجلة، والنجاة في العاقبة، وحقها العمل بها، وألا تمنع من من مستحقها، وأن توقر أوعيتها لوقارها.

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: ما من أحد إلا وفي عنقه حكمة موكل بها ملك، يقول الله به: إن تواضع عبدى فارفعه، وإن ارتفع فضعه.

قال بكر بن عبد الله المزنى: ما أرى امرءا إلا رأيت له الفضل على، لأني من نفسى على يقيين، وأنا من الناس على شك.

قال عبد الله بن مسعود: إن من التواضع الرضا بالدون من شرف المجلس، وأن تسلم على من لقيت.

قال عبد الله بن المبارك: التعزز على الأغنياء تواضع.

كان يقال: بالتواضع تتم النعمة، وبالتكبر تحق النقمة.

كان سليمان عليه السلام يجئ إلى أوضع المجالس بنى إسرائيل فيجلس معهم فيقول: مسكين بين ظهرانى مساكين.

كان يقال: ثمرة القناعة الراحة، وثمرة التواضع المحبة.

قال لقمان لابنه: يا بنى تواضع للحق، تكن أعقل الناس قال أبو الدرداء: ليس الذي يقول الحق ويفعله بأفضل من الذي يسمعه فيقبله.

قال بعض الحكماء: إذا نسك الشريف تواضع، وإذا نسك الوضيع تكبر. ولذى الرمة الأسدى:." (١)

"إن الذين تروهم إخوانكم ... يشفش صداع رءوسهم أن تصرعوا

فضلت عداوتهم على أحلامهم ... وأبت ضباب صدورهم ما تنزع

لا تأمنوا قوما يشب صبيبهم ... بين الوابل بالعداوة يرضع

قال لقمان لابنه:يا بني! إياك وصاحب السوء،فإنه كالسيف المسلول،يعجبك منظره،ويقبح أثره.

قال المثقب العبدي:

وصاحب السوء كالداء العياء إذا ... ما ارفض في الجوف يجري هاهنا وهنا

ينبي ويخبر عن عورات صاحبه ... وما رأى عنده من صالح دفنا

كمهر سوء إذا رفعت سيرته ... رام الجماح وان أخفضته حرنا

إن يحي ذاك فكن منه بمعزلة ... أو مات ذاك فلا تقرب له جننا

ولقعنب بن أم صاحب،وهو قعنب بن حمزه،أحد بني عبد الله بن غطفان، يهجو بني ضبة حي من غطفان:

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

فطانة فطنوها لو تكون لهم ... مروءة أو تقى لله ما فطنوا

إن يسمعوا سيئا طاروا به فرحا ... مني،وما سمعوا من صالح دفنوا

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن

فلن يراجع ودى ودهم أبنا ... وكنت من بغضهم مثل الذي زكنوا

روى عن معاذ بن جبل، وقد رفعه بعضهم، قال: إذا أحببت أخا في الله فلا تماره ولا تساره عنه أحدا، فربما صادفت له عدوا فأخبرك بما ليس فيه، فحال بينك وبينه.

قال أبو الأسود الدؤلى:

وصله ما استقام الوصل منه ... ولا تسمع به قيلا وقالا

قال محمود الوراق:

لست ممن يماذق الصاحب ال ... ود إذا أظهر الجفاء الصريحا

أنا أنهاه ما استطعت فإن لج ... أعرت الفؤاد يأسا مريحا

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ابن عبد البر ص/٩٦

غير أني على القطيعة لا أظ ... هر هجرا ولا أقول قبيحا

باب العتاب

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أعقل الناس أعذرهم لهم.

قال الأحنف: العتاب مفتاح التقالى، والعتاب قرين الحقد.

وعن الأصمعي قال: قال أعرابي: عاتب من ترجو رجوعه.

قال بعض الحكماء: العتاب علامة الوفاء، وسلاح الأكفاء، وحاصد الجفاء.

قال العتابي: ظاهر العتاب خير من مكنون الحق، وضربة الناصح خير من محبة الشاني.

قال بعض الحكماء: من كثر حقده قل عتابه.

قال محمد بن داود: من لم يعاتب على الزلة، فليس بحافظ للخله.

قال أسماء بن خارجة الإكثار من العتاب، داعية إلى الملال.

قيل لبعض الأعراب: من الأديب العاقل؟ قال: الفطن المتغافل.

قال بعض الأدباء: من أحب أن يسلم له صديقه، فليقبل عذره، وليقل عتابه، فإن العتاب يجر الملال.

قال غيره: العتاب مفتاح القطيعة.

قال عمرو بن بحر العتاب رائد الإنصاف وشفيع المودة، ويد للمحافظة.

أنشدنا الرياشي،وهي لهشام الرقاشي:؟ أبلغ أبا مسمع عني مغلغلة وفي العتاب حياة بين أقوام

قدمت قبلي رجالا لم يكن لهم ... في الحق أن يلجوا الأبواب قدامي

لو عد قبر كنت أمرمهم ... قبرا وأبعدهم من منزل الذام

وقال عبيد الله بن طاهر:؟ أعاتب من يحلو بقلبي عتابه وأترك من لا أشتهينلا أعاتبه وقال آخر:؟ وليس عتاب المرء للمرء نافعا إذا لم يكن للمرء لب يعاتبه وقال آخر:؟ أعلتب من أحببت في كل زلة ليحتمى الأمر الذي معه العتب

فإني أرى التأديب عند وجوبه ... بمنزلة الغيث الذي قبله الجدب

وقال على بن الجهم:؟ أعاتب ذا المودة من صديق إذا ما رابني منه اجتناب

إذا ذهب العتاب فليس ود ... ويبقى الود ما بقي العتاب

وقال آخر:

لولا محبتكم لما عاتبتكم ... ولكنم عندي كبعض الناس

وقال نصر بن أحمد:؟ وتعاتب الإخوان فيما بينهم بعث على الإجلال والإكرام

لولا اعترافي باعترافك في الذي ... تأتي وتترك ما أتاك ملاميوهذا يشبه قول البحتري:

؟ أبا حسن ماكان عتبيك دونهم لواحدة إلا لأنك تفهم وقال نصر بن أحمد:." (١)

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ابن عبد البر ص/١٥٥

"قال نعيم بن حماد: نا ابن المبارك قال: ما رأيت أحدا ارتفع مثل ما ارتفع مالك، من رجل لم يكن له كثير صلاة، إلا أن تكون له سريرة [١] .

وقال أشهب: رأيت أبا حنيفة بين يدي مالك كالصبي بين يدي أبيه.

وقال أبو مصعب: سمعت مالكا يقول: سألني أبو جعفر عن أشياء ثم قال: أنت والله أعقل الناس، وأنت أعلم الناس.

قلت: لا والله يا أمير المؤمنين.

قال: بلى، ولكنك تكتم. والله لو بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف، ولأبعثن به إلى الآفاق، فأحملهم عليه.

حفص بن عبد الله: سمعت إبراهيم بن طهمان يقول: أتيت المدينة فكتبت بها ثم قدمت الكوفة فأتيت أبا حنيفة، فسلمت عليه، فقال لي: عمن كتبت؟ أكتبت عن مالك شيئا؟ قلت: نعم. قال: جئني بما كتبت عنه.

فأتيته به فدعا بقرطاس ودواة، فجعلت أمل عليه وهو يكتب. وقال نصر بن علي، نا حسين بن عروة قال: قدم المهدي فبعث إلى مالك بألفي دينار، أو قال بثلاثة آلاف دينار.

قال قتيبة: كنا إذا دخلنا على مالك خرج إلينا مكحلا مزينا مطيبا قد لبس من أحسن ثيابه، ثم تصدر فدعا بالمراوح، فأعطى لكل إنسان منا مروحة.

ابن سعد [٢] : نا محمد بن عمر قال: كان مالك يشهد الصلوات والجمعة والجنائز، ويعود المرضى ويقضي الحقوق، ويجلس في المسجد. ثم ترك الجلوس في المسجد، فكان يصلي ويرجع إلى منزله. وترك شهود الجنائز فكان يأتي أصحابها فيعزيهم، ثم ترك ذلك كله حتى ترك الجمعة. واحتمل الناس ذلك كله وكانوا أرغب ما كانوا فيه وأشده له تعظيما، حتى مات على ذلك. وكان ربما كلهم في ذلك فيقول: ليس كل واحد يقدر أن يتكلم بعذره [٣] .

---

[١] حلية الأولياء ٦/ ٣٣٠.

[٢] قول ابن سعد ليس في المطبوع من (الطبقات الكبرى) ، وهو في «الديباج المذهب» .

[٣] وفيات الأعيان ٤/ ١٣٦.." (١)

"وعنه: أحمد بن عبدة، وأحمد بن المقدام، وخليفة بن خياط، وحفص الربالي، وبندار، وعمرو الفلاس، وطائفة.

قال ابن معين: ما به بأس [١] .

وقال ابن سعد [٢] : ثقة. كان يدلس تدليسا شديدا، يقول: سمعت، وثنا، ثم يسكت ساعة، ثم يقول: هشام بن عروة، والأعمش.

قلت: قد أهمل تدليسه الناس واحتجوا به في الكتب الستة، مع أن أبا حاتم قال [٣] : لا يحتج به [٤] .

توفي في جمادى الأولى سنة تسعين ومائة.

٢٧٧- عمرو بن جميع، أبو المنذر [٥] .

---

(١) تاريخ الإسلام ت تدمري الذهبي، شمس الدين ١١/٣٢٤

قاضي حلوان.

عن: ليث بن أبي سليم، والأعمش، وجويبر، وابن جريج.

وعنه: الحكم بن سليمان، وشريح بن يونس، والربيع بن ثعلب، وأبو إبراهيم الترجماني، وآخرون.

---

[١] قال في التاريخ ٢/ ٤٣٣، قد رأيته ولم أكتب عنه شيئا، وكان يدلس.

[٢] في الطبقات الكبرى ٧/ ٢٩٢.

[٣] في الجرح والتعديل ٦/ ١٢٤.

[٤] وأثنى عليه أحمد وقال: كان يدلس. وقال مرة أخرى: رجل صالح عفيف، مسلم رجل عاقل، وكان به من العقل أمر عجب.. وكان من أعقل الناس. وذكره العقيلي في الضعفاء الكبير، ووثقه العجلي، وابن حبان، وابن شاهين، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به.

[٥] انظر عن (عمرو بن جميع) في:

التاريخ لابن معين ٢/ ٤٥٢ (عمرو بن مجمع) ، والتاريخ الكبير ٦/ ٣٧٣، ٣٧٤ رقم ٦٧٩، (عمرو بن مجمع) ، والضعفاء والمتروكين للنسائي ٢٩٩ رقم ٢٢٦، والضعفاء الكبير للعقيلي ٣/ ٢٦٤ رقم ١٢٧٠، والبرصان والعرجان للجاحظ ١٣٩، والكنى والأسماء لمسلم، الورقة ١٠٣ (عمرو بن مجمع) ، والكنى والأسماء للدولابي ٢/ ١٣١، والجرح والتعديل ٦/ ٢٢٤ رقم ١٢٤٥، والضعفاء والمتروكين ١٣٠ رقم ٣٨٧، والمجروحين لابن حبان ٢/ ٧٧، ٧٨، والثقات له ٧/ ٣٣٠، (عمرو بن مجمع) ، وتاريخ بغداد ١٢/ ١٩١، ١٩٢ رقم ٦٦٥٤، والكامل في الضعفاء ٥/ ١٧٦٤، ١٧٦٥، وميزان الاعتدال ٣/ ٢٥١ رقم ٦٣٤٥، والمغني في الضعفاء ٢/ ٤٨٢ رقم ٤٦٣٩، والكشف الحثيث ٣٢٢ رقم ٥٦٣، ولسان الميزان ٤/ ٣٥٨، ٣٥٩ رقم ١٠٥٠.." (١)

"الكنى

١٢٤- أبو طالب بن عمار [١] .

قاضي طرابلس.

كان قد استولى على طرابلس، واستبد بالأمور إلى أن مات في رجب من السنة، فقام مكانه ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن بن عمار، فضبطها أحسن ضبط [٢] ، وظهرت شهامته [٣] .

---

[١] انظر عن (أبي طالب بن عمار) في: كتاب التفضيل للكراجكي ٨ وفيه اسمه: «عبد الله بن محمد بن عمار المعروف بالقاضي الجليل أبي طالب» ، والفقيه والمتفقه للخطيب ٣٩ و ٢٣٦ وفيه: «أبو علي الحسن بن أحمد بن عمار» ، والكامل في التاريخ ١٠/ ٧١، والإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري (مخطوطة دار الكتب

---

(١) تاريخ الإسلام ت تدمري الذهبي، شمس الدين ١٢/٣١٦

المصرية- الخزانة التيمورية) ورقة ٥٠، وفيه: «أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمار» ، والأعلاق الخطيرة لابن شداد (قسم سورية ولبنان والأردن وفلسطين) ص ١٠٧، وفيه: «أبو الحسن بن علي بن محمد بن عمار» ، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (مخطوط) ج ١٢ ق ٢/ ١٣٨ (حوادث سنة ٤٦٤ هـ-) ، وفيه: «عبد الله بن محمد بن عثمان بن الحسين بن قيدس أبو طالب القاضي أمين الدولة» ، وديوان ابن الخياط الدمشقي ٢٢ وفيه: «أبو الحسن علي بن محمد بن عمار» ، وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ٩٥، وزبدة الحلب ٢/ ٣٥، وديوان ابن حيوس ١/ ١٣٢، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ١٨٨، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٣٧٥، وتاريخ سلاطين المماليك لمؤرخ مجهول، نشره زترستين ٢٤٦، وتاريخ ابن الفرات ٨/ ٧٧، واتعاظ الحنفا ٢/ ٤٧، ٢٦٦، ٣٠٧، وفيه: «عبد الله بن محمد بن عمار بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن إدريس بن أبي يوسف الطائي» ، وفي موضع آخر منه: «أبو طالب عبد الله بن عمار بن الحسين» ، والإنافة في معالم الخلافة ١/ ٣٤٥، والنجوم الزاهرة ٥/ ٨٩، والذريعة إلى تصانيف الشيعة ٣/ ١٠٥، وطبقات أعلام الشيعة (النابس في القرن الخامس) ١٠٩، ١٣٢ وخطط الشام لمحمد كردعلي ٦/ ١٩١، ودائرة المعارف الإسلامية (مادة بني عمار) ٣٥٣، ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور ١/ ١٦٠، وطرابلس الشام في التاريخ الإسلامي للدكتور سيد عبد العزيز سالم ٦٩، ولبنان من الفتح العربي لمحمد علي مكي (الطبعة الأولى) ص ١٠٠، وكتابنا: الحياة الثقافية في طرابلس الشام خلال العصور الوسطى ٢٦٦- ٢٦٨، وكتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور (الطبعة الثانية) ج ١/ ٣٣٧- ٣٥٢ وفيه مصادر أخرى، ودراستنا في مجلة تاريخ العرب والعالم، بيروت العدد ٣٠، نيسان ١٩٨١ بعنوان أسرة بني عمار في طرابلس ص ٣- ١٠، والعدد ٣١ أيار ١٩٨١ ص ٣- ١٠، وكتابنا:

دار العلم بطرابلس في القرن الخامس الهجري ٢٣- ٢٦.

[٢] الكامل في التاريخ ١٠/ ٧١.

[٣] قال ابن شداد في أبي طالب ابن عمار: «وكان ابن عمار هذا من أعقل الناس، وأسدهم رأيا، فقيها على مذهب الشيعة. وكانت له دار علم بأطرابلس، فيها ما يزيد على مائة ألف كتاب." (١)

"سليمان، فامتنع وقال معاذ الله.

قال نعيم بن حماد: نا ابن المبارك قال: ما رأيت أحدا ارتفع مثل ما ارتفع مالك، من رجل لم يكن له كثير صلاة، إلا أن تكون له سريرة.

وقال أشهب: رأيت أبا حنيفة بين يدي مالك كالصبي بين يدي أبيه.

وقال أبو مصعب: سمعت مالكا يقول: سألني أبو جعفر عن أشياء ثم قال: أنت والله أعقل الناس، وأنت أعلم الناس.

قلت: لا والله يا أمير المؤمنين.

قال: بلى، ولكنك تكتم. والله لو بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف، ولأبعثن به إلى الآفاق، فأحملهم عليه.

حفص بن عبد الله: سمعت إبراهيم بن طهمان يقول: أتيت المدينة فكتبت بها ثم قدمت الكوفة فأتيت أبا حنيفة، فسلمت

---

(١) تاريخ الإسلام ت تدمري الذهبي، شمس الدين ١٥٨/٣١

عليه، فقال لي: عمن كتبت؟ أكتبت عن مالك شيئا؟ قلت: نعم. قال جئني بما كتبت عنه.

فأتيته به فدعا بقرطاس ودواة، فجعلت أمل عليه وهو يكتب. وقال نصر بن علي، نا حسين بن عروة قال: قدم المهدي فبعث إلى مالك بألفي دينار، أو قال: بثلاثة آلاف دينار.

قال قتيبة: كنا إذا دخلنا على مالك خرج إلينا مكحلا مزينا مطيبا قد لبس من أحسن ثيابه، ثم تصدر فدعا بالمراوح، فأعطى لكل إنسان منا مروحة.

ابن سعد: نا محمد بن عمر قال: كان مالك يشهد الصلوات والجمعة والجنائز، ويعود المرضى ويقضي الحقوق، ويجلس في المسجد، ثم ترك الجلوس في المسجد، فكان يصلي ويرجع إلى منزله، وترك شهود الجنائز فكان يأتي أصحابها فيعزيهم، ثم ترك ذلك كله حتى ترك الجمعة.

واحتمل الناس ذلك كله وكانوا أرغب ما كانوا فيه وأشده له تعظيما، حتى مات على ذلك.

وكان ربما كلم في ذلك فيقول: ليس كل واحد يقدر أن يتكلم بعذره.." (١)

"أنبأنا الحسن بن محمد الشافعي عن أحمد بن محمد الأصبهاني قال: أنبأنا أبو علي أحمد بن محمد البرداني قراءة عليه قال: أنبأنا أبو طالب محمد بن علي بن الفتح، حدثنا أبو الحسن علي بن إبراهيم الحربي المعروف بابن الحرار في الحربية إملاء من حفظه ولم يكن عنده غير هذا الحديث، قال: حدثنا أبو بكر الشافعي، حدثنا إسحاق الحربي، حدثنا أبو نعيم عن مطر عن أبي الطفيل قال: خطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه برحبة مالك بن طوق فقال: معاشر الناس! أشهد الله كل امرئ سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعل بي في غدير خم إلا قام فشهد، فقال: فقام اثنا عشر من أهل بدر من نقباء الأنصار، فقالوا: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: «ألست أولى بكم من أنفسكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» [١] .

٥٢١- علي بن إبراهيم بن محمد أبو القاسم الكاتب:

من ساكني درب القيار، وهو والد شيخنا أبي الحسن الذي تقدم ذكره، سمع أبا البقاء أحمد بن محمد بن أحمد المؤدب وحدث باليسير، سمع منه ولده أبو الحسن محمد وكان من جلة الكتاب المختصين بخدمة الديوان.

أنبأنا أبو الحسن محمد بن علي بن إبراهيم الكاتب قال: أنبأنا والدي بقراءتي عليه أنبأنا أبو البقاء أحمد بن محمد المؤدب، أنبأنا أبو بكر محمد بن علي الخياط، أنبأنا أبو عبد الله أحمد بن محمد العلاف، حدثني جعفر بن محمد الخلدي قال: قال إبراهيم الخواص قال سفيان الثوري: أعقل الناس رجل أذنب ذنبا فنصب ذلك الذنب بين عينيه وبكى عليه حتى أورده الجنة، وأحمق الناس رجل أعجب بعمله فنصبه بين عينيه حتى أورده النار.

سمعت إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم الكاتب يتول: ولد عمي أبو القاسم علي بن إبراهيم في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وتوفي في النصف من شعبان سنة سبع وأربعين وخمسمائة ودفن بباب أبرز.

٥٢٢- علي بن إبراهيم بن نجا بن غنائم الأنصاري، أبو الحسن الواعظ

---

(١) تاريخ الإسلام ط التوفيقية الذهبي، شمس الدين ١٧٩/١١

[١] انظر الحديث في: سنن ابن ماجة ١١٦. ومسند أحمد ١/١١٩، ٤/٣٧٢، ٥/٣٤٧. والمعجم الكبير ٥/٢٢٠. ومجمع الزوائد ٩/١٠٥، ١٠٧. الحنبلي:." (١)

"٧٧٥- علي بن الحسن بن يعقوب، أبو الحسن النهرواني المتعبد:

ذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر أنه سكن دمشق، وحدث عن أبي إسحاق إبراهيم بن حاتم بن مهدي البلوطي، روى عنه علي بن محمد الحنائي.

٧٧٦- علي بن الحسن، أبو الحسن [١] الكاتب، المعروف بابن الماشطة [٢] :

كان من مشايخ الكتاب وأعيانهم، وله صناعة في الخراج وتقدم في الحساب، وصنف في ذاك كتبا، وكان يتصرف في أعمال السلطان، ذكره أبو عبد الله المرزباني وقال: رأيته شيخا كبيرا بعد العشر وثلاثمائة وجاوز التسعين وله شعر، وقد حكى عن الفضل بن مروان وزير المستنصر بن المتوكل، روى عنه علي بن هشام الكاتب.

٧٧٧- علي بن الحسن الطيالسي علان:

ذكره القاضي أبو الوليد يوسف بن محمد بن الفرضي في كتاب «الألقاب» من جمعه، وذكر أنه بغدادي، يروي عن عباس بن حمد الدوري وصالح بن أحمد بن حنبل، روى عنه محمد بن عبد الملك بن [أيمن] [٣] والقاسم بن أصبغ.

ثم قال: أنبأنا أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم، حدثنا محمد بن عبد الملك، حدثنا علي بن الحسن الطيالسي علان ببغداد، حدثنا صالح بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي قال: سمعت محمد بن إدريس الشافعي يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: سمعت ابن عجلان يقول: إذا أعقل الناس العالم «لا أدري» أصيب مقاله.

٧٧٨- علي بن الحسن بن الزجاج، أبو الحسن الزاهد:

من ساكني باب الطاق، ذكر طلحة الشاهد أنه مات في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة في جمادى الآخرة لعشر بقين منها.

٧٧٩- علي بن الحسن الثقفي:

حدث بأصبهان عن أبي جعفر محمد بن الحسن بن بدينا الموصلي، روى عنه أبو

[١] في المراجع السابق: «أبو الحسين» .

[٢] انظر هدية العارفين ١/٦٨٠.

[٣] في الأصل بياض مكان «أيمن» .." (٢)

"نكره الموت قال لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب قال صدقت يا أبا حازم فكيف القدوم قال أما (١) المحسن كالغائب يقدم على أهله وأما المسئ كالأبق يقدم على مولاه قال فبكى

(١) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية الخطيب البغدادي ١٠/١٨

(٢) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية الخطيب البغدادي ٢١١/١٨

سليمان وقال ليت شعري ما لنا عند الله يا أبا حازم قال أبو حازم أعرض نفسك على كتاب الله فإنك تعلم ما لك عند الله قال سليمان يا أبا حازم وأين أصيب (٢) تلك المعرفة من كتاب الله قال عند قوله " إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم " قال سليمان يا أبا حازم فأين رحمة الله قال أبو حازم " قريب من المحسنين " قال يا أبا حازم من أعقل الناس قال من تعلم الحكمة ويعلمها الناس قال فمن أحمق الناس قال أبو حازم من حط في هوى الرحل فباع آخرته بدنيا غيره قال سليمان يا أبا حازم فما أسمع الدعاء قال أبو حازم دعاء المخبتين قال فما أزكى الصدقة قال جهد المقل قال يا أبا حازم فما تقول فيما نحن فيه قال أبو حازم اعفني عن هذا قال نصيحة تلقيها قال أبو حازم إن ناسا أخذوا هذا السلطان عنوة بغير مشاورة من المؤمنين ولا اجتماع من رأيهم فسفكوا فيها الدماء على طلب الدنيا وارتحلوا عنها فليت شعري ما قالوا وما قيل لهم قال بعض جلسائه بئس ما قلت يا شيخ قال أبو حازم كذبت إن الله أخذ على العلماء " لتبيننه للناس ولا تكتمونه " (٣) قال سليمان يا أبا حازم كيف لنا أن نصلح قال تدعون التكلف وتمسكون المرؤة قال سليمان كيف المأخذ من ذلك قال تأخذوه (٤) من حقه وتعطيه في أهله قال سليمان أصحبنا يا أبا حازم تصب (٥) منا ونصيب منك قال أبو حازم أعوذ بالله من ذلك قال ولم قال أخاف أن أركن إليكم شيئا قليلا فيذيقني ضعف الحياة وضعف الممات قال سليمان فأشر علي قال أبو حازم اتق الله أن يراك حيث نهاك وأن يفقدك حيث أمرك قال يا أبا حازم ادع الله لي بخير قال اللهم إن كان سليمان وليك فيسره للخير وإن كان عدوك فخذ إلى الخير بناصيته قال سليمان قط قال أبو حازم قد

---

(١) بالاصل: " انا " والصواب ما اثبت عن م وبالقياس الى الروايات السابقة

(٢) بالاصل وم: " واني اصبت " ولعل الصواب ما اثبت باعتبار السياق

(٣) سورة آل عمران الاية: ١٧٨

(٤) كذا بالاصل وم

(٥) كذا بالاصل وم." (١)

"عند ابن عيينة فبلغه نعي مالك فحزن وقال: ما ترك على ظهر الأرض مثله. قال عبد الرحمن بن واقد: قد رأيت باب مالك بالمدينة كأنه باب الأمير. وقال ابن معين مالك أحب إلي في نافع من أيوب وعبيد الله. وقال وهيب: إمام أهل الحديث مالك. قال أحمد بن الخليل سمعت إسحاق بن إبراهيم يقول: إذا اجتمع الثوري ومالك والأوزاعي على أمر فهو سنة وان لم يكن فيه نص.

قال أحمد بن حنبل أنا سريج بن النعمان عن عبد الله بن نافع قال قال مالك رحمه الله: الله في السماء وعلمه في كل مكان. وصح أيضا عن مالك أنه قال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. وروى سعيد بن أبي مريم عن أشهب بن عبد العزيز قال: رأيت أبا حنيفة بين يدي مالك كالصبي بين يدي أبيه١ قلت: فهذا يدل على حسن أدب أبي حنيفة وتواضعه مع كونه أسن من مالك بثلاث عشرة سنة.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ابن عساكر، أبو القاسم ٣٩/٢٢

إسماعيل القاضي حدثنا أبو مصعب سمعت مالك يقول: دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين وهو على فراشه وإذا صبي يخرج ثم يرجع فقال لي: أتدري من هذا؟ فقلت: لا، قال: ابني وإنما يفزع من هيبتك، قال: ثم سألني عن أشياء منها حلال ومنها حرام، ثم قال لي: أنت والله أعقل الناس وأعلم الناس؛ قلت: لا والله يا أمير المؤمنين. قال: بلى ولكنك تكتم، لئن بقيت لأكتبن قولك كما يكتب المصاحف ولأبعثن به إلى الآفاق فأحملهم عليه.

ابن وهب قال مالك: سمعت ابن شهاب أحاديث كثيرة ما حدثت بها قط ولا أحدث بها. نصر بن علي الجهضمي حدثني حسين بن عروة قال: قدم المهدي فبعث إلى مالك بألفي دينار أو قال: بثلاثة آلاف دينار ثم أتاه الربيع فقال: إن أمير المؤمنين يحب أن تعاد له إلى مدينة السلام فقال مالك: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون" والمال عندي على حاله.

إسماعيل بن داود المخراقي سمعت مالكا يقول: سمعت ربيعة يقول: ورب هذا المقام ما رأيت عراقيا تام العقل. وسمعت مالكا يقول: كان عطاء بن أبي رباح أسود ضعيف العقل٢. قال الحاكم: نا علي بن عيسى الحيري أنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم العبدي أنا قتيبة سمعت معن بن عيسى يقول: قدم هارون أمير المؤمنين المدينة ليحج ومعه

---

١ هذه المكانة خطأ كما يظهر لأن أبا حنيفة توفي وأشهب صبي له نحو خمس سنين فإن صح السند فعل الصواب "رأيت محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة".

٢ هذه الحكاية منكرة وإسماعيل بن داود حاكيها ليس بثقة.." (١)

"فقال: والله لقد رأيت العلماء عندنا بالمشرق، فوالله ما رأيت مثل هؤلاء. قال ابن عجلان الأندلسي: ما بورك لأحد بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما بورك لسحنون في أصحابه، إنهم في كل بلد ائمة قال ابن حارث سمعتهم يقولون كان سحنون من أيمن العلماء؟ دخل المغرب، كأن أصحابه مصابيح، في كل بلدة، عد له نحو سبعمائة رجل، ظهروا بصحبته وانتفعوا بمجالسه، وسمعتهم يقولون: كان سحنون أعقل الناس صاحبا وأفضل الناس في باب الدين صاحبا، وأفقه الناس صاحبا. وقام سحنون بقصر زياد مرابطا، خمسة عشر يوما من رمضان. وحكى ابن اللباد، إن سحنون قال لأبنه محمد: يا بني، سلم على الناس، فإن ذلك يزرع المودة. وسلم على عدوك وداره، فإن رأس الإيمان بالله المداراة بالناس. وحكى المالكي أنه نقب بيت سحنون وهو قائم في تهجده، وأخذ ما كان في البيت، وهو لا يشعر، ثم أخذت القلنسوة من رأسه، فلم يلتفت لشغله بما كان فيه، وجيء إليه للصلاة على مقتول، فقال لم تحضرني نية. فأتى آخرون فقالوا له: فلان أصلحك الله، قتل وطرح في بئر، وقد أخرجناه، فصل عليه. فقال: ومن قتله؟ قالوا: هذا المقتول الذي سئلت قبل الصلاة عليه. فصلى سحنون على هذا. وكانت منه فراسة. قال سليمان بن سالم: أتى رجل من صطفورة فسأل سحنون عن مسألة، وتردد عليه. فقال له: أصلحك الله مسألتي في ثلاثة أيام.." (٢)

---

(١) تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي الذهبي، شمس الدين ١/١٥٥

(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك القاضي عياض ٤/٧٤

"وقيل للشافعي: ما لك تدمن إمساك العصى ولست بضعيف؟ فقال: لأذكر أنى مسافر، يعنى فى الدنيا. وقال: من شهد الضعف من نفسه نال الاستقامة. وقال: من غلبته شدة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها، ومن رضى بالقنوع زال عنه الخضوع. وقال: خير الدنيا والآخرة فى خمس خصال: غنى النفس، وكف الأذى، وكسب الحلال، ولبس التقوى، والثقة بالله عز وجل على كل حال.

وقال للربيع: عليك بالزهد. وقال: أنفع الذخائر التقوى وأضرها العدوان. وقال: من أحب أن يفتح الله قلبه أو ينوره فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه، واجتناب المعاصى، ويكون له خبئة فيما بينه وبين الله تعالى من عمل. وفى رواية: فعليه بالخلوة، وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء، وبعض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب.

وقال: يا ربيع، لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها. وقال ليونس بن عبد الأعلى: لو اجتهدت كل الجهد على أن ترضى الناس كلهم فلا سبيل، فاخلص عملك ونيتك لله عز وجل. وقال: لا يعرف الرياء إلا المخلصون. وقال: لو أوصى رجل بشيء لأعقل الناس صرف إلى الزهاد. وقال: سياسة الناس أشد من سياسة الدواب. وقال: العاقل من عقله عقله عن كل مذموم.

وقال: لو علمت أن شرب الماء البارد ينقص مروءتى لما شربته، ولو كنت اليوم ممن يقول الشعر لرثيت المروءة. وقال: للمروءة أربعة أركان: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنسك. وقال: المروءة عفة الجوارح عما لا يعنيها. وقال: أصحاب المروءات فى جهد. وقال: من أحب أن يقضى الله له بالخير فليحسن الظن بالناس.

وقال: لا يكمل الرجل فى الدنيا إلا بأربع: بالديانة، والأمانة، والصيانة، والرزانة. وقال: أقمت أربعين سنة أسأل إخوانى الذين تزوجوا عن أحوالهم فى تزوجهم، فما منهم أحد قال إنه رأى خيرا. وقال: ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته. وقال: من صدق فى إخوة أخيه قبل علله، وسد خلله، وغفر زلله. وقال: من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقا. وقال: ليس سرور يعدل صحبة الإخوان، ولا غم يعدل فراقهم. وقال: لا تقصر فى حق أخيك اعتمادا على." (١)

"ولا يجب أن يكون كلما طال كلامه انحل نظامه؛ بل يأتي في آخر ما أحكمه بما ينسي ما تقدمه، وإلا كان كما ذكر الجاحظ: أن الرشيد أحب أن ينظر إلى شعيب القلال كيف يعمل؟ فأدخل القصر، وأتي بكل ما يحتاج إليه من آلة العمل؛ فبينما هو يعمل إذ بصر بالرشيد فنهض قائما. فقال له: دونك وما دعيت له؛ فإني لم آتك لتقوم إلي؛ بل لتعمل بين يدي. فقال: وأنا أصلحك الله لم آتك ليسوء أدبي؛ وإنما أتيتك لأزداد أدبا؛ فأعجب الرشيد به، وقال له: بلغني أنك إنما تعرضت لي حين كسدت صناعتك؟ فقال: يا سيدي، وما كساد عملي في خلال وجهك! فضحك الرشيد حتى غطى وجهه. وقال: ما رأيت أنطق منه ولا أعيا منه! ينبغي أن يكون أعقل الناس وأجهل الناس. وكذلك كان.

سر النادرة دون مطمطة ومجمجة

ويجب إذا حكى النادرة الظريفة، والحكمة اللطيفة، ألا يعربها فتثقل، ولا يمجمجها فتجهل، ولا يمطمطها فتبرد، ولا يقطعها فتجمد. ولو أن قائلا حكى قول مزيد المدني، وقد أكل طعاما فأثقله. فقيل له: تقيأه يذهب ما بك. فقال: خبز نقي،

(١) تهذيب الأسماء واللغات النووي ١/٥٥

ولحم جدي، والله لو وجدته قيا لأكلته. فلو أعطاه حقه من الإعراب فقال: خبز نقي، ولحم جدي، والله لو وجدته قيئا لأكلته، لخرج عن حده، وأفلج من برده.

وكذلك لو ذهب بما يحتاج إلى الإعراب من كلام الفصحاء والأعراب إلى اللحن لاستغث واسترث. كما ذكروا أن الحجاج بعث إلى ولي البصرة أن اختر لي من عندك عشر فصحاء، فاختار رجالا فيهم كثير بن أبي كثير وكان عربيا فصيحا قال كثير: فقلت: بم أفلت من الحجاج؟ ثم قلت في نفسي: باللحن؛ فلما دخلت عليه دعاني فقال: ما اسمك؟ قلت: كثير. قال: ابن من؟ فقلت: إن قلت: ابن أبو كثير خفت أن يتجاوزها. فقلت: ابن أبا كثير. فقال: اذهب فعليك لعنة الله وعلى من بعث بك، جروا في عنقه! فأخرجت.

وقال رجل للحسن البصري رحمه الله: ما تقول في رجل مات وترك أبيه وأخيه؟ فقال: أغيلمة إن فهمناهم لم يفهموا، وإن علمناهم لم يعلموا، قل: ترك أباه وأخاه، فقال له: فما لأباه وأخاه؟ فقال الحسن: قل لأبيه ولأخيه، قال: أرى كلما تابعتك خالفتني.

ولكل صناعة آلة، ولكل بضاعة حالة. وذم رجل رجلا فقال: أقداحه محاجم ودعواته ملاوم، وكئوسه محابر، ونوادره بوارد.

وقال الزبير: رؤي الغاضري ينازع أشعب الطمع عند بعض الولاة فقال: أيها الأمير، إنه يريد أن يدخل علي في صناعتي، ويشاركني في بضاعتي، وهيئته هيأة قاض، والأمير يضحك.

وقال عمرو بن عثمان:

واشتياقي إلى أبي الخطاب ... وأحاديثه الرقاق العذاب

وإشارته التي استعارت ... حركات المهجور عند العتاب

ويجب على اللبيب المطرب ألا يطيل فيمل، ولا يقصر فيخل، فللكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، قال أحمد بن الطيب السرخسي تلميذ أحمد بن إسحاق الكندي: كنت يوما عند العباس بن خالد، وكان ممن حبب إليه أن يتحدث، فأقبل يحدثني، وينتقل من حديث إلى حديث، وكان في صحن منزله، فلما بلغتنا الشمس انتقلنا من موضع إلى موضع آخر حتى صار الظل فيئا. فلما أكثر وأضجر، ومللت حسن الأدب في حسن الاستماع، وذكرت قول الأوزاعي: إن حسن الاستماع قوة للمحدث، فقلت له: إذا كنت وأنا أسمع قد عييت مما لا كلفة علي فيه؛ فكيف بك وأنت المتكلم؟ فقال: إن الكلام يحلل الفضول الغليظة التي تعرض في اللهوات وأصل اللسان، ومنابت الأسنان؛ فوثبت وقلت: ما أراني معك في إلا أيارج الفيقرا إذ أنت تتغرغر بي منذ اليوم، والله لا أجلس، واجتهد بي فلم أفعل.

وقال أحمد بن الطيب: كنا مرة عند بعض إخواننا، فتكلم فأعجبه من نفسه الكلام، ومنا حسن الاستماع، حتى أفرط؛ فعرض لبعض من حضر ملل؛ فقال: إذا بارك الله في شيء لم يفن، وقد جعل الله في حديث أخينا هذه البركة.

وقال عبد الله بن سالم في رجل كثير الكلام:

لي صاحب في حديثه بركه ... يزيد هذا السكون والحركه

لو قال لا في قليل أحرفها ... لردها بالحروف مشتبكه

والتحفظ في هذا الباب من أكبر الأسباب؛ لأن المنادر والمهاتر والمسامر قد تمر له النادرة المضحكة، والطيبة المحركة؛ فيستغرب

المجلس، وتطرب الأنفس؛ فيدعوه ما استحسن منه، واستندر عنه، أن يعود إلى مثلها فينقص من حيث ظن أنه زاد، ويفسد عليه ما أراد.." (١)

"٣٤٣- تتمة في الحكم ١:

من كلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

"إن الله قرن وعده بوعيده ليكون العبد راغبا راهبا. ليست مع العزاء مصيبة، الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله. ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي، والنكث، والمكر، ذل قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة، لا يكونن قولك لغوا في عفو ولا عقوبة. إذا فاتك خير فأدركه، وإن أدركك شر فاسبقه. إن عليك من الله عيونا تراك. احرص على الموت توهب لك الحياة –قاله لخالد بن الوليد حين بعثه إلى أهل الردة– رحم الله امرأ أعان أخاه بنفسه. أطوع الناس لله أشدهم بغضا لمعصيته، إن الله يرى من باطنك ما يرى من ظاهرك، إن أولى الناس بالله أشدهم توليا له. لا تجعل سرك مع علانيتك، فيمرج٢ أمرك، خير الخصلتين لك أبغضهما إليك. صنائع المعروف تقي مصارع السوء".

ومن كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

"من كتم سره كان الخيار في يده. أشقى الولاة من شقيت به رعيته. اتقوا من تبغضه قلوبكم. أعقل الناس أعذرهم للناس. لا تؤجل عمل يومك لغدك. من لم يعرف الشر كان جديرا أن يقع فيه. ما الخمر صرفا بأذهب للعقول من الطمع. قلما أدبر شيء فأقبل. مر ذوي القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا، غمض عن الدنيا عينك وول عنها قلبك. وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك، فقد رأيت مصارعها،

---

١ في كتب الحديث الشريف مأثور أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وجوامع كلمه، وفي نهج البلاغة، وشرح ابن أبي الحديد عليه وغيرهما كثير من حكم الإمام علي كرم الله وجهه فاقرأها هنالك.

٢ يفسد ويختلط.." (٢)

"القناعة والزهادة:

التحلي بالقناعة والزهادة، وحقيقة الزهد (١) : "الزهد بالحرام، والابتعاد عن حماه، بالكف عن المشتهات وعن التطلع إلى ما في أيدي الناس".

ويؤثر عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى (٢) :

"لو أوصى إنسان لأعقل الناس، صرف إلى الزهاد".

وعن محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله تعالى لما قيل له: ألا تصنف كتابا في الزهد؟ قال:

"قد صنفت كتابا في البيوع" (٣) .

---

(١) جمع الجواهر في الملح والنوادر الحُصري القيرواني ص/٤

(٢) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة أحمد زكي صفوت ١/٤٤٦

يعني: "الزاهد من يتحرز عن الشبهات، والمكروهات، في التجارات، وكذلك في سائر المعاملات والحرف" اهـ.
وعليه، فليكن معتدلا في معاشه بما لا يشينه، بحيث يصون نفسه ومن يعول، ولا يرد مواطن الذلة والهون.
وقد كان شيخنا محمد الأمين الشنقيطي المتوفى في ١٣٩٣/١٢/١٧هـ رحمه الله تعالى متقللا من الدنيا، وقد شاهدته لا يعرف فئات العملة الورقية، وقد شافهني بقوله:
"لقد جئت من البلاد – شنقيط – ومعي كنز قل أن يوجد عند أحد، وهو (القناعة) ، ولو أردت المناصب، لعرفت الطريق إليها، ولكني لا أوثر الدنيا على الآخرة، ولا أبذل العلم لنيل المآرب الدنيوية".

(١– ٣) "تعليم المتعلم" للزرنوجي (ص٢٨) .." (١)

"فهذا قول جماهير أهل الإيمان بالرسل، وسلف الأمة وأئمتها، فإنهم متفقون على أن الله يرى في الآخرة عيانا، كما يرى الشمس والقمر، وأنه لا يلزم من تعذر رؤية الشيء في حال تعذر رؤيته في حال أخرى، بل قد يرى الشيء في حال دون حال، كما أن الأنبياء يرون مالا يراه غيرهم من الملائكة وغيرها، بل والجن يراهم كثير من الناس.
وإن ادعى أن من الموجودات القائمة بأنفسها مالا يمكن أن يعرف بالإحساس في حال من الأحوال، فهذا قول باطل، ولا دليل له لعيه، وهذا قول الجهمية الذين ينكرون رؤية الله تعالى.
وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على بطلان قولهم، وفساد قولهم يعلم بالعقل الصريح، كما يعلم بالنقل الصحيح، وهؤلاء في نفس الأمر من أجهل الناس وأضلهم، وإن كانوا عند أنفسهم من أعقل الناس وأعرفهم، فهم كما قال تعالى: ﴿الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ غافر ٥٦.
وكما قال تعالى ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ البقرة ١٣.
وقوله: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ غافر ٨٣.." (٢)
"توفر الهمم والدواعي أن ينقل.
إلا ترى أنه لما تكلم به واحد، وهو الجعد بن درهم، نقل الناس ذلك؟ ثم الجهم بعده كذلك، ولم نقل إن هذا لم يكن في نفس أحد، فإن هذا لا يمكن نفيه، ولم ينقل أن أحدا من هؤلاء لم يناج به بعض الناس، فإن هذا لا يمكن نفيه، بل قلنا: إنه لم يظهر، وعدم ظهوره مع الكثرة والقوة الموجبة لتوفر الهمم والدواعي على استخراجه واستنباطه: إن كان حقا يوجب أنه ليس حقا، فإن معرفة الله وما يستحقه من الصفات نفيا وإثباتا أعظم المطالب.
ونحن نعلم بالاضطرار أن سلف الأمة كانوا أعظم الناس رغبة في هذا ومحبة له، فإذا كان الحق هو قول النفاة، وعلى ذلك أدلة عقلية يستخرجها الناظر بعقله، وهم من أعقل الناس وأرغبهم في هذا المطلب، امتنع مع ذلك أن لا يكون منهم من

---

(١) حلية طالب العلم بكر أبو زيد ص/١٤٧
(٢) درء تعارض العقل والنقل ابن تيمية ١٣٢/٥

يفطن لهذا الحق، وإذا تفطن له، مع قوة دينهم ورغبتهم في الحيز، كانوا يظهرونه ويبينونه، وذلك يوجب ظهوره وانتشاره لو كان حقا.

وكذلك الكفار لهم رغبة في معرفة ذلك وإظهاره، لو كان حقا، لما كان فيه من معارضة الرسول ومناقضته، ولما فيه من معرفة الحق.

واعلم أن هذا كما يقال في أمتنا، فإنه يقال في بني إسرائيل، فإن التوراة مملوءة بإثبات الصفات التي يسميها النفاة تشبيها وتجسيما.

ومن المعلوم أن التوراة قد تداولها من الأمم ما لا يحصيهم إلا الله، وقد انتشرت بين النصارى كما انتشرت بين اليهود، فلو كان ما فيها من الصفات وإثبات العلو لله مما يناقض صريح العقل، لكان ذلك من أعظم ما كان." (١)

"فإذا ذكروا ذلك النوع البين، ظنوا أن المقدمة صارت معلومة ضرورية، والمطلوب لا يتم إلا ببيان النوع الآخر، وهم لم يبينوه.

وهذا مما يبين للفاضل المعتبر كيف تدخل الشبهات والبدع على كثير من الناس، وإن كانوا من أعقل الناس وأذكاهم وأفضلهم، وإن كانوا لم يعتمدوا التلبيس لا على أنفسهم، ولا على من يعلمونه ويخاطبونه، لكن اشتبه الأمر عليهم، فوقعوا في شبهات ظنوها بينات.

وهذا مما يعتبر به المسلم فلا يعدل عن كلام الله وكلام رسوله المعصوم، الذي عرف أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إلى كلام من يروج عليهم مثل هذه الشبهات، ويغرقون في مثل هذه المجملات، ولا يتبين لهم ما فيها من فصل الخطاب، والتقسيم المميز للصحيح من السقيم.

ويعرف بهذا حذق السلف والأئمة، الذين ذموا مثل هذا الكلام، وجعلوه من الجهل الذي يستحق أهله العقوبة والانتقام.

لكن هؤلاء ذكروا في موضع آخر الكلام مع من يدعي وجود ما لا يتناهى، وبحثوا معه، وإن كانوا لم يجعلوا ذلك من المقدمات التي لا بد منها في هذه المسألة.

وقد ذكر القاضي أبو بكر بعد هذا فقال: (فصل: فإن قال قائل من أهل الدهر، الذاهبين إلى أنه: لا حركة إلا وقبلها." (٢)

"نفرت منهم يدركوك». قيل له: «فما أصنع؟»، قال: «هب عرضك ليوم فقرك، وخذ شيئا من لا شيء».

ومن أعظم أنواع الصبر الصبر على مخالطة الناس وتحمل أذاهم، فكن فيما بينهم سميعا لحقهم، أصم عن باطلهم، نطوقا بمحاسنهم، صموتا عن مساوئهم.

العشرون: قبول اعتذار المخطئين:

قال أمير المؤمنين عمر سدد خطاكم: «أعقل الناس أعذرهم لهم». وقال الأحنف: «إياكم ورأي الأوغاد». قالوا: «وما

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ابن تيمية ٧/٧٨

(٢) درء تعارض العقل والنقل ابن تيمية ٨/٣٣٩

رأي الأوغاد؟»، قال: «الذين يرون الصفح والعفو عارا».

قيل لي قد أساء إليك فلان ... ومقام الفتى على الذل عار

قلت قد جاءنا فأحدث عذرا ... ودية الذنب الاعتذار

وقيل:

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا ... إن بر عندك فيما قال أو فجرا

فقد أطاعك من يرضيك ظاهره ... وقد أجلك من يعصيك مستترا

الحادي والعشرون: أقلل من العتاب:

ولست معاتبا خلا لأني ... رأيت العتب يغري بالعقوق

ولو أني أوقف لي صديقا ... على ذنب بقيت بلا صديق." (١)

"تركه فكيف يمكن فعله؟!

– وإما أن يكونوا لم يعلموه فيكون من ادعى علمه بعدهم أعلم منهم وأفضل وأعرف بوجوه البر وأحرص عليها ولو كان ذلك خيرا لعلموه ولظهر لهم، ومعلوم أنهم أعقل الناس وأعلمهم.

فما تركه السلف الصالح لا بد أن يكون النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – قد تركه، وتركه سنة، كما أن فعله سنة، فمن استحب فعل ما تركه النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – كان كمن استحب ترك ما فعله ولا فرق.

ومما يدل على أن السلف الصالح لم يحتفلوا بيوم المولد النبوي اختلافهم في تحديد اليوم الذي ولد فيه النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – كما سبق بيانه.." (٢)

"قال له: " لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكائد الحروب ومداراة الدنيا. فقل لي كيف حصلت في يد هذا الرجل بعد ما ملكت الأندلس، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار، وتيقنت بعد المرام واستصعابه، واستخلفت بلادا أنت اخترعتها، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك. ثم إنك علمت أن سليمان ولي عهد وأنه الوالي بعد أخيه، وقد أشرف على الهلاك لامحالة، وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة، وأحقدت مالكك ومملوكك ". وما زال يزيد بسليمان حتى عفا عن موسى، وأعفاه من الغرامة الفادحة التي قضى بها عليه، ويقال بل عفا عن حياته، ولم يعفه من الغرامة، وإن موسى استطاع أن يفتدي نفسه ببعض ما فرض عليه، وإن سليمان عفا عنه بعد ذلك (١)، وأقر ابنه عبد الله على إفريقية وابنه عبد العزيز على الأندلس. وتبالغ بعض الروايات فتقول إن سليمان أصر على معاقبة موسى وتغريمه، حتى كان يطوف أحياء العرب مع حراسه ليسأل

---

(١) دليل الواعظ إلى أدلة المواعظ شحاتة صقر ٦٠٧/٢

(٢) دليل الواعظ إلى أدلة المواعظ شحاتة صقر ٧٣٩/٢

بعض المال ليفتدي نفسه، وإنه لبث على تلك الحال حتى توفي في منتهي البؤس والذلة بوادي القرى في شمال الحجاز حيث ينسب مولده، وذلك سنة سبع وتسعين (٢).

بيد أنه لا يوجد ما يبرر الأخذ بمثل هذه الرواية المغرقة. والصحيح المعول عليه أن سليمان عفا عن موسى، وأقاله من محنته؛ وتوفي موسى بعد ذلك بقليل في سنة سبع وتسعين (وقيل في سنة تسع وتسعين) وهو في طريقه إلى الحج مع سليمان، وقد جاوز الثمانين من عمره.

---

(١) هذه هي رواية ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص ٢١٣). وهي رواية يؤيدها البلاذري (فتوح البلدان ص ٢٣٠).

(٢) يراجع في مصير موسى بن نصير: فتوح مصر (ص ٢١١)، وأخبار مجموعة (ص ٢٩ و٣٠)، وابن القوطية (ص ١٠ - ١١)، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٦)، والمقري عن ابن حيان وابن بشكوال والحجارى، (نفح الطيب ج ١ ص ١٣٤ و١٣٥)، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٨١)، وكذلك كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٨٦، ٨٩ و٩٣، ٩٦). هذا ويبدي المستشرق دوزي ريبه في صحة الروايات والقصص التي قيلت عن مصير موسى بن نصير، ويقول إنه لا يوجد ثمة ما يبررها، لأن موسى كان يتمتع بحماية يزيد بن المهلب صديق سليمان وصاحب النفوذ لديه، ويستشهد برواية البلاذري إلى أشرنا إليها، وأيضا برواية مؤرخ نصراني معاصر هو إيزيدور الباجي (Dozy, Hist.V.I.p. ١٣٤-١٣٥)." (١)

"فصحف الذي قرأ عليه الكتاب فقرأ: وجز لحيته، فجزها وأشخصه آية.

٥٤- قال رجل للحسن: يا أبو سعيد، قال: أين غذيت؟ قال:

بالأبلة «١» ، قال: من هناك أتيت.

٥٥- عمرو بن زعبل التميمي «٢» :

وإن عناء أن تفهم جاهلا ... فيحسب جهلا أنه منك أفهم

متى يبلغ البنيان يوما تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

٥٦- قال رجل للحسن: أنا أفصح الناس. قال: لا تقل. قال فخذ علي كلمة واحدة «٣» . قال: هذه واحدة.

٥٧- قرع رجل باب نحوي، فخرج ولد له فقال: يا صبي أباك أبيك أبوك ههنا؟ قال لا لي لو.

٥٨- ابن السماك «٤» : أعقل الناس محسن خائف، وأجهلهم مسيء آمن. ذو النون المصري «٥» : من جهل قدره هتك ستره.

٥٩- حدث شريك «٦» ، فقال عافية القاضي «٧» : ما سمعنا بهذا الحديث، فقال شريك وما يضر عالما إن جهل جاهل.." (٢)

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس محمد عبد الله عنان ١/٥٨

(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار الزمخشري ٢/٢٧

"للذنوب، قال: فتب إلى الله يا حبيب، فقال: إني أتوب ثم أعود، فقال: كلما أذنبت فتب حتى قال: عفو الله أكبر من ذنوبك يا حبيب.

٦- أنس عنه عليه السلام: المؤمن مثل السنبلة يستقيم أحيانا ويميل أحيانا.

٧- الحسن يرفعه: إن المؤمن ليذنب الذنب فيدخله الجنة، فقالوا: يا نبي الله، كيف يدخله الجنة؟ قال يكون نصب عينيه، تائبا عنه، مستغفرا منه، حتى يدخل الجنة.

٨- علي رضي الله عنه: سمعت أبا بكر، وهو الصادق، يقول:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من عبد أذنب ذنبا فقام فتوضأ فأحسن وضوءه وصلى واستغفر من ذنبه إلا كان حقا على الله أن يغفر له، لأنه يقول: ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله «١» الآية.

٩- عمر رضي الله عنه: جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة.

- وعنه: أعقل الناس أعذرهم للناس.

- وعنه: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

١٠- علي رضي الله عنه: العفو زكاة الظفر.

- وعنه: إذا أنا مت من ضربته «٢» هذه فاضربوه ضربة بضربة، ولا يمثل بالرجل، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور.

١١- مسلم بن الوليد الأنصاري في المأمون:

يغدو عدوك خائفا فإذا رأى ... أن قد قدرت على العقاب رجاكا." (١)

"بطليموس «١» : كل عمل يأذن فيه العقل فهو صواب. وعنه: العاقل لا يشرب السم إتكالا على ما عنده من الترياق.

٢٩- ملك الخزر «٢» : إذا شاورت العاقل صار عقله لك.

٣٠- قال المنذر لابنه النعمان فيما أوصاه به: دع الكلام وأنت عليه قادر، وليكن لك من عقلك خبيء ترجع إليه أبدا، قال النعمان: مرني بأمر جامع، قال: الزم الحزم والحياء.

ذو العقل لا تبطره المنزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الريح. والسخيف تبطره أدنى منزلة، كالحشيش تحركه أدنى ريح.

٣١- قال الحجاج لابن القرية: من أعقل الناس؟ قال: من يحسن المداراة مع أهل زمانه.

٣٢- حكيم: العقل والتجربة في التعاون بمنزلة الماء والأرض، لا يطيق «٣» أحدهما دون الآخر إنباتا.

٣٣- العتبي: العقل عقلان: عقل تفرد الله بخلقه، وعقل يستفيده الرجل بأدبه وتجربته، ولا سبيل إلى العقل المستفاد إلا

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار الزمخشري ٢/٩٤

بصحة العقل المركب في الجسد، فإذا اجتمعا قوى كل واحد منهما صاحبه تقوية النار في الظلمة ضوء البصر.

٣٤- المأمون: إذا أنكرت من عقلك شيئا فاقدحه «٤» بعاقل.

٣٥- قيل لعلي رضي الله عنه: صف لنا العاقل، فقال: هو الذي." (١)

"٧٤- إسحاق بن سويد «١» : صحبت مسلم بن يسار إلى مكة، فلم أسمعه يتكلم بكلمة، فقال لا أدري ما خشية رجل يدع ما يكرهه الله «٢» .

٧٥- يزيد بن أبان الرقاشي من أصحاب أنس والحسن: كان يبكي عامة ليله ونهاره حتى سقطت أشفار عينيه. فقال له ابنه: لو خلقت النار لأجلك ما زدت على ما تصنع، فقال: وهل خلقت النار إلا لي ولأمثالي؟.

٧٦- ابن السماك «٣» : أعقل الناس محسن خائف، وأجلهم مسيء آمن.

٧٧- إسحاق بن سويد: ليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه، إنما الخائف الذي يترك ما يخاف أن يعاقبه الله عليه.

٧٨- فضيل: ما خوفنا عند خوف من كان قبلنا إلا كمثل شبكور «٤» قاد عميانا، فإذا أبصر شيئا قال العميان فلان بصير.

٧٩- في وصية علي رضي الله عنه: أطردوا واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين.." (٢)

"أن ما هم عليه ضلال وجهل. فيلزمك أن تبحث عما أخذته عن أبيك من أن تكون هذه حالتك.

فإن قال: إن الذي أخذته عن أبي أصح مما أخذه الناس عن آبائهم.

لزمه أن يقيم البرهان على نبوة موسى من غير تقليد لأبيه لأنه قد ادعى صحة ذلك بغير تقليد. وإن زعم أن العلة في صحة ما نقله عن أبيه أنه رجح أباه على آباء الناس أصدق والمعرفة كما يدعي اليهود في حق آبائهم، لزمه أن يأتي بالدليل على أن أباه أعقل من سائر آباء الناس، وأفضل. فإن هو ادعى ذلك فقد كذب فيه. لأن من ادعى مثل هذا يجب أن يستدل على فضائله بآثاره، وقول اليهود باطل. فإنهم ليس لهم من الآثار في العالم ما ليس لغيرهم مثله، بل هم على الحقيقة لا ذكر لهم بين الأمم الذين استخرجوا العلوم الدقيقة ودونوها لمن يأتي بعدهم وجميع ما نسب إليهم من العلوم ما استفادوه من علوم غيرهم لا يضاهي بعض الفنون الحكمية التي استخرجها حكماء اليونان، والعلوم التي استنبطها النبط وأما تصانيف المسلمين فيستحيل لكثرتها أن يقف أحد من الناس على جميع ما صنفوه في أحد الفنون العلمية لسعته وكثرته. وإذا كان هذا موقعهم من الأمم فقد بطل قولهم إن آباءهم أعقل الناس وأفضلهم وأحكمهم. ولهم أسوة بسائر آباء الناس المماثلين لهم من ولد سام بن نوح عليهما السلام.

فإذا أقروا بتأسي آبائهم بآباء غيرهم، وقد علموا أن آباء غيرهم قد لقنوهم الكفر. لزمهم أن شهادة الآباء لا يجوز أن تكون حجة في صحة الدين. فلا يبقى لهم حجة في نبوة موسى إلا شهادة التواتر،." (٣)

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار الزمخشري ٣/٤٤٥

(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار الزمخشري ٤/١٧٠

(٣) رحلة بنيامين التطيلي بنيامين التطيلي ص/٨٦

"قيل لحكيم: متى عقلت؟ قال: حين ولدت، فلما رأى إنكارهم قال:
بكيت حين جعت- وطلبت الثدي حين أصبحت، وسكت حين أعطيت. يعني من عرف مقادير حاجاته فهو عاقل. بطليموس: كل عمل يأذن فيه العقل فهو صواب. وعنه: لا يشرب السم اتكالا على ما عنده من الترياق. قال المنذر لابنه النعمان، فيما أوصاه به: دع الكلام وأنت عليه قادر، وليكن من عقلك ما ترجع إليه أبدا. فقال النعمان: مرني بأمر جامع. فقال: الزم الحزم والحياء.

يقال: ذو العقل لا تبطره المنزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الريح، والسخيف تبطره أدنى منزلة، كالحشيش يحركه أدنى ريح.

قيل لعلي رضي الله عنه: صف لنا العاقل، فقال: هو الذي وضع الشيء موضعه، قيل: فصف لنا الجاهل، قال: قد فعلت. يعني الذي لا يضع الشيء موضعه. قال الحجاج لابن قرة: من أعقل الناس؟ قال: الذي يحسن المداراة مع أهل زمانه. قيل: المواساة أفضل الأعمال، والمداراة أجمل الخصال. في صحف إبراهيم عليه السلام: العاقل ينبغي أن يكون مقبلا على شانه، عارفا لأهل زمانه، حافظا للسانه. بعض المشايخ: من لم يكن عارفا لأهل زمانه فهو جاهل. لقمان: من عاداه قومه طال يومه، وطار نومه. وعنه: أعط أخاك تمرة، وإن أبى فجمرة. قيل:

وفي الشر نجاة حين لا يجديك إحسان «١»

المتنبي:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف في موضع الندى «٢»." (١)

"ذهب أهله. فقال خالد: بل ما خلق الله له أهلا. علي رضي الله عنه: الناس أعداء ما جهلوا. أبو الأسود الدؤلي: إذا أردت أن تعذب عالما فاقرن معه جاهلا. أفلاطون: ما ألمت نفسي إلا من ثلاث: من غني افتقر، وعزيز ذل، وحكيم تلاعبت به الجهال. أرسطو: صديق الجاهل مغرور. وعنه: الجاهل عدو لنفسه، فكيف يكون صديقا لغيره. قيل لجالينوس: متى ينبغي للإنسان أن يموت؟ فقال: إذا جهل ما يضره مما ينفعه. يقال: اجتنب الجاهل فإنه يجني على نفسه، وهي أحب النفوس إليه. قيل: الجاهل يفسد لعدم تهديه للإصلاح مع رغبته في الصلاح، والأحمق يفسد لأنه يتلذذ بالفساد، ويتألم بجريان الأمور على السداد. كان مسلمة بن عبد الملك يعرض الجند، فقال لرجل منهم: ما اسمك؟ فقال: عبد الله، بالنصب. فقال: ابن من؟ فقال: ابن عبد الرحمن، بالجر. فأمر بضربه فقال: بسم الله بالرفع، فقال: دعوه فلو كان تاركا للحن لتركه تحت السياط. قرع رجل باب نحوي، فخرج صبي، فقال الرجل: يا صبي أباك أبيك أبوك ههنا؟ فقال الصبي: لا لي لو. ابن السماك:

أعقل الناس محسن خائف، وأجهلهم مسيء آمن. ذو النون المصري رحمه الله تعالى: من جهل قدره هتك ستره. قيل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور

وكل امرىء لم يحي بالعلم ميت ... وليس له حتى النشور نشور

---

(١) روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار الأماسي ص/١٠٣

وقيل:

ماتوا وعشنا فهم عاشوا بموتهم ... ونحن في صورة الأحياء أموات

أخي فبادر إلى زاد تحصله ... ولا تسوف فللتأخير آفات." (١)

"لا يحصل إلا من خفة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب ومرسل النظر لو علم ما تجني عواقب نظره عليه لما أطلق بصره قال الشاعر

بو أعقل الناس من لم يرتكب سببا ... حتى يفكر ما تجني عواقبه

الفائدة العاشرة أنه يخلص القلب من سكر الشهوة ورقدة الغفلة فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة ويوقع في سكرة العشق كما قال الله تعالى عن عشاق الصور ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ فالنظرة كأس من خمر والعشق هو سكر ذلك الشراب وسكر العشق أعظم من سكر الخمر فإن سكران الخمر يفيق وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات كما قيل

سكران سكر هوى وسكر مدامة ... ومتى إفاقته من به سكران

وفوائد غض البصر وآفات إرساله أضعاف أضعاف ما ذكرنا وإنما نبهتا عليه تنبيها ولا سيما النظر إلى من لم يجعل الله سبيلا إلى قضاء الوطر منه شرعا كالمردان الحسان فإن إطلاق النظر إليهم السم الناقع والداء العضال وقد روى الحافظ محمد بن ناصر من حديث الشعبي مرسلا قال قدم وفد عبد القيس على النبي صلى الله عليه وسلم وفيهم غلام أمرد ظاهر الوضاءة فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم وراء ظهره وقال كانت خطيئة من مضى من النظر وقال سعيد بن المسيب إذا رأيتم الرجل يحد النظر إلى." (٢)

*"

مقدمة المؤلف

...

رياض الصالحين

تأليف: الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي ٦٣١ - ٦٧٦ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد القهار، العزيز الغفار، مكور الليل على النهار، تذكرة لأولي القلوب والأبصار، وتبصرة لذوي الألباب والاعتبار، الذي أيقظ من خلقه من اصطفاه فزهدهم في هذه الدار، وشغلهم بمراقبته وإدامة الأفكار، وملازمة الاتعاظ والادكار، ووفقهم للدأب في طاعته، والتأهب لدار القرار، والحذر مما يسخطه ويوجب دار البوار، والمحافظة على ذلك مع تغاير الأحوال والأطوار. أحمده أبلغ حمد وأزكاه، وأشمله وأنماه.

---

(١) روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار الأماسي ص/١٨٣

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٠٤

وأشهد أن لا إله إلا الله البر الكريم، الرؤوف الرحيم، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وحبيبه وخليله، الهادي إلى صراط مستقيم، والداعي إلى دين قويم، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر النبيين، وآل كل، وسائر الصالحين.

أما بعد: فقد قال الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾ [الذريات٥٦، ٥٧] وهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة، فإنها دار نفاد لا محل إخلاد، ومركب عبور لا منزل حبور، ومشرع انفصام لا موطن دوام. فلهذا كان الأيقاظ من أهلها هم العباد، وأعقل الناس فيها هم الزهاد. قال الله تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ [يونس: ٢٤]

والآيات في هذا المعنى كثيرة. ولقد أحسن القائل:

إن لله عبادا فطنا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحي وطنا

جعلوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا." (١)

"فقر لا يدرك غناه، وهم لا ينقضى مداه، وشغل لا ينفد أولاه، وأمل لا يبلغ منتهاه.

فصول قصار من كلامه رضي الله عنه

من كتم سره كان الخيار في يده. أشقى الولاة من شقيت به رعيته.

أعقل الناس أعذرهم للناس. ما الخمر صرفا «١» بأذهب لعقول الرجال من الطمع.

لا يكن حبك كلفا، ولا بغضك تلفا. مرذوى القرابات أن يتزاوروا، ولا يتجاوروا. قلما أدبر شيء فأقبل. أشكو إلى الله ضعف الأمين، وخيانة القوى تكثروا من العيال فإنكم لا تدرون بمن ترزقون. لو أن الشكر والصبر بعيران ما باليت أيهما أركب. من لا يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه.

[وصف صعصعة بن صوحان لعمر بن الخطاب]

وقال معاوية بن أبي سفيان لصعصعة بن صوحان: صف لى عمر بن الخطاب؛ فقال: كان عالما برعيته، عادلا في قضيته، عاريا من الكبر، قبولا للعذر، سهل الحجاب، مصون الباب، متحريا للصواب، رفيقا بالضعيف، غير محاب للقريب، ولا جاف للغريب.

[عمر يذكر ماضيه وحاضره]

وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حج فلما كان بضجنان «٢» قال:

لا إله إلا الله العلى العظيم، المعطى من شاء ما شاء، كنت في هذا الوادى في مدرعة صوف أرعى إبل الخطاب، وكان فظا يتعبنى إذا عملت، ويضربنى إذا قصرت، وقد أمسيت الليلة ليس بيني وبين الله أحد، ثم تمثل:

---

(١) رياض الصالحين ط الرسالة النووي ص/٢٧

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودى المال والولد»

لم تغن عن هرمز يوما خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان إذ تجرى الرياح له ... والجن والإنس فيما بينها ترد." (١)

"من أعقل الناس وأعلمهم، فكان لا يبتدىء، بإخبار حتى يسأله المنصور فيجيبه بأحسن عبارة، وأجود بيان، وأوفى معنى، فأعجب المنصور به، وأمر له بمال، فتأخر عنه، ودعته الضرورة إلى استنجازه، فاجتاز ببيت عاتكة، فقال: يا أمير المؤمنين؛ هذا بيت عاتكة الذى يقول فيه الأحوص: «يا بيت عاتكة الذى أتعزل» ... البيت، ففكر المنصور في قوله، وقال: لم يخالف عادته بابتداء الإخبار دون الاستخبار إلا لأمر، وأقبل يردد القصيدة ويتصفحها بيتا بيتا حتى انتهى إلى قوله فيها:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم ... مذق اللسان يقول ما لا يفعل «١»

فقال: يا ربيع، هل أوصلت إلى الرجل ما أمرنا له به؟ فقال: أخرته عنه- لعلة ذكرها الربيع- فقال: عجله له مضاعفا، وهذا ألطف تعريض من الرجل، وحسن فهم من المنصور.

[الحسد والحساد]

ومن كلام ابن المقفع: الحاسد لا يزال زاريا على نعمة الله ولا يجد لها مزالا، ومكدرا على نفسه ما به من النعمة فلا يجد لها طعما، ولا يزال ساخطا على من لا يترضاه، ومتسخطا لما [لا] ينال، فهو كظوم هلوع جزوع، ظالم أشبه شيء بمظلوم، محروم الطلبة، منغص العيشة، دائم التسخط، لا بما قسم له يقنع، ولا على ما لم يقسم له يغلب، والمحسود يتقلب في فضل نعم الله مباشرا للسرور.

ممهلا فيه إلى مدة لا يقدر الناس لها على قطع ولا انتقاص، ولو صبر الحاسد على ما به لكان خيرا له؛ لأنه كلما أراد أن يطفيء نور الله أعلاه ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.." (٢)

"فكم قال في البطيخ قول ... خبير حين ذم لدى الخصام

تحيات وفاكهة وإدم ... وها صوم الثقيل من الطعام

وأشنان وحلواء مهيأ ... وعند العسر كوب للمدام

وبعد الطلى في الحمام طيب ... وضقي للمتانة كل عام

وسهل المجتنى دان لطيف ... وذلله المهيمن للأنام

شكا أهل دمشق إلى ابن أبي الدرداء، قلة ممرهم، وتغير أشجارهم، فقال أطلتم حيطانها، وأكثرتم حراسها فجاء البلاء من فوقها.

دخل سالم بن عبد الله بن عمر على سليمان بن عبد الملك، وعلى سالم ثوب رث مشتمل به، فلم يزل سليمان ترحب به،

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب الحُصري القيرواني ٧٣/١

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب الحُصري القيرواني ٢٤٦/١

حتى أجلسه معه على سريره، وعمر بن عبد العزيز معه في المجلس، فقال رجل من القوم لعمر، ما استطاع خالك أن يلبس ثيابا هي أحسن من هذه، ويدخل على أمير المؤمنين، فقال عمر ما رأيت ثياب خالي وضعته إلى مكانك، ولا ثيابك رفعتك إلى مكانه.

ودخل محمد بن كعب على سليمان أيضا في ثياب رثة فقال له: ما حملك على لبس هذه؟، فقال أكره أن أقول فقرا فاشكو ربي، أو أقول زهدا فأطرى، وأزكى نفسي. دخل وكيع بن أبي الأسود على عدوك! بن أرطأة، وهو والي العراق من قبل عمر بن عبد العزيز فلبس عنده ثيابه.

فقال لوكيع سو علي ثوبي يا أبا المطرف، فقال وكيع ذكرتني الطفر، وكنت ناسيا إن في خفي ضيق فمد أيها الأمير، فقال له: يا أبا المطرف إن الرجل ليتولى من أخيه ما هو فوق هذا، فقال له: يا عدى إذا غزلت عنا فكلفنا ما أجبت فأما، وأنت ترى بنفسك علينا قدرة وبيدك بسطت، لشاعر في هذا المعنى [المتقارب]

إذا عزل المرء صافيته ... وعند الولاية استكبر

لأن الولي له نخوة ... ونفسي على الذل لا تصبر

قيل لوهيبة بنت معن قد أفقرت بناتك بكثرة صلاتك فقالت يعينهن من تقربت إليه ني حفظهن بتفريق مالي له. سأل الفضل بن الربيع رجلا عن قاضى بلدته، فقال جمع فأوعى، وسأل فأكدى، وحكم فتعدى، وطغى لما استغنى، قال ابن عباس التفكير في الخير يدعو إلى استعماله، والعمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه، يقال من هانت الدنيا عليه مالت القلوب إليه، ومن عمل الرد، فقد أحسن الرفد.

قال سهل بن هارون في صدر كتاب له، وجب على كل ذي عقل له أن يبتدئ بالحمد، بل استفتاحها، كما يبتدئ النقمة قبل استحقاقها. قال المنصور لجرير بن يزيد إني لأعدك لأمر كبير، فقال يا أمير المؤمنين أن الله قد أعد لك مني قلبا معقودا ينصحك، ويدا مبسوطة بطاعتك، وسيفا مشحوذا على أعدائك فإذا شئت، قيل لأنوشروان من أطول الناس عمرا؟ فقال: من كثر علمه فناوب له غيره من لعده، ومن كثر معروفه فشرف به عقبه. قيل للفضل بن يحيى من أعقل الناس؟ قال من عرف مقادير الأمور قولا وفعلا.

وسأل قباد الملك بعض الحكماء فقال: أخبرني من أعدل الناس، وأجور الناس، وأحمق الناس، وأكيس الناس، وأسعد الناس؟ فقال الحكيم أما أعدلهم، فمن أنصف من نفسه، وأما أجورهم، فمن رأى جوره عدلا، وأما أحمقهم، فمن يصدق- مما لا يكون، وأما أكيسهم، فمن أخذ للأمر أهبته قبل نزوله، وأما أسعدهم، فمن ختم له في عاقبته بخير. وقال أنوشروان الحكيم من أكمل الناس مروءة؟ قال: من أحرز دينه، ووصل رحمه فأكرم إخوانه، وأصلح ماله. وقيل لبعض الحكماء، وما الشكر قال الإقرار بالنعمة وجزاؤها بالحسنى مضمرا وقائلا وفاعلا مجزأ الضمير النية، والمحبة، والطاعة وجزاء الفعل المعاونة، والصبر عليه، والسعي فيما يرضي المنعم، وقال بعض الشعراء:

وقد عرضت لي حاجة وأظنني ... بأني إذا أنزلتها بك تنجح

فإن ألك في أخذ العطية مربحا ... فإنك في بذل العطية أربح

لأن لك العقبي من الأجر خالصا ... وشكري من الدنيا فحقك أرجح

يروى عن محمد بنشهاب الزهري، أنه قال أول حب ظهر في الإسلام حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله تعالى عنها روى حماد بن زيد عن مجاهد بن سلمة قال لما أتى زيد بن حارث إلى النبي صلى الله عليه وسلم جاء رسول الله إلى منزل زيد، فخرجت ابنة له صغيرة، فلما رأت النبي صلى الله عليه وسلم أجهشت في وجهه بالبكاء فبكى، حتى انتحب، فقيل له ما هذا يا رسول الله؟ قال: "شوق الحبيب إلى حبيبه".." (١)

"غريب١، عزيز٢، قد توالى فيه خمسة تابعيون، بعضهم عن بعض، ومن حيث العدد كأنني صافحت٣ فيه النسائي.

ورواه أيضا: ابن أبي عروبة، عن قتادة بإسناده، لكنه لم يسم فيه نافعا، بل قال: عن مولى أم سلمة، عنها. وحديث عائشة هو في صحيح مسلم، من طريق إسماعيل بن جعفر، عن عبد الله بن عبد الرحمن، وهو أبو طوالة. ولم يخرج البخاري لأبي يونس شيئا فيما علمت، والله أعلم.

قال أبو عبد الله الحاكم -وذكر سادة من أئمة التابعين بالمدينة، كابن المسيب ومن بعده- قال: فما ضربت أكباد الإبل من النواحي إلى أحد منهم دون غيره، حتى انقرضوا، وخلا عصرهم، ثم حدث مثل ابن شهاب، وربيعة، ويحيى بن سعيد، وعبد الله بن يزيد بن هرمز، وأبي الزناد، وصفوان بن سليم، وكلهم يفتي بالمدينة، ولم ينفرد واحد منهم بأن ضربت إليه أكباد الإبل، حتى خلا هذا العصر، فلم يقع بهم التأويل في عالم أهل المدينة. ثم حدث بعدهم مالك، فكان مفتيها فضربت إليه أكباد الإبل من الآفاق، واعترفوا له، وروت الأئمة عنه ممن كان أقدم منه سنا، كالليث عالم أهل مصر، والمغرب، وكالأوزاعي عالم أهل الشام ومفتيهم، والثوري، وهو المقدم بالكوفة، وشعبة عالم أهل البصرة. إلى أن قال: وحمل عنه قبلهم يحيى بن سعيد الأنصاري حين ولاه أبو جعفر قضاء القضاة، فسأل مالكا أن يكتب له مائة حديث حين خرج إلى العراق، ومن قبل كان ابن جريج حمل عنه.

أبو مصعب: سمعت مالكا يقول: دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين، وقد نزل على مثال له -يعني: فرشه- وإذا على بساطه دابتان، ما تروثان وتبولان، وجاء صبي يخرج ثم يرجع، فقال لي: أتدري من هذا؟ قلت: لا. قال: هذا ابني، وإنما يفزع من هيبتك. ثم ساءلني عن أشياء، منها حلال ومنها حرام، ثم قال لي: أنت -والله- أعقل الناس وأعلم الناس. قلت: لا والله يا أمير المؤمنين! قال: بلى، ولكنك تكتم. ثم قال: والله لئن بقيت، لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف، ولأبعثن به إلى الآفاق، فلأحملهنم عليه.

الحسن بن عبد العزيز الجروي: حدثنا عبد الله بن يوسف، عن خلف بن عمر: سمع

---

١ الغريب: ما رواه راو واحد في طبقة واحدة من طبقات السند أو راو واحد في كل طبقة أو بعض طبقاته.

---

(١) سفط الملح وزوح الترح ابن الدجاجي ص/٥٠

٢ العزيز: ما رواه اثنان في كل طبقة من طبقات السند، ولا يقل عن اثنين في جميع طبقاته.

٣ أي: كأنه تساوى مع النسائي في عدد رجال السند.." (١)

"وعنه: لو أوصى رجل بشيء لأعقل الناس صرف إلى الزهاد.

وعنه: سياسة الناس أشد من سياسة الدواب.

وعنه: العاقل من عقله عقله عن كل مذموم.

وعنه: للمروءة أركان أربعة: حسن الخلق والسخاء والتواضع والنسك.

وعنه: لا يكمل الرجل إلا بأربع: بالديانة والأمانة والصيانة والرزانة.

وعنه: ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته.

وعنه: علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقا.

وعنه: من نم لك نم عليك.

وعنه قال: التواضع من أخلاق الكرام والتكبر من شيم اللئام التواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة.

وقال: أرفع الناس قدرا من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلا من لا يرى فضله.

وقال: ما ضحك من خطأ رجل إلا ثبت صوابه في قلبه.

لا نلام والله على حب هذا الإمام؛ لأنه من رجال الكمال في زمانه رحمه الله وإن كنا نحب غيره أكثر.." (٢)

"وعنه: أنفع الذخائر التقوى، وأضرها العدوان (١) .

وعنه: اجتناب المعاصي، وترك ما لا يعنيك، ينور القلب، عليك بالخلوة، وقلة الأكل، إياك ومخالطة السفهاء، ومن لا ينصفك، إذا تكلمت فيما لا يعنيك، ملكتك الكلمة، ولم تملكها (٢) .

وعنه: لو أوصى رجل بشيء لأعقل الناس، صرف إلى الزهاد (٣) .

وعنه: سياسة الناس أشد من سياسة الدواب (٤) .

وعنه: العاقل من عقله عقله عن كل مذموم (٥) .

وعنه: للمروءة أركان أربعة: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنسك (٦) .

وعنه: لا يكمل الرجل إلا بأربع: بالديانة، والأمانة، والصيانة، والرزانة (٧) .

وعنه: ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته (٨) .

---

(١) " حلية الأولياء " ٩ / ١٢٣، و" مناقب " البيهقي ٢ / ١٧١.

(٢) انظر " مناقب " البيهقي ٢ / ١٧٢، و" مناقب " الرازي، ١٢٤، و" تهذيب الأسماء واللغات " ١ / ٥٥.

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الحديث الذهبي، شمس الدين ١٥٨/٧

(٢) سير أعلام النبلاء ط الحديث الذهبي، شمس الدين ٢٨٠/٨

(٣) انظر " مناقب " البيهقي ٢ / ١٨٣، ١٨٤، و" تهذيب الأسماء واللغات " ١ / ٥٥.

(٤) " آداب الشافعي ": ٢٧١، و" مناقب " البيهقي ٢ / ١٨٧، و" مناقب " الرازي ١٢٢، و" تهذيب الأسماء واللغات " ١ / ٥٥، و" توالي التأسيس " ٧٢.

(٥) " مناقب " البيهقي ٢ / ١٨٧، و" مناقب " الرازي: ١٢٢، و" تهذيب الأسماء واللغات " ١ / ٥٥.

(٦) " مناقب " البيهقي ٢ / ١٨٨، و" مناقب " الرازي: ١٢٢، و" تهذيب الأسماء واللغات " ١ / ٥٥.

(٧) " مناقب " البيهقي ٢ / ١٨٩، و" مناقب " الرازي: ١٢٢، و" تهذيب الأسماء واللغات " ١ / ٥٥.

(٨) " مناقب " البيهقي ٢ / ١٩٤، و" مناقب " الرازي: ١٢٢، و" تهذيب الأسماء واللغات " ١ / ٥٥.." [(١)]

"الصادق الناطق بإسناده، عن عجيف، قال:

قعد زغلمج في جلسائه، فقال: أخبروني بأعقل الناس.

فأخبر كل واحد بما عنده، فقال: لم تصيبوا، بل أعقل الناس الذي لا يعمل؛ لأن من العمل يجيء (١) التعب، ومن التعب يجيء المرض، ومن المرض يجيء الموت، ومن عمل، فقد أعان على نفسه، والله يقول: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء: ٢٩] .

فقال: زدنا من حديثك.

فقال: وحدثني أبو عبد الله (٢) الصادق الناطق بإسناده عن زغلمج، قال:

من أطعم أخاه شواء (٣) ، غفر الله له عدد النوى، ومن أطعم أخاه هريسة، غفر له مثل الكنيسة، ومن أطعم أخاه جنب (٤) ، غفر الله له كل ذنب.

فضحك إسحاق، وأمر له بدرهمين ورغيفين.

أوردها: ابن حبان، ولم يضعفها.

قال أحمد بن سلمة: سمعت إسحاق يقول:

قال لي الأمير عبد الله بن طاهر: لم قيل لك: ابن راهويه؟ وما معنى هذا؟ وهل تكره أن يقال لك ذلك؟

قال: اعلم أيها الأمير أن أبي ولد في طريق مكة، فقالت المراوزة: راهويه؛ لأنه ولد في الطريق، وكان أبي يكره هذا.

وأما أنا، فلا أكرهه.

قال الحاكم: أخبرني الحسن بن خالد بن محمد الصائغ، حدثنا نصر بن زكريا، سمعت إسحاق بن إبراهيم يقول:

سألني يحيى بن معين، عن حديث الفضل بن موسى ... ، حديث ابن عباس:

كان النبي -صلى الله عليه وسلم-: يلحظ في الصلاة، ولا يلوي عنقه خلف ظهره) .

---

(١) و (٢) الزيادتان من " الضعفاء " لابن حبان ١ / ٨٧.

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة الذهبي، شمس الدين ٩٨/١٠

(٣) في " الضعفاء ": " تمرا ".

(٤) كذا الأصل، والوجه " جنبا " وحذفت الالف لمراعاة " ذنب " والجنب: شق الشاة، وفي " الضعفاء " ١ / ٨٨: جنبا.

(٥) أخرجه أحمد ١ / ٢٧٥ و٣٠٦، والنسائي ٣ / ٩ في السهو: باب الرخصة في الالتفات =." (١)

"مسلم، من طريق إسماعيل بن جعفر، عن عبد الله بن عبد الرحمن، وهو أبو طوالة.

ولم يخرج البخاري لأبي يونس شيئا فيما علمت - والله أعلم -.

قال أبو عبد الله الحاكم - وذكر سادة من أئمة التابعين بالمدينة، كابن المسيب، ومن بعده - قال: فما ضربت أكباد الإبل من النواحي إلى أحد منهم دون غيره، حتى انقرضوا، وخلا عصرهم، ثم حدث مثل ابن شهاب، وربيعة، ويحيى بن سعيد، وعبد الله بن يزيد بن هرمز، وأبي الزناد، وصفوان بن سليم، وكلهم يفتي بالمدينة، ولم ينفرد واحد منهم بأن ضربت إليه أكباد الإبل، حتى خلا هذا العصر، فلم يقع بهم التأويل في عالم أهل المدينة.

ثم حدث بعدهم مالك، فكان مفتيها، فضربت إليه أكباد الإبل من الآفاق، واعترفوا له، وروت الأئمة عنه ممن كان أقدم منه سنا، كالليث عالم أهل مصر، والمغرب، وكالأوزاعي عالم أهل الشام ومفتيهم، والثوري، وهو المقدم بالكوفة، وشعبة عالم أهل البصرة.

إلى أن قال: وحمل عنه قبلهم يحيى بن سعيد الأنصاري حين ولاه أبو جعفر قضاء القضاة، فسأل مالكا أن يكتب له مائة حديث حين خرج إلى العراق، ومن قبل كان ابن جريج حمل عنه.

أبو مصعب: سمعت مالكا يقول:

دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين، وقد نزل على مثال له -يعني: فرشه- وإذا على بساطه دابتان، ما تروثان ولا تبولان، وجاء صبي يخرج ثم يرجع، فقال لي: أتدري من هذا؟

قلت: لا.

قال: هذا ابني، وإنما يفزع من هيبتك.

ثم ساءلني عن أشياء، منها حلال ومنها حرام، ثم قال لي: أنت -والله- أعقل الناس، وأعلم الناس.

قلت: لا والله يا أمير المؤمنين!

قال: بلى، ولكنك تكتم.

ثم قال: والله لئن بقيت، لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف، ولأبعثن به إلى." (٢)

"وقيل: "لا تؤاخ الفاجر فإنه يزين لك فعله، ويحب لو أنك مثله، ويزين لك أسوء خصاله، ومدخله عليك ومخرجه من عندك شين وعار. ... ولا الأحمق فإنه يجتهد بنفسه لك ولا ينفعك، وربما أراد أن ينفعك فيضرك، فسكوته خير من نطقه، وبعده خير من قربه، وموته خير من حياته. ... ولا الكذاب فإنه لا ينفعك معه عيش، ينقل حديثك، وينقل الحديث

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة الذهبي، شمس الدين ٣٦٦/١١

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة الذهبي، شمس الدين ٦١/٨

إليك، حتى كأنه ليحدث بالصدق فيصدق. (١)

وقال بعض الحكماء: "من أخلاق الحمق: العجلة والخفة والجفاء والغرور والفجور والسفه والجهل والتواني والخيانة والظلم والضياع والتفريط والغفلة والسرور والخيلاء والفجر والمكر، وإن استغنى بطر، وإن افتقر قنط، وإن فرح أشر، وإن قال فحش، وإن سأل ألح، وإن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه، وإن ضحك نهق، وإن بكى خار".

وقيل: "يعرف الأحمق بست خصال: الغضب من غير شيء، والإعطاء في غير حق، والكلام من غير منفعة، والثقة بكل أحد، وإفشاء السر، وأن لا يفرق بين عدوه وصديقه، ويتكلم ما يخطر على قلبه، ويتوهم أنه أعقل الناس".

وقال أبو حاتم بن حيان الحافظ: من علامات الحمق سرعة الجواب، وترك التثبت، والإفراط في الضحك، وكثرة الالتفات، والوقيعة في الأخيار، والاختلاط بالأشرار. فمن ابتلي بصحبة الأحمق فليكثر من حمد الله على ما وهب له مما حرمه ذاك.

قال محمد الشامي:

---

(١) – روي هذا الكلام عن الإمام علي رضي والله عنه.." (١)

"لنا جليس ترك للأدب ... جليسه من قوله في تعب

يغضب جهلا عند حال الرضى ... ومنه يرضى عند حال الغضب (١)

صداقة الكسلان ومجالسته

من علامة الخذلان مصاحبة الكسلان، ومفارقة الاخوان، والبعد عن خلال الإيمان، قال الشاعر:

لا تصحب الكسلان في حاجة ... كم صالح بفساد آخر يفسد

عدوى البليد إلى الحديد سريعة ... والجمر يوضع في الرماد فيخمد (٢)

فالكسل الداء، والعاقل لا يكسل بل يجد ويجتهد في عمله، والمؤمن يستعيذ بالله من الكسل ويشمر للجد في العمل، وفي الحديث النبوي الشريف: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال) . (٣)

صداقة العدو

أعقل الناس من استطاع أن يحول العدو إلى صديق، لا أن يتذلل للعدو ويداهنه في الصداقة خشية ضره، فذلك نكد ومرض، قال المتنبي:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدوا له ما من صداقته بد

---

(١) صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال حسين بن محمد المهدي ٦٧٩/١

(١) – أخبار الحمقى والمغفلين تصنيف الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن الجوزي القرشي البغدادي، شرحه عبد الأمير مهنى، ص٣٧، الناشر: دار الفكر اللبناني الطبعة الأولى ١٤١٠هـ١٩٩٠م.

(٢) – هذا البيت ينسب للخوارزمي ، وانظر الموسوعة الشعرية ص٣١٢.

(٣) – أخرجه البخاري في صحيحه باب من غزا بصبي للخدمة حديث (٢٦٧٩) .." [١]

"وحيث استطرد القلم ذكر التتار وفعلهم القبيح فلا بأس يشرح حالهم على الاختصار ولنقتصر على الواقعتين العظيمتين واقعة جنكزخان وحفيده هولاكو فنقول

لما كانت سنة ست عشرة وستمائة كان فيها ظهور جنكزخان وجنوده وعبورهم نهر جيحون وهي الواقعة التي ما سطر مثلها المؤرخون والمصيبة التي ما عاينها الأولون والداهية التي ما خطرت ببال والكاينة التي تكاد ترجف عندها الجبال أجمع الناس على أن العالم مذ خلق الله تعالى آدم إلى زمانها لم يبتلوا بمثلها وأن ما فعله بخت نصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب بيت المنقدس يقصر عن فعلها

قال الحافظ عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الثير وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى ما قتلوا فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أضعاف بني إسرائيل ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتنفى الدنيا إلا يأجودج ومأجوج وأما الدجال فإنه يبقى على من ابتعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

قلت وحيث كنا في أول في هذا الكتاب ذكرنا أنه كتاب تاريخ وأدب وفقه وحديث لاق بنا أن نشرح هذا الأمر العظيم على وجه الاختصار ونحكى هذا الخطب الجسيم الذي أظلم البصائر وأعمى الأبصار فنقول

كان القان الأعظم جنكزخان طاغية التتار وملكهم الأول الذي خرب البلاد وأباد العباد يسمى تموجين وكانوا ببادية الصين وهم من أصبر الناس على القتال وأشجعهم فملكوا جنكزخان عليهم وأطاعوه طاعة العباد المخلصين لرب العالمين

وكان مبدأ ملكه في سنة سبع وتسعين وخمسمائة بعد وقائع اتفقت له هنالك تقضى المرء عند سماعها العجب العجاب لا نرى التطويل بشرحها

ولا زال أمره يعظم ويكبر وكان من أعقل الناس وأخبرهم بالحروب ووضع له شرعا اخترعه ودينا ابتدعه لعنه الله الياسا لا يحكمون إلا به وكان كافرا يعبد الشمس

وكان السلطان الأعظم للمسلمين هو السلطان علاء الدين خوارز مشاه محمد بن تكش وكان ملكا عظيما اتسعت ممالكه وعظمت هيبته وأذعنت له العباد ودخلت تحت هكمه وخلت تلك الديار من ملك سواه لأنه قهر الناس كلهم وصار الناس كلهم تحت حكمه رجلا فاضلا كريما حليما خيرا وكان له عشرة آلاف مملوك كل منهم يصلح للملك وكانت عساكره

(١) صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال حسين بن محمد المهدي ٦٨٠/١

عدد الحصا لا يعرف أولها من آخرها فتجبر وطغى وأرسل إلى خليفة الوقت وهو الناصر لدين الله الذي لا يصطلي لمكره بنار ولا يعامل في أحواله بخداع يقول له كن معي كما كانت الخلفاء قبلك مع سلاطين السلجوقية كألب رسلان وملكشاه وأقربهم بنا عهدا السلطان سنجر فيكون أمر بغداد والعراق لي ولا يكون لك إلا الخطبة فيقال والله أعلم إن الخليفة جهز رسله إلى جنكزخان يحركه عليه

وأما جنكزخان فإنه لما علم عظمة خوارزمشاه شرع في عقد التوادد بينه وبينه علما من جنكزخان بأنه لا يقدر على معاداة خوارزمشاه وأرسل إليه الهدايا المفتخرة والتقادم السنية كل ذلك وخوارزمشاه لا يرضى باصطناعه ويدل بعظم ملكه ليقضي الله أمرا كان مفعولا

وجرت في أثناء ذلك فصول يطول شرحها آخرها أن خوارزمشاه منع التجار أن تسير من بلاده إلى بلاد جنكزخان فانقطعت أخبار بلاده عن جنكزخان زمنا." (١)

"كان القان الأعظم جنكزخان طاغية التتار وملكهم الأول الذي خرب البلاد وأباد العباد يسمى تموجين وكانوا ببادية الصين وهم من أصبر الناس على القتال وأشجعهم فملكوا جنكزخان عليهم وأطاعوه طاعة العباد المخلصين لرب العالمين

وكان مبدأ ملكه في سنة سبع وتسعين وخمسمائة بعد وقائع اتفقت له هنالك تقضى المرء عند سماعها العجب العجاب لا نرى التطويل بشرحها

ولا زال أمره يعظم ويكبر وكان من أعقل الناس وأخبرهم بالحروب ووضع له شرعا اخترعه ودينا ابتدعه لعنه الله سماه الياسا لا يحكمون إلا به وكان كافرا يعبد الشمس

وكان السلطان الأعظم للمسلمين هو السلطان علاء الدين خوارز مشاه محمد بن تكش وكان ملكا عظيما اتسعت ممالكه وعظمت هيبته وأذعنت له العباد ودخلت تحت حكمه وخلت تلك الديار من ملك سواه لأنه قهر الناس كلهم وصار الناس كلهم تحت حكمه وكان رجلا فاضلا كريما حليما خيرا وكان له عشرة آلاف مملوك كل منهم يصلح للملك وكانت عساكره عدد الحصا لا يعرف أولها من آخرها فتجبر وطغى وأرسل إلى خليفة الوقت وهو الناصر لدين الله الذي لا يصطلي لمكره بنار ولا يعامل في أحواله بخداع يقول له كن معي كما كانت الخلفاء قبلك مع سلاطين السلجوقية كألب رسلان وملكشاه وأقربهم بنا عهدا السلطان سنجر فيكون أمر بغداد والعراق لي ولا يكون لك إلا الخطبة فيقال والله أعلم إن الخليفة جهز رسله إلى جنكزخان يحركه عليه

وأما جنكزخان فإنه لما علم عظمة خوارزمشاه شرع في عقد التوادد بينه وبينه علما من جنكزخان بأنه لا يقدر على معاداة خوارزمشاه وأرسل إليه الهدايا المفتخرة والتقادم السنية كل ذلك وخوارزمشاه لا يرضى باصطناعه ويدل بعظم ملكه ليقضي الله أمرا كان مفعولا

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي السبكي، تاج الدين ٣٢٩/١

وجرت في أثناء ذلك فصول يطول شرحها آخرها أن خوارزمشاه منع التجار أن تسير من بلاده إلى بلاد جنكزخان فانقطعت أخبار بلاده عن جنكزخان زمنا." (١)

"وروى سعيد بن أبي مريم عن أشهب بن عبد العزيز قال: رأيت أبا حنيفة بين يدي مالك كالصبي بين يدي أمه (١)، فهذا يدل على حسن أدب أبي حنيفة وتواضعه مع كونه أسن من مالك بثلاث عشرة سنة.

إسماعيل القاضي، حدثنا أبو منصور، سمعت مالكا يقول: دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين وهو على فراشه، وإذا صبي يخرج ثم يرجع، فقال لي:

أتدري من هذا؟ فقلت: لا، قال: ابني وإنما يفزع من هيبنا، قال: ثم ساءلني عن أشياء منها حلال ومنها حرام، ثم قال لي: والله أنت أعقل الناس وأعلم الناس، قلت لا والله يا

أمير المؤمنين. قال: بلى ولكنك تكتم، لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف، ولأبعثن به إلى الآفاق فأحملهم عليه.

ابن وهب. قال مالك: سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة، ما حدثت بها قط، ولا أحدث بها.

نصر بن علي الجهضمي. حدثني حسين بن عروة قال: قدم المهدي فبعث إلى مالك بألفي دينار أو قال بثلاثة آلاف دينار، ثم أتاه الربيع فقال: إن أمير المؤمنين يحب أن تعاد له إلى مدينة السلام: فقال مالك: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون) والمال عندي على حاله.

قال ابن سعد: حدثني محمد بن عمر قال: كان مالك يأتي المسجد يشهد الصلوات والجنائز، ويعود المرضى، ويقضي الحقوق؛ ويجلس في المسجد. ثم ترك الجلوس فيه فكان يصلي وينصرف، وترك شهود الجنائز

---

(١) هذه الحكاية خطأ، فان أبا حنيفة توفي وأشهب صبي له نحو خمس سنين، فان صح السند فلعل الصواب «رأيت محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة». (هامش تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٩).." (٢)

"وقال كان الأطباء يقيمون أنفسهم مقام الأمراء

والمرضى مقام المأمورين الذين لا يتعدون ما حد لهم فكان الطب في أيامهم أنجع فلما حال الأمر في زماننا فصار العليل بمنزلة الأمير والطبيب بمنزلة المأمور وخدم الأطباء رضا الإعلاء وتركوا خدمة أبدانهم فقل الانتفاع بهم

وقال أيضا كان الناس قديما يجتمعون على الشراب والغناء فيتفاضلون في ذكر ما تعمله الأشربة في الأمزجة والألحان في قوة الغضب وما يرد كل واحد منهامن أنواعه وهم اليوم إذا اجتمعوا فإنما يتفاضلون بعظم الأقداح التي يشربونها

وقال من عود من صباه القصد في التدبير كانت حركات شهواته معتدلة فأما من اعتاد أن لا يمنع شهواته منذ صباه ولا يمنع نفسه شيئا مما تدعوه إليه فذلك يبقى شرها

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي السبكي، تاج الدين ١/ ٣٣٠

(٢) طبقات المفسرين للداوودي الداوودي، شمس الدين ٢/ ٢٩٧

وذلك عن كل شيء يكثر الرياضة في الأعمال التي تخصه يقوى وكل شيء يستعمل السكون يضعف

وقال من كان من الصبيان شرها شديد القحة فلا ينبغي أن يطمع في صلاحه البتة ومن كان منهم شرها ولم يكن وقحا فلا ينبغي أن يؤيس من صلاحه ويقدر أنه إن تأدب يكون إنسانا عفيفا

وقال الحياء خوف المستحي من نقص يقع به عند من هو أفضل منه

وقال يتهيأ للإنسان أن يصلح أخلاقه إذا عرف نفسه فإن معرفة الإنسان نفسه هي الحكمة العظمى وذلك أن الإنسان لإفراط محبته لنفسه بالطبع يظن بها من الجميل ما ليست عليه

حتى أن قوما يظنون بأنفسهم أنهم شجعاء وكرماء وليسوا كذلك

فأما العقل فيكاد أن يكون الناس كلهم يظنون بأنفسهم التقدم فيه وأقرب الناس إلى أن يظن ذلك بنفسه أقلهم عقلا

وقال العادل من قدر على أن يجور فلم يفعل والعاقل من عرف كل واحد من الأشياء التي في طبيعة الإنسان معرفتها على الحقيقة

وقال العجب ظن الإنسان بنفسه أنه على الحال التي تحب نفسه أن يكون عليها من غير أن يكون عليها

وقال كما أن من ساءت حال بدنه من مرض به وهو ابن خمسين سنة ليس يستسلم ويترك بدنه حتى يفسد ضياعا بل يلتمس أن يصح بدنه وإن لم يفده صحة تامة كذلك ينبغي لنا أن لا نمتنع من أن نزيد أنفسنا صحة على صحتها وفضيلة على فضيلتها وإن كنا لا نقدر أن نلحقها بفضيلة نفس الحكيم

وقال يتهيأ للإنسان أن يسلم من أن يظن بنفسه أنه أعقل الناس إذا قلد غيره امتحان كل ما يفعله في كل يوم وتعريفه صواب فعله من خطئه ليستعمل الجميل ويطرح القبيح

ورأى رجلا تعظمه الملوك لشدة جسمه فسأل عن أعظم ما فعله فقالوا أنه حمل ثورا." (١)

"وقال بعض الصالحين الهوى مركب ذميم يسير بك في مضلات الفتن ومرتع وخيم يقعدك في مواطن المحن ويعلقك في حبائل الأحن ويقال من كان لعنان هواه أملك كان لطرق الرشاد أسلك ويقال بغلبة سلطان العقل على الهوى ينال السودد وقال شاعر

واعلم بأنك لن تسود ولن ترى ... طرق الرشاد إذا اتبعت هواكا

آخر

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى ... إلى كل ما فيه عليك مقال

ويقال عبد الهوى أذل من عبد الرق وقالوا أعقل الناس من عصى مراده ولم يعط الهوى قياده شاعر

إن الردى تبع الهوى ... ومن الهوى حلو ومر

اقنع بعيشك ترضه ... واملك هواك وأنت حر

وقال علي بن الحسين المغربي

---

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ابن أبي أصيبعة ص/١٣٢

ما للمطيع هواه ... من الملام ملاذ

فاختر لنفسك إما ... عرض وإما التذاذ

وقال حكيم لولده اعص هواك وأطع من شئت قال بعضهم

إذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى ... فقد ثكلته عند ذاك ثواكله

وقد أشمت الأعداء حقا بنفسه ... وقد وجدت فيه مقالا عواذله." (١)

"آخر

وإذا تواخاك امرؤ بقبيحه ... فأجبه بالاحسان والاجمال

حكى أن رجلا عاب رجلا عند المأمون فقال له المأمون قد استدللنا على كثرة عيوبك بما تذكر من عيوب الناس لأن طالب العيوب إنما يطلبها بقدر ما هي فيه لا بقدر ما فيه منها وقال الشاعر

أرى كل إنسان يرى عيب غيره ... ويعمى عن العيب الذي هو فيه

وما خير من تخفى عليه عيوبه ... ويبدله بالعيب عيب أخيه

وقالت رابعة العدوية الانسان إذا نصح لله في نفسه أطلعه الجبار على مساوئ عمله فيتشاغل بها عن خلقه

والعاقل من جعل اغضاءه عن المساوئ ... حصنا إليه من ذم اللئام يأوي

يقال ربما سخط العاقل فيبدي الرضا ويغضي مثل جمر الغضا وقيل لبزرجمهر من أعقل الناس قال من لم يجعل سمعه غرضا لسماع الفحشاء وكان الغالب عليه التغافل وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من امتطى زمام التغافل ملك زمام المروأة وقالوا أشرف الكرم تغافلك عما تعلم ويقال التغافل من الكرام يمنحهم الاجلال والاكرام أنشد الباخرزي في الدمية لأبي الفضل عبد الله بن محمد الحيري رحمه الله تعالى

يا من يعرض بالخنا متوهما ... جهلي به مهلا فإنك جاهل

كم مرة أغضيت منك على قذى ... لولا النهى لرأيت ما أنا فاعل." (٢)

"آخر

ويشتمني النذل اللئيم فلا أرى ... كفؤا لعرضي عرضه فأجامله

أجر له ذيلي كأني غافل ... أضاحكه طورا وطورا أخاتله

وقيل لبعضهم من العاقل قال الفطن المتغافل قال الشاعر

أعرض عن العوراء إن أسمعتها ... وأسكت كأنك غافل لم تسمع

ولبعضهم معربا بكرمه ومعرفا بشيمه

وإني لأغضى عن أمور كثيره ... ومن دونها قطع الحبيب المواصل

---

(١) غرر الخصائص الواضحة الوطواط ص/١١٨

(٢) غرر الخصائص الواضحة الوطواط ص/١٣٥

وأعرض حتى يحسب الناس أنني ... جهلت الذي آتى ولست بجاهل

آخر

وأغضى عن العوراء حتى يقال لي ... بأذنيه وقر عندها حين ينطق

حياء وإكراما لعرض أصونه ... ولا خير في عرض يظل يمزق

آخر

دعى ملاحاة من هجاني ... يا نفس إن تغفلي تصاني

إذا حكيت البذا عليه ... فما هجاني سوى لساني

وأما ما قبل في التغاضي والاحتمال ... والكف عن جواب قبيح المقال

قالوا أعقل الناس من لم يتجاوز الصمت في عقوبة السفيه وقال بعض الحكماء السكوت عن السفيه جواب والاعراض عنه عقاب قال الشاعر." (١)

"ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحا وسرورا ولذة أكمل من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما، وها هنا يمتاز العقل من الهوى.

الفائدة السابعة: أنه يخلص القلب من أسر الشهوة؛ فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه؛ فهو، كما قيل:

طليق برأي العين وهو أسير

ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكن منه عدوه، فسامه سوء العذاب، وصار:

كعصفورة في كف طفل يسومها ... حياض الردى والطفل يلهو ويلعب

الفائدة الثامنة: أنه يسد عنه بابا من أبواب جهنم؛ فإن النظر باب الشهوة الحاملة على مواقعة الفعل، وتحريم الرب تعالى وشرعه حجاب مانع من الوصول؛ فمتى هتك الحجاب ضري (١)، ولم تقف نفسه منه عند غاية؛ فإن النفس لا تقنع بغاية تقف عندها؛ وذلك أن لذتها في الشيء الجديد؛ فصاحب الطارف لا يقنعه التليد، وإن كان أحسن منظرا، وأطيب مخبرا؛ فغض البصر يسد هذا الباب الذي عجزت الملوك عن استيفاء أغراضهم فيه.

الفائدة التاسعة: أنه يقوي العقل، ويزيده، ويثبته؛ فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصل إلا من خفة العقل وطيشه، وعدم ملاحظته للعواقب؛ فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب، ومرسل النظر لو علم ما تجني عواقب نظره عليه لما أطلق بصره، قال الشاعر:

وأعقل الناس من لم يرتكب سببا ... حتى يفكر ما تجني عواقبه

الفائدة العاشرة: أنه يخلص القلب من سكر الشهوة، ورقدة الغفلة؛ فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله

---

(١) غرر الخصائص الواضحة الوطواط ص/١٣٦

والدار الآخرة، ويوقع في سكرة العشق كما قال تعالى عن عشاق الصور: (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) [الحجر: ٧٢]

فالنظرة كأس من خمر، والعشق هو سكر ذلك الشراب، وسكر العشق أعظم من سكر الخمر؛ فإن سكران الخمر يفيق، وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات، كما قيل:

سكران: سكر هوى وسكر مدامة ... ومتى إفاقة من به سكران

وفوائد غض البصر وآفات إرساله أضعاف أضعاف ما ذكرنا، وإنما نبهنا عليه تنبيها (٢).

فحري بالعاقل اللبيب الذي يريد السلامة لنفسه، ويخشى المعاطب عليها_أن يغض بصره، وأن يجاهد نفسه على ذلك غاية المجاهدة؛ فعصرنا هذا عصر الفتن من مجلات، وقنوات فضائية ونحو ذلك مما يصعب الخلاص منه إلا بتوفيق من الله، وصدق توكل عليه، وقوة إرادة وعزيمة.

---

(١) ضري: أي اعتاد، وأولع، وتجرأ.

(٢) روضة المحبين ص١١٣_١٢١ بتصرف يسير، وانظر كلاما عظيما حول هذا المعنى في الجواب الكافي ص٤٢٤_٤٢٩.." (١)

"تحل بآداب النفس، من العفاف، والحلم، والصبر، والتواضع للحق، وسكون الطائر، من الوقار والرزانة، وخفض الجناح، متحملا ذل التعلم لعزة العلم، ذليلا للحق.

وعليه، فاحذر نواقض هذه الآداب، فإنها مع الإثم تقيم على نفسك شاهدا على أن في العقل علة، وعلى حرمان من العلم والعمل به، فإياك والخيلاء، فإنه نفاق وكبرياء، وقد بلغ من شدة التوقي منه عند السلف مبلغا.

ومن دقيقه ما أسنده الذهبي في ترجمة عمرو بن الأسود العنسي المتوفى في خلافة عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى: أنه كان إذا خرج من المسجد قبض بيمينه على شماله، فسئل عن ذلك؟ فقال: مخافة أن تنافق يدي.

قلت: يمسكها خوفا من أن يخطر بيده في مشيته، فإن ذلك من الخيلاء اهـ.

وهذا العارض عرض للعنسي رحمه الله تعالى.

٥) واحذر داء الجبابرة:

(الكبر)، فإن الكبر والحرص والحسد أول ذنب عصي الله به، فتطاولك على معلمك كبرياء، واستنكافك عمن يفيدك ممن هو دونك كبرياء، وتقصيرك عن العمل بالعلم حمأة كبر، وعنوان حرمان.

العلم حرب للفتى المعالي كالسيل حرب للمكان العالي

فالزم – رحمك الله – اللصوق إلى الأرض، والإزراء على نفسك، وهضمها، ومراغمتها عند الاستشراف لكبرياء أو غطرسة

---

(١) فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب محمد نصر الدين محمد عويضة ٢٧٨/٤

أو حب ظهور أو عجب .. ونحو ذلك من آفات العلم القاتلة له، المذهبة لهيبته، المطفئة لنوره، وكلما ازددت علما أو رفعة في ولاية، فالزم ذلك، تحرز سعادة عظمى، ومقاما يغبطك عليه الناس.

وعن عبد الله ابن الإمام الحجة الراوية في الكتب السنة بكر بن عبد الله المزني رحمهما الله تعالى، قال:

"سمعت إنسانا يحدث عن أبي، أنه كان واقفا بعرفة، فرق، فقال: لولا أني فيهم، لقلت: قد غفر لهم".

خرجه الذهبي، ثم قال:

"قلت: كذلك ينبغي للعبد أن يزري على نفسه ويهضمها"ا هـ.

﴿تنبيه﴾: (واحذر أخو الكبر في السوء وهو العجب والعياذ بالله تعالى فإنه من المهلكات:

(حديث أنس رضي الله عنه الثابت في صحيح الجامع) أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر و العلانية و العدل في الرضا و الغضب و القصد في الفقر و الغنى و ثلاث مهلكات: هوى متبع و شح مطاع و إعجاب المرء بنفسه.

٦) التحلي بالقناعة والزهادة، وحقيقة الزهد: "الزهد بالحرام، والابتعاد عن حماه، بالكف عن المشتهات وعن التطلع إلى ما في أيدي الناس".

[*] ويؤثر عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

"لو أوصى إنسان لأعقل الناس، صرف إلى الزهاد".." (١)

"وكل من نفى أن يكون العقل جوهرا أثبت محله في القلب؛ لأن القلب محل العلوم كلها. قال الله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ [الحج: ٤٦]. فدلت هذه الآية على أمرين: أحدهما: أن العقل علم، والثاني: أن محله القلب. وفي قوله تعالى: ﴿يعقلون بها﴾، تأويلان: أحدهما: يعلمون بها، والثاني يعتبرون بها. فهذه جملة القول في العقل الغريزي. وقد قيل: العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه حتى قال أصحاب الشافعي رضي الله عنه فيمن أوصى بثلث ماله لأعقل الناس أنه يكون مصروفا في الزهاد؛ لأنهم انقادوا للعقل ولم يغتروا بالأمل. أهـ

(وقال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كتابه ذم الهوى:

اختلف الناس في ماهية العقل اختلافا كثيرا، فقال قوم هو ضرب من العلوم الضرورية.

وقال آخرون هو غريزة يتأتى معها درك العلوم.

وقال آخرون هو قوة يفصل بها بين حقائق المعلومات.

وقال آخرون هو جوهر بسيط وقال قوم هو جسم شفاف.

وقال الحارث المحاسبي هو نور.

وبهذا قال أبو الحسن التميمي من أصحابنا وروى إبراهيم الحربي عن أحمد أنه قال العقل غريزة وقد روى عن المحاسبي أيضا مثله.

---

(١) فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب محمد نصر الدين محمد عويضة ٨/٨١

والتحقيق في هذا أن يقال العقل غريزة كأنها نور يقذف في القلب فيستعد لإدراك الأشياء فيعلم جواز الجائزات واستحالة المستحيلات ويتلمح عواقب الأمور.

وذلك النور يقل ويكثر وإذا قوى ذلك النور قمع بملاحظة العواقب عاجل الهوى. أهـ

(وقال ابن حبان رحمه الله تعالى في روضة العقلاء:

والعقل اسم يقع على المعرفة بسلوك الصواب والعلم باجتناب الخطأ فإذا كان المرء في أول درجته يسمى أديبا ثم أريبا ثم لبيبا ثم عاقلا كما أن الرجل إذا دخل في أول حد الدهاء قيل له شيطان فإذا عتا في الطغيان قيل مارد فإذا زاد على ذلك قيل عبقري فإذا جمع إلى خبثه شدة شر قيل عفريت.

وكذلك الجاهل يقال له في أول درجته المائق ثم الرقيع ثم الأنوك ثم الأحمق ٠ ." (١)

"تحل بآداب النفس، من العفاف، والحلم، والصبر، والتواضع للحق، وسكون الطائر، من الوقار والرزانة، وخفض الجناح، متحملا ذل التعلم لعزة العلم، ذليلا للحق.

وعليه، فاحذر نواقض هذه الآداب، فإنها مع الإثم تقيم على نفسك شاهدا على أن في العقل علة، وعلى حرمان من العلم والعمل به، فإياك والخيلاء، فإنه نفاق وكبرياء، وقد بلغ من شدة التوقي منه عند السلف مبلغا.

ومن دقيقه ما أسنده الذهبي في ترجمة عمرو بن الأسود العنسي المتوفى في خلافة عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى: أنه كان إذا خرج من المسجد قبض بيمينه على شماله، فسئل عن ذلك؟ فقال: مخافة أن تنافق يدي.

قلت: يمسكها خوفا من أن يخطر بيده في مشيته، فإن ذلك من الخيلاء اهـ.

وهذا العارض عرض للعنسي رحمه الله تعالى.

٥) واحذر داء الجبابرة:

(الكبر)، فإن الكبر والحرص والحسد أول ذنب عصى لله به، فتطاولك على معلمك كبرياء، واستنكافك عمن يفيدك ممن هو دونك كبرياء، وتقصيرك عن العمل بالعلم حمأة كبر، وعنوان حرمان.

العلم حرب للفتى المعالي كالسيل حرب للمكان العالي

فالزم – رحمك الله – اللصوق إلى الأرض، والإزراء على نفسك، وهضمها، ومراغمتها عند الاستشراف لكبرياء أو غطرسة أو حب ظهور أو عجب .. ونحو ذلك من آفات العلم القاتلة له، المذهبة لهيبته، المطفئة لنوره، وكلما ازددت علما أو رفعة في ولاية، فالزم ذلك، تحرز سعادة عظمى، ومقاما يغبطك عليه الناس.

وعن عبد الله ابن الإمام الحجة الراوية في الكتب السنة بكر بن عبد الله المزني رحمهما الله تعالى، قال:

"سمعت إنسانا يحدث عن أبي، أنه كان واقفا بعرفة، فرق، فقال: لولا أني فيهم، لقلت: قد غفر لهم".

خرجه الذهبي، ثم قال:

"قلت: كذلك ينبغي للعبد أن يزري على نفسه ويهضمها"ا هـ.

---

(١) فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب محمد نصر الدين محمد عويضة ٢٣/٩

﴿تنبيه﴾: (واحذر أخو الكبر في السوء وهو العجب والعياذ بالله تعالى فإنه من المهلكات:

(حديث أنس رضي الله عنه الثابت في صحيح الجامع) أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر و العلانية و العدل في الرضا و الغضب و القصد في الفقر و الغنى و ثلاث مهلكات: هوى متبع و شح مطاع و إعجاب المرء بنفسه.

٦) التحلي بالقناعة والزهادة، وحقيقة الزهد:"الزهد بالحرام، والابتعاد عن حماه، بالكف عن المشتهات وعن التطلع إلى ما في أيدي الناس".

[*] ويؤثر عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

"لو أوصى إنسان لأعقل الناس، صرف إلى الزهاد".." (١)

"لمن لقينا قلنا أي جان ... خره بدي كي درويشان همه غريبان سركردان (١)

يدعون لك وقت الإغلاس (٢) ... فهم صحيحين الأنفاس

وننقد العالم جيد ... نقول لذي المال يا سيد نريد كرامه للمسجد

رطيل شيرق (٣) في الجلاس (٤) ... لنشعله بين الجلاس

كأنكم بي يا خلان ... وأنا مجرد كالشيطان فقد قوي عندي ذا الشان

وقد فشر (٥) في أذني الخناس ... حتى ملا صدري وسواس

فلا تقولوا يا فقوس ... نرى جميع أمرك معكوس المغربي خلف منحوس

ما خلف إلا اغلب دعاس ... والشبل من نسل الهرماس

لكنني (٦) أصلي سمقون ... كشيح (٧) كالدر المكنون وقد صرت في عشقه مجنون

وهل على مثلي من باس ... إن هام بالقد المياس

مثل القمر أبيض أزهر ... بعارض كالآس أخضر من تاه في عشقه يعذر

لو باس قارون ذاك الآس ... هون على قلبو الإفلاس

دعنا نلذ العيش دعنا ... مع رفقة جازوا المعنى فأعقل الناس من غنى

كش البهار (٨) واصمي (٩) بالطاس ... ولا تقف مع قول الناس

---

(١) المعنى: نقول لمن لقينا: يا سيدي أعط الدراويش من نورك فإنهم غرباء هائمون على وجوههم. (سر كردان مستذلون، أفاقون، هائمون) .

(٢) ر: الاعلاس، والمعنى وقت الغلس.

(٣) الشيرق: زيت الشيرج (السيرج) .

---

(١) فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب محمد نصر الدين محمد عويضة ٧٦/٩

(٤) ر: الحلاس؛ والجلاس: القنديل (دوزي أخذ سيرج للجلاس وزيت للسراج) .

(٥) كذا في ر؛ وفي المطبوعة: فسا، وهو أنسب للمعنى.

(٦) كذا في ر؛ وفي المطبوعة: اسمي.

(٧) كشيح: لعله يعني أهيف الكشح.

(٨) في المطبوعة: النهار.

(٩) الصمي: الشرب؛ وفي القصيدة الساسانية (اليتيمة ٣: ٣٥٩) وما ننفك من صمي.." (١)

"السياسة التي كان يتبعها سليمان في تولية الولاة، إذ يستبعد عن الولاية كل من يخشى خطره من بعيد أو قريب.

وكان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، من أقرب المقربين إلى سليمان بن عبد الملك، وكان لموسى يد على المهلب بن أبي صفرة (١)، وقد سأل يزيد يوما موسى: "أريد أن أسألك، فاصغ إلي"، فقال موسى: "سل عما بدا لك"، فقال: "لم أزل أسمع عنك، أنك من أعقل الناس، وأعرفهم بمكايد الحروب، ومداراة الدنيا، فقل لي: كيف حصلت في يدي هذا الرجل (يعني: سليمان بن عبد الملك) بعد ما ملكت الأندلس، وألقيت بينك وبين هؤلاء البحر الزخار (٢)، وتيقنت بعد المرام واستصعابه واستخلصت بلادا أنت اخترعتها، واستكملت رجالا لا يعرفون غير خيرك وشرك، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل والرجال ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك. ثم إنك علمت أن سليمان ولي عهد، وأنه الموالي بعد أخيه، وقد أشرف على الهلاك لا محالة (٣)، وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة، وأحقدت مالكك ومملوكك "يعني سليمان وطارقا"، وما رضا هذا الرجل إلا بعيد، ولكن لا آلو جهدا (٤) "، فقال موسى: "يا ابن الكرام! ليس هذا وقت تعديد، أما سمعت: إذا جاء الحين (٥)، غطى على العين؟! "، فقال يزيد: "ما قصدت بما قلت لك تعديدا وتبكيتا، وإنما قصدت تلقيح العقل، وتنبيه الرأي، وأن أرى ما عندك! "، فقال موسى: "أما رأيت الهدهد يرى الماء تحت الأرض عن بعد، ويقع في

---

(١) أنظر: الإمامة والسياسة (٢/ ٩٤ - ٩٥)، وانظر سيرة المهلب في كتابنا: قادة فتح السند والأفغان.

(٢) البحر الزخار: الطامي الممتلئ الجياش بالأمواج.

(٣) أشرف على الهلاك: أراد أنه قارب الموت لسوء حاله.

(٤) لا آلو جهدا: لا أقصر فيما لدي من الجهد والوسع أن أبذله في إرضائه عنك.

(٥) الحين: الهلاك.." (٢)

"يبرح، فأطال القعود فقال له ابن عباس: هل لك من حاجة فقال: نعم، لي حاجة استحيت أن أسألك عنها بحضرة الملأ قال: سلني عما شئت قال: إني أهابك وأجلك فقال ابن عباس: إنما العالم بمنزلة الوالد لا حشمة على السائل منه،

---

(١) فوات الوفيات ابن شاكر الكتبي ٣٧/٣

(٢) قادة فتح الأندلس محمود شيت خطاب ٣٥٨/١

فمهما أفضيت به إلى أبيك فأفض به إلي فإنه لا عيب عليك عندي فقال: رحمك الله إني شاب لا زوجة لي وربما خشيت العنت على نفسي، وربما استمنيت بذكري فهل لي في ذلك معصية، فأعرض عنه ابن عباس رضي الله عنهما ثم قال: أف وتف، نكاح الأمة خير من هذا، وهذا خير من الزنا، ونكاح الأمة عند علماء العراق حرام على من وجد عشرة دراهم، وعند بعض علماء الحجاز إذا كان واجدا ثلاثة دراهم لم يحل له نكاح الأمة، وعن بعض أصحاب ابن المسيب إن وجد الرجل درهمين حرم عليه الأمة، وقال بعض الناس: أحمق الناس حر تزوج بأمة، وأعقل الناس عبد تزوج بحرة، لأن هذا يعتق بعضه وذلك يرق بعضه، لأنه يرق ولده وقد جاء في كراهة الاستمناء وتحريمه والتغليظ فيه أخبار شديدة.

روينا أن الله عز وجل أهلك أمة من الأمم كانوا يعبثون بمذاكيرهم، وقد أسنده إسماعيل بن أبان عن أنس بن مالك، وسئل أبو محمد عن النساء فقال: الصبر عنهن ولا الصبر عليهن، والصبر عليهن خير من الصبر على النار، وكذلك قال بعض العلماء قبله: معالجة العزبة خير من معالجة النساء وقال بعض علمائنا البصريين من أهل الورع واليقين، وقد سئل عن التزويج في مثل زماننا، فذكر ضيق المكاسب وقلة الحلال وكثرة فساد النساء، فكرهه للورع وأمره بالمدافعة فأعيد عليه في ذلك، فقال إنه يدخل في المعاصي لدخول الإنسان في الآفات وفي المكاسب المحرمات ومن أكله بدينه وتصنعه للخلق، فلا يصلح التزويج في هذالوقت إلا لرجل يدركه من الشبق ما يدرك الحمار إذا نظر إلى أتان، لم يملك نفسه أن يثب عليها حتى يضرب رأسه، وهو لا ينثني، فإن كان الإنسان على مثل هذا الوصف كان التزويج له أفضل، وقد روينا عن قتادة في قوله عز وجل: (ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) البقرة: ٢٨٦، قال الغلمة وعن عكرمة ومجاهد رضي الله عنهما وخلق الإنسان ضعيفا قال: لا يصبر عن النساء.

وروينا عن فياض بن نجيح إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله، وبعضهم يقول: ذهب ثلث دينه، وروينا في نوادر التفسير عن ابن عباس ومن شر غاسق إذا وقب قال: قيام الذكر وقد أسنده بعض الرواة، إلا أنه قال فيه: الذكر إذا دخل ولم يذكر قام، وفي الخبر: إذا تزوج الرجل فقد أحرز نصف دينه، فليتق الله في الشطر الآخر، وفي دعاء البراء بن عازب: أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي ومني، فكان المني إذا امتلأ به خرز." (١)

"ذكر نفسك بجنة عرضها السماوات والأرض

إن جمعت في هذه الدار أو افتقرت أو حزنت أو مرضت أو بخست حقا أو ذقت ظلما فذكر نفسك بالنعيم، إنك إن اعتقدت هذه العقيدة وعملت لهذا المصير، تحولت خسائرك إلى أرباح، وبلاياك إلى عطايا. إن أعقل الناس هم الذين يعملون للآخرة لأنها خير وأبقى، وإن أحمق هذه الخليقة هم الذين يرون أن هذه الدنيا هي قرارهم ودارهم ومنتهى أمانيهم، فتجدهم أجزع الناس عند المصائب، وأندمهم عند الحوادث، لأنهم لا يرون إلا حياتهم الزهيدة الحقيرة، لا ينظرون إلا إلى هذه الفانية، لا يتفكرون في غيرها ولا يعملون لسواها، فلا يريدون أن يعكر لهم سرورهم ولا يكدر عليهم فرحهم، ولو أنهم خلعوا حجاب الران عن قلوبهم، وغطاء الجهل عن عيونهم لحدثوا أنفسهم بدار الخلد ونعيمها ودورها وقصورها، ولسمعوا وأنصتوا لخطاب الوحي في وصفها، إنها والله الدار التي تستحق الاهتمام والكد والجهد.

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد أبو طالب المكي ٢/٣٩٩

هل تأملنا طويلا وصف أهل الجنة بأنهم لا يمرضون ولا يحزنون ولا يموتون، ولا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم، في غرف يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، يسير الراكب في شجرة من أشجارها مائة عام لا يقطعها، طول الخيمة فيها ستون ميلا، أنهارها مطردة قصورها منيفة، قطوفها دانية، عيونها جارية، سررها مرفوعة، أكوابها موضوعة، نمارقها مصفوفة." (١)

"- لا قفل إلا سوف يفتح، ولا قيد إلا سوف يفك، ولا بعيد إلا سوف يقرب، ولا غائب إلا سوف يصل.. ولكن بأجل مسمى.

- ﴿استعينوا بالصبر والصلاة﴾ فهما وقود الحياة، وزاد السير، وباب الأمل، ومفتاح الفرج، ومن لزم الصبر، وحافظ على الصلاة؛ فبشره بفجر صادق، وفتح مبين، ونصر قريب.

- جلد بلال وضرب عذب وسحب وطرد فأخذ يردد: أحد أحد، لأنه حفظ ﴿قل هو الله أحد﴾ ، فلما دخل الجنة احتقر ما بذل، واستقل ما قدم لأن السلعة أغلى من الثمن أضعافا مضاعفة.

- ما هي الدنيا؟ هل هي الثوب إن غاليت فيه خدمته وما خدمك، أو زوجة إن كانت جميلة تعذب قلبها بحبها، أو مال كثر أصبحت له خازنا.. هذا سرورها فكيف حزنها؟

- كل العقلاء يسعون لجلب السعادة بالعلم أو بالمال أو بالجاه، وأسعدهم بها صاحب الإيمان لأن سعادته دائمة على كل حال حتى يلقى ربه.

- من السعادة سلامة القلب من الأمراض العقدية كالشك والسخط والاعتراض والريبة والشبهة والشهوة.

- أعقل الناس أعذرهم للناس، فهو يحمل تصرفاتهم وأقوالهم على أحسن المحامل، فهو الذي أراح واستراح.

- ﴿فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ اقنع بما عنك، ارض بقسمك، استثمر ما عندك من موهبة، وظف طاقتك فيما ينفع واحمد الله على ما أولاك.." (٢)

"من العمران إلى الخراب.

قال: صدقت يا أبا حازم.

فكيف القدوم على الله؟

قال: أما المحسن، فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء، فكالآبق يقدم على مولاه.

فبكى سليمان، وقال: ليت شعري، ما لنا عند الله يا أبا حازم؟

فقال: اعرض نفسك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله.

قال: وأنى أصيب تلك المعرفة من كتابه؟

قال: عند قوله تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم. وإن الفجار لفي جحيم﴾ .

---

(١) لا تحزن عائض القرني ص/٧٠

(٢) لا تحزن عائض القرني ص/٥٧١

قال سليمان: يا أبا حازم! فأين رحمة الله؟

قال: قريب من المحسنين.

قال: يا أبا حازم! من أعقل الناس؟

قال: من تعلم الحكمة وعلمها الناس.

قال: من أحمق الناس؟

قال: من حط في هوى رجل وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره.." (١)

"من كتم سره كان الخيار في يده.

أشقى الولاة من شقيت به رعيته.

اتقوا من تبغضه قلوبكم.

أعقل الناس أعذرهم للناس.

لا تؤخر عمل يومك لغدك.

اجعلوا الرأس رأسين.

أخيفوا الهوام قبل أن تخيفكم.

لي على كل خائن أمينان الماء والطين. -[٤٥٢]-

أكثروا من العيال فإنكم لا تدرون بمن ترزقون

لو أن الشكر والصبر بعيران لما باليت بأيهما ركبت.

من لم يعرف الشركان جديرا أن يقع فيه

ما الخمر صرفا بأذهب للعقول من الطمع

قلما أدبر شيء فأقبل.

إلى الله أشكو ضعف الأمين وخيانة القوى.

مر ذوى القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا.

غمض عن الدنيا عينك، وول عنها قلبك، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك، فقد رأيت مصارعها، وعانيت سوء آثارها على أهلها، وكيف عرى من كست، وجاع من أطعمت، ومات من أحيت.

إياكم والقحم التي من هوى فيها أتت على نفسه أو ألمت به.

احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية فوا لله لهى أخوفهما عندي عليك، أن تستدرجك وتخدعك.

وكتب إلى ابنه عبد الله: أما بعد فإنه من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده، فلتكن التقوى عماد بصرك، وجلاء قلبك واعلم أنه لاعمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسنة له، ولا مال لمن لا رفق له، ولا

---

(١) مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن ط الراية ابن الجوزي ٢/٢٨٦

جديد لمن لا خلق له، والسلام.

ليس لأحد عذر في تعمد ضلالة حسبها هدى، ولا ترك حق حسبه ضلالة.

شرار الأمور محدثاتها، واقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة.

لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.

لا تسكنوا نساءكم الغرف، ولا تعلموهن الكتابة، واستعينوا عليهن بالعرى وعودوهن "لا" فإن "نعم" تجرؤهن.

وسأل رجلا عن شيء، فقال: الله أعلم، فقال رضى الله عنه: لقد شقينا إن كنا لا نعلم أن الله أعلم، إذا سئل أحدكم عن شيء لا يعلمه فليقل لا أدري. وكان يقول: إذا لم أعلم أنا فلا علمت ما رأيت.

الدنيا أمل محتوم، وأجل منتقص (لعل أصله"وأجل منقض") ، وبلاغ إلى دار غيرها، وسير إلى الموت ليس فيه تصريح، فرحم الله امرأ فكر في أمره، ونصح لنفسه، وراقب ربه، واستقال ذنبه

إذا تناجى القوم في دينهم دون العامة فإنهم في تأسيس ضلالة. -[٤٥٣]-

إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة مفسدة للجوف، مؤدية إلى السقم.

من يئس من شيء استغنى عنه.

الدين ميسم الكرام.

رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبي.

السيد هو الجواد حين يسأل، الحليم حين يستجهل، البار بمن يعاشره.

أفلح من حفظ من الطمع والغضب والهوى نفسه.." (١)

"وعن ابن جحادة١ قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أعقل الناس أعذرهم لهم"٢.

وعن كهمس بن الحسن٣: "أن رجلا تنفس عند عمر كأنه يتحازن٤، فلكزه أو قال: "فلكمه"٥.

وعن زيد بن وهب قال: رأى عمر رضي الله عنه قوما يتبعون أناسا، قال: فرفع الدرة، فقالوا: "يا أمير المؤمنين، اتق الله، قال: "أما علمتم أنها فتنة للمتبوع مذلة للتابع"٦.

وعن مجاهد قال: "كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينهى أن يعرض الحادي بذكر النساء وهو محرم"٧.

وعن سالم عن أبيه غيلان بن سلمة الثقفي٨ أسلم وتحته عشر نسوة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اختر منهن أربعا"، فلما كان في عهد عمر رضي الله عنه

---

١ محمدبن جحادة، ثقة، من الخامسة، توفي سنةإحدىوثلاثين ومئة. (التقريب ص٤٧١) .

٢ ابن الجوزي: مناقب ص ١٩٤، وهو ضعيف، لانقطاعه بين محمد بن جحادة وعمر، وابن شبه: تاريخ المدينة ٢/٧٧١، عن القاسم بن الوليد وهو منقطع.

---

(١) مجمع الأمثال الميداني، أبو الفضل ٢/٤٥١

٣ التميمي، ثقة، توفي سنة تسع وأربعين ومئة. (التقريب ص ٤٦٢) .

٤ الحزن والحزن: نقيض الفرح، وهو خلاف السرور. (لسان العرب ١١١/١٣) .

٥ ابن الجوزي: مناقب ص ١٩٤، وهو ضعيف لانقطاعه بين كهمس وعمر.

٦ لم أجده.

٧ ابن الجوزي: مناقب ص ١٩٤، وهو ضعيف، لانقطاعه بين مجاهد وعمر.

٨ أسلم بعد فتح الطائف، وتوفي في آخر خلافة عمر. (الإصابة ١٩٣/٥) .." (١)

"يخرج عنك، وفى كل ليلة تأتى عليك لا تزداد من الدنيا إلا بعدا، ومن الآخرة إلا قربا، وعلى إثرك طالب لا تفوته، وقد نصب لك علم لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العلم، وما أوشك أن لحقك الطالب، وإنا وما نحن فيه وأنت زائل، والذى نحن صائرون إليه باق، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

...

ودخل سليمان بن عبد الملك المدينة، فأقام بها ثلاثا، فقال: ما هاهنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحدثنا؟

فقيل له: ها هنا رجل يقال له أبو حازم، فبعث إليه فجاء.

فقال سليمان: يا أبا حازم، ما هذا الجفاء؟ قال أبو حازم: وأى جفاء رأيت منى؟ فقال له: أتاني وجوه المدينة كلهم ولم تأتنى؟! فقال: ما جرى بينى وبينك معرفة آتيك عليها. قال صدق الشيخ. يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلو من العمران إلى الخراب.

قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم على الله تعالى؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله فرحا مسرورا، وأما المسئ فكالآبق يقدم على مولاه خائفا محزونا.

فبكى سليمان وقال: ليت شعرى، ما لنا عند الله يا أبا حازم، فقال أبو حازم: اعرض نفسك على كتاب الله؟ قال: عند قوله ﴿إن الأبرار لفي نعيم (١٣) وإن الفجار لفي جحيم (١٤)﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤]. قال: يا أبا حازم، فأين رحمة الله؟ قال: ﴿قريب من المحسنين﴾ [الأعراف: ٥٦] قال: يا أبا حازم، من أعقل الناس؟ قال: من تعلم الحكمة وعلمها الناس. قال: فمن أحمق الناس؟ قال: من حط نفسه في هوى رجل وهو ظالم، فباع أخرته بدنيا غيره. قال: يا أبا حازم فما أسمع الدعاء؟ قال: دعاء المخبتين. قال: فما أزكى الصدقة؟ قال: جهد المقل.

قال يا أبا حازم، ما تقول فيما نحن فيه؟ قال: أعفني من هذا. قال سليمان نصيحة تلقيها. قال أبو حازم: إن ناسا أخذوا هذا الأمر عنوة من غير مشاورة المسلمين، ولا إجماع عن رأيهم، فسفكوا فيه الدماء على طلب الدنيا، ثم ارتحلوا عنه، فليت شعرى، ما قالوا؟ وما قيل لهم؟ فقال بعض جلسائهم؟ بئس ما قلت يا." (٢)

---

(١) محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ابن المِبْرَد ٧٠٧/٢

(٢) مختصر منهاج القاصدين المقدسي، نجم الدين ص/١٣٥

"ودخل ابن السماك على الرشيد في عظة. فبكى ثم دعا بماء في قدح فقال: يا أمير المؤمنين، لو منعت هذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها، أكنت تفديها بها، قال: نعم، قال فاشرب ريا، بارك الله فيك. فلما شرب، قال له: يا أمير المؤمنين، أرأيت لو منعت إخراج هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها، أكنت تفتدى ذلك؟ قال: نعم قال فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه!

وهذا يبين أن نعمة الله على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها، ثم تسهيل خروج الحدث من أعظم النعم، وهذه إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة.

اعلم: أن ما من عبد إلا إذا أمعن النظر رأى من نعم الله نعما كثيرة لا يشاركه فيها عموم الناس، بل قد يشاركه في ذلك كثير منهم، من ذلك العقل، فما من عبد إلا وهو راض عن الله سبحانه في عقله، يعتقد أنه أعقل الناس، وقلما يسأل الله العقل، وإذا كان ذلك اعتقاده، فيجب عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك.

ومن ذلك الخلق، فإنه ما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبا يكرهها، وأخلاقا يذمها، ويرى نفسه بريئا منها، فينبغي أن يشكر الله تعالى على ذلك، حيث أحسن خلقه وابتلى غيره.

ومن ذلك أن ما من أحد إلا وهو يعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أركانها ما هو منفرد به، ولو كشف الغطاء عنه حتى أطلع عليه أحد من الخلق لافتضح، فكيف لو اطلع الناس كافة؟ فلم لا يشكر الله بستره الجميل على مساويه، حيث أظهر الجميل وستر القبيح.

ولننزل إلى طبقة أعم من هذا القبيل، فنقول: ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته، أو أخلاقه أو صفاته، أو أهله، أو ولده، أو مسكنه أو بلده، أو رفيقه أو أقاربه، أو جاهه، أو سائر محابه، أمورا، لو سلب ذلك وأعطى ما خصص به من ذلك غيره، لكان لا يرضى به، وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا، وحيا لا جمادا، وإنسانا لا بهيمة، وذكرا لا أنثى، وصحيحا لا مريضا، وسليما لا معيبا، فإن كل هذه خصائص.

فإن كان لا يرى أن يبدل حاله بحال غيره، مثل أن يعرف شخصا يرتضى لنفسه حاله بدلا عن حال نفسه، إما على الجملة، أو في أمر خاص، فإن الله عليه نعما ليست." (١)

"والأنبياء عليهم السلام لم يستغنوا عن الوزراء فكيف الملوك والأمراء وقد نطق القرآن بوزارة هرون لموسى عليه السلام في قوله تعالى (رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيرا من أهلي * هرون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري) ثم قال في نظام الآية الكريمة وعلى نسق الكلام (قد أؤتيت سؤلك يا موسى) فدل على أنه جعله وزيره وصاحب سره وشريكه وافصح عن حسن موقع الوزارة وجلالتها ووقوع الحاجة إليها وكان آصف بن برخيا وزير سليمان بن داود عليهما السلام والمستولى على أموره وكان نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول أن وزيرين من أهل السماء ووزيرين من أهل الأرض فأما اللذان من أهل السماء فجبريل وميكائيل عليهما السلام وأما اللذان من أهل الأرض فأبو بكر وعمر رضي الله عنه وقال صلى الله عليه وسلم إذا أراد الله بملك خيرا قيض له وزيرا صالحا

---

(١) مختصر منهاج القاصدين المقدسي، نجم الدين ص/٢٨٩

أن أنسى ذكره وأن نوى خيرا أعانه أو أراد شراكفه وكان انوشر وان يقول لا يستغنى أعلم الملوك عن الوزير ولا أجد السيوف عن الصقال ولا أكرم الدواب عن السوط ولا أعقل النساء عن الزوج.

فصل فيما ينبغي للوزير أن يأتيه: اعلم أن الملوك لا يشبهون الآدميين إلا بالصور فأما بالطباع والأخلاق والهمم فلا لأنهم لا يشاكلونهم ولا يشابهونهم والملك وإن كان كريما سخيا بعيد الهمة كثير المحاسن فإنه لا يخلو ولا يشابهونهم والملك وإن كان كريما سخيا بعيد الهمة كثير المحاسن فإنه لا يخلو قط من أربع خصال الحسد والحقد والملال والحرص على المال فينبغي أن يكون الوزير أعقل الناس وأحزمهم وأدهاهم وأبعد غورا فيجب عليه أن يداري أأخلاق الملك كما يداري السباح الماء المغرق والولدان أولادهم الصغار والحاوى الحية ويتحفظ من غائلته كما يتحفظ من السبع والنار القوية والمجنون الذي بيد السيف المسلول ويجب أن لا يملك ما يصلح للملك من الأعلاق النفسية إلا ما في نفسه إن يهديه إليه ويخدمه به وينبغي له أن يظهر ويشيع جميع ما يملكه وتحويه يده للملك وأنه إنما يمسكه ويحفظه من أجله ويجب عليه إن لا يسرف في الإهداء ولا يتخرق في بذل ما في يده وكما لا يشيع النار من الحطب لا يشيع الملك من الأموال ولا بد للوزير من الاستظهار بالذخائر الخفية وقد قال الحكيم لوزير كان يستكثر من اعتقال الضياع ويغالي به عليك بحفظ الدنانير التي تشتري بها روحك من الملك فربما فعل ألف دينار ما لا تفعله ضياع ومستغل بمائتي ألف.

ومن نكن هذا الكتاب أن الملك يريد كل حسن وطيب لنفسه ويستأثر به على والده وولده ولذلك يقال من ملك استأثر وكان معاوية يقول وددت لو أن الدنيا في بيضة نيمرشت فأحسوها حسوة واحدة لا يشكني فيها أحد، ودعا الفضل بن مروان المعتصم إلى داره واحتفل واحتشد في إحسان الدعوة فلما حضر المعتصم ورأى مروءته وتجمله عمل فيه الحسد عمله فانقبض ورئى في عينه ولم ينشط لطعام ولا شراب وزعم أنه يشتكي بطنه ففطن الفضل لما دهاه وأراد أن يوهم أن تلك الآلات مستعارة من دار أمير المؤمنين ليطفئ نار حسده فتقدم إليه وقال يا أمير المؤمنين إنما استعرت أكثر هذه الأشياء من دار أمير المؤمنين وقد أرهقني الخزانون والفراشون باسترجاعها فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بامهالى في ردها فعلت فضحك المعتصم وقال قل لهم لا يسترجعونها اليوم ثم نشط للطعام والشراب، ومما ورد في تجنبها قال المأمون لأحمد بن أبي خالد هل لك في أن أستوزرك فقال دعني يا أمير المؤمنين يكون بيني وبين الغاية درجة يرجوها الصديق ويخافها العدو فلست أريد البلوغ النهاية لئلا يقول عدوى قد بلغها وليس إلا الانحطاط، وكان ابراهيم بن المدبر إذا أعرضت عليه الوزارة أنشد قول العتابي:

يلوم على ترك الغنى بأهلية ... طوى الدهر عنا كل طرف وتالد

رأت حولها النسوان يرفلن كالدما ... مقلدة أجيادها بالقلائد

يسرك أن قد نلت ما نال جعفر ... من الملك أو ما نال يحيى بن خالد

وأن أمير المؤمنين أغصني ... بغصتها بالمرهفات البوادر

ذريني تجتبيني منيتي مطمئنة ... ولم أتجشم هول تلك الموارد

وأن عليات الأمور مشوبة ... بمستودعات في بطون الأساود." (١)

"ومنهم:

١٠- محمد بن سماك العاملي

يكنى أبا عبد الله جليل القدر شريف النسب ولي قضاء مالقة وكان له بها عقب ثم انتقل إلى غرناطة وعقبه بها في شرف ونباهة إلى الآن وبمالقة بعض عقبه وكان قديما من أهل مالقة وبها كان أسلافه ثم وقعت بينه وبين حسون منازعة فخرج بسببهم فارا إلى غرناطة ثم سار إلى مراكش في أول أمر الموحدين فسكن بها ومنها ولي قضاء مالقة ومنهم:

١١- محمد بن غالب الرصافي

أبو عبد الله فحل الشعراء ورئيس الأدباء أصله من بلنسية واستوطن مالقة واتخذها دار إقامة إلى أن توفي بها رحمه الله يوم الثلاثاء التاسع عشر لشهر رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة.

وكان رحمه الله ساكنا وقورا ذا سمت وعقل وكان رفاء يعمل بيده ويقصده رؤساء الكتاب والشعراء يأخذون عنه ويسمعون منه. وحدثني الفقيه أبو عمرو بن سالم رحمه الله ومن خطه نقلت قال حدثني الوزير الحسيب أبو الحسين شاكر ابن الفقيه الأديب أبي عبد الله بن الفخار المالقي رحمه الله قال: ما رأيت في عمري رجلا أحسن سمتا وأطول صمتا من أبي عبد الله الرصافي

وحدثني صاحبنا الفقيه أبو عبد الله بن عمار الكاتب بمحضر الأديب أبي علي بن كسرى قال كان الفقيه أبو عبد الله الرصافي من أعقل الناس وكان رفاء فما سمع له أحد من جيرانه كلمة في أحد وكان بإزائه أبو جعفر البلنسي وكان رحمه." (٢)

"الله متوقد الخاطر فربما تكلم مع أحد التجار منه هفوة فيقول له: شتان بينك وبين أبي عبد الله في العقل والصمت وربما طالبه بأشياء ليجاوبه عليها فما يزيد على الضحك فلما كان في أحد الأيام جاء ليفتح دكانه فتعمد أن ألقى الغلق من يده فوقعت على رأس أبي عبد الله وهو مقبل على شغله فسال دمه فما زاد على أن قام ومسح الدم ثم ربط رأسه وعاد إلى شغله فلما رأى ذلك منه أبو جعفر المذكور ترامى عليه وجعل يقبل يديه ويقول والله ما سمعت برجل أصبر ولا أعقل منك والله لقد تعمدت ذلك وهو يضحك ويقول بارك الله فيك وغفر لك.

قال أبو عمرو رحمه الله: لقيت الفقيه أبا عبد الله الرصافي رحمه الله غير مرة وكان صاحبا لأبي وكان له موضع يخرج إليه في فصل العصير فكنت أجتاز عليه في أكثر الأيام مع أبي رضي الله عنه فألثم يده فربما قبل رأسي ودعا لي. وكان أبي يسأله

---

(١) مطالع البدور ومنازل السرور الغزولي ص/٢٠٠

(٢) مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار ابن خميس ص/٩٣

الدعاء فيخجل ويقول: أنا والله أحقر من ذلك وكان من أعقل الناس وأحسنهم خلقا وخلقا وكان رحمه الله أديبا بليغا متصرفا وشعره مجموع بأيدي الناس حدثني به الفقيه الأديب أبو عمرو عن الأديب أبي علي بن كسرى سماعا من لفظه وقراءة عليه عن أبي عبدا لله بن الرصافي وعن الأستاذ أبي عبد الله بن الحجاري عن أبي عبد الله بن الرصافي وأقيد منه إن شاء الله جملة يتذكر بها إن شاء الله من ذلك قصيدته المشهورة في الخليفة عبد المؤمن بن علي أنشده إياه بجبل الفتح عند إجازته إلى الأندلس وهي مما سمعه أبو علي بن كسرى من لفظه رحمه الله تعالى وهي:

لو جئت نار الهدى من جانب الطور ... قبست ما شئت من علم ومن نور

من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها ... ليلا لسار ولم تشبب لمقرور

فضية القدح من نور النبوة أو ... نور الكرامة تجلو ظلمة الزور

ما زال يقضمها التقوى بموقدها ... صوام هاجرة قوام ديجور

حتى أضاءت من الإيمان عن قبس ... قد كان تحت رماد الكفر مكفور." (١)

"رءوف بالبرية ذو امتنان

أوحده بإخلاص وحمد ... وشكر بالضمير وباللسان

وأفنيت الحياة ولم أصنها ... وزغت إلى البطالة والتواني

وأسأله الرضا عني فإني ... ظلمت النفس في طلب الأماني

إليه أتوب من ذنبي وجهلي ... وإسرافي وخلعي للعنان

١١٢- الاعتبار يهديك إلى الرشاد بإذن الله.

١١٣- الإعجاب ضد الصواب ويمنع الازدياد.

١١٤- مخالفة الأمر توجب سخط الأمر والإصرار على المعصية أعظم.

١١٥- اعص هواك وأطع مولاك تغنم الفلاح.

١١٦- إذا تم عقل المرء قل كلامه إلا بذكر الله وما والاه.

١١٧- إخزن لسانك عن الكلام إلا بذكر الله وتلاوة كتابه وما ورد عن رسوله - صلى الله عليه وسلم -:

عليك بذكر الله في كل ساعة ... فما خاب عبد للمهيمن يذكر

آخر:

---

(١) مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار ابن خميس ص/٩٤

أعد ذكر قال الله قال رسوله ... هما المسك ما كررته يتضوع

١١٨- من صنع إليك معروفا فكافئه فإن لم تجد فادع له للحديث.

١١٩- إذا استشارك أحد المسلمين صديق أو عدو فجرد له النصيحة.

١٢٠- إذا اصطنعت المعروف فاستره.

١٢١- إذا تناهت الشدة قرب الفرج بإذن الله.

١٢٢- أعقل الناس المعظم لله الممتثل لأوامره المجتنب لما نهى عنه.

١٢٣- اغتنم أيام صحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وحياتك قبل موتك.." (١)

"فصل وتحقيق هذا المقام بالكلام في مقامين أحدهما في الأعمال خصوصا

ومراتبها في الحسن والقبح والثاني في الموجودات عموما ومراتبها في الخير والشر أما المقام الأول فالأعمال إما أن تشتمل على مصلحة خالصة أو راجحة واما أن تشتمل على مفسدة خالصة أو راجحة واما أن تستوي مصلحتها ومفسدتها فهذه أقسام خمسة منها أربعة تأت بها الشرائع فتأتي بما مصلحته خالصة أو راجحة آمرة به مقتضية له وما مفسدته خالصة أو راجحة فحكمها فيه النهي عنه وطلب إعدامه فتأتي بتحصيل المصلحة الخالصة ولراجحه أو تكميلهما بحسب الإمكان وتعطيل المفسدة الخالصة أو الراجحة أو تقليلهما بحسب الإمكان فمدار الشرائع والديانات على هذه الأقسام الأربعة وتنازع الناس هنا في مسئلتين

المسئلة الأولى في وجود المصلحة الخالصة والمفسدة الخالصة فمنهم من منعه وقال لا وجود له قال لأن المصلحة هي النعيم واللذة وما يفضي إليه والمفسدة هي العذاب والألم وما يفضي إليه قالوا والمأمور به لا بد أن يقترن به ما يحتاج معه إلى الصبر على نوع من الألم وإن كان فيه لذة سرور وفرح فلا بد من وقوع أذى لكن لما كان هذا مغمورا بالمصلحة لم يلتفت إليه ولم تعطل المصلحة لأجله فترك الخير الكثير الغالب لآجل الشر القليل المغلوب شر كثير قالوا وكذلك الشر المنهي عنه إنما يفعله الإنسان لإن له فيه غرضا ووطرا ما وهذه مصلحة عاجلة له فإذا نهى عنه وتركه فأتت عليه مصلحته ولذته العاجلة وإن كانت مفسدته أعظم من مصلحته بل مصلحته مغمورة جدا في جنب مفسدته كما قال تعالى في الخمر والميسر ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ فالربا والظلم والفواحش والسحر وشرب الخمر وإن كانت شرورا ومفاسد ففيها منفعة ولذة لفاعلها ولذلك يؤثرها ويختارها وإلا فلو تجردت مفسدتها من كل وجه لما أثرها العاقل ولا فعلها أصلا ولما كانت خاصة العقل النظر إلى العواقب والغايات كان أعقل الناس أتركهم لما ترجحت مفسدته في العاقبة وإن كانت فيه لذة ما ومنفعة يسيرة بالنسبة إلى مضرته

ونازعهم آخرون وقالوا القسمة تقتضي إمكان هذين القسمين والوجود يدل على وقوعهما فإن معرفة الله ومحبته والإيمان به خير محض من كل وجه لا مفسدة فيها بوجه ما قالوا ومعلوم أن الجنة خير محض لا شر فيها أصلا وإن النار شر محض لا

---

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار عبد العزيز السلمان ٢/٤٠٦

خير فيه أصلا وإذا كان هذان القسمان موجودان في الآخرة فما المخل بوجودهما في الدنيا قالوا أيضا فالمخلوقات كلها منها ما هو خير محض لا شر فيه أصلا كالأنبياء والملائكة

ومنها هو شر محض لا خير فيه أصلا كإبليس والشياطين ومنها ما هو خير وشر وأحدهما غالب على الآخر فمن الناس من يغلب خيره على شره ومنهم من." (١)

"فاقتسموا المواضع فبلغوا جزيرة فنزلوا لقضاء حاجة وصاحب السفينة ينادي أنا النذير والموت المغير ألا عجلوا عجلوا فقد أزف الرحيل فتفرقوا ثلاثة فرق: فرقة كانوا أعقل الناس تطهروا ورجعوا فوجدوا مكانهم خاليا فجلسوا واستراحوا، وفرقة اشتغلوا بنضارة الجزيرة والنظر الى مزخرفاتها وأعاجيبها من أفانين الطيور والأصوات فلما انصرفوا وجدوها قد امتلأت بالقوم فضاقت عليهم الأرض بما رحبت فجلسوا على التعب الشديد، وفرقة أخرى كانوا أحمق الناس وأجهلهم اشتغلوا بالنضارة والحديث وجمع آلات الجزيرة وأخذها حتى سيقت السفينة ولم يسمعوا نفير صاحبها فبقوا في الجزيرة مقيمين متحيرين حتى هلك بعضهم بالجوع وبعضهم بافتراس السباع، فالفرقة الاولى مثال المؤمنين المتقين، والفرقة المتخلفة مثال الكافرين المتخلفين، والفرقة المتوسطة مثال العاصين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فهذه أمثلة الدنيا ولو طولناها لطالت ولكن خير الكلام ما قل فدل ولم يطل فيمل والله تعالى أعلم.

(الباب الثالث في شدائد الدنيا)

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ارحموا ثلاثة عزيز قوم ذل وغنيا افتقر وعالما تلاعب به الجهال، وتذاكر بعض الصحابة شدائد." (٢)

"وأما قدوم المسيئ فكالعبد الآبق يؤخذ فيشد كتافه، فيؤتى به إلى سيد فظ غليظ، فإن شاء عفا وإن شاء عذب! فبكى سليمان بكاء شديدا، وبكى من حوله.

ثم قال: ليت شعري ما لنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال: اعرض نفسك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله. قال سليمان: يا أبا حازم وأين أصيب تلك المعرفة في كتاب الله؟ قال: عند قوله تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم*وإن الفجار لفي جحيم﴾ .

قال سليمان: يا أبا حازم فأين رحمه الله؟ قال: «إن رحمة الله قريب من المحسنين " قال سليمان: يا أبا حازم: من أعقل الناس؟ قال أبو حازم: أعقل الناس من تعلم العلم والحكمة وعلمها الناس.

قال سليمان: فمن أحمق الناس؟ فقال: من حط في هوى رجل وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره! قال سليمان: فما أسمع الدعاء؟ قال أبو حازم: دعاء المخبتين الخائفين.

فقال سليمان: فما أزكى الصدقة عند الله؟ قال: جهد المقل. قال: فما تقول فيما ابتلينا به؟ قال: اعفنا عن هذا وعن الكلام فيه أصلحك الله. قال سليمان: نصيحة تلقيها. فقال: ما أقول في سلطان استولى عنوة بلا مشورة من المؤمنين ولا

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١٤/٢

(٢) مفيد العلوم ومبيد الهموم الخُوَارِزْمي، أبو بكر ص/٢٥٠

إجتماع من المسلمين، فسفكت فيه الدماء الحرام، وقطعت به الأرحام، وعطلت به الحدود، ونكثت به العهود، وكل ذلك على تنفيذ الطينة، والجمع وماذا يقال لكم!

فقال بعض جلسائه: بئس ما قلت يا أقور!! أمير المؤمنين يستقبل بهذا؟ فقال أبو حازم: أسكت يا كاذب، فإنما أهلك فرعون هامان. وهامان فرعون!." (١)

"تفديها قال: نعم. قال: فاشرب ريا بارك الله فيك فلما شرب قال له يا أمير المؤمنين. أرأيت لو منعت أخراج هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها أكنت تفتدي ذلك قال نعم قال فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه. وهذا يبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة عند العطش أعظم من ملك الأرض ثم تسهيل خروج الحدث من أعظم النعم، وهذه إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة.

ثم اعلم أنه ما من عبد إلا إذا أمعن النظر رأى عليه من نعم الله نعما كثيرة لا يشاركه فيها عموم الناس بل قد يشاركه في ذلك يسير منهم من ذلك العقل فما من عبد إلا وهو راض عن الله سبحانه في عقله يعتقد أنه أعقل الناس وقلما يسأل الله العقل وإذا كان ذلك اعتقاده فيجب عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك.

ومن ذلك الخلق فإنه ما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبا يكرهها وأخلاقا يذمها ويرى نفسه بريئا منها فينبغي أن يشكر الله على ذلك حيث أحسن خلقه وابتلى غيره.

شعرا:

أيا ابن آدم والآلاء سابغة ... ومزنه الجود لا تنفك عن ديم

هل أنت ذاكر ما أوليت من حسن ... وشاكر كل خولت من نعم

براك بارئ هذا الخلق من عدم ... بحت ولولاه لم تخرج من العدم

أنشأك من حمأ ولا حراك به ... فجئت منتصبا تمسي على قدم

مكمل الأدوات آية عجبا ... موفر العقل من حظ ومن فهم

ترى وتسمع كلا قد حبيت به ... فضلا وتنطق بالتبيين والكلم

هداك بالعلم سبل الصالحين له ... وكنت من غمرات الجهل في ظلم

ماذا عليك من نعمة غمرت ... كل الجهات ولم تبرح ولم ترم

غراء كالشمس قد ألقت أشعتها ... حتى ليبصرها عليك كل عمي." (٢)

".. وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شمم

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان ٩٢/٢

(٢) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان ٣٩٢/٣

وكم عسى أن نذكر من فضائل لا تحصى، ومحاسن لا تستقى.

وثانيها: معاداتهم لقراباتهم، وأرحامهم الذين جبلت الطباع على محبتهم، وعلى رجاء الاستنصار لهم بحيث تركوا مناهج آبائهم التي ولع الطبع بإتباعها وعادوا عشيرتهم التي يتقى من كل عدو بمحاماتها ولقوا في الصبر عنهم الحتوف ووقعوا في الدنيا لذلك في أعظم مخوف.

هذا نوح عليه السلام ترك ابنه وفلذة كبده وماء سواد عينه وريحانة فؤاده مع الغرقى وأستغفر من دعائه أن لا يهلك مع الهلكى، وهذا إبراهيم عليه السلام تبرأ من أبيه لما تبين له أنه عدو لله وعزم على ذبح ولده الذي هو قرة عينه ومزنة غيثه وأحب الناس إليه، وأعزهم عليه.

وهذا محمد الذي شهد العدو والصديق بأنه أبر الخلق بعامة أمته دع عنك خاصة رحامته، حتى إن الله عاتبه على كثرة رحمته فقال ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ ترك الثناء على أمه وأبيه والذكر لهما والترحم عليهما، وولع بذكر النجاشي وصلى عليه وأثنى علي سلمان الفارسي وأهدى ثمرات الجميل إليه وأمثالهما ممن لم يلتصق عرقه بعرقه، ولم يلتحم نجره بنجره.

وقد أجمع الأصدقاء والأعداء والكفرة والبررة على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا أعقل الناس، وأوقر الخلق، أما المسلمون فعقائدهم فيها ظاهرة، وأما الكفار فيقولون إنهم بحسن تدبيرهم ولطف دهائهم شرعوا شرائع وإستمالوا خلائق، ودان لهم من الناس عوالم.

فكيف ترى هؤلاء العقلاء الحذاق يعادون أرحامهم ويصادقون من لم تتصل وشيجة نسب بينه وبينهم ويتركون ما في موالاة العشيرة من الأنتصار عند الهضم والسلامة من الظلم، ويتحملون مضار عداوتهم، عوضا من منافع ولا يتهم، لغير غرض يعود عليهم، ولا فائدة ترجع إليهم.

وثالثها: إنهم فقراء مساكين تقتحمهم العيون وتزدريهم القلوب ولا يغلب في ظن عاقل ولا فراس حاذق، أن من الفقر صفته والنزاع لجميع من في العالم طلبته يساعد على إثارة الفتن وتهييج الحروب بين البشر، ولا يبلغ إلى أمل، ولا يزكو له عمل.." (١)

"قال: يا أبا حازم وأني أصيب تلك المعرفة من كتاب الله قال عند قوله تعالى ﴿إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم﴾ .

قال: يا أبا حازم فأين رحمة الله، قال: قريب من المحسنين.

قال: يا أبا حازم من أعقل الناس؟ قال: من تعلم الحكمة وعلمها الناس.

قال: فمن أحمق الناس؟ قال: من حط نفسه في هوى رجل وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره.

قال: فما أسمع الدعاء؟ قال: دعاء المخبتين. قال: فما أزكا الصدقة؟ قال: جهد المقل.

قال: يا أبا حازم ما تقول فيما نحن فيه. قال: أعفني من هذا. قال سليمان: نصيحة تلقيها.

قال أبو حازم: إن ناسا أخذوا هذا الأمر عنوة من غير مشاورة المسلمين ولا إجماع من رأيهم فسفكوا فيها الدماء على

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان ٦/٥٩٨

طلب الدنيا ثم ارتحلوا عنها فليت شعري ما قالوا وما قيل لهم.

فقال بعض جلسائهم: بئس ما قلت يا شيخ.

فقال أبو حازم: كذبت إن الله أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

قال سليمان: يا أبا حازم اصحبنا تصب منا ونصب منك قال: أعوذ بالله من ذلك. قال: ولم. قال: أخاف أن أركن إليكم شيئا قليلا فيذيقني ضعف الحياة وضعف الممات.." (١)

"وتوجه كرجى وطغجى إلى منكوتمر بدار النيابة من قلعة الجبل، ودقا عليه الباب، وقالا له: السلطان يطلبك؛ فأنكر مجيئهما، وقال لهما: قتلتماه؟ ﴿. فقال كرجى: نعم يا مأبون، وجئنا لنقتلك؛ فاستجار منكوتمر بطغجى؛ فأجاره.

ثم وقع أمور آلت إلى قتله في الليلة المذكورة؛ لأنهم قالوا: نحن ما قتلنا أستاذه إلا من أجله؛ فكيف نبقيه؟﴾ .

ثم نهبوا دار منكوتمر في الحال. واتفقوا على إعادة الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى ملكه، وتحالفوا على ذلك، وأرسلوا لإحضاره سلار الصغير.

وعمل طغجى نيابة السلطنة أربعة أيام. فلما حضر الأمير عبد الله أمير سلاح من غزوة الشام قتل كرجى وطغجى وغيرهما - حسبما ذكرناه في [تاريخنا] ((النجوم الزاهرة)) ، وأيضا في ((المنهل الصافي)) -.

ثم أرسلوا في مجئ [الملك] الناصر ثانيا، إلى أن حضر من الكرك، وتسلطن ثاني مرة - حسبما يأتي ذكره -.

وقتل الملك المنصور لاجين وهو في عشر الخمسين أو جاوزها، وكانت مدة أيامه في السلطنة سنتين وثلاثة أشهر. وكان المنصور من أعقل الناس [وأحسنهم] ، وأحشمهم، وأشجعهم، وهو الذي عمر الجامع الطولوني - خارج القاهرة - بعدما كان أشرف على الخراب، وأوقف عليه هذه الأوقاف الجليلة، وهو الذي راك الديار المصرية - ((الروك الحسامي)) - وهو الذي أبطل الثلج الذي كان ينقل من الشام إلى مصر في البحر.." (٢)

"عليه السلام وقال عبد الله: سمعت أبي يقول: عمر بن علي المقدمي، رجل صالح عفيف مسلم، رجل عاقل، وكان به من العقل أمر عجب، ثم قال أبي: جاء عمر إلى معاذ بن معاذ فأدى إليه مئتي ألف درهم، أو مئة ألف درهم، وكان عمر من أعقل الناس. «العلل» (٤٥٢٤) .

عليه السلام وقال أبو طالب: قال أحمد، يعني ابن حنبل: عمر المقدمي، ثقة. «الجرح والتعديل» ٦/ (٦٧٨) .

عليه السلام وقال الآجري: سمعت أبا داود يقول: بلغني عن أحمد قال: ما أعياني أحد في التدليس ما أعياني عمر بن علي المقدمي يقول لي اكتب حديثا، وكان عاقلا. «سؤالات الآجري» ٤/ الورقة ٥.

عليه السلام عليه السلام عليه السلام." (٣)

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان ٧٣٠/٦

(٢) مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة ابن تغري بردي ٥٤/٢

(٣) موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلله محمود محمد خليل ٨٣/٣

"لا أحب أن تقبل رأسي، ولكن لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: انظر في هذه المرآة، كيف تبصر وجهك من الفرح ناضرا مشرقا؟ فأحب أن يكون وجهك إذا سألتك رد ما قبضت مثلما هو الساعة. أحب الرشيد أن ينظر إلى أبي شعيب القلال كيف يعمل القلال، فأدخلوه القصر وأتوه بجمع ما يحتاج إليه من آلة العمل، فبينا هو يعمل إذ هو بالرشيد قائما فوق رأسه، فلما رآه نهض قائما. فقال له الرشيد: دونك ما دعيت له، فإني لم آت بك لتقوم لي، وإنما أتيت بك لتعمل بين يدي. قال: وأنا لم آتك ليسوء أدبي، وإنما أتيتك لأزداد بك في كثرة صوابي. قال له الرشيد: بلغني أنك إنما تعوضت بي حين كسدت صنعتك. فقال أبو شعيب: يا سيد الناس، ما كساد عملي في جلال وجهك؟ فضحك الرشيد حتى غطى وجهه. ثم قال: ما رأيت - والله - أنطق منه أولا، ولا أعيا آخرا. ينبغي أن يكونر هذا أعقل الناس أو أجن الناس. هاج بأبي علقمة الدم، فأتوه بحجام يحجمه، فقال له: أنق غسل المحاجم، واشدد قصب الملازم، وأرهف ظبات المشارط، وأسرع الوضع، وعجل النزع، وليكن شرطك وخزا، ومصك نهزا، ولا تكرهن أبيا، ولا تردن أتيا. فوضع الحجام محاجمه في جونته وقال: اسقوا هذا شربة، فإنه إلى الدواء أحوج منه إلى الحجامة. قال بعضهم: رأيت بمكة زنجيا قد خرج من كنيف يكنسه، وعل عنقه حرة، وفي رجله لبنة، وهو يقول: جنباني ديار هند وسعدى ... لم أكن راضيا بدار هوان قال: فقلت: ويحك! وأي هوان أعظم مما أنت فيه؟ فقال: تنح عني، ولا تقذرني. قال بعضهم: رأيت سماكا بين يديه حرى منتن، وهو يقول: من يشتري الشنة جزافا؟ .." (١)

"الناس عبد الأحمد تأدبا لاسم النبي صلى الله عليه وسلم ويدل على ذلك أن الشيخ عبد الأحمد كان يكتب اسمه أحمد بدون تلك النسبة، انتهى.

مات لسبع عشرة خلون من جمادي الآخرة سنة خمس وعشرين ومائتين وألف، كما في الحديقة.

مولانا عبد العلى اللكهنوي

الشيخ الفاضل عبد الأعلى بن عبد العلي بن نظام الدين بن قطب الدين الأنصاري السهالوي اللكهنوي أحد العلماء المشهورين، ولد ونشأ ببلدة لكهنؤ وقرأ العلم على والده ولازمه ملازمة طويلة ثم سافر إلى كلكته وتقرب إلى الولاة وأقام بها زمانا ولكنه لم ينل ما كان يؤمله فرجع إلى لكهنؤ ولبث بها مدة ثم ذهب إلى كلكته، فلما خابت مساعيه مرة ثانية ذهب إلى مدراس عند والده وابتلى بمرض هناك فرجع إلى لكهنؤ ومات في أثناء السفر، وكان والده يمنعه عن ذلك السفر الطويل نظرا إلى شدة مرضه، كما في الأغصان الأربعة.

قال عبد الباري في آثار الأول: إنه صنف كتبا كثيرة لا تخلو عن فوائد منها: شرح الفقه الأكبر وطال لسانه في حق سيدنا معاوية رضي الله عنه ومنها رسالة في التاريخ سماها رسالة قطبيه ومنها شرح المناقب الرزاقية لجده وله رسالة في الأوراد، انتهى.

وإني ظفرت برسالتيه شرح المناقب الرزاقية وقد أطال الكلام فيه أيضا على معاوية بن أبي سفيان

(١) نثر الدر في المحاضرات الآبي ١٧٣/٧

رضي الله عنه، ورساله قطبيه في أخبار جده الشيخ قطب الدين بن عبد الحليم السهالوي وأبنائه وفيها فوائد كثيرة، تخلو عنها الأغصان الأربعة وغيرها

ومن فوائده

من رساله قطبيه أنه قال: إن العلم على نوعين نقلي وعقلي، والنقلي على سبعة أنواع: لغة وصرف ونحو وبلاغة ومناظرة وأصول وفقه، والفقه ثلاثة فنون: العقائد والأحكام والأخلاق، ولكل منها كتب على حدة، فصارت العلوم النقلية تسعة أنواع يجب تحصيلها وبعد ذلك يستحب له أن يشتغل بعلم الوحي وهو القرآن والحديث، ولها أربعة فنون أخر ينبغي تحصيلها: القراءة والتاريخ وأحكام الناسخ والمنسوخ وأقسام أصول الحديث، وبهذا الاعتبار صارت العلوم النقلية أربعة عشر نوعا، فمن يجمع هذه العلوم بتحقيق وتدقيق فهو مجتهد، لأن الإجتهاد باق إلى الآن غير ماض كما زعم بعض الحمقى، وكيف يقصر على السلف فإن المهدي يكون أفضل المجتهدين في زمانه وكذلك عيسى عليه السلام ولأن الفيوض النبوية – صلى الله على صاحبها وسلم – غير مقصورة على زمان دون زمان، وأما العلوم العقلية فهي أيضا على سبعة أنواع: الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات والنجوم والتكسير والرياضي، أما الرياضيات فهي أربعة فنون: الحساب والهندسة والهيئة والموسيقى، ولكل منها كتب على حدة فصارت العلوم العقلية عشرة أنواع، من يجمعها بتحقيق وتدقيق فهو حكيم، ومن يجمع هذه الأنواع كلها عقليا كان أو نقليا فهو أعقل الناس وأشرفهم.

وقال في تلك الرسالة:

إن لكل من العلماء في التدريس طريقة على حدة مختلفة على حسب تفاوت الزمان والاستعداد، قال: كان الشيخ قطب الدين الشهيد السهالوي يدرس كتابا واحدا من كل فن بتحقيق وتدقيق فيتخرج عليه العلماء المحققون، والشيخ نظام الدين كان يدرس كتابين من كل فن لكل من الطلبة إلا الأذكياء منهم فإنه كان يدرسهم كتابا واحدا، وأما ولده عبد العلي فهو يدرس لبعضهم كتابا واحدا من كل فن ولبعضهم كتابين ولبعضهم ثلاثة كتب على تفاوت الاستعداد، قال: وإني اخترت طريقة مرضية في التدريس وهي أن يدرس الطلبة في صغر سنهم قبل بلوغهم إلى حد الحلم فإن حافظتهم في هذا الزمان تكون أجود فينبغي أن يدرسهم في اللغة: نصاب الصبيان ونصاب الملحقات ونصاب المثلث ونصاب البديع ونصاب الإخوان ونصاب تجنيس اللغات وفي الصرف: الميزان والمنشعب والزبدة وصرف مير والتصريف من بنج كنج ودستور المبتدئ وفصول أكبري وفي النحو: نحو مير والمائة والجمل والتتمة والضريري والمصباح وهداية النحو ثم يدرسهم كتابين أحدهما من." (١)

---

(١) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر = الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام عبد الحي الحسني ٩٩٧/٧

"عبد الرحمن بمن نصب له الحرب في ذلك، وقتل منهم آلافا، وذلك في مدة المنصور كما سيأتي إن شاء الله تعالى عند ذكر عبد الرحمن الداخل في موضع آخر، وسنذكر قريبا ولاة الأندلس من حين الفتح إلى إمارة الداخل، وإن سبق في كلام ابن خلدون.

[مزيد بيان في نهاية موسى وشيء من شخصيته]

وقال بعضهم: كانت ولادة موسى بن نصير في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة تسع عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأجل السلام، وعلى آله وصحبه أجمعين، انتهى.

وقال الحجاري في المسهب: يحكى أن موسى بن نصير ألقى بنفسه على يزيد بن المهلب لمكانه من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك، وطلب منه أن يكلمه في أن يخفف عنه؛ فقال له يزيد: أريد أن أسألك فأصغ إلي؛ قال: سل عما بدا لك، فقال له: لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس، وأعرفهم بمكايد الحروب ومداراة الدنيا، فقل لي: كيف حصلت في يد هذا الرجل بعدما ملكت الأندلس، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار، وتيقنت بعد المرام واستصعابه، واستخلصت بلادا أنت افترعتها (١) ، واستملكت رجالا لا يعرفون غير خيرك وشرك، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعقل والرجال ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك، ثم إنك علمت أن سليمان ولي عهد، وأنه المولى بعد أخيه، وقد أشرف أخوه على الهلاك لا محالة، وبعد ذلك خالفته، وألقيت بيدك إلى التهلكة، وأحقدت مالكك ومملوكك - قال: يعني سليمان وطارقا - وما رضى هذا الرجل عنك إلا بعيد، ولكن لا آلو جهدا، فقال موسى: يا ابن الكرام، ليس هذا وقت

---

(١) ك: اخترعتها.." (١)

"ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي، والنكث، والمكر.

ذل قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة.

احرص على الموت توهب لك الحياة؛ قاله لخالد بن الوليد حين بعثه إلى أهل الردة.

كثير القول ينسى بعضه بعضا. وإنما لك ما وعى عنك.

لا تكتم المستشار خبرا فتؤتى من قبل نفسك.

خير الخصلتين لك أبغضهما إليك.

صنائع المعروف تقى مصارع السوء.

ومن كلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه

من كتم سره كان الخيار في يده.

أشقى الولاة من شقيت به رعيته.

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمساني ٢٨٣/١

اتقوا من تبغضه قلوبكم.

أعقل الناس أعذرهم للناس.

اجعلوا الرأس رأسين.

أخيفوا الهوام قبل أن تخيفكم.

لو أن الشكر والصبر بعيران لما بنيت أيهما ركبت.

من لم يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه.

ما الخمر صرفا بأذهب للعقول من الطبع.

إلى الله أشكو ضعف الأمين وحبنة القوى.

اقتصاد في سنة خير من اجتهد في بدعة.

لا يكن حبك كلفا، ولا بغضك تلقا.." (١)

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٣/٥